

مقالات الشيخ رشيد رضا السياسية

إعداد وتحقيق

الدكتور يوسف حسين إيش الدكتور يوسف قزماخوري

المجلد الأول



٥١١
٥٢٠٠
مقالات

الشيخ رشيد رضا السياسية

إعداد وتحقيق

الدكتور يوسف حسين أبش الدكتور يوسف قزماخوري

المحزء الأول



الطبعة الاولى ١٩٩٤
جميع الحقوق محفوظة للناسر

دار ابن عَرَبِيَّ

ص.ب : ٩٤٩٤ / ١١
بيروت - لبنان

المحتويات

تصدير	٥
١- مجمل الأحوال السياسية	١٧
٢- مجمل الأحوال السياسية	١٨
٣- اليهود في فرنسا	٢٠
٤- خبر واعتبار [هجرة اليهود إلى فلسطين]	٢٢
٥- صيحة حق [نصيحة العثمانيين والوطنية]	٢٥
٦- من نحالف [دول أوروبا ومحالفاتها]	٣٣
٧- [المسلمون أسباب سعادتهم وشقائهم]	٣٦
٨- [إضلال الرؤساء للأمة]	٤٣
٩- الإصلاح المطلوب [أركان الإصلاح للدولة]	٧٩
١٠- الاشتراكية والدين	٩٠
١١- الجنسية والدين الإسلامي	٩٤
١٢- الجامعة الإسلامية وآراء كتّاب الجرائد منها	١٠٠
١٣- الدين والدولة - أو - الخلافة والسلطنة	١٠٨
١٤- تحريف الكلم عن مواضعه	١١٥

- ١٢١ (بريطانيا العظمى والترانسفال الصغرى)
- ١٢٦ - ذكرى لرؤساء الأمة ١٢٦
- ١٧ - الفرصتان [الفرصة العلمية الدينية
والفرصة السياسية الإدارية] ١٢٩
- ١٨ - طفولية الأمة وما فيها من الحيرة والغمة ١٣٤
- ١٩ - الحيرة والغمة ومناشئها في الأمة ١٣٧
- ٢٠ - الوحدة العربية ١٤٢
- ٢١ - فرنسا والإسلام ١٤٥
- ٢٢ - الترك والعرب
- [التفاضل بينهما - الجامعة الإسلامية] ١٥١
- ٢٣ - الحركة الإسلامية الحاضرة
(الرابطه الملية والرابطه الوطنية) ١٥٩
- ٢٤ - أوروبا والإصلاح الإسلامي ١٦٢
- ٢٥ - هانوتو والإصلاح الإسلامي ١٦٦
- ٢٦ - الرجال أم المال [الإصلاح الذي تحتاجه الأمة] ١٧٣
- ٢٧ - التقليد والوحدة الإسلامية في السياسة والقضاء ١٧٨
- ٢٨ - منشورات المفسدين في مصر ١٩١
- ٢٩ - حياة أمة بعد موتها
- [جمعية اليهود الصهيونية] ١٩٢
- ٣٠ - اصلاح الدولة العلية
- [تغيير عاصمة السلطنة] ١٩٩
- ٣١ - فرنسا والإسلام
- [سيرة فرنسا في أفريقيا خرقاء] ٢٠٤
- ٣٢ - الوفاق الإسلامي الإنكليزي ٢٠٩

٣٣ - باب ردّ الشبهات عن الإسلام -

السلطان الدينية والمدنية ٢١٦

٣٤ - الدولة العلية ومكدونية ٢٣٢

٣٥ - اليهود والماسونية .

وحدث الوطنية [مصطفى كامل] ٢٣٥

٣٦ - الدولة العلية ومكدونية . ورأي في الإصلاح ٢٤٢

٣٧ - دعوى الخلافة ٢٤٩

٣٨ - الخلافة - أو الترك والعرب ٢٥٥

٣٩ - رأي في سلب الأمن في الحجاز ٢٦١

٤٠ - استقلال الحكومة باستقلال الأمة ٢٦٧

٤١ - مراكش والإصلاح - وحال المسلمين ٢٦٨

٤٢ - حياة الأمم وموتها ٢٧٢

٤٣ - تنازع الدول في جزيرة العرب ٢٧٧

٤٤ - انطفاء فتنة نجد واستقرار الأمر في آل سعود ٢٧٨

٤٥ - كتاب المشير أحمد فيضي باشا إلى عنيزة ٢٧٩

٤٦ - أنباء سورية المزعجة - الدولة والرعية ٢٨٣

٤٧ - الثورة في روسيا ٢٨٧

٤٨ - دعوة اليابان إلى الإسلام -

خواطر وآراء ٢٨٨

٤٩ - مسألة مكدونية: أوروبا وتركيا - أو الدين والسياسة ٢٩٧

٥٠ - روابط الجنسية والحياة المالية وفلسفة الاجتماع البشري ٣٠٤

٥١ - الحياة المالية بالتربية الاجتماعية ٣١٣

٥٢ - الحق والباطل والقوة

[استيلاء أوروبا على المسلمين] ٣٢٤

٥٣ - تطور الأمم وانتقالها من حال إلى حال

[أطوار الأمة الإسلامية] ٣٤٠

٥٤ - العبرة في كلام اللورد كرومر

[الإصلاح الذي لا يضر بالمستعمرين] ٣٥٣

٥٥ - حال المسلمين في العالمين ٣٦٢

٥٦ - هدى السلف الصالحين في نصيحة السلاطين ٣٧٢

٥٧ - التعصب وأوروبا والإسلام ٣٩٥

٥٨ - سنن الاجتماع في الحاكمين

والمحكومين لهم جزائهم ٤٠٨

٥٩ - منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق ٤١٣

٦٠ - الجامعة الإسلامية ٤٣٢

٦١ - رسالة صاحب المنار إلى اللورد كرومر ٤٤٨

٦٢ - سياسة إيطاليا ومطامعها في بلاد المسلمين ٤٥٣

٦٣ - أوروبا والإسلام ٤٥٥

٦٤ - فاتحة السنة الحادية عشرة ٤٥٨

٦٥ - اليمن: سبب فتنها وإمام الزيدية فيها ٤٦٣

٦٦ - المسلمون والقبط

[حقيقة الوطنية وطبيعة الحكومة المصرية] ٤٧٠

٦٧ - عبر الأمة العثمانية بنعمة الدستور والحرية ٤٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ولد الشيخ رشيد رضا في العام ١٨٦٥م. في بلدة القلمون على شاطئ البحر قرب طرابلس الشام، من بيت يعتز بنسبه وحسبه وعلمه وجاهه، فأسرة رضا كانت من السادات الأشراف، توارث أبناؤها في ما بينهم خلفاً عن سلف الإرشاد والرئاسة في تلك البلدة، حيث يتبرك الناس بأفرادها ويتخذونهم المثل الأعلى للطهر والفضيلة. ويقول الشيخ رشيد في مذكراته: «وإني منذ دخلت سن التمييز أرى في دارنا وجهاء النصارى من طرابلس ولبنان، بل أرى فيها القسوس والرهبان، ولا سيما في أيام الأعياد، وأرى الوالد رحمه الله تعالى يجاملهم كما يجامل من يزوره من الحكام ووجهاء المسلمين، ويذكر ما يُعرف من محاسنهم في غيبتهم بكل انصاف. قد كان من أسباب دعوتي إلى التساهل والوفاق وتعاون جميع أهالي البلاد على ما يرقى البلاد...». وهكذا فطر على الميل إلى الحق وحب الخير، والاستجابة للتربية الصالحة.

تعلم كما كان يتعلم ناشئة زمانه، قراءة القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب في كتاب بلدة قلمون، ثم انتقل بعد ذلك إلى المدرسة الرشيدية في طرابلس، وكانت هذه المدرسة تعنى بالنحو والصرف والحساب ومبادئ

الجغرافيا وعلم العقائد والعبادات، وكانت الدروس تُلقى فيها بالعربية والتركية لأنها تعد خريجيها للوظائف الحكومية.

التحق الشيخ رشيد رضا بعد ذلك بالمدرسة الوطنية في طرابلس سنة ١٨٨٢م. وتعلم على يد الشيخ حسين الجسر أحد علماء البلاد الأفاضل وصاحب الفضل الأول في توجيهه الى المعارف والعلوم العصرية. وأجازه في الحديث الشيخ محمود نشابة، وهو من كبار علماء طرابلس، وقرأ كتاب نيل الأوطار للشوكاني على الشيخ عبد الغني الرافعي، كما أنه حاول أن يسلك طريق الصوفية على يد الشيخ أبو المحاسن محمد القاوقجي، ومن الواضح انه تأثر عن طريق الشوكاني بالحركة الوهابية وتعرّف من خلالها على ابن تيمية والحنابلة.

العروة الوثقى:

شبّ الشيخ رشيد فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو، وتعرّف على الحركة الاصلاحية الكبرى التي تولى زعامتها الامام محمد عبده ومن ورائه السيد جمال الدين الأفغاني. ووضحت العروة الوثقى للشيخ رشيد ما كان يظن الى معرفته من اسباب الفساد وانحلال المجتمع التقليدي ورضوخه لغزوة اوروبا الاستعمارية ورسخت له منهج الاصلاح بخطوطه العريضة، وقال الشيخ رشيد في مذكراته عن هذا التطور في حياته: «فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي، وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط، بل هو دين روحاني جسماني، أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل. فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب ارشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم مباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة».

موقعة بين الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني :

فتحت العروة الوثقى أمام الشيخ رشيد آفاقاً جديدة لم يكن يحلم بها فنقلته من أفقه المحلي الضيق في القلمون ودفعته على طريق الدعوة إلى إصلاح العروبة والإسلام ومقاومة المد الأوروبي المتضخم باستمرار. أحس الشيخ رشيد بأن موطنه في بلاد الشام لم يعد ملائماً لجهاده، ذلك أن شرطة السلطان عبد الحميد كانت تطارد الرجال المتحمسين للعروبة، لذا أخذ الأحرار في البلاد الشامية بالهجرة إلى مصر يتابعون منها نشاطهم. فركب البحر حتى رست به الباخرة في الاسكندرية يوم ٣ يناير في العام ١٨٩٨ وسافر منها إلى القاهرة ثم اتصل بالشيخ محمد عبده، ووصف الشيخ رشيد هذا اللقاء قائلاً: «فلما بلغنا دار الشيخ محمد عبده أرسلت إليه بطاقة الزيارة، فما لبث أن نزل وهي بيده، ووفق بعد السلام يسألني عن أصحابه في طرابلس.. ثم قلت له إن غرضي من الهجرة إلى مصر تلقي الحكمة عنه، وإنني أعتقد بأنه بقية رجاء المسلمين». وهكذا بدأت صداقة حميمة بينهما وصفها الشيخ رشيد في كتابه: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر في عصره. واعتبر نفسه الابن الروحي له وحامل لوائه.

ويقول الأمير شكيب أرسلان: «أخذ السيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأخذ محمد عبده عن فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغاني فكانت روح كل من الاثنين من روح استاذة..» ولكن الواقع يشير إلى عكس ذلك تماماً. فالأفغاني كان مقصده العمل السياسي على إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها، وإصلاحها عن طريق تنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الأمم العزيزة، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيف أمجاده. وبرنامج السيد جمال الدين كان في الدرجة الأولى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وتجميع القوة العسكرية الإسلامية لتقليص ظل الاستعمار الأوروبي عن الديار الشرقية، شارك الشيخ محمد عبده في

هذا البرنامج لفترة قصيرة عندما كان في منفاه وعلى صفحات جريدة العروة الوثقى. ماتت جريدة العروة الوثقى، وعاد الشيخ محمد عبده الى مصر وصار عضواً في مجلس إدارة الأزهر وأطلق برنامجه لإصلاح الأزهر من الداخل، وكان في مصر رأيان: رأي يقول إنه لا مجال للإصلاح الجذري إلا بزوال الاحتلال الإنكليزي أولاً، ورأي يرى أن الإصلاح الداخلي هو في النهاية وسيلة الجلاء. وعلى الرأي الثاني كان الشيخ محمد عبده معتبراً إصلاح الأزهر أعظم خدمة تقدم الى الإسلام. وكان يظن أن إصلاح أهم معهد علمي إسلامي هو في النتيجة إصلاح لجميع المسلمين فيما فساده فساد لهم. ولكن إصلاح الأزهر، وما أدراك ما إصلاح الأزهر، ويقول أحمد أمين: «ما حاوله أحد من قبل ونجح... والأزهريون كانت تزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدّته ديناً، وكرهت الجديد حتى عدّته كفراً، وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً، وأفنت عمرها في فهم لفظ، وتخرّيج جملة وتساويل خطأ، فلم تر حقائق الدنيا. فإذا أتى مصلح سم أهله الجحور حوله، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة». هاجم الشيخ محمد عبده جمود أساتذة الأزهر في تمسكهم بالعلوم القديمة وخوفهم من التجديد فقال «لولا أن اليأس من روح الله مقصور في كتاب الله على القوم الكافرين لقلنا كيف يُرجى إصلاح حال أمة يعتقد علماؤها بأن الإصلاح محال، وأن العمل على إرجاع مجد الدين عبث وضلال... وأن العلوم العصرية حتى الحساب والتاريخ مضلة للأمة، صادة لهم عن سبيل الحق، مسجلة عليهم الحرمان من السعادة». وكان يرى لهذا الإصلاح شقان أحدهما إداري يتضمن القضاء على الفوضى في مناهج التعليم والإدارة، والآخر تطوير البرنامج القديم وتحريره من الجمود وإدخال العلوم العصرية في صلبه. وكان يعلم بصورة أكيدة أن هذا النوع من الإصلاح لا يتم إلا بالعمل التدريجي الشاق ولا يثمر إلا في الأمد البعيد، وكان حلمه أن يبدأ الإصلاح الأزهري في حياته ليموت قرير العين. أين هذا الطريق من أسلوب جمال الدين الأفغاني في الانغماس في السياسة الدولية وضرب الأمم

بعضها ببعض، وتحريض الناس على الثورة على الحكام، والتخطيط للانقلابات العسكرية والاضغاث الساسفة؟ وروي أن الأفغانف أرسل من الأستانة أحد مراففه لأغتيال الشاه ناصر الدين وأن القاتل عندما سدد طعنته قال: «أأها من فء جمال الدين» أفن كل هذا من برنامج الشفخ محمد عبده لإصلاح الترففة والتعليم فف العالم الإسلامف؟ كف فكون قد «أأأ الشفخ محمد عبده عن الأفغانف فكانت روفه من روح أستاذف»؟

فإذا نحن تساءلنا: هل كان الشفخ رشفء رضا من تلامذة الشفخ محمد عبده؟ قلنا إن الشفخ رشفء رضا لم فقرأ عفله شئاً من العلوم ولم فسفء من برنامجف الإصلاحف ولم فحمل مشعلف بعء وفاته. وفقول الشفخ رشفء إنه صارأ الشفخ محمد عبده بأنه فهءف إلى العمل الإصلاحف عن طرف الصحافة. وأظهر عبده فعجه من ذلك موضحاً أن الجرائء ف مصر كئفة ولا فآحمل البلاد المرفء منها وأن القراء لا ففتمون إلا بأأبار الحكومة والإنكلفز ولا فلففون إلى غير ذلك، وقد قامت به ثلاث جرائء كبرى فف المؤفء والمقطم والأهرام. وأأره من العمل الساسف قائلاً: «أعوذ بالله من الساسفة، ومن لفظ الساسفة ومن معنف الساسفة، ومن كل أرف فلفظ من كلمة الساسفة، ومن آفال فآطر بفالف من الساسفة، ومن كل أرض فذكر ففها الساسفة، ومن ساس فسوس، وسائس ومسوس». ولم فمآل الشفخ رشفء لنصفحة الشفخ محمد عبده، وظل فعآره كأبأاً لآماآه كلما هم بالانطلاق نحو المعترك الساسف. ولما فوفف الشفخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ فآل الشفخ رشفء مفءان الساسفة آهاراً مقففياً أآر السفء آمال الدين الأفغانف. وشرح رضا ساسففة الآففة قائلاً: «بعء وفاة الأستاذ الإمام صرفنا وقت الفراآ والراحة الذي كنا نآالسف فف إلى آآالسة آخواننا العثماففن المقمفن فف القاهرة، فآزءنا علماً بسوء الآال وآطر المال» فشكل لآنة أطلق عفلفا «آمفة الشورى العثمانفة» وفولى رئاسفها. وبءأت هذه الآمفة فرفل منشوراتها السرفة إلى سائر أرجاء البلاد العثمانفة، آآف

أقلقت مضاجع السلطان عبد الحميد وحرضت الناس على العصيان والثورة، فتحققت هواجس ابو الهدى الصيادي الذي اتهم الشيخ رشيد بأنه جاء مصر لينشئ جريدة سياسية للطعن في رجال الدولة ومساندة العنف السياسي! ولا نبالغ إذا قلنا إن الشيخ رشيد ساهم في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد وفي الوقت نفسه عارض «جمعية الاتحاد والترقي» لتعصبها للعرق التركي. على رغم أن موقف الشيخ رشيد كان سلبياً ووطنياً وحرراً غير أن برنامجه بقي سياسياً لا يمت الى برنامج الشيخ محمد عبده بصلة... فكيف يمكن أن تعتبر «روحه من روح أستاذه؟» على حد تعبير الأمير شكيب.

والواقع أن السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا نظر كل منهم إلى أمراض المجتمع من زوايته الخاصة ودعا إلى مداواتها بحسب خطته وبيئته وثقافته ومزاجه وكان قد أبلى بلاء حسناً ولاقى من العناء ما لا يتحملة إلا أولو العزم. والشيخ رشيد كان أكثر ميلاً إلى السيد جمال الدين في عمله السياسي من الشيخ محمد عبده في برنامجه الإصلاحى للتربية والتعليم. وكتب يقول: «لا أتبوأ مجلساً، ولا أفيض في كلام إلا ويكون ذكر جمال الدين فاتحته أو ختامه، أو متخللاً أجزاؤه وأقسامه، وإن لم يكن هو موضع الكلام، حتى عرفت بين المعاشرين بعاشق جمال الدين، وربما دعاني بعض الأصدقاء بالداعي له». وخرج رضا من كل ذلك بقناعة راسخة، وهي أن الإصلاح عن طريق السياسة أدنى وأسرع، وأن الإصلاح عن طريق تطوير برامج التعليم العالي بطيء ومردوده لا يثمر إلا في الأمد الطويل وممالك الإسلام «أمست كالمریض الأحقق يأبى الدواء، ويعافه من حيث إنه دواء» فلا بد من العلاج السريع عن طريق الجهاد السياسي بتجديد الأمة وإحياء التراث.

الشيخ رشيد رضا:

لم يكد يستقر في القاهرة حتى أسس المنار المجلة المنقطعة النظير في

سعة الرواج وبُعد الأثر واستقطاب أهل العلم والرأي على حوار مستمر ومتجدد وصادق في مصارحة النفس ونقد الذات وإنارة الطريق .

وتوضح المقتطفات التالية من مقدمة العدد الأول لمجلة المنار الأغراض التي يسعى إليها الشيخ رشيد رضا إذ يكتب :

«أما بعد، فهذا صوت صارخ بلسان عربي مبين، ونداء حق يقزع من سمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين... أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيد أحلامه، حسبك.. حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتاً زؤوماً. تنبه من رقادك وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض، ودخل الإنسان في طور آخر خضع له به العالم الكبير».

«فهذه الجملادات تتكلم بغير لسان، وتكتب من غير قلم ولا بنان، والوحوش مع الأنعام، المراكب تجوب السهوب والفيافي وتقرع الأعلام، بل طارت في الهواء تسابق الرياح..»

«لا يهولنك ما تسمع ولا يروعنك ما ترى، واعلم أن هذا العصر عصر العلم والعمل، فمن علم وعمل ساد، ومن جهل وكسل باد.. فعليك بالعلم والعمل، إرض بهما نفسك، ورَبَّ عليهما ولدك.. أنشأت هذه الجريدة إجابة لرغبة من تنبّهت نفوسهم لإصلاح الخلل، ومشايعة الساعين في مداواة العلل، فاجبوا أن يعملوا لأمتهم، ويقوموا بخدمة ملتهم، فالجريدة تكون وصلة بينهم وبين أمتهم».

لقد كانت المنار صدى هموم العالم العربي والإسلامي في القضايا المصرية كالتساؤل حول سر تقدم الغرب وتأخر الشرق، وكالثورة على الاحتلال الأجنبي وكإيجاد أجوبة عن متطلبات الحياة العصرية، تؤمن استقلالية الذات العربية من جهة وانتفاءها الخلاق لركب الحضارة الإنسانية الحديثة من جهة ثانية.

لقد رأى الشيخ رشيد أن العثمانيين استغلوا فكرة الوحدة الإسلامية لؤاد نهضة الأمة العربية، وكان يعرف أيضاً الدور العربي في التاريخ الإسلامي. فالنبي كان عربياً؛ والقرآن عربياً، والعرب كانوا «مادة الإسلام» ووسيلته في الانتشار في العالم. وأنه لا نجاة إلا بعودة العرب مرة أخرى لتولي تسيير دفة الأمور في العالم الإسلامي، وبالتالي إزالة سلطان بني عثمان. تبني الشيخ رشيد موقف مواطنه الحلبي السيد عبد الرحمن الكواكبي فأخذ ينشر تباعاً في المنار كتابه أم القرى مما ساعد على ترويج أفكار الكواكبي في أسباب ضعف المسلمين، منها: أسباب عقيدة الجبر وترك السعي والعمل، ومنها الاستبداد السياسي والاستغراق في الجهل واستيلاء اليأس على النفوس.

كان الشيخ رشيد رضا يحمل في شخصه القسط الأوفر من المهمة، فتفسير المنار للقرآن الكريم جاء تحدياً للتقليد، وفتاوى المنار وضعت قواعد للتقدم ورفعت عن الإسلام تهمة التحجر، ورسائل القراء والأجوبة عليها أوجدت عروة وثقى بين المسلمين وبين العرب. كانت الأسئلة ترد من مراکش واندونيسيا ومن مجاهل أفريقيا ومن أواسط آسيا. كانت الأجوبة تبلغ أحياناً من الجودة وذيق الأثر ما بلغه جواب الأمير شكيب ارسلان على سؤال لعالم اندونيسي: «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» وهو الجواب الذي نُشر أولاً في المنار ثم طُبِع كتاباً وتُرجم الى لغات عدة.

ثار على «الحركة الطورانية» وعلى الإجراءات المتعمدة لإضعاف اللغة العربية. ودق في المنار ناقوس الخطر لينبّه الأمة العربية إلى ما يجب عليها القيام به لحماية نفسها أمام التطورات الداخلية والخارجية التي تلبّدت في الأفق. وتمثلت تلك التطورات في زحف الاستعمار الأوروبي على العالم العربي عن طريق «الرجل المريض» في تركيا، واندفاع العالم كله نحو الحرب الكونية الأولى.

كشف الشيخ رشيد رضا عن قدرة نادرة في فهم الأوضاع المحلية والعالمية، وسبق أكثر معاصريه في إدراك الخطر الذي بات يهدد العالم العربي، إذ اعتدت إيطاليا على طرابلس الغرب سنة ١٩١٢، واحتلتها دون تقدير للعثمانيين وبموافقة دول أوروبا وبركتها. فكتب الشيخ رشيد في المنار عشرة مقالات بعنوان «المسألة الشرقية» برهن فيها على فهمه العميق لسياسة الدول الكبرى وخطرها على العالم العربي. وأظهر أمام محاولة الإنكليز في مصر لاستئلاته بعد الضغط الخائق، رباطة جأش نادرة. وحذر الشريف حسين من غدر الإنكليز لأمانى العرب وحثه على الوقوف بالمرصاد لمطامع الاستعمار الأوروبي إذا ما انهارت الدولة العثمانية.

قاوم الشيخ رشيد رضا الاستعمار الفرنسي والإنكليزي في عصبة الأمم وعلى صفحات المنار وفي المؤتمرات والندوات العالمية، فبرز رافع الرأس، ذا الشخصية الفذة المتحدية، والأثر المشع حيثما وجد. وبأسلوبه العنيف الذي اشتهر به انبرى بالدعوة إلى الاستعداد لخطر الصهيونية في فلسطين وسبق معاصريه في تقدير أبعاد هذا الخطر على الوطن العربي. وكتب الشيخ رشيد سلسلة من المقالات كشف فيها التعاون بين الاستعمار البريطاني والصهيونية على ضرب الأمة العربية في صميمها. وجعل عنوان هذه المقالات «ثورة فلسطين، أسبابها ونتائجها، حقائق في بيان حال اليهود والإنكليز والعرب، الرأي في مستقبل العرب والشرق». وكان قد عرف أن الصهاينة اتصلوا «بأخوانهم» في الماسونية زعماء جمعية الاتحاد والترقي للوساطة في شراء فلسطين، فنادى الشيخ رشيد في مقالاته بضرورة جمع كلمة العرب لمواجهة هذا الخطر الصهيوني الذي «بلغ درجة تضاءلت أمامها المشاكل الأخرى التي يعاني منها الوطن». ويضيف: «لقد فشلت القيادات [العربية] في أن تتعلم من التاريخ. وفشلت أيضاً في أن تتعلم من عدوها الذي تحاربه. ولم تنبه إلى خطورة وعد بلفور الذي انشأ إسرائيل لتكون فاصلاً يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة

لتهديدها». وهكذا، فإن النضال في ساعة من أخطر ساعات تاريخه الحديث حرم من الطاقة الثورية المصرية في العام ١٩١٩، حين انصرف قادتها إلى معالجة المشاكل الداخلية، وتمكّنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهد.

وكتب الشيخ رشيد لمحمد يعقوب الغصين، رئيس اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب العربي في فلسطين في العام ١٩٣٢: «أقول ولا أخاف في الله لومة لائم، ولا إيذاء ظالم، إن هذا النوع من فتح الأجنبي [الفتح الانكليزي - الصهيوني لفلسطين] هو أشرس من كل ما سبقه من الفتوح الحربية السياسية على اختلاف أسماؤها في هذا العصر، لأنه سلب لحق أهل الوطن في ملك بلادهم، وطردهم منها، وتأسس الوطن القومي الإسرائيلي... إن هذا الخطر سيسري إلى شرق الأردن وسورية والحجاز والعراق بل هو خطر سينتقل من سيناء الى مصر».

توفي الشيخ رشيد اثناء عودته من وداع الأمير سعود بن عبد العزيز في السويس في ٢٢ اغسطس (آب) سنة ١٩٣٥.

كتب الأمير شكيب: «لما سمعت بوفاة الشيخ رشيد طاش عقلي ثم تحدت العبرات على عوارضي... والآن رأينا بأعيننا الفقد الذي لا يعوض، والفراغ الذي لا يسد، وانطوى السراج المنير... وأظلم العالم الإسلامي لفقد ضيائه. إنا لله وإنا إليه راجعون».

يوسف ايش

مقالات

الشيخ رشيد رضا السياسية



مجمل الأحوال السياسية

[المخارج ١ (١٨٩٨) ص ٢٣ - ٢٤ (الطبعة الثانية)]

لم نَرِ عاماً كثرت مشاكله السياسية كهذا العام. فإننا نرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام^(١) في الشرق والغرب في العالم القديم والعالم الجديد.

ففي مياه الصين تتجمع الأساطيل الأوروبية وتتكاثر تكاثف الغيوم قبل نزول الصواعق. وفي أفريقيا تزحف الجنود وتتسابق الحملات إلى أعالي النيل تسابق خيل الطراد. وفي الهند قد سقيت الأرض بدم الإنسان وسمدتها فضلات النور والعقبان من جثث القتلى فأخرجت في هذا الربيع نباتاً خصيباً. وفي كوبا وراء الأوقيانوس العظيم قد صارت الحرب بين الأسبان والأميركان قاب قوسين أو أدنى. وفي كريت لا يزال السيف مصلتاً والأخوة العثمانيون يُفني بعضهم بعضاً. وفي النمسا استفحل الخلاف بين العناصر المختلفة فصار البعض يتوقعون انتشار عقد الوفاق وسقوط تلك المملكة العظيمة. وفي إيطاليا وسيلسيا ساد الجوع أثر غلاء الخبز وقلة الأعمال فثار الشعب ينهب الأفران مقتحمياً حراب البوليس، وهجمت النساء صارخات طالبات لهن ولأولادهن خبزاً. أما في فرنسا فقد مرّت الزوبعة السياسية مرور الزوابع الطبيعية على أعشاب الأرض تعبت بها ولا تجر ضرراً.

ويطول بنا المقال إن رمنا تفصيل تلك الحوادث السياسية الخطيرة. على

(١) بيت من الشعر، نسبته ابن بري لأبي مريم:

أرى خلل الرماد وميض جمر أحاذر أن يشب له ضرام

ابن منظور. لسان العرب. بيروت: صادر، ١٩٦٨. ج ١٢ ص ٣٥٥.

أنه لا بد من الإلماع إليها إلماعاً يطلع قراء المنار على إجمال تفاصيلها الماضية ويكون توطئة للحوادث الآتية.



مجلد الأحوال السياسية

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٤٦ - ٤٨ (الطبعة الثانية).]

ألمعنا في العدد الماضي إلى أمهات السياسة الحاضرة وتكلمنا على بعضها ووعدنا بالكلام على باقيها فيما يأتي من الأعداد. وإنجازاً للموعد نأتي على بيانها بالإجمال على الوجه الذي يوجب العظة والاعتبار مبتدئين بتمهيد في بيان الاستعمار الذي هو منشأ هذه الأحوال فنقول:

من طبيعة العمران البشري استيلاء القوي على الضعيف ومن هنا كان طلب الفتوح والتغلب طبيعياً في البشر. ولم يكن في العصور الأولى طريق للفتوح والتغلب إلا الحرب العوان التي لم يلقَ الإنسان أوزارها عن عاتقه في دور من الأدوار ولقد انطبعت الأنفس عليها بالعمل المتكرر حتى كادت تكون مقصودة لذاتها، أعني الفتك المجرد عن ملاحظة المنفعة التي عليها مدار جميع أعمال الإنسان. وأول تغيير مهم حصل في تاريخ الحرب فخفف ويلاتها وجعلها في ضمن دائرة معقولة ما جاء به الدين الإسلامي وإن لم يجز عليه المسلمون في بعض حروبهم وغزواتهم^(١).

وسنفرد للكلام على تاريخ الحروب فصلاً مخصوصاً ونكتفي الآن بإثبات الآية القرآنية الشريفة التي تسمى «آية الجهاد» وما يتلوها من الآيات المبينة

(١) راجع المنار ص ٤٥٥ من المجلد ٥، وص ٢٩٧ من ٦، وص ٧٦٨ من ٧ وص ١٦٥ من ٩.

حكمة الحرب وسبب الإذن فيه وما يشترط في المحاربين إثباتاً لقولنا، وهي :

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز. الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٣٩ - ٤١].

وهذه الآيات صريحة في أن الفائدة من الحرب ينبغي أن يلاحظ منها منفعة المحاربين (بفتح الراء) بالإرشاد إلى إزالة المنكرات وعمل المعروف بواسطة التعليم لا بواسطة الجبر والإلزام وهذا هو الذي تدعيه الأمم الأوروبية اليوم حيث يزعمون أن غرضهم من الفتوحات نشر المدنية وتهذيب الأمم المتوحشة .

وإذا أنكرنا صدقهم في هذه الدعوى وجزمنا بأن الغرض الصحيح تحويل مجاري الثروة من البلاد التي يفتحونها إلى بلادهم وفتح أبواب الرزق لأهمهم فلا ننكر عليهم الاجتهاد في تخفيف مصائب الحروب والتباعد عنها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . والأصل الذي تعتمد عليه تلك الأمم في ذلك وهو أساس مدنيته ودعامة قوتهم الاقتصاد وتوفير الثروة ولذلك جعلوا وسيلة الفتوح الكبرى الشركات التجارية التي تستولي على الأفكار والعقول بواسطة التربية والتعليم ونشر لغات أمهم وآدابها وغيروا إسم الفتوح والتغلب فسموه استعماراً واكتفوا بالقبض على زمام السلطة بالفعل ، وأبقوا للأمرء الشرقيين ألقابهم الضخمة يتمتعون بها . ففي الهند نحو من تسعين ملكاً ما بين نواب (الأمير المسلم) وراجا (الأمير الوثني) وليس لهم من الأمر شيء إلا ما ينفذون به إرادة الحكمدار الإنكليزي ويأتمرون بأوامره (إلا قليلاً منهم).

وتبارت تلك الأمم في الاستعمار وانحدرت على الشرق انحدار الغيث
المدرار حتى لم يبق صقع من أصقاعه ولا قطر من أقطاره إلا وتدقّ عليه
هذا السيل المنهمر، فمنها ما ادركنا بواده ولا ندري ماذا تكون أواخره .
وبالجملّة لم تبق مدينة ولا قرية إلا وأصابها شيء من رشاشه فإن لم يصبها
وابل فطُلُّ [الطَّلُ: المطر الصغار القطر الدائم].

هذا هو الاستعمار الذي هو منشأ جميع المشاكل السياسية الحاضرة ومشار
الخلاف بين الأمم ومولد الفتن بين الدول وقد ذكرنا لك بعض هذه
المشاكل.



اليهود في فرنسا وفي مصر



[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٥٣ - ٥٥ (الطبعة الثانية)]

قبل أن لبس بونابرت تاج الأمبراطورية كانت حجته القوية لدى
الشعب الفرنسي دفاعه عن الحرية العمومية وخدمة المبادئ الجمهورية .
غير أنه بعد ارتقائه العرش الأمبراطوري لم يأل جهداً في محو تلك الحرية
ودوس تلك المبادئ الدستورية .

وهذا شأن الإنسان في كل آن يطلب الحرية مرؤوساً ويكرهها رئيساً،
يستنجد العدالة مظلوماً وينبذها ظالماً، إلا من وفقه الله وقليل ما هم .

لقد شاعت أنباء المشاكل السياسية الداخلية التي قامت في فرنسا إثر
مسألة دريفوس وقضية زولا وما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد
وسوء المعاملة . ولا يحسب القراء أن هذا الاضطهاد قد نشأ عن تعصب
ديني في الأمة الفرنسية وكيف وهي أقرب إلى وهن العقيدة منها إلى

التعصب الذي مثاره الغلو في الدين . أما مصدر هذا الاضطهاد فالتعصب الجنسي والحسد الذميم أثارهما في صدور الأمة فئة من أرباب الجرائد المعادين لليهود الطامعين بما في أيديهم من خزائن الأموال .

على أن تلك الحوادث القبيحة لو جرى مثلها بين الشرقيين لطبق السماء صراخ تلك الجرائد وسلقت الشرقيين وآدابهم بالسنة حداد وأقلام أنفذ من السهام . بل لو كانت تلك الجرائد في بلاد تكون فيها ضعيفة الجانِب ضعف اليهود في فرنسا لكانت أسرع الناس طلباً للحرية المطلقة والعدالة العامة للبشر على اختلاف أجناسهم . وهذا معنى قولنا يستنجد الإنسان بالعدالة مظلوماً وينبذها ظالماً .

ومن الغريب أن داء الجرائد الإفرنسية قد سرى إلى بعض الجرائد المصرية . فقامت تصلي اليهود ناراً حامية وتأخذ عليهم في مهارتهم في الكسب وتفتنهم في أساليب الربح . أما نحن فرأينا أن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق . فإن التمدن الصحيح والعدالة الحقيقة يفرضان المساواة المطلقة بين جميع بني الإنسان في المنافع العمومية . والعمل والكسب بالطرق الشرعية فضيلة من الفضائل الاجتماعية . وللإنسان أن يعمل ويربح بالطرق المشروعة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ومن يعترضه في ذلك فقد اعترض مبدأ الحرية العمومية .

ولذلك لا نرى عاقلاً من عقلاء الأمة الإفرنسية راضياً عما نال اليهود في فرنسا من الاضطهاد قديماً وحديثاً . وقد سمى ذلك بعض كبار فلاسفتهم مرضاً من الأمراض العارضة وأمل ذهابه بتقدم المدنية والآداب العمومية .

فالمأمول أن لا يدخل الكتاب في هيئتنا الشرقية عاملاً جديداً للنزاع والنزاع والشقاق فحسبنا ما لدينا من تلك العوامل القبيحة . وإنا الآن أحوج إلى عوامل الاتفاق منا الى عوامل الشقاق .

وعسى أن يستفيد إخواننا الشرقيون لا سيما المسلمون منهم بما نقص

عليهم من أحوال الأمم «وما يتذكر إلا من ينيب» [سورة غافر رقم ٤٠ الآية ١٣].

خبر واعتبار

٤

[هجرة اليهود الى فلسطين]

[المفاز ج ١ (١٨٩٨) ص ١٠٥ - ١٠٨ (الطبعة الثانية).]

جاء في باب المسائل من مجلة المقتطف^(١) المفيدة الصادرة في غرة ابريل الجاري سؤال وجواب فيما تحدثت به جرائد العالمين من إجلاء اليهود عن الممالك التي تضطهدهم ومهاجرتهم إلى فلسطين فرأينا أن نبين ذلك للقراء ونذيله بما يعن لنا بشأنه من التنبيهات الموجبة لليقظة والاعتبار وها هو بحروفه:

س - فرنكفورت على نهر الماين: أ. س. جودا. لا بد من أنكم سمعتم عن الحركة التي حدثت فجأة منذ ستة أشهر بين اليهود في بلاد النمسا والمانيا وانكلترا وأميركا وهي المعروفة باسم الصهيونية. ويظهر من الجرائد الأوروبية أن غاية الصهيونيين إنشاء مساكن في فلسطين لليهود المضطهدين في روسيا وبلغاريا ورومانيا وبلاد الفرس والمغرب وذلك بإذن الدولة العلية وكفالة الدول الأوروبية وتحت حمايتهم. ومرادهم تعمير أراضي فلسطين بالفلاحة والصناعة فيعيشون آمنين في ظل الحضرة الشاهانية ويقل عدد الفقراء في أوروبا وتتسع أسباب التجارة بين الشرق والغرب. وقد أسهبت

(١) «عود اليهود إلى فلسطين». المقتطف ج ٢٢ (١٨٩٨)، ص ٣١٠ - ٣١١.

الجرائد الشهيرة كالتيمس والدائلي كرونكل والديلي تلغراف وأشهر جرائد النمسا في استحسان هذا الرأي وقالت إنه قريب المال لأن الدولة العثمانية ترغب في عمار بلادها والدول الأوروبية لا تمنع فقراء اليهود من ترك بلادهم والانتقال الى البلدان الشرقية لكي ينشروا فيها المعارف ويوسعوا التجارة والصناعة لا سيما وإن اليهود قد اشتهروا بولائهم للدول التي تحميهم وتحسن إليهم فتجد الدولة العثمانية منهم كل ولاء وأمانة. وأريد أن أعلم من المقتطف هل اعتنت الجرائد العربية في مصر وسورية بهذا الأمر؟ وما رأيكم في إمكان إجرائه؟

ج - لا يظهر لنا مما نطالعه من الجرائد العربية أنها اعتنت بهذا الأمر اعتناء خاصاً وإنما ذكره بعضها مع سائر الأخبار التي يذكرها. واليهود الذين أتوا فلسطين حتى الآن أهل صناعة وتجارة كما تقولون وقد أفلحوا فيها وقبضوا على أكثر فروع التجارة والبيع والشراء، وإذا زاد عددهم قبضوا على كل موارد التجارة وأساليب الصناعة. أما الفلاحة فلا نظن أنهم يعكفون عليها لأنهم ليسوا أهل فلاحه في بلاد من البلدان التي هم منتشرون فيها. وقد صار كل شيء ممكناً لأهل المال فلا يستحيل عليهم أمر إذا بادروه وعقدوا النية عليه. فإذا أنفق أغنياء اليهود في أوروبا على ابتياع الجانب الأكبر من أراضي فلسطين ونقل إخوانهم الفقراء إليها لم يتعذر عليهم ذلك ولم يتعذر على هؤلاء الفقراء ان يعيشوا في فلسطين بالراحة والرخاء لأن الأرض واسعة وخيراتها كثيرة وكانت تمون أضعاف أضعاف سكانها الحاليين، ولكن بين ما يمكن للإنسان وما يقدم عليه بوناً شاسعاً. فإن الناس إذا عملوا أعمالهم عن اختيار لا عن اضطرار جروا في الطرق التي يلاقون فيها أقل المقاومات وأغنياء اليهود لا يرون أنفسهم مضطرين إلى نقل أخوتهم إلى فلسطين ولا هذا النقل من الهنات الهيئات. نعم، إنه تقوم بينهم أحياناً أناس محسنون أهل غيرة وحمية كالبارون هرش فينفقون النفقات الطائلة على نقل جماهير كبيرة من إخوانهم إلى بلاد

يبتاعونها لهم ويسكنونهم فيها ولكن ذلك نادر ونقل اليهود إلى فلسطين وابتياح الأرض من الحكومة ومن أصحابها أصعب من نقلهم إلى أرجنتين، ولذلك نستبعد نجاح الصهيونيين ونحسب أن السعي لدى حكومات روسيا ورومانيا والبلغار في إصلاح شأن اليهود فيها أقرب منالاً لا سيما وأن طلب كفالة الدول الأوروبية وحمايتهم لليهود الذين يراد نقلهم إلى فلسطين عقبة كبيرة في سبيل هذا الغرض لأن الدولة العثمانية لا ترضى به. انتهى بحروفه.

(المنار) وقد أوردنا هذه المسألة لعدة فوائد: ١ - إن المضطهدين في جميع ممالك الأرض يرغبون الجلاء إلى بلاد الدولة العلية ليكونوا في مأمن من الظلم والاضطهاد في ظل الحضرة السلطانية الظليل. وما ذلك إلا لاعتقادهم أنه ليس في بلاد الدولة من الغلو في التعصب وايداء المخالف ما في سائر الممالك التي يرغبون الجلاء عنها كروسيا وبلغاريا والتي لا يودون الجلاء إليها كبقية ممالك أوروبا ولا التفات لقول القائل تحت حماية أوروبا لأننا نرى جميع اليهود في بلاد الدولة العلية سواء لا يرون فيها ثورة ولا شغباً، ولا يمينون حرفة ولا كسباً، ودانية عليهم ظلالها، ومساوية بينهم أحكامها، نعم، إن المرجح لاختيار اليهود فلسطين كونها بلاداً مقدسة وموضع آمال منتظرة. ولكن الأمن والراحة شرط للاختيار. ٢ - توجيه الأنظار وتحويل الأفكار إلى ما فيها من مطارحات الجرائد ومداومات الساسة في أوروبا بشأن تعمير فقراء اليهود لبلاد فلسطين وبث المعارف وتوسيع التجارة والصناعة في ربوعها لعل أهل بلادنا تحيش في نفوسهم مراجل الغيرة فتندفع إلى طلب ما تتوقف عليه سعادة أوطانهم من علم وعمل ولا شك أنهم لا يعدمون عند الطلب رشاداً. ٣ - إيقاظ قوم قد رزأوا بالخمول وكاد يعمهم الدهول واستلفاتهم إلى الروابط المحكمة بين اليهود مع تفرقهم في الممالك وتشتتهم في الأقطار وكيف يمدون سواعدهم لمساعدة إخوانهم ومعاضدة قومهم من وراء البحار وشعوف الجبال. ولم

يصدّهم تنائي الديار، عن المواصلة في الأفكار والتعاون بالدرهم والدينار،
الذي يحقق به كل أمل، ويناط به كل عمل.

فيا أيها القانعون بالخمول أقنعوا رؤوسكم (ارفعوها) وحدقوا أبصاركم
وانظروا ماذا تفعل الشعوب والأمم. أسيخوا لما تحدث به العوالم عنكم.
أترضون أن يسجل في جرائد جميع الدول أن فقراء أضعف الشعوب الذين
تلفظهم جميع الحكومات من بلادها هم من العلم والمعرفة بأساليب
ال عمران وطرقه بحيث يقدرّون على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل
أربابها أجراء وأغنيائها فقراء؟ تفكّروا في هذه المسألة واجعلوها موضوع
محاورتكم لتبينوا هل هي حقّة أم باطلة صادقة أم كاذبة، ثم إذا تبين لكم
أنكم مقصرون في حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم وملّتكم فانظروا وتأمّلوا
وتفكّروا وتذاكروا وتحاوروا وتناظروا في مثل هذا الأمر فهو أخلق بالنظر
من اختلاق المعاييب، وانتحال المثالب، وإصاقها بالبراء، وأحرى بالمحاورّة
من التذقح والتجني على إخوانكم فإن في الخير شغلاً عن الشر، وفي الجدّ
مندوحة عن الباطل، «وما يتذكر إلا من ينيب» [سورة غافر رقم ٤٠ الآية ١٣].



صيحة حق



[نصيحة العثمانيين والوطنية]

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٢١٧ - ٢٢٥ (الطبعة الثانية)]

أيها الشرقي كيف يطيب لك النوم على غوارب هذه الأمواج المضطربة،
وفي مهابّ هذه العواصف العاتية، أما أزعجك هذا الموج المنتظم،
وأرهبك هذا اللجّ المعتلّم، أما أقلقك هزيز^(١) هذه الرياح المتناوحة،

(١) صوت الريح.

وهزّت جسدك زعازعها المتراوحة، أم ضخّت آذانك^(١)، وخدّرت
جثمانك، فتعذّر إسماعك وتحسيسك^(٢) ووقع اليأس من إيقاظك وتنبهك،
لو أنك يقظان لكنت أجدر بالأطيط^(٣) من الغطيط^(٤) وأخلق بالزفير
والشهيق، من المكاء والتصفيق، ويحك هل أنت فاقد الرشد لصغر سنك،
واختبال عقلك، أم أنت زَمِنٌ عاجز؟ إذا كنت صحيح العقل والجسم
فكيف رضيت أن تقيم الأجنبي وصياً وقيماً عليك بحيث إذا لم يقدم لك
مادة طعامك ولبوسك وكنك وأدوات الوصول إليها تموت من الجوع
والعري وهو لا يسمح لك بهذا اللّماج^(٥) الذي تأكله، والسمول^(٦) الذي
تلبسه، إلا ليستخدمك ويستعملك كما يستعمل الآلات الميكانيكية. لا
يخدعنك ما ترى في بلادك من مظاهر الثروة على بعض أفراد التجار فلو
أقفلت في وجوههم مصارف (بنوك) أوروبا وغلّت أيدي تجارها عن
إمدادهم لحاصوا حيصة الحمر، واضطربوا اضطراب الأرشية^(٧) في
الطوي^(٨) البعيدة القعر، لا تغرنك أرض بلادك (أطيانك) الواسعة فقد
نقصها الغربيون من أطرافها، بل كادوا يحيطون بأكنافها، وقبضوا على
موارد الثروة فيها، حتى أنهم ليبيعونك ماءها الذي تحتسيه، ويتقاضونك
أجرة طريقك الذي تجول فيه، لا تزدهينك عظمة حكامك فقد أمسوا
مغلوبين على أمرهم، ومنفذين لإرادة غيرهم، إلا قليلاً ممن أنجاه الله
تعالى منهم، ولست أخص بهذا ما يفتات به رجال الإنكليز على الحكومة
المصرية من نحو بيع سفنها وصفافها^(٩) مثلاً بل أعم به كل قانون جادت

(١) أي ضربتها فأصمتها.

(٢) جعلك تحس.

(٣) صوت من أثقله حمله.

(٤) صوت النائم.

(٥) أدنى ما يؤكل.

(٦) ثوب خلق.

(٧) جمع رشاء وهو جبل الدلو.

(٨) البئر.

(٩) أراضيها المستوية.

به الحكومات الشرقية (لا سيما الإسلامية) على أهل أوروبا فجارت بذلك وعدلت عن طريق الفضيلة الدينية كإباحة السكر والبغاء والكشف الطبي على البغايا الذي تقشعر لتصوره جلود الذين آمنوا وينفعل لتذكره روح كل معتقد بدين سماوي . قلنا إنهم مغلوبون على أمرهم لكن هذا الغلب لم يجبروا عليه بكري^(١) المدافع وخصائص البنادق وإنما كان لضعف في الدين ووهن في العزيمة وجهل بعاقبة الأمور . أدهشتهم عظمة أوروبا واستهوتهم زخارف مدنيتهما فطفقوا يتقربون إليها ، ويقلدونها بأقبح ما لديها ، عن غير روية ولا بصيرة «إنهم ساء ما كانوا يعملون» [سورة التوبة رقم ٩ الآية ٩ . وسورة المجادلة رقم ٥٨ الآية ١٥ . وسورة المنافقون رقم ٦٣ الآية ٢] .

دع عنك التفكير بسيئات الحكومات واصرف بصرك إلى وطنك وماذا يجب له عليك . حذق النظر واستطلع الخفايا واستجل الدقائق يتجل لك أنك دعامة وجوده ، وروح حياته ، بك يعيش ويحيا ، وبك يموت ويفنى ، وبك يعز ويغنى ، وبك يذل ويشقى ، وإذا تجلى لك هذا تشعر بأن لك شأنًا عظيمًا في الوجود وتحس بقواك المقدسة التي أودعها مدبر الكون في جرثومتك الإنسانية ، فتندفع الى طلب الفضيلة الحقيقية ، والكمال الصحيح الذي أنت له أهل ، ولا ترضى أن تكون نقاعاً^(٢) إنفجانياً^(٣) أو إمعاً^(٤) أو غطارياً^(٥) وان رضي بذلك الجماهير الذين فقدوا هذا الشعور والإحساس الشريف . كل من يرى نفسه في قصور عن إسعاد وطنه وإعلاء منار أمته فهو كافر بنعمة العقل محروم من الكمالات الإنسانية التي ارتفع بها البشر ، عن مرتبة الحمر والبقر .

(١) جمع كرة .

(٢) التكبر بما ليس عنده .

(٣) بمعنى الأول والمفرط فيما يقول .

(٤) هو الرجل الذي لا رأي له ولا عزم فيتابع كل أحد على ما يريد .

(٥) هو الرجل الذي لا خير عنده ولا شر .

من أخط شأناً ممن يرى أن السعادة الإنسانية، في التمتع بالشهوات الحيوانية، ويقنع بأن يفوقه الثور في أكله، والعصفور في سفاده، والطاووس في لبوسه، والفرس في خيالاته، والثعلب في حيله، ويطيب له العيش وهذه العجاوات أفضل منه وأكمل فيما حسبه فضيلة وكمالاً؟ إيه، إن من الحشرات ما يعمل ويسعى لجنسه ووطنه كالنحل والنمل، أفترضى أيها الشرقي أن تكون أحسن من الحشرات وأنقص من الهوام؟. إلى متى هذا التفرق والتبدد، والتوحيد والتفرد، مد يدك لمواطنك ومشاركك في مواد حياتك وتعاهدوا وتعاونوا جميعاً على ما فيه منفعة الجميع، إخلط ما لك بما له، تختلط نفسك بنفسه، واعملوا مجتمعين فقد كفاكم ما جناه عليكم التفرق والانفراد. بادروا الزمان، قبل فوات الإمكان، فيوشك أن لا يدع الدخيل لكم باباً من أبواب الثروة إلا أقفله، ولا سبباً من أسباب النجاح إلا قطعه، فماذا ينفعكم التنبيه إذا أغلقت دونكم الأبواب، وتقطعت بكم الأسباب، أَلْفُوا الشركات المالية، وشيّدوا المدارس الوطنية وربوا أبناءكم وبناتكم على ما تقتضيه مصالحكم الوطنية، وآدابكم الدينية، فلا نجاة ولا نجاح لكم إلا بهذا. وأما التشديق بالقليل والقال، والجلاء والاحتلال، وقطع الزمان بالأمانى والتشهي، وتأسف العجائز والزمنى، فهو مما يضيّع الفرص ولا يغني عنكم شيئاً والماضي عنوان الآتي.

معاشر العثمانيين، وأنتم أول من أعني بالشرقيين، ليذكّر عالمكم جاهلكم، ولينذر متنبهكم غافلکم. أَلْفُوا الشركات، وعَلِّمُوا البنين والبنات، «ولا يجرمنكم»^(١) شأن^(٢) قوم على أن لا تعدلوا» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٨] ولا يصدنكم اختلاف المذاهب، عن الاتفاق على المكاسب، فقد رأيتم العبر في البلاد التي أصاغت لوساوس الأعداء، وعملت بدسائس الدخلاء، وكيف خربت ديارهم، واجتثت أشجارهم، وسفكت دماؤهم،

(١) يجرمنكم.

(٢) بغض.

ويتمت أبنائهم، وما كان من قلب أوضاع، واستباحة ابضاع، والدين من وراء ذلك، ينهى عن انتهاج هذه المسالك.

تفكروا في معنى الأمة والوطنية واقدروا حق الشعب قدره، يتضح لكم أن الأمة تتكوّن بالاجتماع، على الانتفاع، وبالالتحاد، على نيل المراد، وبترية الحاكمين الذين يقيمون النظام، ويحفظون الأمن العام، يسهل على الشعب أن يربي أفراداً وأئماً، ويعسر على الأحاد أن تربي شعباً كبيراً وأمة عظيمة، لا سيما مع قلة المال، وسوء الحال، فحتام التعلّق بأذيال الحكومة، والتشبث بأهداب الآمال الموهومة، والإنحاء على الدولة بالتقصير، والانخداع بالغش والتغدير.

تنبه جماعة من إخواننا الأتراك الى أن الأمة في حاجة إلى إصلاح ولكنهم جهلوا طريقه أو تجاهلوه فلجأ بعضهم إلى أوروبا وبعضهم إلى مصر وانشأوا جرائد للتنديد بسياسة المابين الهمايوني ونالوا من مقام الحضرة السلطانية ما نالوا، وطعنوا في رجال الدولة العلية وسوأوا أعمالهم وأحكامهم، والتفّ عليهم قوم آخرون، ولا يخفي على الناس ما يسرون جميعهم وما يعلنون، ولو صرفوا أqlامهم إلى التعلم، لهدوا الى صراط مستقيم.

أولم يكفهم أن سلطانهم وإمامهم هو مقاوم بسياسته وحكمته لأوروبا كلها، وانه قد أوقف بقواه العقلية الباهرة من تيارات الحوادث، وسكن من عواصف الكوارث، ما تعجز عنه الجماعات بل الأمم، حتى قال فيه رئيس ساسة الإنكليز الذين يفوقون ساسة كل الأمم وهو المستر غلادستون الشهير «إن السياسة الحميدية تغلبت على السياسة البريطانية وقهرتها في المسألة الأرمنية» والفضل ما شهدت به الأعداء، واعترف به الخصماء، فإذا تفرغ من هذا شأنه لإعارة الأعمال الداخلية نظراً ألا يعد ذلك من خوارق العادة في القوى البشرية؟ بلى، وإن مولانا السلطان الأعظم قد بذل من العناية في داخلية ممالكه ما لو ساعده عليه أهلها ولم تقع سيره فتن السياسة

لنهض بها نهضة عظيمة كما يشير إلى ذلك قول «الأستاذ اللغوي فمبيري الرحالة المجري» من بضع سنين في ترجمة مولانا السلطان أيده الله تعالى، وهو^(١):

«أقول عن ثقة وروية إنه إذا استمر الأتراك سائرين في المنهج الذي نهجه لهم سلطانهم وإذا لم تعرقلهم مشاكل السياسة ومخاطرها بلغوا مبلغاً يذكر فيشكر بعد زمان وجيز وتوطد أساس ارتقائهم العقلي والاقتصادي ووجودهم السياسي في مستقبل الأيام. ولقد قال لي جلالة السلطان يوماً «قد جعلت السلم غرضي أسعى إليه جهدي إذ السلم هو الدواء الذي يشفي ما أصابنا في الماضي من قروح التقصير وأدواء الإهمال وسوء التدبير» وذكر أنه سمع من جلالته أيضاً ما ترجمته «إن أوروبا قد عزقت أرضها ومهدت تربتها أعواماً وعصوراً حتى جاءت بما نراه فيها من مصادر الحرية والمنشآت الحربية، والآن يطلبون اليّ أن أقتلع فسيلة من منابت الحرية فيها وأغرسها في أراضي آسيا الوعرة البائسة القاحلة. دعوني أتعهد هذه الأراضي قبلاً بما يحسنها فاقتلع أشواكها وأرفع أحجارها وأفلح تربتها وأخذ الأخاديد واحترف الأقبية لإروائها لأن أمطار آسيا قليلة نادرة ثم أنقل تلك الفسيلة إليها وأكون أول من يطيب نفساً ويقر عيناً بنمائها ونضارتها وغضاضتها»^(٢).

نعم، إن إطلاق الحرية للشعب الجاهل يزج به في الفواحش ويفضي به إلى الهرج والفضى فلا بد من السعي في تعميم التربية والتعليم مع نوع من الحجر والتقييد وإطلاق الحرية لأصحاب الأفكار والأقلام رويداً رويداً في ضمن دائرة الشرع خلافاً للمفتونين من حزب تركيا الفتاة الذين

(١) إن هذا الأستاذ قد قال هذا القول في أوائل عهده بمعرفة السلطان ثم كان له فيه رأي آخر كما وقع لنا فقد علم وعلمنا أن السلطان كان هو العائق للعثمانيين عن الترقى وقد انكشف لنا الحق بعد الاستقرار في بلاد الحرية «مصر» بنحو سنة «راجع مقدمة هذه الطبعة».

(٢) أنه لبث في الملك نحو ثلث قرن ولم يفعل شيئاً مما قال بل كان يطارد العاملين وينكل بهم.

يسرون في طرق مجهولة، ويرمون لأغراض غير معقولة، ولقد صدق مولانا أيده الله تعالى فيما أشار إليه من كون أراضي نفوسنا قاحلة من المعارف وفيها أشواك وتضاريس ينبغي إزالتها قبل إلقاء بذور الحرية فيها، ولقد صدقنا وعده بالاجتهاد في إزالة الموانع، وإدالة المنافع، ولكننا لم نساعد على تحقيق أمانيه الشريفة بل منا من تعدى الحدود وما وفي بالعهود^(١).

أين الشركات التي عقدناها، والمدارس الوطنية التي شيدناها، أما منحنا امتيازات لإنشاء سكك حديدية فحملت الجهالة من نعدهم من أمثلنا وأنفسنا، على إثثار الأجانب على أنفسنا، وبيع الامتيازات بأبخس ثمن، مع أن بيعها بمعنى بيع الوطن، أنشأ الأمير العاقل سعادتلو محمد باشا المحمد مدرسة في عكار فجهه برتبة عالية «ميرميران» ووسامات زاهية، وأنعم على المدرسة بكتب قيمة، ونسبها إلى ذاته المعظمة، «الحميدية». فهل وراء هذا ترغيب وتنشيط، وهل ينبغي أن يكون معه تقاعد وتفريط؟ ولولا اشتغال مولانا أيده الله تعالى بحل المشكلات، ومعالجة المضلات، لأنال الملك بحزمه وهمته آماله، وبلغنا من الارتقاء فوق ما قدر بذلك الرحالة.

وخلاصة القول: إن مولانا السلطان الأعظم سدد الله تعالى جار على قاعدة تقديم درء المفسد على جانب المصالح، وما يعلم أنه الأهم على المهم، ومع ذلك لا يأتي أن يكافئ من أصلح خللاً، وأحسن عملاً، وأنه يتعين على علماء الأمة وأغنيائها أن يوافقوا رغبته في إصلاح داخلية البلاد والعمل على ترقيتها لاسيما تعميم التربية الحقة والتعليم الصحيح فهما الكافلان باستئصال الأمراء الخونة، والحكام الظلمة، والعاملان على

(١) أما والله إنني كنت معتقداً لهذا القول يوم كتبتُه وإنما كان اعتقادي فيه باطلاً وغراراً من سببه الشبهة الآتية.

اصطلام^(١) الغي والفساد والبغي والإداد^(٢) هما المطهران للنفوس من أدران الرذائل، والمسبغان على الأرواح لحل الفضائل، بل هما الروح الذي تحيا به الشعوب والأمم، والنور الذي تستضيء به في دياجير الظلم. ولا يمكن الحصول على الغرض منها إلا بإرشاد العلماء، وإرفاد الأغنياء، فمن قصر في وظيفته منها فهو خائن لأمته ودولته، عدو لوطنه وملته، فالجهل خير من علم لا ينفع، والإملاق (الفقر) أفضل من ثراء (غني) لا يرفع، ومن يرغب عن الحكمة الى اللهو، ولا يعرض عن مجالس اللغو، فهو جهول وإن وسموا بالعلم تدجيله، وصاحب فضول وإن سموه صاحب الفضيلة، ومن يجرز المال في صناديق الحديد، ويمسكه عن كل مشروع مفيد، وهو يرى بلاده تباع للدخلاء، وأزمة ثروتها تتنازعها الغرباء، وأبنائها منغمسين في الترف، وبناءها على شفا جرف، فهو الخاسر المغبون، والخائن الملعون، والأخرق المجنون، إنفاقه سفه وتبذير، وإمساكه شح وتقتير، بل خراب وتدمير، وإن رفعت قصوره ومراتبه، ونصبت موائده ومآدبه، وجُرَّت مركباته (عرباته) وجرت مراكبه، (ذهبياته).

فالوطن الوطن أيها المصريون، الوطن الوطن أيها العثمانيون، جانبوا البطالة والكسل، وأجيبوا داعي العلم والعمل، احفظوا جامعتكم العثمانية، واخلصوا للدولة العلية، تعاونوا على البر والتقوى، وتمسكوا من الحزم بالسبب الأقوى، وابتدروا المنهج القويم، ولا تكونوا كدابغة وقد حلم الأديم، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.



(١) استئصال.

(٢) جمع أدعو المنكر والعجب والأمر الفظيع والداهية.



[دول أوروبا ومحالفاتها]

[المخار ج ١ (١٨٩٨) ص ٣٥٦ - ٣٥٩ (الطبعة الثانية).]

تحالفت الدول الأوروبية ذوات الشأن في السياسة العامة إلا الدولة العلية وإنكلترا. ولقد كان اختيار الحياد من مولانا السلطان الأعظم ومن ساسة بريطانيا العظمى عن حكمة ودهاء وحفظ للموازنة الأوروبية وخدمة للسلام العام. إلا أن تحالف روسيا وفرنسا أثار في جو السياسة رياحاً سوافي شامت لها الوجوه وتزعزعت لها أركان الشرق الأقصى. عصفت فلم تقو على مجاراتها إلا الريح المنبعثة من مهب بلاد الألمان جرثومة التحالف الثلاثي وملاك أمره ولقد أحست إنكلترا بأنها لا سبيل لها إلى مقاواة هذه الرياح المتناوحة ومصادمتها منفردة بل تحتاج في مجاراة المحالفتين إلى دعامة تدعمها وحليفة تشد أزرها فألانت القول للدولة العلية، بعد إغلاظه، وأظهرت الميل والانعطاف، بعد الغطرسه والانحراف، أملاً بالعود الى الود والولاء الذي تحفظ به منافعها في الشرق الأدنى. فقد شاهدت أن تجارتها فيه أمست باثرة، وسياستها باتت في ربوعه خاسرة، ووجدت بالحرب الأميركية الإسبانية منفذاً للدخول على الولايات المتحدة مرتدية برداء الحب والوداد، مدلة بوشيجة الرحم، مدلية بأواصر القراية، لتحمي حقيقتها، وتمنع وثيقتها في الشرق الأقصى فقد شعرت بأن ظلها ثمة في تقلص ومدىها في جزر أمام روسيا وألمانيا وفرنسا. وأما الدولة العلية فلم تدع المسألة المصرية موضعاً للصالح بينها وبين الإنكليز وأصعب شيء دون المسألة المصرية سهل، وأما الولايات المتحدة فقد آنس الإنكليز منهم ميلاً لخلافهم وربما قضي الأمر بعد انقضاء الحرب.

كذلك شأن الدولة العلية في الحاجة إلى الانضمام والانضواء إلى إحدى المحالفات فإن البقاء على الانفراد خطر على سياستنا بعد اجتماع الدول العظمى والتثامها، ولكن من نحالف وأوروبا بأسرها عدوة لنا وإنما ترغب دولها التقرب منا لنيل مآربها وتحقيق مطامعها.

إنكلترا تختار بقاءنا وإضعافنا، وروسيا رئيسة التحالف الثنائي تود إتلافنا، وألمانيا رئيسة التحالف الثلاثي تقنع منا برواج تجارتها في بلادنا فليس لها مطمع في بنية المملكة وجثماتها، ولا مستعمرات إسلامية لها تخاف من قوتنا عليها، ولم تغتصب منا بلاداً فتحذر الحقد منا عند العجز، والتألب لاسترجاعها عند القدرة، ولا هي منتحلة للرئاسة الدينية ومدعية حماية النصارى فنخشى من دسائسها في إلقاء الفتنة بين أبناء مملكتنا من المسيحيين والمسلمين وإحداث المشاغب والهرج كما هو شأن الدول الأخرى ذوات المآرب التي رمزنا إليها. إذاً إن الأجدر بنا أن نفضل مخالفة الألمان ونصطفهم على سائر الإقتال والأقران.

عرف هذا وغيره مما لا تصل أفكارنا إليه سيدنا أمير المؤمنين السلطان الأعظم عبد الحميد خان الثاني، أيده الله تعالى وسدده، وأنس من الأمبراطور العظيم غليوم الثاني ميلاً للوداد ورغبة بالاتحاد فكال له مولانا الصاع بالصاع وزاده من مكارمه كما هو شأنه في حب التفضل. وشدت في زيارة الأمبراطور الأولى للأستانة أواخي التآلف وسيبرم في الزيارة الثانية مرير التحالف بل صرحت بعض الجرائد الأوروبية بأن هناك وفاقاً سرياً وحللاً خفياً والذي لا ريب فيه أن الود محكم العرى.

أظهر الأمبراطور ضلعه مع الدولة العلية في الحرب الأخيرة فعرف له مولانا هذا الجميل ولما آذن مولانا بعزمه على زيارة الأستانة العلية والقدس الشريف صدرت الإيرادات السنوية أمرة بالاستعداد للإحتفال بالزائر الكريم ولقد أكبرت جرائد أوروبا أمر الاستعداد وذكره بعضها في معرض الانتقاد لأغراض في النفوس. ومما جاء في جرائد بريد أوروبا ما ذكرته

الدليل ميل وملخصه أن الأمبراطور لما زار الآستانة من قبل، بنى له جلالة السلطان قصرأ في حديقة يلدز بثلاثين ألف ليرة. وأمر الآن بأن يزداد في زخرفه وزينته حتى قالوا فراشاً على فرش غرفة واحدة من غرفاته بأربعة آلاف ليرة فما بالك بفرشه كلها وسينفق على تزيين العاصمة سبعين ألف ليرة وأربعين ألف ليرة على إصلاح جسر غلطة. وتقدر هذه الجريدة أن نفقات الزينة مع نفقات الخمسة عشر ألف عسكري التي صدرت الإرادة السنية بأن يعمل لها ملابس جديدة وتكون في فلسطين مدة زيارة الأمبراطور لها لا يقل المجموع على مائتي ألف ليرة هذا ما عدا الإحسانات والإنعامات، التي تنالها حاشية الأمبراطور من المكارم السلطانية. وقد صدرت الإرادة السنية بأن تسافر فرسان الحرس الشاهاني في يلدز إلى فلسطين لحراسة الأمبراطور مدة إقامته هناك.

إن مظاهر الابتهاج ومعدات الحفاوة والإكرام للأمبراطور العظيم هي أهم ما تشغل به الجرائد الأوروبية في هاته الأيام لا سيما الجرائد الروسية والفرنسوية والإنكليزية. فمن هذه الجرائد ما ينصحنا بحفظ أموالنا وعدم الإسراف فيها، ومنها ما يحذرنا من مطاعم الأمبراطور في سوريا والأناضول، وإنه لا بد أن يأخذ منا إحدى الموانئ السورية. بل نقل سعادة مدير جريدة الأهرام عن محدث له من الإنكليز في الآستانة العلية أنه قال نقلاً عن السفير هويت الإنكليزي المتوفى «ليست فرنسا هي الدولة الطامعة في سوريا بل هي المانيا وحدها». وتقول الجرائد الإنكليزية إن جلالة الأمبراطور سيجيزنا على حفاوتنا واحتفالنا به بإجازة الاحتلال الإنكليزي في مصر والتصديق عليه وذلك عند ما يرى إصلاحاتهم وفتوحاتهم في أثناء زيارته لمصر.

أما وسر الحق أن هذا النصح والإنذار لم ينشأ عن الحب والود، ولم يكن الحامل عليه الإخلاص والصدق، وإنما ساء القوم اتفاقنا واتحادنا مع هذه الدولة القوية التي يعززها دولتان أخريان، علماً منهم بأن ذلك يقطع

أسباب مطامعهم في بلادنا فعمدوا الى التنفير، لكنهم أفرغوه في قالب النصيحة والتحذير، ولكن قد تفجر من أنانيب أقلام بعضهم الحسد فرقم على صفحات جرائدهم جملاً تشعر بتوقعهم ضياع مصالحهم وذهاب منافعهم من الشرق الأدنى وإلا دالة بها لألمانيا بسبب ولائها لنا واتفاقها معنا. نسأل الله تعالى أن يوفق سلطاننا ودولتنا لما فيه خير البلاد والرعية إنه سميع مجيب.



«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»



[سورة هود رقم ١١ الآية ١١٧]

[المسلمون: أسباب سعادتهم وشقائهم]

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٥٨٥ - ٥٩٢ (الطبعة الثانية).]

توالت الفتن على الممالك الشرقية وأوغلت الدول الفاتحة في بلادها، وولغت في أحشائها بعدما نقصتها من أطرافها، واستدرت بالتجارة أخلافها، تفنن الطامعون بها في أطماعهم، ولوّنوا الفتوح والإملاك بألوان كثيرة، منها ما يزعج مظهره وتفزع رؤيته، ويخشى مخبره وتحذر مغبته. ومنها ما يبهج منظره وتسر رؤيته. وتخدع غايته وتغر عقباه. ما هي تلك الألوان؟ حماية رجال الديانة المسيحية. رعاية المصالح الخصوصية. وقاية البلاد من الأعداء. إصلاح البلاد ونشر المدنية فيها. الإحتلال المؤقت لمعاهدات مخصوصة. الحماية. الاستئجار!!!

كل هذه ألفاظ لا معنى لها إلا الاستيلاء والتملك بدون حرب ولا كفاح. وقد نجحت الدول القوية في هذه الحروب السياسية والفتوحات

السلمية، وكادت - لولا تنازعها - تستولي على جميع بلاد آسيا وأفريقيا. على أن التنازع ما أوقف تسيارها ولا صد تيارها، وقصارى ما فعل أنه أطعمها الفريسة لقمة لقمة فأفادها بما أمنها من تعسر الازدراء وتعذر الهضم إذا هي التهمتة مرة واحدة.

هل تنبه الشرقيون لهذه القوارع التي تقع على رؤوسهم، والصواخ التي تطرق آذانهم وأصابع الحوادث التي تكاد تفقأ عيونهم؟ نعم، قد تنبهوا أو شعروا بالرجز الأليم، وطفقوا يتململون كما يتململ السليم، إلا قليلاً منهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون. نعم، قد تنبهوا لمصائبهم ولكن هل علموا بعلة وأسبابه، كلا، سوف يعلمون. ثم كلا، سوف يعلمون. لو علموا السبب لاندفعوا لإزالة العلة قبل استحكامها ومداواة الداء قبل الإيداء (الهلاك) فلا بد من العلم قبل العمل «وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون» [سورة الأنعام رقم ٦ الآية ٢٦] كيف يهلك الله الشعوب ويبعد الأمم، وكيف يديل من الدول دولاً وينزع السيادة من قوم ويستخلف من بعدهم قوماً آخرين.

يقول المسلمون إن الدين هو الذي كان سبب سيادتهم وسعادتهم، وإن الإعراض عنه هو الذي أوقعهم في الشقاء وأنزل عليهم البلاء. ويحتجون بآيات من الكتاب العزيز كقوله تعالى «إن الأرض يرثها عبادي الصالحون» [سورة الأنبياء رقم ٢١ الآية ١٠٥] وقوله تعالى «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» [سورة الروم رقم ٣٠ الآية ٤٧]. حقاً قالوا ولكن أكثرهم يلهج بالقول عن غير فهم ولا بصيرة متوهمين أن في الدين سرّاً روحانياً غير معقول، يمد الأخذين به بالنصر والقوة، ويعطيهم الغلب بالخوارق والكرامات!! ويقول الناظرون في سير الإنسان في زمانهم الحاضر والواقفين على تاريخه في الزمن الغابر: إن ضعف الأمم وانحلالها وهلاك الشعوب وانقراضها وعزة الدول وامتناعها وسيادتها وارتفاعها كل ذلك جار على نوايس طبيعية

وسنن إلهية لا تغير ولا تحور ولا تبدل ولا تحول. وقد هدى الله بفضله النوع الإنساني النجدين، وبين له الطريقين، فمن سار على طريق الترقى والسيادة مراعيًا سنن الله تعالى فيهما وصل إليهما سواء كان مؤمنًا أم كافرًا، ومن سار على طريق التدلي والمهانة وحكمت عليه نوااميسهما انتهى إليهما مؤمنًا كان أم كافرًا، فالدين لا أثر له في عزة الأمم ولا في ضعفها واستكانتها. والشاهد على ذلك أن جميع الدول الإسلامية اليوم ضعيفة، ودولة اليابان الوثنية في أعلا درجات القوة والعزة، بل ان الأمم المتمدنة تعتقد أن الدين حجاب كثيف يحول دون الارتقاء لولا أن مزقته لما لاح لها نور العلم بطرق السعادة، وقيد ثقل لولا أن فكوه لما أمكنهم الإيجاف والإيضاع والتوقل والارتفاع، وظلوا يرسفون رسفان (مشي المقيد) من لا تزال القيود في أرجلهم والأغلال في أعناقهم. ومن رأي هؤلاء أن العقبة الكبرى في طريق تقدم الدول الإسلامية هو الدين الاسلامي نفسه، وأنهم إذا مرقوا منه رجي لهم إتباع خطوات أوروبا وتقدموا كما تقدمت!

من كان مبغضاً للمسلمين من هؤلاء يسجل عليهم الضعف والانحطاط بل يعدهم بالحمام والموت الزؤام. ومن يجب المدافعة عنهم لأمر ما يقول إن فيهم قابلية للنهوض والترقي والأخذ بأساليب المدنية الجديدة التي ساد فيها غيرهم، مستدلًا بأن الحكومة المصرية مثلاً لا تأبى قبول أي عمل تأتية الحكومات الأوروبية حتى إباحة الموبقات من السفاح والسكر ونحوه، لكن الشعوب الإسلامية لجهلها لا تجاري حكامها التي نزعت إلى الإصلاح الأوروبي، ولذلك يحكم علماءها بكفر الأخذين بالتمدن الأوروبي من حاكم ومحكوم، فدليل الترقى (وهو تقليد أوروبا على رأيهم) هو عند تلك الشعوب دليل على الانحطاط والتدلي لأنهم يعتقدون أن التقدم محصور في التمسك بالدين والجري على آثار آبائهم الأولين، فيجب على الحكومة تعليمهم وتنبيههم ليساعدوها على الإصلاح وإلا تعذر النجاح واستحال الفلاح.

هذا ملخص ما يقوله فينا المتمدون، ويكتبه في سياستنا الكاتبون، وقد اشتبه على الدهماء منا حقه بباطله، ورأى فيه المنحرفون شبهة على بطلان الدين، وهبوطه بالآخذين به إلى أسفل سافلين، لأن من المشهود الذي لا يمكن إنكاره أن المسلمين أمسوا أفقر الأمم وأكسلها وأجهلها ودولهم باتت أضعف الدول وأظلمها.

ولا فرق بينهم وبين جيرانهم يضاف إليه هذا التقهقر والانحطاط إلا في الدين فلا جرم أن الناظر في طبائع الملل يضيف ذلك إليه ويقرنه به وإننا نكشف الغطاء عن تحقيق الحق في المسألة لينجلي الصبح لذي عينين فنقول:

قول المسلمين: إن الدين هو الذي كان سبب سيادتهم وسعادتهم وإن خسران تلك السيادة والسعادة إنما جاء من الانحراف عن هديه صحيح، وقول القائلين: إن الله تعالى قد جعل لارتقاء الأمم سنناً حكيمة من سار عليها فاز ومن تنكبها خسر مهما كان دينه - صحيح أيضاً، وقد صرحنا بمثله غير مرة (أنظر العدد ١٥ من المنار)^(١). وقد غالى كل فريق في رأيه فزعم المسلمون أن الانتساب للدين فيه أسرار غير معقولة تعطي أصحابه قوى غيبية تكون بها غلبتهم على من سواهم، وزعم الآخرون أن الدين لا أثر له في الإسعاد بل هو موقع لأربابه في الشقاء، فأفرط الغالون وفرط المارقون، اغتراراً بأولى المسلمين، وآخرة الأوروبيين، ولم تخرج سيادة المسلمين في أول نشأتهم عن نواميس الكون إلا ما أمد الله به نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند ضعف المسلمين وقلتهم بالمعونة الربانية زيادة عن المحافظة على السنن العامة وتلك سنته تعالى مع أنبيائه. ألم تر كيف كان الظفر كاملاً والتأييد شاملاً في غزوة بدر ووقعة الأحزاب ونحوهما مع قلة المسلمين وضعفهم، ويوم حنين إذا أعجبهم كثرتهم فلم تغن عنهم

(١) «المدارس الوطنية في الديار المصرية». المنار ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٦٣.

شيئاً وولوا مدبرين؟ وكيف انكسروا في واقعة أحد لإخلاهم بالسنة الإلهية وهي طاعة الرئيس بالحق. وأما أوروبا فإن الدين لم يكن صادراً لها عن التقدم إلا بما زاد عليه الرؤساء من المنع عن النظر في نواميس الكون وسائر الفنون العقلية وسلب الاستقلال في الإرادة والرأي، والحرية في القول والعمل، بحجة الدين. فلما اهتدى القوم إلى هذا بما اقتبسوه من الإسلام في حروبهم الصليبية أقاموا في ضوئه أساس مدينتهم، ولما أحسوا بلذة المدينة طفقوا ينسلون من الدين الذي كان مانعاً لهم منها، ولكن نبذ الدين رماهم بشرور ستضطربهم إلى الرجوع إلى الدين يوماً ما، لأن كمال البشر لا يتم إلا به كما قال، وعلى الوجه الذي بينه أستاذنا [الإمام محمد عبده] في رسالة التوحيد.

والاعتدال في مسألتنا الذي نريد أن نبينه هو أن الدين الإسلامي دين الفطرة لما كان مرشداً إلى سعادة الدنيا والآخرة معاً بين للناس أن الله في خلقه سنناً حكيمة لا تبدل ولا تحول، وهداهم إلى السير عليها، وشرع لهم من الأحكام ما إن تمسكوا به لن يضلوا عن طريق السعادة أبداً، ومن السنن التي بينها القرآن بياناً كافياً وكرر القول فيها سنته تعالى في إهلاك الأمم وسقوط الدول، قال تعالى «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا» [سورة يونس رقم ١٠ الآية ١٣]. وقال تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» [سورة الاسراء رقم ١٧، الآية ١٦] وقال تعالى: «وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون» [سورة القصص رقم ٢٨، الآية ٥٩]. وبين تعالى أن الظلم إذا وقع في أمة يعمها العذاب وإن لم يواقع الظلم جميع أفرادها فقال: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب» [سورة الأنفال رقم ٨، الآية ٢٥]. والآيات الناطقة بأن الظلم مؤذن بهلاك الأمم وفساد العمران كثيرة جداً، وتقابلها الآيات المبينة أن التقوى والصلاح والإصلاح والعدل ونحوها من صفات الكمال واقية من حلول البلاء، وسبب لزيادة

النعماء، وهي كثيرة أيضاً، منها: «ان الأرض يرثها عبادي الصالحون» [سورة الأنبياء رقم ٢١، الآية ١٠٥]. الصالح في عرف المسلمين من يقوم بحقوق الله وحقوق العباد، وقال الشيخ الأكبر قدس سره: المراد بالصالحين هنا الذين يصلحون لعبادتها وإدارة أعمالها ومنها: «ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ١٢٨].

وقد صدرنا هذه المقالة بآية كريمة وموعظة حكيمة وهي «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» [سورة هود رقم ١١، الآية ١١٧]. قوله تعالى «وما كان ربك» الخ معناه ما كان من شأنه ذلك ولم تجر سنته به، فكل آية مصدرة بذلك فهي قاعدة عامة تنبئ عن سنة ثابتة، وفسر الظلم في الآية بالشرك وهي نص على أن إصلاح الناس فيما بينهم مانع من إهلاكهم وتسليط الأعداء عليهم وإن كانوا مشركين بالله تعالى، وفيها دليل على أن الإيمان بالله من غير إصلاح الأعمال وعدل العمال لا يمنع الإهلاك، ويؤيده قوله تعالى: «فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» [سورة الأنعام رقم ٦ الآية ٤٨]. وقوله عز وجل «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم» [سورة النور رقم ٢٤، الآية ٥]. وتأمل قوله كما استخلف الذين من قبلهم ففيه إشارة إلى أن سنته تعالى واحدة وأما آية: «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»^(١) فيحمل الإطلاق فيها على التقييد في الآيات الكثيرة أو يراد بالتعريف التعظيم، والمراد المؤمنون الكاملون الذين يقومون بحقوق الإيمان، على أن الإيمان يطلق كثيراً على التصديق، والعمل الصالح معاً، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة، ومنها ما ورد: إن الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول «لا إله إلا الله» وأدناها إمطة الأذى عن الطريق.

أرشد الدين الإسلامي إلى السنن الإلهية وأمر بالنظر في الكون والتفكير والاعتبار، وفصل ما تمس إليه الحاجة، وهدانا الى ان لكل عمل أثراً لا

يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها وكل سبب يفضي إلى غاية، والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا: «كلاً غد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً» [سورة الإسراء رقم ٢٧، الآية ٢٠]. بهذا كان الدين الإسلامي سبباً في سعادة ذويه وسيادتهم عندما كانوا مهتدين بهديه و متمسكين بحبله، لا بأسرار خفية وأمور غير معقولة. لكن جهل المسلمين بتعاليم دينهم أفضى بهم إلى التفرق والانقسام والميل مع الهوى، وجهلهم بحالة العصر زادهم عمها وحيرة في الدين والدنيا. ثم لما اتصل بعض أمرائهم وحكامهم بالأوروبيين رأوا أنفسهم مضطرين إلى مجاراتهم وموافقتهم فقلدوهم عن غير بصيرة، فكانوا بذلك عوناً لهم على أنفسهم، فازدادوا من الأمة بغضاً على بغض الظلم والفسق، وعجز العملاء والفقهاء عن هدايتهم إلى تعاليم الدين الموافقة لروح العصر لعدم وقوفهم على حالة العصر، على أن الباحثين عن هذه التعليم نفر قليل في كل قطر، ولا يكادون يتسامون إلى مراتب الأمراء والسلاطين، والمتصدرون جهلاء، وعن الإصلاح بُعداء، الجماهير منهم مشغولون بالمباحث اللفظية وأساليب الكتب وخلاف الفقهاء، والمدعون الإرشاد لا هم لهم إلا المفاخرة بالانساب، ومناهضة بعضهم بعضاً حسداً وغواية، وخداع العامة بأنهم في قصورهم وأجدادهم في قبورهم متصرفون في الأكوان، يشقون ويسعدون ويفقرون ويغنون ويحلون ويعقدون ويحيون ويميتون ويوم القيامة يشفعون فيشفعون «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» [سورة المطففين رقم ٨٣، الآية ١٤]. لأنهم مضلون يقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

فهؤلاء رؤساؤنا من الحكام والعلماء والمرشدين، هذه أحوالهم يشكو بعضهم من بعض، ولا يهتم أحد منهم إلا بتحصيل رغائبه، ونكايه

مناصبه، وقد ضاعت الأمة فيما بينهم - ضاع دينها بإهمال التعليم والإرشاد، وضاعت دنياها بترك العدل في البلاد «فصب عليهم ربك سوط عذاب، ان ربك لبالمرصاد» [سورة الفجر رقم ٨٩، الآية ١٣]. وأي عذاب أشد من سوء الحال، وضياح الاستقلال، وانتزاع ممالكهم من أيديهم ولا حرب ولا قتال. فإذا ادعوا أنهم على الإسلام فأين آثاره التي تدلّ عليه؟ وإذا اعترفوا بالانحراف عنه فليرجعوا إليه، وإلا فلينتظروا من الأمر ما هو أدهى وأمرّ، وأنكى وأضرّ، ولنا الرجاء بأن المسلمين قد تنبهوا من رقادهم، وطفقوا يرجعون إلى رشادهم، وذلك بتعميم التربية والتعليم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



«ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا»



[سورة الاحزاب رقم ٣٣، الآية ٦٧].

أ - [اضلال الرؤساء للأمة]

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٦٠٦ - ٦١٠:]

وص ٦٢٨ - ٦٣٣: وص ٦٤٩ - ٦٥٥: وص ٦٧٠ - ٦٧٩:

وص ٦٩٦ - ٧٠٤: وص ٧٢٢ - ٧٣٠

(الطبعة الثانية).

أللهم، غوثا غوثا ورحمة ولطفاً. ألهم، عوناً عوناً ومنة وفضلاً. إنظر ألهم إلى هذه الأمة التي شقيت بعد السعادة، واستعبدت بعد السيادة، وذلت بعد العز، وافتقرت بعد الغنى، وضعفت بعد القوة، وجهلت بعد العلم، وظلمت بعد العدل، وفسقت بعد الطاعة، وكفرت بأنعم الله

«فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» [سورة النحل رقم ١٦ الآية ١١٢].

أللهم، قد مسن الرجال وفنك النساء، وعم الجهل وساءت التربية، وأرسلت الحبال على الغوارب فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والأخرق ولياً والعاقل مقلياً، وهضمت الحقوق وكثر العقوق، وفشا الكذب وأكل السحت، فأنزلت على الأمة الغضب والمقت «ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ٦١].

أللهم، ان حكمانا قد أطلقوا الحرية في الفسق والكفر وقيدوا الحرية في العلم والفكر وتركوا شريعتك السماوية واستبدلوا بها القوانين الوضعية وشرعوا للرئيس الأكبر سلطة مقدسة ينسخ بها ما أحكمت ويبيح ما حظرت ويحظر ما أبحت ويعفي عمن عاقبت (أي حكمت عليه بالعقوبة) «فأخذهم العذاب وهم ظالمون» [سورة النحل رقم ١٦، الآية ١١٣].

أللهم، إن علماءنا قد تركوا القرآن والسنة وأخلاق الدين وعكفوا على الخلاف والبحث في أساليب المؤلفين وأهملوا إرشاد الأمة لأن بعض فقهاءهم قال لا يجب على العالم أن يعلم ما لم يسأل! وأن يسأل الجاهل المطلق؟ وأولوا قولك: «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٤]. وقولك: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» [سورة التوبة رقم ٩ الآية ١٢٢].

أللهم، إن قراءنا ومرشدينا قد اتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرثهم الحياة الدنيا يقرأون القرآن تغنياً في الأزقة والشوارع والملاهي والمجامع لا يجاوز حناجرهم. وقد استبدلوا بذكرك التغني والرقص والتثني وما كان ذكرهم إلا جمجمة ومحممة ودمدمة وهممة. «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله

أولئك في ضلال مبين» [سورة الزمر رقم ٣٩، الآية ٢٢]. قادوا الأمة بزمام الذل إلى مقاصدهم فماتت هممها وتراكمت غممها زعماً بأن شيوخهم كانوا من الأذلين، وأنت تقول «ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين» [سورة المنافقين رقم ٦٣، الآية ٨]. علموها الاحتجاج على التقصير بالقضاء والقدر الذي نهى نبيك عن الخوض فيه، ودحضت فيه احتجاج المشركين وعنفتهم على سوء أدبهم حيث قلت في كتابك العزيز «سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا أبأؤنا ولا حرمننا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون؟» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ١٤٨].

اللهم إنهم قد حوّلوا قلوب عبادك عنك إلى شيوخهم، فصاروا يستعينون بهم في رغائبهم ويستغيثون بهم في نوائبهم، ويطوفون بقبورهم متضرعين ولأحجارها مقبلين ولحاجهم منهم طالبين. ويقولون إنهم شفعاؤهم عندك يقربونهم إليك زلفى. وما كان الشرك الذي محاه كتابك وعابه على من قبلهم إلا مثل هذا. ولكنهم حرفوا وأولوا، وغيروا وبدلوا، احتجاجاً بكرامتك لأولياك المخلصين. نعم، إن فضلك يمنح من أطاعك الكرامة ولكن ما كنت لترضى بقول هؤلاء: إن سمواتك السبع بمن فيها من ملائكتك المقربين وأرواح أنبيائك المرسلين صارت في رجل أحد شيوخهم كالخلخال، وهو الذي من لمسه أو لمس أحد خلفائه وذريته لا تمسه النار، وإن أحدهم يسعد ويشقي ويفقر ويغني ويميت ويحيي (كما قالوا في سيدي أحمد الرفاعي وعبد الرحيم الرفاعي قدس الله سرهما من هذا الضلال) وأنت تقول: «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ٤٨]. أي لا ليقترح عليهم كما قال البيضاوي وغيره. وقد أمرت سيد أنبيائك أن يتنصّل من الاستطاعة على مثل ما يدعون بقولك: «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن اتبع إلا ما يوحى إليّ، قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ أفلا

تتفكرون!« [سورة الأنعام رقم ٦ الآية ٥٠]. «وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ٥١].

ألّهم، أصلح الراعي والرعية وألّف بين قلوب عبادك وألهمنا رشدنا. ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. وانصر سلطاننا. وأيد برهاننا ولا تجعلنا ممن قلت فيهم «فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون» [سورة الانعام رقم ٦، الآية ٤٣].

أما بعد فقد روي أن بعض الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، كان يسأل النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الشر والبلاء الذي يقع على الأمة وعن أسباب ذلك وقد قيل له في ذلك فقال أعرف الشر لأتقيه فنظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

عرفت الشر لا للشر (م) لكن لتوقيه

فمن لا يعرف الشر (م) من الخير يقع فيه

لا جرم إن العلم بعوارض الأمم من السعادة والشقاء هو العلم بالإنسان الذي هو أشرف الموجودات في هذا العالم وهو من أشرف العلوم، وأهم مباحثه ما يشرح أسباب أمراض الأمم وهلاكها، وقد نبه عليه القرآن الحكيم بمثل قوله: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ٢٣٧]. أي للأنبياء الذين جاؤا لتهديهم وإصلاح شؤونهم وهدايتهم إلى سعادتهم، ويظن من لا فقه لهم بأسرار الدين أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة إكراماً لمن كذبوهم وانتقاماً لهم! ولو كان ذلك صحيحاً لكان وجود الأنبياء فيهم عذاباً ولم يكن رحمة. والحق أن حالتهم في الفساد والفسق والظلم والحيد عن سنن الله في بقاء الأمم هو الذي كان سبب هلاكهم كما هو صريح الآيات الكثيرة جداً والمطابق للعقل، وإنما الأنبياء والمصلحون أزالوا

عذرهم وأبطلوا احتجاجهم على الله تعالى بأنهم كانوا غافلين عن سنن الإصلاح: «ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون» [سورة الانعام رقم ٦، الآية ١٣١]. فبين لهم طرق سعادتهم بآيات الطبيعة ثم آيات الوحي: «وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون» [سورة الانعام رقم ٦، الآية ٤٨ - ٤٩].

هذا العلم هو الذي ينير البصائر، ويصلح السرائر، والله در الإمام الغزالي حيث قال: أفضل العلوم العلم بالله وبسننه في خلقه. ولكن المسلمين تجاوزوا بأنظارهم آيات الكتاب الكثيرة التي أرشدتهم إليه، والآيات الكونية في الأفق وفي أنفسهم، وحسب جمهورهم أنه لا يمكن الكلام على ذلك. وزاد عليها الزنادقة والمنحرفون أحاديث وضعوها وافتروها لمآرب، فكان للباطنية وأضرابهم من المبتدعة فيها ملاعب، وفي التوسع بالتأويل مشارب، وفي انفصام عرى الوحدة بالتفرق في الدين مذاهب.

لنمسك عنان القلم عن الجري في هذا المضمار الآن ولنأخذ من التاريخ قبساً نستضيء به في بحثنا عن إضلال رؤسائنا لنا وانحرافهم بنا عن جادة السعادة إلى تيه الشقاء والحزى. مالوا مع الهوى، فطرحونا في الهوى (بضم الهاء ج هوة) وانتهى بهم الاستبداد، إلى توهين قوى الأفراد، وإن شئت قلت إلى اضمحلال الأمة وإعدامها إذ ليست قوة مجموع الأمة إلا قوة الأفراد بعينها.

رؤساؤنا هم الأمراء الذين تولوا أمر الأحكام، والعلماء الذين بيدهم أزمة العلم والتعليم، والمرشدون الذين تصدوا للتربية والارشاد. واننا نكتب مقالات نبين فيها كيف كان إضلالهم لنا حتى انتهينا إلى هنا ونبدأ بالكلام في الخلافة والخلفاء والسلاطين والأمراء. فانتظر الأعداد التالية.

ب - الخلافة والخلفاء

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٦٢٨ - ٦٣٣]

(الطبعة الثانية).

ليس من غرضنا في الكلام على الخلافة بيان شروطها وانطباقها على القائم في مقام الخلافة لهذا العهد أو عدم انطباقها، فإن هذه المباحث انما يأتيها أرباب الأغراض الدنيوية، بل الأمراض الروحية، الذين يثيرون رواكد الأوهام، ويسيرون في دياجير الظلام، ونقول قبل الدخول في البحث إن كل من يحاول إشراب الأفهام وجوب نزع الإمامة من بني عثمان فهو عامل على الإجهاز على السلطة الإسلامية ومحوها من لوح الوجود، وما لهؤلاء النوكى من تكأة يتكئون عليها إلا قولهم «الخلافة في قریش» وغفلوا أو أغفلوا الشروط المهمة التي لا توجد اليوم في قرشي كالعدالة على شروطها الجامعة، والعلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، والرأي الصحيح المفضي الى سياسة الرعية وتدبير المصالح وجمع الكلمة. وكل الذين توسوس لهم أمانيتهم بالخلافة وتطريهم جرائدهم باستحقاقهم لها عراة من هذه الصفات التي هي أركان بناء الخلافة. وما جعل النبي، صلى الله عليه وسلم، الخلافة في قریش إلا لما كان لهم من المكانة في النفوس التي من أثرها اجتباع القلوب عليهم، والإذعان لسلطانهم عن رضی واختيار، وقد نال هذا المعنى آل عثمان فحصل المقصود الشرعي به.

إنما نتوخى في هذه المقالة الإلماع إلى أهم وظائف الإمامة، وكيف خرجوا بها عن حدها حتى صارت مشار النزاع والشقاق، بعد أن كانت معقد الاعتصام والاتفاق، فضلت الأمة بذلك عن رشادها، وفتنت في دينها، ووقعت في نيران الاختلال، وأصليت جحيم فقد الاستقلال، وحق لأفرادها أن يقولوا: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، وهذا

عين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم التي أمرنا بها في الحديث الصحيح .

الإمامة الكبرى هي خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، فهي جامعة لما يسمونه السلطة الروحية والسلطة الزمنية معاً. وقد بينا في العدد الثاني والعشرين من جريدتنا أن نظام الاجتماع البشري لا يتم بدون هاتين السلطتين بل لا تتكون الأمم والشعوب إلا بإحدهما أو كليتهما، واجتماعهما في رئيس واحد أعظم مبدأ للوحدة القومية الكاملة، وبيننا أن تفويض أمر السلطتين للقائمين عليهما بحيث تكون إرادتهم شريعة ومشيتهم قانوناً لا راد لأمرهم ولا معقب لحكمهم - تغير بالأمم، ويؤدي غالباً إلى تطويحها في مهاوي العدم، وإن سعادة البشر موقوفة على تحديد القوانين والشرائع الروحية والزمنية، وجعل الناس فيها شرعاً لا مزية لرئيس على مرؤوس إلا بما يمتاز به المرؤوسون بعضهم على بعض، ولا طاعة لأحد على أحد فيما وراء الشريعة والقانون، وإن الديانة الإسلامية هي التي حدّدت الشريعتين، وقيدت السلطتين، وألغى هناك إلى بعض سيرة الصحابة مع النبي، صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، في ذلك، فليرجع الى العدد المذكور من شاء .

بهذا فتح للنوع الإنساني باب كان مغلقاً عند كل الأمم والشعوب المتعددة وهو ما يسمونه المبدأ الديمقراطي الذي يظهر به استعداد الأفراد، وتتجلي به قوى الشعوب، ويرقى به أوج السيادة، وتنال به غاي السعادة . فتح هذا الباب بمصراعية فدخل الناس منه إلى مدنية جديدة ما عتمّ الداخلون فيها أن صاروا بعد شدة العداء اخواناً، وبعد الأثرة والتعدي والطمع يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وبعد المحاباة متساوين في الحقوق لا فرق فيها بين أعظم عظمائهم وبين أخس محالفيهم في دينهم وجنسهم، وما كان لملك من ملوكهم أن ينال امتيازاً في الحق على صعلوك من صعاليكهم، ومن شواهد ذلك أن إمامهم عمر بن الخطاب

عليه الرضوان أبي إلا أن يقتصر من جبلة بن الأيهم ملك بني غسان حين لطم أعرابياً مجهولاً، ففر جبلة من هذه المساواة حيث لم يكن وقر الإسلام في صدره، ولجأ الى النصرانية. وصاروا بعد العبودية للأوهام والخضوع للأصنام أحراراً لا يخضعون لغير الحق، ولا يداجون أحداً في الحق، فمحييت بذلك السلطة المقدسة والطاعة العمياء، ومحق التمرد والاستبداد، وترفعت النفوس عن الدنيا والخسائس وتوجهت الى معالي الأمور.

حسبك دليلاً على تقيد سلطة الخلافة في الإسلام مع الشورى قول عمر - وكفى باسم عمر مدحاً الذي سارت به الركبان وصار مثلاً عند جميع الأمم -: «من رأى منكم في عوجاً فليقومه» قاله على المنبر فقال رجل: لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا، فقال «الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه».

يظن قوم أن هذا القول جاء به عمر من نفسه، والحق إنه نطق بالشرعية التي قلبت طبيعته من أسوأ الأحوال الى أحسنها، وقول عثمان في خطبته التي خطبها في الناس يوم جاء أهل الأمصار ينتصفون إليه في شأن بني أمية: «يا أهل الأمصار قد جئتم من البلاد البعيدة تطالبوني بأمور لم أكن أنا الذي ارتكبتها وحدي - إلى أن قال - وأنا في رهط أهل عبلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرني لأمركم تبع» فتأمل قوله: فأمرني لأمركم تبع. ولقد كان الأمراء وقواد الجيوش من الصحابة يسألون من الروم وغيرهم عن الإمارة، يقال لأحدهم هل أنت أمير هؤلاء القوم؟ فيقول هكذا يقولون ما دمت على طاعة الله تعالى، فإذا خالفت وعصيت فلا طاعة لي عليهم أو لا إمارة لي عليهم. ومثل هذه الشواهد في كلامهم كثيرة جداً، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجد.

لولا إن المسلمين كافة كانوا يعلمون أن الإمام مقيد بالشرعية التي توجب عليه تحري مصلحة الأمة في كل عمل يعملها، وإنه مؤاخذ على

كل خطأ، لما وفد أهل الأقطار على المدينة المنورة يناقشون عثمان، عليه
الرضوان، الحساب على ظلم عماله الأمويين، وتألبوا على خلعه أو قتله ثم
قتلوه - ظلماً - بغير محاكمة شرعية، فأهين بهذا التطرف في الحرية والغلو في
الافتئات مقام الخلافة الذي كان حفاظ الدين، وأعقبه التفرق والشقاق،
وكانت تلك الصدمة الأولى التي لم يندمل جرحها حتى اليوم، أهين ذلك
المنصب الشريف الذي كان المرجع في حل المشكلات، والضيء في ظلمة
الشبهات، فانفصمت عروة الوحدة، وانحلت رُبُط (بضميتين جمع رباط)
الاجتماع، ونجم عن التفرق في الخلافة التفرق في الدين نفسه بحدوث
المذاهب المختلفة، ومن الذي يرد ذلك التعدد الى توحيد، والافتراق الى
اجتماع وهو من وظائف الخلافة التي حدث عنها.

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء؟
كانت حرمة الخلافة تبيح لعبد حبشي كبلال، رض، ان يعتقل سيد
بني مخزوم وفتح بلاد الرومان (الشام) بعمامته على ملأ من الناس ويقوده
إلى أبي عبيدة ليناقله الحساب، أو يبعثه الى الخليفة الذي أمر بذلك.

ومن هنا تعلم فائدة استخلاف الإمام قبل موته من توفرت فيه
الشروط، وهي قطع عروق الخلاف الذي هو مدعاة الفتنة ومبعث الشقاق
والهرج كما حصل. سنة استنها الخليفة الأول وأجمع الصحابة على قبولها
وجنوا ثمار منافعها، ولكن الأمة إذا انتكست - والعياذ بالله تعالى - انقلبت
منافعها إلى مضار، وتحولت وجوه مصالحها إلى مفسد، وكذلك كان
شأنهم في الاستخلاف. اتخذوه وسيلة إلى جعل الخلافة إرثاً محضاً محصوراً
في الأقربين والأهل، وان كانوا ليسوا بأهل، واشترعوا في ذلك شرعاً لم
يأذن به الله، وفات بهذا التوارث معنى اختيار أهل الحل والعقد من الأمة
من يرويه صالحاً لهذا المنصب، فوسد الأمر الى غير أهله وهي الصدمة
الثانية التي صدم بها الإسلام وأهله، وإذا أضفتها الى الصدمة الأولى وهو
تعدد الخلفاء يتجلى لك إنها كانتا كافيتين لمحو السلطة الإسلامية من

القرن الأول وعدم امتدادها، ولكن روح الدين نفسه كانت في ريعان شبابها فقيوت على أعراض هذه الأمراض العارضة، فلم يظهر أثرها إلا بعد ضعف الدين نفسه، كذلك يطرأ على الجسم في طور الشباب داء دوي فتدفع أعراضه قوة المزاج حتى لا تكاد تظهر فإذا ألم بالمزاج ما أضعفه من كبر أو غيره نمت جراثيم الداء وظهرت أعراضه. نعم، تغلب الإسلام بقوته المساوقة للفتنة فكانت طبيعة الوجود مساعدة له على تدفق سيله الذي أروى العالم وامتداده الذي لم يعهد له نظير في التاريخ.

ج - الخلافة والخلفاء

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٦٤٩ - ٦٥٥]

(الطبعة الثانية).

بيننا في العدد الماضي معنى الخلافة وأهم شروطها ووظائفها وفائدة الاستخلاف ومضرته وأومأنا إلى ما كان من الخلاف في الدين بسبب التنازع في الخلافة. وقد ورد في الحديث: إن الخلافة تكون بعد النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثين سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً. وإذا أمكن النزاع في صحة رواية الحديث فلا مجال للنزاع في معناه، فلقد خرج بنو أمية بالخلافة عن حدها وبعثوا بها عن عهدتها وقال الملك بالعصية وانحرف القائمون عليه عن جادة العدالة العامة والعلم الديني وهما أقوى أركان الخلافة، وانغمسوا في الترف والنعيم واستبدوا بالأعمال كافة وأسرفوا في النفقات من بيت المال، إلا أنهم أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب والعدل في القضاء وحفظ الأمن والراحة، وكيف لنا بمثل ذلك اليوم؟ ولذلك كان الفقهاء يعتبرون خلافتهم شرعية وقد احتج الإمام مالك في الموطأ بعمل عبد الملك بن مروان ومع هذا فقد أذن الله تعالى بانقراض

ملكهم لفسق ملوكهم واسرافهم في أمرهم ولا سيما بعد عمر بن عبد العزيز العادل، فقد كان يزيد بن معاوية أفسق الفساق، وكان عبد الملك جباراً عنيداً على انه كان سياسياً ماهراً، وكان سليمان همه في قضاء شهواته، وكان الوليد الثاني بن يزيد سفيهاً مستخفاً بالدين وقد حفظ عليهم التاريخ سيئاتهم ولم يكذب يبلغ ملكهم قرناً واحداً حتى حدث فيه من البدع والفوضى في العلم والدين، ووضع الأحاديث واختلاقتها على الرسول، ما زعزع قوائم الدين ولبس أهله شيعاً وفرقه مذاهب، وذاق بعضهم بأس بعض، فكان مذهب الخوارج ثم المعتزلة والجبرية. ولولم يخرج الأمويون بالخلافة عن رتبها العلمية الدينية لجمعوا أمر المسلمين على أصول الدين الأساسية وأطلقوا لهم الحرية في النظر فيما وراءها وأنشأوا جمعية علمية دينية تحت رئاسة الخليفة للحكم في مسائل الخلاف ومواضيع النزاع تحظر الدعوة الى ما تحكم ببطلانه وتعذر بعده من لم يتضح له ظهور برهانها على برهانه.

ثم دالت الدولة الى العباسيين فساروا سيرة حسنة الى عهد أبناء الرشيد والفوضى العلمية على حالها. وقام المأمون العباسي على علمه وفضله ينتصر للمعتزلة ولكن انتصاره كان علمياً فقط. وغالى بعده المعتصم في الاعتزال وكانت فتنة القول بخلق القرآن التي اضطهد فيها الائمة المجتهدون وطبعت النفوس على الغلو المفرط. وظهر في زمن العباسيين الراوندية الذين قالوا بعبادة الخلفاء وقد قاتلهم المنصور والزيدية. بل ظهر ما هو أدهى من ذلك وأمر وهو مذهب الباطنية الذي ظهر بمظاهر كثيرة وسمي بأسماء مختلفة وأشهر فرقه الإسماعيلية وقد اجتهد رئيس الباطنية حسن الصباح في إفساد الدين الإسلامي والخروج به عن حقيقته. ولا ريب أن ضرر هذا المذهب - وأكثر فرقه من الدهريين - كان من أشد المصائب على الدين لأنه تعضد من القوة السياسية بانتصار الخلفاء الفاطميين له ودعوتهم إليه ومن القوة العلمية الدينية بما كان من اختلال أقوال غلاة المتصوفة

الذين خاضوا في الكلام على ما وراء الحس استناداً على الكشف فشايعوا الباطنية على أن للقرآن معاني غير ما تعطيه اللغة وأساليبها وفتحوا على الأمة باب التأويل الذي ضلت فيه الأمم من قبل .

هذا التفرق في الدين كان منتشرًا في البلاد الإسلامية والخلفاء وادعون ساكنون لا يهتمون لجمع الناس على عقيدة واحدة بل تركوا هذا السيل وما يجرف حتى بلغ مداه غايته ووقعت الفوضى الحقيقية بالتظاهر بالمفاسد والخروج على السلطان . فنهب الكرمانية الكوفة سنة ٢٨٥ في خلافة المعتضد ، وأغاروا في خلافة المكتفي على الشام وفلسطين ، وأوقفوا تجارة العراق والحجاز ، ثم حاصر رئيسهم أبو طاهر مكة وأخذها عنوة ، وهدم الكعبة وكان ذلك في أوائل القرن الرابع ، واستباح الحرم بسفك الدماء وأخذوا الجزية من الخليفة القاهر والخليفة الراضي . ثم سخر الله ملوك الهمدانية والახشيديّة للتكنيل بهم ، ولولا ذلك لاستفحل أمرهم ودامت لهم السلطة ولكن الباطل قد يطول أمده ولكنه لا يدوم «ان الباطل كان زهوقاً» [سورة الاسراء رقم ١٧ ، الآية ٨١] .

اجتهد الأمويون في اضعاف سطوة العرب في الحجاز لأن ضلعهم كان مع الهاشميين وتمكنوا من ذلك بواسطة عمالهم الظلمة كالحجاج وغيره . حتى أن المؤرخين قالوا إن الوليد بن عبد الملك ما بنى تلك القبة على صخرة بيت المقدس وجعلها بحيث يطاف بها إلا ليحول الناس إليها عن الكعبة!! وكثر اضطهاد العلويين في زمنهم فكان ذلك مغرياً لقلوب محبيهم على زيادة الشغف بهم وانتهى بالغلو الذي تعلم . ولما أمنوا في عهد العباسيين بعض الأمان ظهر من شأنهم ما غير قلوب بني العباس عليهم ولما عهد المأمون بالخلافة لعلي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق أرادوا خلعه واستبدال آخر به منهم فبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي . وكان من اضطهاد هؤلاء للعلويين وقتل الكثير من عظمائهم سرّاً وجهرّاً ما جمع كلمتهم ودفع بهم إلى تأسيس خلافة مستقلة فكانت الخلافة الفاطمية

وظهر معها مذهب الشيعة كمال الظهور فامتزج بمذهب الباطنية أتم الامتزاج، كما أنشأ الأمويون خلافة أخرى في الأندلس بعد تغلب العباسيين عليهم ونزع الأمر من يدهم .

اضمحلت الخلافة العباسية وتلاشت بما اضمحلت به الخلافة الأموية من الخروج بها عن العلم والعدالة وبعوارض أخرى عرضت عليها منها كثرة الفتن والبدع التي فرقت الكلمة ومنها إعطاء المأمون طاهراً ولاية خراسان يستقل بالحكم فيها لأنه قتل أخاه الأمين ففتح باب الاستقلال بالحكم دون الخليفة فكان منفذاً للخلل وتفريق السلطة الممزق للمملكة ومنها الاعتماد على الدخيل من العجم والترك الذين استفحل أمرهم فعجز المتوكل وغيره عن تلافي ضررهم واجتناب شرهم . ومنه عزل الخلفاء وقتلهم كما فعل الرشيد بالبرامكة حين استبدوا بالأحكام وكادوا يتفردون بالسلطة . ومنها إهمالهم أمر ممالكهم الغربية ولا سيما في إفريقيا وإرخاؤهم العنان فيها للأغلبية كإهمالهم أمر بلاد الأناضول حتى تمكن التتار منها . ولو ساروا بالخلافة على منهاجها الشرعي لقيدوا أنفسهم بالشورى حتى تحفظ لهم سيادتهم بحفظ سيادة الأمة وقوتها . وأين منصب الخلافة من الاستبداد والانفراد بالأحكام الذي كانوا يتوارثونه بقوة العصبية التي تقلد الخلافة للجهلاء كالمعتصم الى غير ذلك من اطلاق التصرف الذي سوغ لهم الإسراف في مال المسلمين وصرفه في الشهوات؟ ومكن المتوكل من حرق وزيره وتسليط الوحوش على داره واعداده المأدبة لرجال حكومته وقتله إياهم . فأين المسلمون يومئذ من المسلمين في عهد عثمان، رضي الله تعالى عنه ، وأين هذا الاستعباد والرضى بالضيم من الإفراط المؤدي إلى قتل الخليفة لأن بعض عماله كانوا ظالمين ولم يجعل بالانتقام منهم مع أنه قال على المنبر: أمري لأمركم تبع . لا جرم، إن التفريط شر من الإفراط لأن الإفراط فيه الكمال المطلوب وزيادة . واعتبر ذلك في السخي المبذر والشجاع المتهور وفي ضدهما تلقه واضحاً جلياً . فإن الشحيح المقتر يذهب

إمساكه بفائدة المال حتى كأنه معدوم . والجبان الهلوع ينتهك عرضه ويجني على حقيقته وهو واجم مستكين . وهذا التفريط في الأمم مطوح لها في مهاوي العدم وان شئت مثلاً للإفراط والتفريط في الحرية من حيث الأخذ على أيدي الحاكمين أو العبودية لهم فارم ببصرك الى الأمة الفرنسية والأمة العثمانية يتضح لك المراد وتهدي الى سبيل الرشاد، ومما شرحناه تفهم السر في قوله صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية» فان العصبية الجنسية (أي النسبية) التي أراد محوها وجعل النفوذ للأمة كلها في ضمن دائرة الشريعة هي التي فعلت بالمسلمين تلك الأفاعيل وأول من عمل على قلع المبدأ الديموقراطي الذي جاء به الاسلام بصورة معتدلة هم الأمويون وجرى العباسيون من بعدهم على آثارهم حتى عاد لأمراء المسلمين وملوكهم الاستبداد الآسيوي على أشده والعصبية النسبية على أتمها ولم يبق من المساواة التي جاء بها الإسلام إلا العدل في القضاء والأمن العام في غير أيام الفتن التي كانت مهب رياحها من قبل طلاب الملك أو الدعاة الى المذاهب، وكان أهل الذمة يرتعون في بحبوحة الراحة ويتفياؤون ظل الأمان الكامل لبعدهم عن مشار النزاع والشقاق .

هذا مجمل خبر الخلفاء العباسيين، بدأ في سلطتهم الخلل من زمن أعظمهم دولة وعلماً (المأمون)، واستفحل بعد ذلك حتى آل الى استبداد مواليهم عليهم كما علمت، ثم الى مشاركة السلاطين لهم في ذكر أسمائهم في الخطبة، ثم الى قناعتهم باسم الخليفة مع فقد السلطة بالكلية (انظر الى غرور الشرقيين كيف يقنعون بلقب ضخم لم يمسه شيء من حقيقة معناه). ولو قام بوظيفة الخلافة واحد منهم حق القيام فجمع الكلمة على مذهب واحد وعقيدة واحدة وقيد السلطة وحقق معنى الشورى لما تمزقت السلطة وتضعضع الدين وأضعف الأمة ضعفاً مكّن سيوف جالية التتار من رقابهم من غير ما مقاومة، كان التتارى يقول للرجل أعطني سيفك ونم

لاذبحك فيفعل، واتفق ان أحدهم ذبح مئة رجل في مكان واحد وهم ينظرون إليه يذبح الواحد بعد الآخر ولا يعدو عليه منهم أحد!! هكذا هدم أولئك الرؤساء أركان السيادة الإسلامية بهدم التعاليم الحكيمة التي جاءت بها الشريعة واتبعها الخلفاء الراشدون فحق للأمة ان تقول فيهم «ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا» [سورة الاحزاب رقم ٣٣، الآية ٦٧].

د - الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في مصر

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٦٧٠ - ٦٧٩ (الطبعة الثانية).]

أثبتنا في العديدين السابقين مجملًا من خبر الخلافة الأموية والخلافة العباسية وألعمنا إلى أن عدم سير الخلفاء بهذا المنصب العظيم على منهاجه الشرعي هو الذي قوض دعائم السلطة الاسلامية ورمى المسلمين بالفشل والوهن، وأشرنا إلى تعداد الخلافة ونذكر في هذا العدد مجملًا من خبر الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في مصر وما يتبعها ونختمه بذكر الخلافة التركية فنقول:

كان بعد بلاد الأندلس «إسبانيا» عن مركز الخلافة مع صعوبة المواصلات سبباً في اختلال النظام ومجرئاً لولاتها وحكامها على تكليف الرعية فيها فوق وسعهم. وكان من ثم من القبائل الحميرية والشامية والعراقية ينازع بعضهم بعضاً وينفسون على قبائل البربر الأفريقية، وانتهى ذلك بنزوع حزب عظيم الى تأليف حكومة مستقلة. وفي أطوار ذلك علم القوم ان عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الأموي فرّ من السفاح ولجأ الى قبيلة زناتة أعظم قبائل افريقية فطمحت إليه الأبصار وتعلقت به القلوب

ثم استقدموه فقدم وكان في قرطبة رئيسان من لدن الدولة العباسية يتنازعان السلطة وقيادة العسكر فقاوماه أولاً ثم سلما اليه وبايعه أهل الأندلس على الخلافة سنة ١٣٩هـ / ٧٥٧م فصارت الخلافة خلافتين أموية في الغرب وعباسية في الشرق.

كان خلفاء الأمويين في الأندلس خير خلقاء المسلمين بعد الراشدين وأقرب في سيرتهم إلى الشرع وأبعد عن الفسوق والبدع التي انغمس فيها أكثر أمويي دمشق وعباسي بغداد. فقد كان عبد الرحمن الأول عادلاً مصلحاً، وكان ولده هشام حليماً محسناً، وكان عبد الرحمن الثاني كجده هشام في الكرم والحلم ويزيده بالأدب والعلم، وكان محمد الأول والمنذر وعبد الله عادلين مصلحين. وجاء في آثارهم عبد الرحمن الثالث فجمع أشتات الفضائل لأنه أعطي القوتين العلمية والحربية فاجتهد في رفع منار العلوم والفنون وأدخل في اسبانيا علوم بغداد وبنى المباني العظيمة التي كانت زينة قرطبة ومفخر الأندلس كلها وانقاد له المغرب الأقصى.

سار هؤلاء الخلفاء كما قلنا سيرة حسنة بالنسبة الى غيرهم ولكن روح الشقاق والخروج على السلطان كان قد تمكن من الأمة وطمع في الخلافة كل من له وشيجة رحم بالخلفاء أو عصبية تناط بعصبيتهم. ولو جرى المسلمون على أصل الاختيار والانتخاب لسلموا من بلاء كبير.

عهد الخليفة عبد الرحمن لولده الثالث هشام الأول فكبر ذلك على أخويه الكبيرين سليمان وعبد الله فخرجا عليه وحاولا سلب الخلافة منه أو الاستقلال في بعض الأعمال (الولايات) فتغلب عليهما وعفا عنها ثم خرجا بعده على ولده الحاكم وطلبا قسمة البلاد.

أحدث هذا في نفوس العمال طمعاً في الاستقلال كانوا يخفونه في أبان القوة خوفاً على مناصبهم ويظهرون كمال الطاعة والانقياد يستعدون لنيل مطامعهم سراً ويريصون بالخلفاء الدوائر. فلما أنسوا منهم الضعف ظهر

المضمر وتوالى العصيان في الأقاليم وكان أشد الولاة عيثا وفسادا في أرض الأندلس والي طرسوس فقد كان شديد الساعد بمساعدة سليمان وأخيه عبد الله على عصيانهما المتوالي الذي أشرنا إليه. ثم أضرم القتال في شمالي البلاد ولاة سرقسطة ومريده وطليطلة وحوسقه باغواء رجل يدعى عمر وقد استقل عمر هذا وولده كالب بين بلاد المسلمين والافرنج نحو ثلاث سنين وادعى انه يعتبر الديانتين معاً وكان ينتهز الفرصة ويضرم نار الثورة وقد غلبه الخليفة محمد ثم عاد ولم يزل يوالي الثورات حتى زلزل المملكة زلزالاً، وأورثها خبالاً ووبالاً، وعصت قرطبة الحاكم بن هشام سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧م حين رتب لكلاءته خفراء جعل لهم مكسوس ما يرد من عروض التجارة فكانت ثورة اراد الخليفة العقاب عليها فانقض الناس على خفرائه وقتلوا منهم عدداً عظيماً. وقد كان الخلفاء بعد عبد الرحمن الأول يتخذون الخفراء من مغاربة الزناتة ثم أحضر عبد الله في سنة ٢٨٨هـ / ٩٠٠م أرقاء سلاوونية من القسطنطينية فعلموهم حركات السلاح واتخذوهم خدماً فاستراحوا بذلك من المشاجرات التي كانت تحصل بين الخدم من العرب والبربر وزاد ثقة الخلفاء بهؤلاء الخدم اعراضهم عن السياسة ولكن لما رأوا الخلل والضعف في الدولة زجوا بأنفسهم في المنازعات السياسية كما فعل اقاتلهم وأمثالهم في العباسيين، وقويت هذه الأمراض الداخلية حتى ضعف مزاج الدولة فلما جاءت الصدمات الخارجية زعزعتها ثم دمرتها تدميراً.

قلنا إن سيرة خلفاء الأندلس كانت أحسن من سيرة غيرهم في الجملة، ولكن لا نقول إنهم ساروا بالخلافة في منهاجها الشرعي وهو جعل الحل والعقد والنكت والفتل وسائر الشؤون العامة مقيدة بالشورى المتبعة كما كان الراشدون. ولو فعلوا ذلك لما نزل بهم البلاء ولكن السلطة كانت محصورة في شخص الخليفة ومتى كان الأمر كذلك فإن الشقاء يكون أقرب إلى الأمة من السعادة لأنها تكون تابعة لشخص واحد إذا استقام استقامت

وإذا زل زلت أو زالت. وكذلك كان شأن هؤلاء الخلفاء فقد بدأ الضعف والانحطاط فيهم في عهد هشام الثاني لأنه كان سيء التدبير بعيداً عن السياسة والأمر كله في يده فعجز عن مقاومة الأعداء فانحطت مهابة الخلفاء وخضدت شوكتهم واستفحل أمر الثوار والخارجين وكان الافرنج في أثناء ذلك في تقدم مستمر في الأعمال الحربية فتجرؤا على المسلمين وطفقوا يناوشونهم القتال ويتقصون بلادهم من أطرافها، وأولو الأمر مشغولون بالفتن الداخلية وسائر الناس قسمان: العلماء وقد أوغلوا في فنون الأدب إيغالا صرفهم عن كل ما سواه بل قادهم الى الترف والانغماس في النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهد. والصناع والزراع وهم أتباع كل ناعق ولا سيما في الأمم التي ليس فيها تربية قومية أمية وليس لها رأي عام. وتربية الأمة وتعميم العلم والتهديب فيها وإن كانا من أهم ما جاء به الدين الإسلامي إلا أن إستبداد الخلفاء والسلطين واستئثارهم بالأمور العامة وتقصير العلماء والمرشدين ذهب بهذين الأمرين اللذين هما روح الأمم وحياتها.

أما الخلافة الفاطمية فقد كانت شر خلافة أخرجت للناس تولدت فيها جرائم الفساد التي قضت على غيرها من أول عهدها كتفويض السلطة إلى الوزراء والقواد واستخدام الدخلاء وجعلهم قواداً. فقد كان الخليفة الثاني «العزیز» أول من اتخذ وزيراً قرن اسمه باسمه وأول من استخدم الترك وجعل منهم قواداً فكانوا سلاً في رثة الدولة نمت جرائمه رويداً رويداً حتى كان من أمره ما سنشير اليه قريباً.

صدمت هذه الخلافة الثورات من أوائل نشأتها أيضاً فقد خرج على الحاكم وهو الخليفة الثالث قوم ادعى زعيمهم أنه من ذرية هشام بن عبد الملك فاشتعلت نار الحروب الداخلية وكانت سجالاً ثم ظفر الحاكم بهم فأمات الزعيم شر ميتة. ومن سيئاتهم كثرة العهد في الخلافة الى الأحداث

فكان ذلك مدعاة لتلاعب الوزراء والقواد بالأمر فقد بويع الحاكم وسنه احدى عشرة سنة وكان الوصي عليه الوزير أرجوان فانفرد بالنفوذ وتجاوز الحد في الاستبداد، وولي المستنصر الخلافة في السابعة من عمره! وكانت أمه أمة سوداء اشتراها أبوه الظاهر من يهودي فتصرفت بالأمر كما أحببت وجعلت مولاهم الأول مستشاراً فكانت الخلافة الإسلامية تدار بيد يهودية، واستخلف الحافظ لدين الله أصغر أولاده إسماعيل الظافر بأمر الله وسنه سبع عشرة سنة فاستبد وزيره العباس بالأمر ثم ضاق ذرعاً من استهتار الخليفة واسرافه في الخلاعة والشهوات ورأى أن عاره يمس شرفه وشرف ولده لامتزاجهما به فأمر ولده أن يكيد له ويقتله ففعل ثم قتل أخويه به ليبراً من تبعة قتله في أعين الناس وولي ولده الفائز وعمره خمس سنين وقيل سنتان!! ومما حكاه عنه المؤرخون انه جمع الأمراء لمبايعته وحمله على كتفه ولما أمرهم بالطاعة والانقياد له صاحوا بالاجابة صيحة جديدة منكرة فزع لها الخليفة الحدث فبال على كتف الوزير! وصار يصصر بعد ذلك «فيارباه هل هذه هي خلافة النبوة التي يقوم بها دينك ويستقيم أمر عبادك؟».

وقد انحطت مصر في أيام الفائز هذا حتى كانت تعطي ضريبة عظيمة للصليبيين في القدس ليكفوا عن الاغارة على غزة وعسقلان. استغاث أهل القصر من وطأة الوزير عباس الثقيلة بصالح بن رزيك الأرمني الأصل الشيعي المغالي فقدم إلى مصر وتولى الوزارة بعد هرب عباس، ولما مات الفائز أراد الصالح ان يولي مكانه شيخاً من الفاطميين فأسر له في مجلس المبايعة أحد أصدقائه بأن سلفه في الوزارة كان أحسن تدبيراً منه لأنه لم يسلم نفسه لخليفة لم يتجاوز الخمس سنين، فاعتدها نصيحة، وسمى الحدث عبد الله بن يوسف خليفة ولقبه بالعاقد لدين الله فنشأ مستعبداً للوزير صالح وتزوج ابنته وسماه ملكاً ثم سلطاناً وأشرب منه الغلو في التشيع. وقد أحفظ لقب الملك أو السلطان قلوب أهل الخليفة على الوزير فأرسلت له عمته من ضربه ضرباً مبرحاً انتهى بموته (انظر الى

الاعتناء بشرف الألقاب الضخمة عند أرباب العقول السخيفة فقد قتل الصالح لقبه مع انه لم يزد سلطه ونفوذاً.

أما سيرة هؤلاء الخلفاء ووزرائهم فقد كان العزيز أديباً شجاعاً محباً للصيد، وفوض أمر الجند إلى جوهر القائد فاتح مصر ومؤسس الأزهر وولى الوزارة يعقوب بن يوسف وقرن اسمه باسمه وأمر أن تكون المكاتبات الرسمية باسمه وتختم الأوامر بختمه فأحسن هذا الوزير السيرة وكان فاضلاً مصلحاً فحسنت حال البلاد في عهده ولكن تفويض الأمر الى الأحاد إذا جاء بالخير يوماً يجيء بالشرور أياماً. فقد ولي بعد العزيز ولده الحاكم فطغى الوزير أرجوان الوصي عليه وبغى كما قلنا آنفاً ثم لما رشد الحاكم كان رشده عين الغي فإنه لم يكد يستبشر العلم بينائه (دار الحكمة) وما اجتلبه إليها من الكتب القيمة واباحتها لكل قارئ وناسخ حتى غشيت العلم والدين والمسلمين والذميين ظلمات من ظلمه واستبداده وكفره وعناده المتولد ذلك كله من مرض في دماغه وخلل في عقله.

فقد ظهر في عهده مذهب الضرارية نسبة لرئيسهم ضرار أستاذ حمزة صاحب الرسائل الكثيرة في بيان المذهب الذي يدعو الى عبادة الحاكم فنصرهم الحاكم ثم ادعى الألوهية وفتح سجلاً لكتابة أسماء المؤمنين به فكتب بالتسليم له نحو سبعة عشر ألفاً ولقد كانوا كلهم مكرهين لأنه كان ينتقم أشد الانتقام ممن يخالفه ولكن مدرسته (دار الحكمة) ودعائه دعاة الفتنة قد أضلوا خلقاً كثيراً وتأسس بذلك مذهبه وثبت حتى أن في الناس من يعبدّه حتى اليوم!! فهل كان المسلمون بهذا الاستسلام مهتدين بهدي الإسلام!! حاش لله. أليس هؤلاء الرؤساء الضالون هم الذين شوهوا وجه الدين وانحرفوا بأهله عن صراطه المستقيم؟ ألا يحق لمجموع الأمة أن يقول في هؤلاء السادة «ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» [سورة الاحزاب رقم ٣٣، الآية ٦٧].

والحاصل إن الحاكم كان يسفك الدماء بغير سبب ويظلم أهل الذمة بدون سند فقد هدم الكنائس في مصر والقدس ثم بنى كنيسة القيامة على نفقته وكان يأمر وينهي بما لا يعقل له معنى كالأمر بسب السلف قولاً وكتابة على الجدر بألوان مختلفة، وكان يهي عن أكل الملوخية والجرير وبيع الزبيب، وقد جاء من بعده المستنصر وكان أذنًا إمعة فاسقاً ضعيف الرأي فكانت الخلافة إسمًا بلا مسمى وفي عهده ادعى رجل أنه هو الحاكم وكان يشبهه فتبعه قوم واجتمعوا عند قصر المستنصر وصاحوا هذا هو الحاكم فنكلت بهم الدولة .

وقد استبدت أم المستنصر بالأحكام وتلاعبت بتغيير الوزارة وخرج معز الدولة إلى حلب على الخليفة وحاول الاستقلال فأرسل إليه الجيوش المصرية فغلبها ثم لم يشأ الهجوم على مصر ولكنه أرسل زوجته وابنه ليعقدا الصلح مع الخليفة فاستمال الخليفة جماها البارع واستنزله عن حلب لزوجها!! وخرج عليه الأمير معز بن باديس في الغرب وجعل الخطبة باسم القائم بأمر الله العباسي فحاربه جيش المستنصر ست سنوات فدوخه ولكن نفوذ المستنصر انتشر حتى أن أمير اليمن علياً بن محمد الصالحى خطب باسمه بل إن الأمير أرسلان السباسيري قائد جيوش الخليفة القائم بأمر الله العباسي رفض الطاعة لخليفته ورفع في بغداد العلم الفاطمي الأبيض ودعا للمستنصر على منابرها سنة ٤٥٠هـ [١٠٥٨ م] وفعل مثله أهل واسط والكوفة وأكثر المدن الشرقية الكبيرة واضطر القائم بأمر الله أن يوقع على صك يتضمن أن الحق في الخلافة كله للخلفاء الفاطميين ثم دب نفوذ المستنصر إلى خراسان وشرقي بلاد فارس ولولا إن حاكم تلك البلاد رأى أن رسوخ قدم العلويين هناك يضره فأوقف سير نفوذهم وسار بجيشه إلى بغداد فأعاد السلطة العباسية لبلغ نفوذهم آخر بلاد العباسيين وأما مكة المكرمة فكانت تتنازعها السلطان فتغلب هذه تارة وهذه تارة .

لما قوي الخلل استفحل أمر الأتراك وكانت أم الخليفة استكثر من

أبناء جنسها السودان وجعلتهم مناصبين للأتراك فسفكت بينهما دماء غزيرة وكانت بلاد مصر قسمين الوجه القبلي «الصعيد» في قبضة السودان والوجه البحري في قبضة ناصر الدولة الوزير، قد ضيق هذا على الخليفة بعدما استنزف الأتراك ثروته ونهبوا قصره حتى لم يبق له ما يلبسه إلا الأسمال الخلقة البالية التي لا تكاد تستر عورته ثم أشفق عليه فعين له مئة دينار في الشهر. ولما لم يبق للأتراك ما ينهبون اقتسموا المكتبة العلمية وكان فيها نحو عشرين ألف مجلد وكان لحاكم الإسكندرية ابن المحترق قسم منها بعثوا به إليه فنهبه العربان وأخذوا جلود الكتب للأحذية وأحرقوا الباقي!!!.

وقد اغتتم بدر الجمالي نهزة الخلل فاستقل في سوريا ثم استدعاه المستنصر للقاهرة مستنصراً به فجاءها وقتل أمراءها عن آخرهم ثم أسرف في قتل أمراء القطر وأصحاب النفوذ فيه حتى أخضع البلاد فقلده الخليفة السيف والقلم وإمارة الجيوش فانفرد بالحكم وسار سيرة حسنة في إصلاح البلاد وترقية الزراعة والتجارة وتشيد المباني الضخمة من المساجد وغيرها. وقد خرجت صقلية (سيسيليا) في عهد المستنصر من سلطة المسلمين لاهمال أمرها مع خصبها وعظمتها.

وكان الأمر باحكام الله مولعاً بالملاهي مغرمًا بالنساء ولا سيما البدويات فقتله الباطنية وهو قاصد زيارة معشوقة له بدوية. وتولى بعده ابن عمه الحافظ لدين الله وكان غراً بعيداً عن السياسة ومذاهبها مقتنعاً بالسلطة الدينية (الكاذبة) ومفوضاً أمر الإدارة إلى الوزراء الذين قتل حسادهم خيارهم لقربهم منه. وتولى بعد الحافظ ابنه الظافر بأمر الله كما قلنا وكان منقطعاً لسماع القيان والاستمتاع بالحسان غير مبال بما يتهدد شرقي ملكه من الصليبيين وغربيه من أمير صقلية الذي زحف الى مصر. ثم انتهى هذا الخلل بمجيء الملك الحازم صلاح الدين الأيوبي الذي أزال هذه الخلافة الفاسدة المضرة وأسس الدولة الأيوبية خاضعة للخلافة العباسية

الإسمية. وأقبح شيء حصل في خلافتهم الدعوة الى مذهب الباطنية، فان الدعوة الى الدين من مقوماته وقد أهملها المسلمون في كل عصر وقام بها دعاة الفاطميين لأجل ابطال الإسلام وسنشرح ذلك في محله، ان شاء الله تعالى.

وأما العثمانيون فلم يكن قيامهم بدعوى الخلافة الدينية بل قاموا بعصية الملك وأول من فطن للرئاسة الدينية عاقل زمانه السلطان سليم ياوز، ولو تم له ما يتمنى لبني للإسلام بناء لا ينقص، فقد كان من أمانيه جعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ومد نفوذه في البلاد الإسلامية كبلاد العرب والهند. وسنين ذلك وفوائده في فرصة أخرى. ثم لم يكن لاسم الخلافة شأن في آل عثمان حتى جاء مولانا السلطان الحالي عبد الحميد خان أيده الله تعالى فأحى هذا اللقب الشريف واجتهد في جمع كلمة المسلمين عليه. وسنكتب مقالة مخصوصة في هذا الموضوع نبين فيها رأينا فيما تحيى به الخلافة الاسلامية الحياة الطيبة، ان شاء الله تعالى.

هـ - أهل العلم والتعليم

[المنار ج ١ (١٨٩٨) ص ٦٩٦ - ٧٠٤]

قلنا إن سادتنا وكبراءنا هم الخلفاء والأمراء الذين بيدهم أمر الأحكام، والعلماء الذين بيدهم زمام التعليم، والمرشدون الذين تصدوا للتربية العملية، وقد مضى الكلام على الخلافة والخلفاء وفي غرضه إلماع إلى سيرة الأمراء، وأبنا أن ذنب الخلفاء الأكبر الذي ضيع الدين وفرق أهله شيعاً هو عدم جمع المسلمين على عقيدة واحدة لا مجال للخلاف فيها، والاقرار على أن كل ما وراءها يعد من الأبحاث العلمية والتفنن في طرق الفهم ولا يمس أصل الدين، والخطر على الدعوة والتعليم بما يمس العقيدة الأساسية

المتفق عليها كما كان عليه الأمر في عهد خلافة الراشدين . فقد خاض صبيغ (كعليم) التميمي على عهد عمر، رضي الله تعالى عنه، في المشابه وسأل عن تأويل القرآن فجلده عمر حتى اضطربت الدماء في جلده، وفي رواية حتى شجه وسال الدم على وجهه . ولما قال: جئت أبتغي العلم، قال له: بل جئت تبتغي الضلالة، ثم قال: احملوه على قتب وأخرجوه إلى بلاده، ثم ليقيم خطيباً فليقل إن صبيغاً طلب العلم فاخطأه، وكتب إلى أهل البصرة أن لا تجالسوه فكان بينهم كالبعير الأجرب لا يجلس إلى قوم إلا تفرقوا عنه وتركوه وحده . ولكن الخلفاء والملوك تركوا الناس وشأنهم من الفوضى العلمية والدينية زمنًا، وانتصروا للبدعة طوراً ودعوا إليها بل إلى الكفر في طور آخر (كالفاطميين الذين دعوا إلى مذهب الباطنية)، وكل ذلك مرت الإشارة إليه في المقالات السابقة . ومن جراء هذا قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: «الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٤١]. فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم .

ومن سوء حظ المسلمين أن فساد الخلفاء والأمراء تبعه في الغالب فساد العلماء الذين كان يرجى منهم تقويم العوج وإصلاح الخلل ومداواة العلل، واتبعوا خطواتهم في كل فج وساعدوهم باسم الدين على كل أمر، وفي كل عصر من العصور السالفة لم يرج في سوق العلوم حتى الدينية إلا ما راج عند الأمراء والسلطين، قال الإمام حجة الإسلام الغزالي في بيان سبب إقبال الخلق على علم الخلاف في كتاب العلم من أحياء علوم الدين ما نصه :

«إعلم أن الخلافة بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تولاهها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً

في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صغو الدين (بكسر الصاد أي جانبه) ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء الى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات^(١)، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم، فاشربوا لطلب العلم توصلا الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا منهم الولايات والصلوات فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال، فأصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله، وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات. ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يستمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فغلبت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاستغفال

(١) المنار: كان ذلك الإلحاح من حسانات الخلفاء وذلك الاعراض من سوء حظ المسلمين اذ كان سبباً في خروج القضاء عن أهله وتوسيده لمن شايع الظلمة على الافساد.

بالتأوى الدين وتقلد أحكام المسلمين إشفافاً على خلق الله ونصيحة لهم .
ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح
باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة
والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت
نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة،
رضي الله عنهما، على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم واثالوا
(انصبوا) على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص،
وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد، رحمهم الله تعالى،
وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذاهب
وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها
أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن، وليس ندري
ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار. فهذا هو الباعث على الإكباب
على الخلافات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى
الخلاف مع إمام آخر من الائمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً
معهم ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا
مطلب لهم سوى التقرب من رب العالمين!!!»^(١).

أقول هذا ما قاله حجة الاسلام في جماهير علماء المسلمين الى عهده في
أواخر القرن الخامس، والقرون الخمسة الأولى خير زمن المسلمين علماً
وعملاً وتمسكاً بالدين، وقد كان الأمر من بعد ذلك أدهى وأمر: جهالة
عمياء، وليال ظلماء، وانتشار غوغاء، ولا يعني الحجة بكلامه إلا الغالب
الذين كان بيدهم الزمام، فأضلوا الأمة بغش الإمام، وقد تولد من
خلافهم في قواعد العقائد التفرق في الدين وتكفير بعضهم بعضاً إعراضاً
عن القرآن واتباعاً لشهواتهم وحظوظهم. أخبر الله تعالى انه وصى الأنبياء:

(١) أبو حامد الغزالي، احياء علوم الدين. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى. لا.ت. ج ١ ص
٤١ - ٤٢.

«أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» [سورة الشورى رقم ٢، الآية ١٣]. وقال تعالى: «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء» [سورة الانعام رقم ٦، الآية ١٥٩]. وكفى بذلك تهديداً، وأي تهديد أعظم من اثبات أن المفرقين لا تجمعهم بصاحب الدين جامعة ما؟؟ وقد نهى عن ذلك نهياً صريحاً زيادة عما تضمنه هذا الإخبار من النهي حيث قال: «ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون» [سورة الروم رقم ٣٠، الآية ٣٢]. قال المفسرون أي فرقاً تشايح كل فرقة إمامها الذي أضلها عن دينها. والآيات القرآنية الأمرة بالاتحاد في الدين وعدم التفرق فيه كثيرة «وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» [سورة الانبياء رقم ٢١، الآية ٩٢]. «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٣].

ولو أن غرضهم قمع المبتدعة والنضال من الحق كما زعموا لما حدث عن ذلك ما حدث من التفرق والتشيع الذي شق عصا الجماعة ورمى المسلمين بالانقسام الذي أوصلهم الى ما نرى. أليس قد كان الخلاف بينهم لفظياً في كثير من المسائل كما أوضحه المتأخرون بعد انتهاء عصور المشاغبات والغلو في التعصب والتحزب؟ فكيف خفي عليهم ذلك وهم أعلم من المتأخرين الذين اهتموا اليه لولا غشاوة الهوى على أبصارهم ووقر الانتصار للنفس في أسماهم؟

أليس منها ما لا فائدة من الخلاف فيه ولا يترتب عليه حكم كمسألة من هو الأحق بالخلافة من الصحابة التي كانت أعظم صدمة على الاسلام والمسلمين ولا تزال كذلك الى اليوم؟ إذ هي التي قسمت المسلمين الى قسمين كبيرين وهما السنية والشيعة. وقد أطال في بيان التلبس في تشبيه هذه المظاهرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف الإمام حجة الاسلام [الغزالي] في الاحياء فليرجع اليه من شاء، وما أحسن ما قاله في هذا المقام استاذنا الأكبر [الإمام محمد عبده] صاحب رسالة التوحيد وهو:

«بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط بها القوم
اختباط أخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد، حتى إذا التقوا
في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر
عدو يريد مقارعته على ما بيده، فاستحرب بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون
حتى تساقط جلهم دون المطلب، ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع
الرشد الى من بقي وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على
بلوغ ما أملوا ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين».

ولو شئتُنا بيان الفتن والحروب التي تولدت من هذه الخلافات لاحتجنا
إلى تأليف مجلدات.

وأما الخلاف في الفروع فهو وإن كان دون الخلاف في قواعد العقائد
فقد نجم عنه فتن كبيرة وأضر بالمسلمين ضرراً عظيماً، ناهيك بالفتنة التي
أثارها دخول العلامة ابن السمعاني في مذهب الشافعية، والفتنة التي هاجر
بسببها امام الحرمين والامام القشيري واضرابهم من وطنهم، والفتنة التي
دفعت بالشافعية للانتصار بالتثار على الحنفية فكان ذلك سبب هلاك
الفتن، ولم تزل كتب الفقه محشوة بما يخجل المنصف من قراءته كقول
بعض الحنفية يجوز للحنفي ان يتزوج بشافعية قياساً على الذمية، وقد أفق
بعض حنفية طرابلس الشام لهذا العهد بعدم جواز الاقتداء بشافعي قال
لأن الشافعية يشكون في ايمانهم!! «والشك في الايمان كفر» لأن أئمتهم
جوزوا قول أنا مسلم ان شاء الله، فذهب بعض الشافعية الى مفتي
طرابلس وطلب منه قسمة المساجد فتلافى الأمر المفتي (جزاه الله خيراً)
واستحضر ذلك الحنفي ووبخه ونهاه.

والحاصل إن المسلمين بدأوا ينحرفون عن هدي الدين الإسلامي من
العصر الأول، فقد نقل العلامة الشاطبي في الاعتصام وغيره ان الصحابة
الذين عمروا كثيراً كانوا ينكرون ما رأوا في آخر حياتهم أشد الإنكار،

حتى قال أبو الدرداء وأنس بن مالك (رضي الله عنهما) لو رجع النبي، صلى الله عليه وسلم، الى الدنيا لم يعرف من دينه الا هذه الصلاة، وقد روينا عن شيخنا ابي المحاسن القاوقجي رحمه الله تعالى حديثاً مسلسلاً بقوله: رحم الله فلانا فكيف لو رأى زماننا هذا وهو ينتهي الى عاثشة، رضي الله عنها، فانها أنشدت قول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

وقالت: رحم الله لبيدا فكيف لو رأى زماننا هذا. وفي كلام أمير المؤمنين علي، كرم الله وجهه، من شكوى الانحراف عن الدين العجب العجائب. هذه هي الدلالة القولية وحسبك بدلالة الأثر فلولا انحراف العلماء والخلفاء لما انحرفت العامة ولما وقع المسلمون بهذه الرزايا والمصائب التي انتهت بهم إلى فقر العقول وفقر الأيدي وضياع السلطة وتمزقوا كل تمزق. وجملة ذنوب العلماء. ١ - الاختلاف في الدين. ٢ - الإعراض عن القرآن والسنة. ٣ - الإعراض عن علم التهذيب الذي هو لبّ الدين. ٤ - الإعراض عن معرفة سنن الكون التي أرشد اليها القرآن كثيراً. ٥ - معاداة العلوم والفنون التي عليها مدار العمران. ٦ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى الدين. ٧ - ترك الخطابة في يوم الجمعة عما شرعت له. ٨ - الخروج بالدين عن سذاجته بتوسعهم في الواجبات العينية وصعوبة الكتب بحيث صارت الحنيفة السمحة التي كان يتلقاها الإعرابي من صاحب الشريعة في مجلس واحد لا يمكن أن يعرفها الإنسان إلا في سنين طويلة ولا سيما اذا كان له عمل آخر. ٩ - عدم مراعاة الزمان في أحكام المعاملات القضائية حتى اضطر الحكام الى العمل بالقوانين الوضعية، مع ان الشريعة أوسع من ذلك وأصولها تناسب كل عصر، وقد أوصلنا الجمود على مذهب واحد الى تضييع الشريعة فكان الاختلاف في الفروع أيضاً نقمة مع انه لم يكن في الأصل الا رحمة. ١٠ - عسر طريقة

التعليم . وكل موضوع من هذه المواضيع يحتاج الى كلام كثير وموعدنا
الأعداد الآتية ، ان شاء الله تعالى .

و - المرشدون والمربون - أو -

المتصوفة والصوفيون

[المفاز ج ١ (١٨٩٨) ص ٧٢٢ - ٧٣٠]

الإسلام دين علّم الناس أن يعتمدوا في سعادتهم الدنيوية والأخروية
على أعمالهم النفسية والبدنية، وفضل أهل العمل والكسب على المنقطعين
لعبادة الله المعتمدين في أمر معاشهم على من يموّنها من أهلهم أو غيرهم،
وأقام لكل قاصر ولياً يتولى شؤونه ويعنى بتربيته حتى يرشد ويقوى على
العمل وعند ذلك يدعه وشأنه، وجعل لكل عاجز فيما يتعهدده وينفق عليه
ويقوم بأمره الذي عليه مدار حياته، وجعل هذه الولاية والقيام في الأقربين
لأنهم أولى بالمعروف وأقرب الى العناية الصحيحة بأمر الصغير والعاجز على
ترتيب معروف في فن الفقه، فمن لم يكن له أقارب فعلى أهل وطنه من
المسلمين الذين جعلهم الإسلام عائلة واحدة وفرض عليهم القيام بأمر
بعضهم على ترتيب يراعى فيه الأقرب فالأقرب نسباً وجواراً ووطناً وديناً .
بل فاض عدل الإسلام وعمت رحمته فعلم الأخذ به أن يشملوا
بعنايتهم هذه كل من تفيأ ظلالهم ودخل في سلطانهم من أي دين كان،
فهو يحض على تربية اليتيم وإطعام الجائع وكسوة العاري واعتهاد الضعيف
وتجهيز الميت من غير المسلمين إذا لم يوجد لهؤلاء أولياء من ذويهم وأقاربهم
وجعل ذلك حقاً على المسلمين للزمين على تفصيل يعرف من الفقه .

ومن وظائف الحكم إلزام المسلمين بما ذكر مع مراعاة شروطه اذا هم
قصروا فيه .

وغرضنا من هذه الكلمات هنا بيان أن تعميم التربية واجب في
الإسلام . وكما تجب تربية كل صغير حتى يكبر ويرشد يجب الأخذ على يد
كل كبير اذا اجترح السيئات واقترب المنكرات أو أخل بالأداب العامة
وعبث بمصالح الناس وذلك بالزامه بترك المنكر فعلاً أو إرشاده الى ذلك
قولاً . ومن أخل بهذا الواجب هبط إلى أسفل درج الإسلام وسقط في
أشعف الإيمان الذي ليس بينه وبين الكفر إلا خطوة واحدة (اذ لا معنى
لكونه أضعف الإيمان إلا هذا) وهذا على تقدير انه ساخط على من فعل
القيح منكراً له في قلبه كما ورد في الحديث الشريف . وفرض مع هذا
ايضاً القيام بالأمر بالمعروف والدعوة الى الخير وإنذار الناس بعواقب
التفريط لعلهم يرجعون .

على هذا كان الإسلام في مبدأ ظهوره ! ولو ظل أهله على منهاجه القويم
وصراطه المستقيم لما ضل أحد منهم عن سعادته ولما أهمل أمر التربية
والإرشاد من الكافة ، وانفردت به فئة من الناس سارت في الجادة زمناً
وانحرفت عنها أزمانا وجعلت عنايتها في التربية الروحية فقط وأفرطت في
الزهادة كما أفرط الذين من قبلهم فأهملوا مصالح الدنيا ولم يوفوا البدن
حقوقه وذلك مما جاء الإسلام لتعديله . وبالجمله ، انهم حتى في طور كمالهم
لم تكن تربيتهم وإرشادهم على الوجه الذي يكفل للأمة سعادة الدارين .
ولذلك لم يتبع طريقتهم في كل عصر إلا بعض الناس وصاروا فرقة مستقلة
سميت الصوفية عدها بعض المؤرخين من الفرق المشتقة من الإسلام
المخالفة لسائر الفرق في الأصول كالمعتزلة والشيعة وأهل السنة . وكيف لا
وقد عاملهم فقهاء أهل السنة وحكامهم بأشد ما عاملوا به سائر الفرق
فحكموا ببدعة بعضهم وكفروا كثيراً من أكابر شيوخهم وقتلوا منهم خلقاً
كثيراً ثم غلوا بعد ذلك في تعظيمهم والتسليم الأعمى لهم غلواً كبيراً .

من هم الصوفية وما هو شأنهم؟ قال الامام القشيري في رسالته [الرسالة القشيرية] ما حاصله: إن المسلمين بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى الصحابة إذ لا أفضلية فوقها ثم سمي من أدركهم التابعين ثم من أدركهم تابعي التابعين ثم تباينت المراتب فقليل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ثم ظهرت البدع وحصل التداعي من الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهداً فانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة. انتهى.

وقال العارف الشهاب السهروردي في عوارف المعارف بعد ما ذكر الصحابة والتابعين ما حاصله: «ثم لما بعد عهد النبوة وتوارى نورها واختلفت أيضاً الآراء وكدر شرب العلوم شرب الأهوية وتزعزعت أبنية المتقين واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكشف حجابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية واغتنموا العزلة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة أهل الصفة تاركين الأسباب مبتهلين الى رب الأرباب فأنمر لهم صالح الأعمال وسني الأحوال وتبها صفاء الفهوم لقبول العلوم وصار لهم بعد اللسان لسان وبعد العرفان عرفان وبعد الإيمان إيمان كما قال حارثة: أصبحت مؤمناً حقاً لما كوشف بمرتبة الإيمان غير ما عهد فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها تعرب عن أحوال يجدونها فأخذ ذلك الخلف من السلف حتى صار رسماً مستمراً وخبراً مستقراً في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به فالإسم سمتهم والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم». انتهى.

أقول يعلم من كلام هذين الإمامين في التصوف وغيرهما أن ما كانوا

عليه لا يمكن أن تكون عليه الأمة بتهامها لأن العزلة والانفراد وترك العمل
للدنيا يفضي الى ضعف الأمة واضمحلالها وينتهي ذلك بزوالها، وأنه قد
تجددت لهم علوم ومعارف وأحوال لم تكن تعهد عند سلفهم من الصحابة
والتابعين وذلك كالكلام على ما وراء الحس والعقل من العوالم الغيبية وهو
ما يسمونه علم الأسرار. قال ابن الفارض. رحمه الله تعالى:

ومن ثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

ولهم علوم كثيرة جداً تعلم أسماؤها من كتاب الفتوحات المكية وإنما
جاءهم ذلك من الرياضات والمجاهدات النفسية والعناية بمعرفة ما انطوي
عليه الروح الإنساني من الخواص والمزايا والقوى الإدراكية والتأثيرية ومن
ذلك ما يسمونه الكشف والإمداد والتصرف بالهمة. ولقد سبقهم إلى ذلك
فلاسفة اليونان والهنود ولكن الصوفية وصلوا منه إلى غاية لم يتنه إليها
غيرهم. وكل هذا من علم أسرار الكون وطبائع الخلق كالعلم لنواميس
النور والكهربائية وخواصهما ولكنه لما جاء بصيغة دينية من رجال الدين
حدث عنه ما أشرنا إليه من حط الفقهاء والاحكام على أهله وتكفيرهم
وسفك دمائهم كما فعلوا مع الفلاسفة الذين بحثوا في بقية أسرار الخلق
وصبغوا علمهم بصيغة الدين وخلطوه بعلم العقائد الذي سموه (علم
الكلام) وكان اضطهادهم للصوفية أشد من اضطهادهم للفلاسفة كما
يعلمه من قرأ التاريخ وما ذلك إلا لأن علم الصوفية الغريب عن فهم
الفقهاء أمس بالدين بل هو ثمرة التمسك بفضائل الدين وآدابه كما يقول
عامة أصحابه ولذلك مزجوه بالقرآن والسنة مزجاً ولكن جاء بعضه مخالفاً
لظاهر الشرع.

ليس غرضنا من هذه المقالة بيان مواضع الخلاف بين الفقهاء والصوفية
ولا بيان الصواب والخطأ في ذلك وإنما نقول إن الصوفية انفردوا بركن
عظيم من أركان الدين وهو التهذيب علماً وتخلقاً وتحقيقاً ولم يكن أمرهم في

أول العهد الا عمل صالح وتخلق بالأخلاق الفاضلة . ثم لما دونت العلوم في الملة كتب شيوخ هذه الطائفة في الأخلاق ومحاسبة النفس فجاءوا بما قصرت عنه الفلاسفة الأولون ثم حدث فيهم الخوض في الكلام على ما وراء الحجاب وشرح ما تنتجه المجاهدة من الأذواق والمواجد وعجائب الخيال ومزجوا كلامهم بالفلسفة العقلية والطبيعية والعلمية وسلكوا في فهم القرآن مسلك طوائف الباطنية الذين كانوا أعظم صدمة على الإسلام فذهبوا الى أن للقرآن معاني غير ما تعطيه اللغة وأساليبيها وإشاراتها وزعم الباطنية انما هي المقصودة بالذات وقد جاء الصوفية من ذلك بالصحيح والفاقد والباطل الذي ينابذ القرآن والدين بالكلية وقد ورد في حسان الاخبار وصحاحها «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» والمراد برأيه هواه الذي يؤيد مذهبه . نعم ، إن لبعض الصوفية فهماً في القرآن ترقص له العقول وتعجز عنه العلماء الفحول وقد أنكر الإمام الغزالي على المتصوفة نحو تأويل فرعون بالقلب القاسي والاحتجاج على مجاهدته بقوله تعالى «اذهب الى فرعون انه طغى» [سورة طه رقم ٢٠ ، الآية ٢٤] . وان كان الغرض به صحيحاً ولهم من تحريف الكلم عن مواضعه ما هو أشد من هذا كقول بعضهم في قوله تعالى «ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها» [سورة النمل رقم ٢٧ ، الآية ٣٤] الملوك هي الله «تعالى عن ذلك» والقرية القلب والافساد تبديل الصفات المذمومة بالممدوحة وكقول بعضهم في قوله تعالى : «من ذا الذي يشفع عنده» [سورة البقرة رقم ٢ ، الآية ٢٥٥] من ذل ذي يشفع أي من أذل نفسه ينال مقام الشفاعة عند الله تعالى . وقد قال ابن الصلاح الفقيه الشهير في فتاويه وجدت عند الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير فان كان اعتقد ان ذلك تفسير فقد كفر ثم قال وأنا أقول ان الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يقله تفسيراً ولا ذهب مذهب الشرح للكلمة فانه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وانما ذلك منهم تنظير ما

ورد به القرآن والنظير يذكر بالنظير ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الايهام والالباس . انتهى .

أقول وقد وقع بالفعل الالتباس فضل به كثير من الناس وما كان من غرائب الصوفية صحيح المعنى في ذاته كان خطوة موصلة لأباطيل الباطنية عند غير البصير المحقق والذي يدرك الفرق قليل . والتفسير المطبوع المنسوب لسيدى الشيخ الأكبر هو لبعض الباطنية وفيه من تحريف القرآن ما لم يأت بمثله محرفو التوراة ومع ذلك تزين به المكاتب وتحترمه العلماء وقد قال العلامة النسفي في عقائده: النصوص على ظواهرها والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، قال العلامة التفتازاني وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية .

هذا من شر ما ترتب على مذهب التصوف من مضرة الأمة وهو ما ذكرناه أولاً من الإفراط في الزهادة وترك الفعل للدنيا وقد نفر أهل العلم والتعليم من النظر في كتبهم لا سيما في هذا الزمان . ومن العجيب أن أهل هذا العصر يقصدون شيوخ الصوفية ولا يعترضون على أحد منهم ولا على شيء من عادات أهل طرائقهم وإن كان بدعة وضلالاً! بل يقيمون النكير على من أنكر عليهم ولو بالحق ومع ذلك لا يلتفتون لكتبهم ولا يتدارسونها وإن كانت لأئمتهم الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن زعماء ان هذه كماليات لا يطالعها إلا من أراد أن يتفرغ لها! . وبذلك اندرس علم تهذيب الاخلاق الذي هو روح الدين وقوامه لأنه لا يوجد الا في كتبهم وكتب الفلاسفة وكتبهم هي التي تذكره على الطريقة الدينية . أليس من العجيب أن الأزهر - أعظم المدارس الدينية عند المسلمين - لا يقرأ فيه علم تهذيب الاخلاق الذي لا دين بخلافه؟! إنني كنت اطالع في كتب الاخلاق والتصوف قبل طلب العلم وكنت مولعاً بها وأذكر أنني قلت لبعض شيوخنا [الشيخ حسين الجسر] إقرأ لنا الجزء الثالث من احياء علوم الدين [للغزالي] بدلاً من مقامات الحريري القليلة الجدوى فأبى عليّ ذلك

متعللاً بما لا حاجة لشرحه! فالصوفية قد نفروا العلماء من كتبهم بما ذكرناه من شأنهم فشدة زهادتهم في الدنيا كانت سبباً لزهادة المسلمين في الدنيا والآخرة معاً! وكلامهم في الغوامض التي تخالف ظواهر الشرع مع التسليم لهم فتحت باباً لإفساد العقائد وصار كل زنديق يدخل ما يشاء في كتب الدين منسوباً لأولياء الصوفية وقد شرحنا بعض هذه المفاسد في مقالات سابقة ولا سيما مقالات الموالد ومقالات سلطة مشيخة الطريق الروحية وبيننا سريان النزعات الوثنية في المسلمين بسببهم. ومن يستطيع اليوم أن يتجرأ بالانكار على شيء من شؤونهم وان برأ منه الائمة العارفين الذي ينسبونه لهم؟؟ أي عاقل يصدق أن السيد عبد القادر الجيلي وهو إمام في كل العلوم والمعارف الاسلامية يقول: اعطيت سجلاً مد البصر فيه اسماء اصحابي ومريدي الى يوم القيامة وقيل لي قد وهبوا لك! . أيقول هذا عبد القادر والنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم يقول لبنته سيدة النساء «يا فاطمة يا بنت محمد اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً». هل الذين قال الله تعالى فيهم «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» [سورة التوبة رقم ٩، الآية ٣١] كانوا يلقبون أولئك الأحرار والرهبان بأعظم مما لقب به هذا العبد الخاضع لله تعالى عبد القادر الجيلي الذي ذكروا من ألقابه التي ينادي بها «يا محيي الرمم يا بارئ النسم يا ضياء السموات والأرض» هل قالوا فيهم أعظم من قول بعض جهلاء أهل الطريق «ان أحد مريدي الغوث الأعظم مات فسأله الملكان عن ربه ودينه ونبيه، فاجابها بأنه لا يعرف إلا شيخه عبد القادر فأراد الملكان ان يوقعا به العذاب فجاء الغوث الأعظم فشفع له وأنجاه الله!!» ألهم، إن هذا ضلال مؤد للإباحة يتبرأ منه الشيخ عبد القادر قدس الله سره الطاهر وكل من يؤمن بالله واليوم الآخر ومثله في كتب أهل الطريق كثير.

سيقول السفهاء من الناس إن مثل هذه الانتقادات لا ينبغي أن تنشر في الجرائد ولكن الكتب التي هي فيها قد طبعت مراراً كثيرة وتوجد في كل

بقعة من بقاع الأرض يتبوأها المسلمون ولا نجد لها منكرًا، فهل هذا هو الدين؟ وسيقول آخرون منهم إن ذكرها كان لغرض من الأغراض. ونحن نقول إن الذي يحاسب على المقاصد والنيات وخطرات القلوب هو الله تعالى وما دام الكلام حقاً فلا يعترض عليه «لنا الظاهر والله يتولى السرائر». وقد تبين بهذا وما نشرناه قبلاً كيف كانت اطاعة هؤلاء الرؤساء مضلة للأمة، ولو أردنا ان نشرح حالة القوم اليوم لجئنا بالعجب العجائب، وكفاك ان مقام الإرشاد ينال بإجازة تشتري بريال واحد وما من أحد ينكر ان الفرق بين هذا الخلف وذلك السلف كالفرق بين الثرى والثريا، وفقنا الله لمرضاته وألهمنا رشدنا لتتدارك ما مضى.



الاصلاح المطلوب

٩

[اركان الاصلاح للدولة]

[المفارج ١ (١٨٩٨) ص ٧٤٠ - ٧٥٣ (الطبعة الثانية)]

يجب على من يتكلم في الاصلاح أن يكون على علم بوجوه الإفساد ومشاراتها في الأمة التي يبحث في اصلاحها وإلا خبط خبط عشواء. فإن اتفقت له الإصابة في بعض كلامه فرمية من غير رام وإن اخطأ فهو ما ينتظر منه. وقد قلنا في مقالة سابقة إنه يحرم على من يجهل تاريخ أمة أن يقول هذا شيء يضرها وهذا ينفعها. وها نحن أولاء نأتي بمجمل من خبر الخلل الذي طرأ على الدولة العلية قبل الكلام على الاصلاح الواجب نستقي ذلك من تاريخ جودت باشا الذي يعتبر تاريخاً رسمياً للدولة العلية كما علمت من العدد الماضي ولذلك نعتقد ان الدولة العلية لا تستاء من بحثنا هذا لأن التاريخ المذكور منتشر في جميع البلاد العثمانية وهو من جملة

الكتب التي أهداها مولانا السلطان الأعظم عبد الحميد خان، أيده الله تعالى، لمكتبة المدرسة الحميدية في عكار وفي ذلك دليل على انه يرضى بأن يدرس لطلاب العلم. وهذا يدحض ما يزعمه بعض الكتاب وأصحاب الجرائد من كراهة مولانا السلطان دراسة أحوال الدولة العلية ومعرفة الخلل الذي طرأ عليها^(١).

فصل جودت باشا رحمه الله تعالى في الفصل الخامس من الجزء الأول من تاريخه أخبار الخلل الذي طرأ على قوانين الدولة العلية فرماها بالضعف الذي هي عليه وبين أسباب ذلك وعلمه فنقتطف من ذلك ما ترى ملخصاً.

لما بلغت الدولة على عهد السلطان سليمان القانوني (رحمه الله تعالى) درجة الكمال في القوة البرية والبحرية وفي الإدارة احتجب السلطان وترك حضور الديوان والسفر إلى الحرب فضعف اهتمامه بالأمر وقل اطلاعه على الحقائق وبعد ما رتب قوانين الدولة أحسن ترتيب كان هو أول من خالف النظام وتلاعب بالأحكام فكانت سنة سيئة فيمن جاء من بعده وهاك أنموذجاً من ذلك.

المناصب الملكية والعسكرية

كان منصب الصدارة العظمى لا يناط إلا بأهله الذين تنقلوا في مراتب الأعمال تدريجاً من الألوية إلى الولايات الأناضولية ثم الروملية ومن ذلك إلى رتبة الوزارة مع العفة والاستقامة فخالف السلطان سليمان نفسه هذا النظام فجعل إبراهيم آغا (خاص أو طه جي) صدرأ أعظم وهو من تربى في القصر السلطاني لا في مناصب الدولة فطفق خلفاء السلطان سليمان يلقون مقاليد الوزارة لمن أحبوا من الشبان الأغرار الجهلاء فاقدى التربية، ولاغترار هؤلاء باقبال السلاطين عليهم كانوا يعرضون عن الاستشارة

(١) بعد هذا علمنا ان السلطان منع طبع هذا التاريخ وقراءته وطبعت نسخة منه ناقصة ومعرفة.

ويستنكفون أن يستفيدوا من العارفين وما كانوا يراعون القوانين بل يسيرون بحسب أهوائهم (قال جودت) وذلك مخالف للقاعدة الكلية المبنية على منطوق آية «ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» [سورة النساء رقم ٤، الآية ٥٨]. فصارت الأمور تجري على الرغائب واختل بذلك نظام الدولة وتبدلت قوتها ضعفاً، وكذلك الشأن في أمراء الألوية وأمراء الإمارات (الذين يسمون اليوم متصرفين وولاة) ولم يكن يعزل أحد من غير ذنب ولذلك كانت تنحصر قواهم في أعمالهم فيقتنونها.

كان أصحاب التيسار والزعامة (الأول من يبلغ راتبه من ثلاثة الاف درهم الى عشرين ألفاً والثاني من كان راتبه فوق ذلك) من ذوي الوجاهة والمستحقين الذين يقومون بحماية الأمة والدولة ويأخذون المال المرتب لهم بحق، ولما ولى السلطان سليمان القانوني خسرو باشا منصب إمارة الأمراء عن غير استحقاق ولا أهلية لأنه لم يكن له عمل قبل ذلك إلا ذوق طعام السلطان قبل إحضاره له ابتدع هذا الباشا الذواق بدعة توجيه التيسار بالرشوة وناهيك بمضرتها وكان أمراء الأمراء من قبله يوجهون التيسار المحلول الى مستحقه وتصدر الإرادة السنية بتنفيذ ذلك ولا يوجه التيسار أو زيادته من دار السعادة إبتداء بل بمقتضي توقيع أمير الأمراء!

كان السلطان ووزرائه يتذاكرون في شؤون الدولة وينفذون الأعمال من غير دخول أحد بينهم فصار ندماء السلطان مراد الثالث والمقربون اليه يتعرضون لمصالح الدولة ويكلفون الصدر الأعظم بأمور غير معقولة فإذا لم يجب طلبهم يكيدون له عند السلطان بالمحل والسعاية وكانوا يتوصلون بذلك الى قتل الصدور ونفيهم وكان أولئك المقربون لا يباليون بما يفعلون فاضطر الصدور لاتباعهم ومجاراتهم على أهوائهم فتمادوا في طغيانهم.

كان الوزراء ينشأون في تعلم الفنون الحربية والتمرن عليها من الصغر ويحضرون الحرب بأنفسهم فارتقى بذلك قوادهم (كالسردارية والسر عسكرية) الى أعلى الدرجات من المهارة ثم جعل السلطان هذه المناصب

في جماعة من رجال حاشيته الجهلاء فاختل بذلك نظام التمرن الحربي
وسرى الفساد في جسم القوة العسكرية.

كان قانون الإنكشارية (الذين كانت الدولة ترعّب بهم دول الأرض)
قاضياً بأن جنودهم لا تنتظم إلا من الأولاد المقيمين في الثكنات
المخصصة المختارين لذلك وفي سنة ٩٠٠ [هـ / ١٤٩٥م] حشر الناس
من البلاد لحضور الاحتفال بختان نجل السلطان محمد ورغب جماعة من
الأجلاف الانتظام في سلك الإنكشارية لزيادة الفرص فصدرت الإرادة
بذلك وانتدب فرهاد آغا رئيس الإنكشارية لتنفيذها فشاور في ذلك رؤساء
قومه فقالوا إن هذا مخالف للقانون ومضر بالدولة العلية واتفقوا على عدم
قبولهم فألح بعض الندماء والمقربين الذين لم يتأملوا عواقب الأمور بتنفيذ
ذلك فصدرت به الإرادة السنية ثانياً ففضل فرهاد آغا الاستقالة على هذه
الرئاسة الخائنة (هكذا هكذا تكون الفضلاء والامناء) وتولى مكانه يوسف
آغا فأدخلهم فدخل بذلك الخلل في هذا السلك فقطع عروته ونثر منظومه
حيث صار يدخل فيه من لا يعرف له أصل ولا وصف وصارت علوفتهم
وأرزاقهم تجري على خدم المقربين والوزراء وصار معاش التقاعد الذي
كان يعطى للشيوخ والعاجزين يعطى للشبان والأقوياء وكثر عديد
الإنكشارية بهذا الخلل حتى عجزت الدولة عن كفايتهم . ولما كان هؤلاء
الخدم والاتباع الذين يأخذون الأموال والمعاشات التقاعدية لا يحضرون
الحرب ولا يقومون بالخفارة اضطرت الدولة الى استئجار خفراء ففقدت
رجال الحرب الذين كانت الدول تضرب بهم هذا المثل «يجب على من
يكافح العثمانيين أن تكون رجلاه من رصاص ويده من حديد» .

كان نظام أصحاب الزعامة والتيار ونسق الفرسان (النسق محرّكة ما
كان على نظام واحد من كل شيء ويسمى نسق العسكر بالتركية وجاق)
محفوظاً من الدخيل والأجنبي عنها الى سنة ٩٩٢ [هـ / ١٥٨٤م] تولى
عثمان باشا سردار إيران ابن أوزدمير فادخل في ذلك جماعة أراد نفعهم

لاستحقاقهم فسن بذلك سنة عادت بالخلل على النظام وصارت مرتبات هؤلاء كمرتبات الإنكشارية عرضة للنهب والسلب وزاد عدد العساكر الذين يأخذون المرتبات وسائر الطوائف من أصحاب العلوفة فاضطرت الدولة إلى زيادة الأتاوات والرسوم الأميرية فكان ذلك مدعاة الظلم والإعتداء وانتهى بفقر الأهالي وخراب البلاد.

كان من مقتضى القانون أن يكون أرباب التيجار والزعامة من أهل البلاد في الأولوية فلما منحهما السلطان مراد الثالث لخدمة الوزراء ساءت الحال وجرت الأرزاق على المجهولين ممن لا عمل له ولم يجد أرباب الاستحقاق سبيلاً للشكوى في دار السعادة لأن العلة من هناك وطغى المقربون من هذا السلطان وندماؤه فاغتصبوا بعض القرى والمزارع التي كانت خاصة بالغزاة والمجاهدين وتسمى (أربه لق) ولما فاض ينبوع ثروتهم أفاضوا منه على أتباعهم وحواشيهم وتأسى بهم وكلاء الدولة فصار الفريقان يوجهون التيجار والزعامة المحلولة الى من ذكرنا وبعضها ألحق بالأملاك الهمايونية «الأراضي السلطانية» وبعضها خصص لتقاعد أناس صحيحي الأبدان، وقسم اغتصبه أرباب الوجاهة فضموه إلى أملاكهم وسموه بغير إسمه وصار يناله كل أحد حتى أهل الدعابة (المساخر والمهرجون) وبعضها قيد بأسماء خدمهم ومماليكهم ببرآآت سلطانية وبعضها جعله الندماء والمقربون وسائر الحاشية وقفاً لجهات مختلفة (قال جودت) مع أن وقف هذه الأراضي لا يجوز مطلقاً لأنها من حقوق المجاهدين والغزاة وبدعة وقف الأراضي السلطانية قد ظهرت في أيام السلطان سليمان فإنه عندما جعل صهره رستم باشا صدرأ أعظم ملكه بعض القرى التي فتحها أجداده فجعلها هذا الباشا وقفاً على جهات مختلفة. وأطال في ذلك بما بين به أن ذلك كان وسيلة لإضاعة حقوق بيت المال (وكم جعل الوقف ذريعة لأكل حقوق بيت المال وحقوق الناس في غير الدولة العثمانية أيضاً) حيث اقتدى برستم باشا في ذلك من جاء بعده وأضاعوا حقوق المجاهدين وانقرض بذلك

أصحاب التيارات والزعامة انقراضاً واضمحلت القوة العسكرية العظيمة وكان من أثر ذلك زوال اعتبار الفرمانات السلطانية من النفوس بعدما كانت تحترم احتراماً عظيماً.

ولما نقص ريع بيت المال لما ذكرنا أحدث رستم باشا السابق ذكره بدعة إلزام الأموال الأميرية لأجل زيادتها فأعرض أرباب العفة والأمانة المتمسكين بالدين عن الإلزام وتهافت عليه الأسافل الفاسدو الأخلاق فكان ذلك سبباً آخر لخراب الإقطاع والأملاك الهمايونية فعم الإعتداء وخربت المدن وافقر الزراع الذين هم خزانة الدولة الحقيقية.

ولم تكتب حاشية السلطان بقطع رواتب الغزاة بل فتحوا باب الرشوة على الشفاعة بتوجيه إمارة الولايات والألوية وسائر المناصب إلى من يبذل لهم وما كانت شفاعتهم عند الصدر الأعظم إلا امرأ مطاعاً كما علمت فتقدم الأشرار وتأخر الأخيار ولم يبق للرتب قدر ولا اعتبار وكثرت أصحاب المناصب والرتب من كل فسل ذميم ونذل لثيم وكثر الجور والتعدي بكثرتهم حتى إنتهى بما تعلم . فتبين مما شرحناه أن أسباب الخلل والفساد ترجع كلها الى أصل واحد وهو حاشية السلطان وخاصته .

أما أمر الإسراف والتبذير والانغماس في النعيم المتولدة جراثيمه في عهد السلطان سليمان (رحمه الله تعالى) ثم سرت في جميع طبقات الأمة فيما لا يتعلق بغرضنا شرحه الآن . ومن المسلمات أن الترف هو الذي أباد الأمم السالفة وأنه لا نجاة للأمم منه إلا بتعميم التربية والتعليم للذين إهتدى إليهما الغربيون في هذا الزمن وإذا انضم الى ذلك الاعتصام بعروة الدين الحق والتأدب بآدابه الصحيحة فهنالك الكمال والأمان من الزوال ما دامت الأمة متمسكة بعروة الحق وقائمه بالشكر «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد» [سورة ابراهيم رقم ١٤ ، الآية ٧].

كان السلاطين العثمانيون يبذلون العناية في ترويج العلوم والمعارف ولما فتح السلطان محمد القسطنطينية جعلها موئل العلماء والأدباء بما سهل من سبل العلم وما عمل لترقيته، ثم لما جاء السلطان سليمان خدام العلم ووسع دائرته بزيادة نشر الفنون الرياضية والطبية فهو الذي أنشأ مدرسة مخصوصة للطب وأنشأ بجوارها مستشفى «اسبتالية» ولم تكن أوروبا لذلك العهد تعرف هذا. وكانت رتب المدرسين ١٢ رتبة لا يرقى أحد الى رتبة منها إلا بعد تمكنه من التي دونها وبذلك كانت المناصب العلمية في أهلها وكانت حرمة العلماء محفوظة حتى إذا قال أحدهم هذا حكم الله خضعت له الرقاب وقال جميع الناس سمعنا وأطعنا وكان القضاة عدولاً تدعى لحكمهم النفوس في السر والجمهور.

طراً الخلل على النظام العلمي في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة [السابع عشر للميلاد] فبدأ بالتسامح والتساهل في رعاية قوانينه وانتهى الى الإفضاء بالرتب والمناصب العلمية لغير أهلها ومستحقها فتولد من ذلك فتن كثيرة أشدها ضرراً الظلم في القضاء وزوال حرمة العلم والدين من نفوس الناس. وإننا نذكر مجملًا من خبر ذلك الخلل تبصرة وذكرى.

صار قضاء العسكر (قضاء العسكر أعلى الرتب العلمية في الدولة وقاضي العسكر هو ما كانت تسميه دول العرب قاضي القضاء) يعزلون من المرجع الأعلى بعد مدة قليلة من توليتهم بغير ذنب فكان أصحاب الطمع والشره منهم يغنمون الفرصة للإكتساب من المنصب قبل العزل فيوجهون المناصب والرتب العلمية الى غير أهلها. وصار الموالي (رتبة الموالي دون رتبة قضاء العسكر ومن أهلها يكون القضاء ولها مراتب متعددة وللأولى مرتبتان فقط) يبيعون أوراق الملازمة المؤدية الى رتبة التدريس (وهي دون رتبة المولوية المذكورة آنفاً) ويعطونها لأي إنسان من غير مراعاة شروطها. فانحدر الخلل من قضاء العسكر الى الموالي ومن هؤلاء الى العلماء

والمدرسين وهرع أمراء المقاطعات والضباط بل والعوام الى ابتياع أوراق
الملازمة التي تجعلهم علماء ومدرسين ثم موالي وقضاة فامتلات معاهد
العلم بالجهلة حتى لم يكذ يتميز العالم من الجاهل . ثم صار منصب
التدريس الفعلي منصباً إسمياً والمدرسون لا يذهبون لمدارسهم بل لا
يعرفون مواقعها ولا يسألهم أحد عنها ثم احترقت المدارس وخربت وبقي
التدريس يوجه الى مدارس خيالية وكثر عدد الذين يسمون مدرسين
وتنوسي التدريس فعلاً بالكلية . وصار أبناء الصدور والقضاة ينالون وظيفة
التدريس وهم أحداث وأطفال ويترقون لذلك في الوظائف حتى أن الواحد
منهم لتأنيه نوبته في المولية وما طرّ شاربه ولا اخضر عذاره . وكان ينال
التدريس ايضاً كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب
العلمية تؤخذ بالإرث فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم
وغيرهم فازدحم عليها الغوغاء وصار الجهال يموج بعضهم في بعض
والتبس الأمر وفسد أي فساد . وكذلك صار منصب المولية العملي اسمياً
كالتدريس وكان يتولى إدارة أعمال المولية عن القاضي نائبه وصارت مدة
الولاية للقاضي سنة واحدة .

بعد غض النظر عن بناء التقدم والامتياز على أسس العلم والفضيلة
والاستحقاق والأهلية جروا على قاعدة الأقدمية أي تقديم الأقدم فالأقدم
إلا ما استثنى من أصحاب الوجاهة والشرف والمنتمين الى الشفعاء المجبرين
الذين لا يتقيدون بقانون ولا يحكم عليهم نظام . وهذه القاعدة الاستثنائية
كانت تسمى في اصطلاح المدرسين الطفرة وكانت متعبة ايضاً في رتب
الموالي والصدور فكثّر عدد الجميع جداً . وكان الذين ينالون هذه الرتب
بغير استحقاق يحتقرون ما دون رتبة قضاء العسكر التي يسمي أربابها
الصدور . وكان هؤلاء الصدور يتغطرسون ويتبجحون ويصرفون أوقاتهم
في ذكر مساوئ بعضهم فكانوا كلا على عاتق الدولة .

عينت الدولة لكل واحد من المدرسين والموالي والصدور قضاء يتولى

إدارته نائب له فيتناول النائب حصته المعينة ويأخذ الباقي صاحب المنصب باسم (معيشة) للمدرسين و«اربه لق» للصدور والموالي. ولما كان هؤلاء النواب ليسوا من أهل القضاء اضطروا الى الاستعانة بنواب عنهم يتولون الأحكام اقتداء برؤسائهم فأصبحت النيابة تدير الأعمال في جميع الأقضية ورتبة القضاء نهبه للصدور والموالي والمدرسين وتبعهم في ذلك الجوخدارية وصارت الطريقة العملية التي وضعت لنشر العلوم والمعارف وإحقاق الحقوق وسيلة للتعيش فكان ذلك فساداً كبيراً وخبلاً في الملك والملة.

ولما زاد عدد المدرسين أصبح أكثرهم في حالة تشبه حال المتسولين وتبدل عز العلم وشرف التدريس بالذل، وكان النواب الذين ذكرناهم من أهل الجهل والمكر والسفه يشتركون مع الظلمة في ظلم العباد وخراب البلاد، وكان سائر من يأخذون أوراق الملازمة بالرشوة أو الشفاعة أو غاداً جهالاً لا يحسنون قراءة أسمائهم ولا أداء الشهادة الشرعية على شيء فطفقوا يبيعون الوظائف لأمثالهم فاضطر العلماء والصلحاء الذين لم يبق لهم قيمة الى مدارة الظلمة فضاع الشرف الصحيح وخزيت الأمانة الدينية وراجت البطالة والجهالة. وكانت تلك العصور التي دبّت فيها هذه المفاصد في الأمة والدولة قد تنبّهت فيها الأمم الأوروبية للعلوم والمعارف والصنائع فتقدموا وتأخرنا ولولا ما جاء به السلاطين المتأخرون من الإصلاح لهلكنا.

كادت الدولة العلية ان تسقط على عهد السلطان محمود، رحمه الله تعالى، فزال ما طرأ من الفساد على الانكشارية باصطلامهم واستئصالهم وأسس عسكرياً جديداً وجاء بعده السلطان عبد الحميد، رحمه الله تعالى، فاجتهد في الإصلاح بما تعلم وحسنت الحال في عهده وفي عهد السلطان عبد العزيز، عليه الرحمة، بعض الحسن ثم جاء في آثارهم سيدنا ومولانا الخليفة المعظم والسلطان الأعظم عبد الحميد الثاني، أيده الله بروحه وأمه نصره فهب للنهوض بالأمة نهضة واحدة فأسس مجلس الأمة «المبعوثان»

ووضع القانون الأساسي^(١) واجتهد في احياء معنى الخلافة الذي اهمله سلفه بعد السلطان سليم ياوز، فطرات الحرب الروسية [١٨٧٨] والدولة على غير استعداد وتقدمها فتن أضعفتها وانتهت الحرب بما تعلم وتلتها الحروب السياسية بين أوروبا والدولة العلية فشغلت مولانا عن صرف قواه للإصلاح الداخلي لأنه تحمل أثقال هذه الحروب بنفسه لضعف ثقته بالوزراء بسبب فتنة السلطان عبد العزيز وما كان من الخيانة في الحرب مع الروسية ومع ذلك عمل أعمالاً داخلية يشرحها المنار دائماً كما أشرنا الى ذلك في العدد الماضي وحيث قد لهجت الجرائد بمسألة الإصلاح الداخلي وقال بعضها أمبراطور المانيا نصح لصديقه السلطان الأعظم بالعناية الكبرى به وأنبا البرق بأن بعض الوزراء يذاكر جلالته في ذلك رأينا أن نعرض ما نراه واجباً الآن مع علمنا بأن مولانا أيده الله أوسع علماً بما يجب من ذلك، ولكن رويناً في صحيح مسلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» فاهتداء بالحديث الشريف نقول بناء على المعلومات السابقة.

اركان الإصلاح

الإصلاح الذي لا بد منه يتوقف على أمور: ١ - منع الشفاعة والتوصية من كل أحد في كل ما يتعلق بمصالح الدولة من توجيه المناصب والوظائف ومنح الرتب والوسامات او العفو عن العقوبات وغير ذلك لأن الشفاعات في هذه الأمور هي أصل الفساد السابق وينبوعه كما مر. ٢ - تأديب من يتعرض لهذه الشفاعات أيأ كان إذا ثبت عليه ذلك. ٣ - انتقاء الوزراء والولاة والحكام وسائر رجال الحكومة من خيرة الرعية بدون تزييل بين تركي وعربي أو مسلم وذمي في ضمن حدود الشريعة، إذ الحاكم الشرعي

(١) علمنا بعد كتابة هذا انه ليس الواضع للقانون الأساسي بل أعلنه مضطراً وأبطله بكيده مختاراً. المنارج ١ (١٨٩٨) ص ٧٥٠ (الطبعة الثانية) الحاشية.]

لا يصح أن يكون نصرانياً مثلاً، وأما نحو الجباية والكتابة فلا فرق فيها بين مسلم وغيره فقد كانت الجباة والكتاب على عهد خلافة الراشدين وغيرهم من غير المسلمين في بلاد الشام وغيرها وقانون الدولة ناطق بذلك. ٤ - حصر القضاء الشرعي في أهله كالمخرجين في مكتب النواب أو الجامع الأزهر المشهود لهم بالعلم والعدالة ممن نشأوا بينهم. ٥ - إعطاء الحرية لكل حاكم قضائي أو سياسي بأن يعمل بما يراه في ضمن دائرة الشريعة المكلف بالعمل بها. ٦ - القاء التبعة على من ذكر فيما يتعلق بوظائفهم وأعمالهم إذا هم انحرفوا عن جادة العدالة. ٧ - عدم عزل أحد بغير ذنب ثابت. ٨ - معاقبة من يعزل بذنب وحرمانه من مناصب الدولة ووظائفها حرماناً قطعياً. ٩ - زيادة مرتبات صغار المأمورين ومعاشاتهم لأن قلتها تضطرهم إلى الرشوة التي تذهب بالعدل الذي هو أساس العمران. ١٠ - إعطاء الحرية للرعية بالشكوى من أي حاكم تعدى حدود وظيفته وتأمين من يرفع الشكوى من تعدي الحاكم المتظلم منه ولو لم تثبت دعواه. ١١ - إيصاء الولاة والمتصرفين بالاجتهاد في التأليف بين أهل الملل المختلفة والطوائف المتعددة وترغيبهم في إنشاء المدارس الوطنية والشركات المالية التي توحد المصالح وتجمع القلوب على العمل لترقية الوطن وتكافئ الدولة كل من أحسن في ذلك عملاً. ١٢ - إعطاء الحرية المعتدلة للمطبوعات في دائرة القانون. ١٣ - منع الجرائد من إطرء الولاة والحكام وسائر المأمورين بالأوامر التي تغرهم وتخضعهم وتحملهم على الاسترسال في ظلمهم وتجراًهم على التهادي في الباطل فإن جرائد النفاق والدهان من أقوى عوامل الإفساد والخراب. ١٤ - عدم إعطاء رتبة شرف أو وسام إلا لمستحقه فإذا جرح طالب العلم الذي يرغب في رتبة التدريس بعض العلماء وعدله الآخرون فينبغي أن يقدم الجرح على التعديل كما عليه المحدثون وهكذا يكون الشأن في الباقي، بل ينبغي التحقيق على من أخذوا الرتب والوسامات بغير حق ونزعها منهم إن أمكن وربما نشرح بعض هذه الأمور في فرصة أخرى.

هذا ما عن لنا في الإصلاح الواجب مراعاته الآن في السلطنة وسنشرح رأينا في الإصلاح الديني أي المؤدي إلى المحافظة على الدين والعمل به وجمع كلمة المسلمين ونرفعه إلى مقام الخلافة في عدد تال، إن شاء الله تعالى.



١٠

الاشتراكية والدين

(ملخص من كتابنا الحكمة الشرعية)

[المفارج ١ (١٨٩٨) ص ٩٤٥ - ٩٤٩ (الطبعة الثانية)]

علم مما تقدم عن الاحياء للامام الغزالي أن عليا درجات الأخوة ورتبها هي كون الإخوان كلهم خلطاء في الأموال وشركاء لا يميز بعضهم رحله عن بعض ومعلوم أن المؤمنين كلهم أخوة «كما في نص القرآن» وان كان الكثير بل الأكثر منهم غير قائم بحقوق هذه الأخوة، وإذا كان بلوغ الرتبة العليا من الأخوة مستحسنًا ومطلوبًا شرعاً فهو دليل على أن الاشتراكية التي ينزع اليها بعض الجمعيات في أوروبا مستحسنة ومطلوبة في الجملة لأن لها أصلاً في الشريعة الإسلامية الحقبة المؤيدة بالعقل الصحيح مع أننا نرى الحكماء والعقلاء لا سيما رجال الدين منهم يطلقون القول في ذمها وذم ذويها فهل ذلك من الصواب أم لا؟

الجواب - الذي يتراءى لنا هو إننا إذا نظرنا في المسألة بعين العقل المجرد تجلّى لنا أن للاشتراكيين مطالب عادلة في الجملة وأنهم معذورون في تحزبهم للتحامل على الأغنياء الذين هم يراءون ويمنعون الماعون، ينفقون إسرافاً وتبذيراً، ولا يرحمون مسكيناً ولا فقيراً، لكن بعض مطالبهم جائرة

لا يمكن أن ترضى بها أمة من الناس كما ينقل عن بعضهم القول بأن الاشتراك ينبغي أن يكون في كل شيء حتى في الابضاع وهو سفه من القول لا يقول به الا السفهاء والى الآن لم يستطع أحد من زعماء الاشتراكيين أن يأتي بتعاليم للاشتراكية مقبولة عند جماهير العقلاء المنصفين ولو طلبوا هاته الرغبة في الدين الإسلامي لظفروا بها - ذلك أن الشريعة الإسلامية الغراء تفرض في أموال الأغنياء من عين أو تجارة وفي نتائج زراعة الزراعيين فرضاً معيناً يخف عليهم أداؤه وتصرفه لمن يعجز عن كسب يقوم بكفايته من فقير ومسكين وللغارمين وأبناء السبيل، الخ. التفصيل المعروف في كتب الفروع.

وهذا الفرض يلزم به الأغنياء إلزاماً ويجبرون عليه إجباراً، وتحث الناس بعد ذلك على التنفل في الصدقة وعلى الصلة والهدية والمواساة وإكرام الضيوف وعلى الصداقة والأخوة التي أرفع درجاتها أن يتصرف الصديق في مال صديقه كما يتصرف في مال نفسه ولا يصادف منه على ذلك إلا الرضى بل الفرح والاستبشار. نعم هذه الرتبة لا يحمل عليها الناس كرها وإنما يقادون إليها بسلاسل الآداب الدينية مع الرفق والحكمة إلى أن يأتوها راغبين وذلك بنشر تلك الآداب والتربية للأحداث ذكرانا وأنثاء على أصول تعاليمها.

لا ريب أن انتهاج هذا المسلك يأتي بفائدة كبرى للأمة هي السعادة بعينها وإن كان وصول جميع الأفراد لمرتبة الأخوة الكبرى بعيد المنال، لما يعترض التربية من العوارض الخارجية والأحوال، فضلاً عن كون تعميمها لا يتم الا بالقوة وكثرة المال، وإكراه العموم على ذلك حرج شديد، لا يقول به ذو رأي سديد، ولا يزال أولئك الاشتراكيون كلاً على كاهل أوروبا ولا يصلون الى تمام ما يطلبون لأن رجال الدين ورجال السياسة جميعاً يرفضون تعاليمهم ويسفهون أحلامهم إلا ما كان من الجمعية الفرنسية التي تسمى جمعية الأخوة فأولئك تشبه أحوالهم وتعاليمهم ما

كان من الأخوة في شبيبة الملة كما تقدم عن الاحياء وقد صدر عن هذه الجمعية آثار نافعة لأمتهم من نشر العلوم والفنون الرياضية والفلسفية مقرونة بالدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي وقد انتشرت مدارسهم في ممالك الشرق يوطئون المسالك ويمهدون السبل لامتداد نفوذ فرنسا وتسلطها على البلاد التي ينشرون فيها تعاليمهم كما يفعله غيرهم من جمعيات دول أوروبا في ممالك الشرق وأهل الشرق لاهون غافلون عما يراد بهم .

قاعدة في الطاقة، والكلب يأكل في العجين
يا كلب كل واتهنّا، ما للعجين اصحاب

بل أهل الشرق نيام فاذا ماتوا باستعباد الأجانب لهم ونوقشوا الحساب، وحق بهم العذاب، انتبهوا وأنى ينفع الانتباه، ولا حول ولا قوة الا بالله، وأجدر بالمسلمين أن يكونوا هم السابقين لمثل تلك الجمعية، بل ولكل مزية مفيدة مرضية، من المزايا التي سبقتنا بها الأمم الغربية، وما كنا لنستفيق فصبر جميل .

هذا، وإن للإشتراكين والمتأخين في أوروبا حجة في كتابهم الديني الذي عليه مدار النصرانية وهو المسمى بالعهد الجديد فقد ذكر فيه ما نصه :

«وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول ان شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع ونعمة عظيمة كانت على جميعهم إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها على أرجل الرسل فكان يوزع على كل واحد له احتياج ويوسف الذي دعي من الرسل برنابا الذي يترجم ابن الوعظ لاوي قبرسي الجنس اذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل ورجل اسمه حنانيا وامراته سفيره باع ملكاً واختلس من الثمن وامراته لها خبر ذلك وأتى بجزء ووضعها عند أرجل

الرسل فقال بطرس يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل أليس وهو باق كان يبقى لك ولما بيع ألم يكن في سلطانك فما بالك وضعت في قلبك هذا الأمر أنت لم تكذب على الناس بل على الله . فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك فنهض الأحداث ولفوه وحملوه خارجاً ودفنوه ثم حدث بعد مدة نحو ثلاث ساعات أن امرأته دخلت وليس لها خبر ما جرى فأجابه بطرس قولي لي أفابهذا المقدار بعثما الحقل فقالت نعم بهذا المقدار فقال لها بطرس ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب هوذا الرجال الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجاً فوقعت في الحال عند رجله وماتت فدخل الشباب ووجدوها ميتة فحملوها خارجاً ودفنوها بجانب رجلها فصار خوف عظيم على جميع الكنيسة وعلى جميع الذين سمعوا بذلك». انتهى من أواخر الاصحاح الرابع وأوائل الاصحاح الخامس من سفر أعمال الرسل (ابركسيس).

وفي أن الإشتراك كان في كل شيء متمول عندهم وهو مصرح به في الإصحاح الثاني أيضاً وإن الإشتراك كان مانعاً لأحدهم أن يتصرف في ماله كيف يشاء ويختار أو يمسه عنده بل كانوا يلزمونه أن يؤديه الى الرسل وهم ينفقون عليه كما يريدون . ألم تر الى بطرس كيف عد حنانيا مختلساً عند ما أمسك بعض ثمن الحقل وهذا الحد من الإفراط لم تقل به الشريعة الإسلامية ولا في أوائل مدة الهجرة التي شارك فيها الانصار المهاجرين في أموالهم طوعاً واختياراً وحيث كان التوارث بالإسلام لا بالقرابة لما تقتضيه حالة ذلك الوقت . وأما تعاليم العهد الجديد الذي هو أصل النصرانية كما ألمعنا اليه قريباً فجميعها ناطقة بالإفراط في التمسك بالفضائل وتلزم الأخذ بها أن يكون أزهد الزهاد لا يتخذ مالاً ولا يبتغي جاهاً ولا يدافع عن نفسه بل يكون خائفاً ضارعاً مستسلماً لتصرف الحاكمين ، مستسلماً لتعدي المعتدين ، وقد رفض النصارى تلك التعاليم من حيث التخلق والعمل ،

وادعوها بقول الجدل، كما أن المسلمين قصروا بنشر تعاليم دينهم الخالصة من الشوائب ولم يتخلقوا بأخلاقه على وجه الكمال الذي حدده لهم إلا قليل منهم مع أنه الكافل لهم سعادة الدارين والفوز بالحسين ولذلك جددت أمم النصرارى في مصالح الدنيا وهم قاعدون، وفازوا بالتغلب وهم خائبون، فانا لله وإنا اليه راجعون. انتهى.

المنار - هذا ما كتبناه «في الحكمة الشرعية» من بضع سنين ولم نقصد به الإعتراض على أعمال مقدسي الملة النصرانية ولا على تعاليمهم لأننا نعلم أن الإفراط في التفكير عن الدنيا وفي التزهيد بالمال والسلطة كان مناسباً لحال ذلك العصر لما كان عليه الناس من الفساد والبغي وطغيان الشهوة والقوة بسبب مدنية الرومانيين المعروفة، وإنما نتعجب من أحوال الأمتين، وعدم انطباقها على تعاليم الديانتين، وفي العروة الوثقى مقالة نفيسة في هذا الموضوع سنشرها في عدد تال ان شاء الله تعالى.



الجنسية والدين الاسلامي



[المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٢١ - ٣٢٧].

البداءة في النوع الإنساني سابقة على الحضارة ولكن الإنسان مدني بالطبع ميال للإجتماع بالفطرة وقد كان مبدأ إجتماعه تكون الشعوب والقبائل بالعصبية النسبية فكانت هي مناط الجنسية ثم صعد النوع في سلم الإرتقاء الإجتماعي فاتسعت دائرة جنسيته فكان مناطها اللغة وكما كانت تتألب القبيلة التي يجمعها نسب واحد وتزحف لقتال قبيلة أخرى من أهل لغتها لأقل عدوان يقع بين أفراد القبيلتين صارت تتألب القبائل الكثيرة التي يرتبط بعضها ببعض برابطة اللغة ويلتحم بلحمتها على قتال

الأجناس التي تجمعها لغة أخرى غير لغتهم وبهذه الجنسية تكونت الأمم فكان منها العربي والتركي والفارسي والهندي والصيني الى غير ذلك.

ما كانت عناية الله تعالى بالإنسان لتقف به عند هذا الحد من الاجتماع والتمدن بل أعطاه سلماً ليخرج عليه إلى الأفق الأعلى من المدنية وسعة دائرة الاجتماع وهو المعبر عنه بناموس الارتقاء العام ولما استعد بمقتضى هذا الناموس لامتزاج بعض أجناسه ببعض ومؤاخاة العربي للعجمي والرومي للفارسي منحه رابطة أعلى من جميع روابط الاجتماع - رابطة تضم متفرق العناصر وأشتات الأجناس وتصوغها فتجعلها عنصراً واحداً - رابطة يمكن لكافة البشر أن يكونوا بها أمة واحدة وإخواناً على سرر متقابلين. هذه الرابطة هي الديانة الإسلامية التي بني أساسها على الوحدة في الاعتقاد والتهذيب والأحكام القضائية والمدنية - التي يخاطب قرآنها البشر كافة بقوله «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» [سورة الشورى رقم ٤٢، الآية ١٣]. ويخاطب أهل الكتاب خاصة بقوله «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ٦٤].

ما كان ليغرب عن شارع هذا الدين - وهو عالم الغيب والشهادة - أن الناس لا يعتنقونه مرة واحدة وأن هذا موجب للإختلاف والتفريق وهو إنما وضع للوفاق والتوحيد ولذلك جعل الرابطة ذات طرفين طرف يمكن أن يضم جميع البشر على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم وهو كونهم يحكمون بشريعة واحدة عادلة تساوي بين مؤمنهم وكافرهم ومليكمهم وصعلوكهم وغنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم وهذا الطرف هو طرف الجامعة الدنيوية ويمكن لأهله أن يعملوا لإحراز سعادة الدنيا بالاشتراك حتى يصلوا إلى الغاية التي في استعدادهم الوصول إليها. والطرف الثاني هو طرف الجامعة

الروحية الأخروية وهو يؤلف بين الآخذين بهذا الدين تأليفاً روحياً زائداً عن ذلك التأليف الجثمانى - تأليفاً جرثومته وحدة المعتقد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وغذاؤه الأخلاق الفاضلة والعبادات الكاملة، وثمرته الإخاء الصحيح، وجعل المؤمنين في تضافرهم وتعاونهم على البر والتقوى كالبنيان يشد بعضه بعضاً وكالجسم الواحد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد.

لا تحقرن أمر الرابطة الأولى رابطة الشريعة العادلة فهي على كونها أعم من رابطة اللغة وأشمل قد كانت أقوى وأكفل. كان أبناء اللغة الواحدة والدين الواحد يفرون من هجير ظلم قومهم المشاركين لهم في جنسيتهم ويستظلون بظل العلم الإسلامى الظليل حتى أن الروم في بلاد الشام لما رأوا في أثناء الفتوح وفاء المسلمين لهم وحسن سيرتهم فيهم صاروا عوناً لهم على قومهم وعيوناً للمسلمين عليهم يتجسسون لهم الأخبار ويوقفونهم على الأسرار. جاء في رسالة الجزية التي نشرت في المجلد الأول من المنار أن ابا عبيدة (رضي الله عنه) لما أراد أن يشخص من حمص إلى دمشق لتألب الروم على المسلمين وجمعهم لهم أمر حبيب بن سلمة أن يرد على القوم ما كان أخذه المسلمون منهم من الجزية فرد عليهم ذلك وأفهمهم بأن الأمير أبا عبيدة يقول ما كان لنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم (أي إن أخذ المال هو بإزالة الحماية وقد عجزوا عنها في ذلك الوقت لاضطرارهم إلى الخروج من البلد فردوا عليهم المال) فقال أهل البلد «ردكم الله إلينا ولعن الذين كانوا يملكوننا من الروم ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا إلينا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا». هذه الرابطة مناط للجنسية إتخذها الأوروبيون إحبولة لصيد الأمم والشعوب التي ثقلت عليها وطأة ظلم حكامها فنجحوا مع بعدهم عن العدل الصحيح والمساواة اللذين كان عليهما المسلمون عندما كانوا متمسكين بدينهم وحاكمين بشريعتهم. ولكن هذه الرابطة مهما كانت وثيقة وقوية فهي لن تبلغ مبلغ

رابطة وحدة الاعتقاد بعروة الإسلام الوثقى التي لا انفصام لها ولذلك ترى المسلمين يتململون من سلطة الأجنبي عن دينهم وإن كان عادلاً ويودون الفرار من ظل علمه ولو لفحهم مثل لهيب جهنم من ظلم المتحدين معهم في الاعتقاد والمذهب. وبهذا لم يكن للمسلمين جنسية في غير دينهم ولا يخضعون باختيارهم سراً وجهراً إلا للحكومة شوروية تحكمهم بشريعتهم وتقيم حدودها العادلة فيهم مقتفية آثار خلفائهم الراشدين بحيث يكون لديها الخليفة والصعلوك في الحق سواء. لو اهدت لهذا الأمر أية حكومة إسلامية ووفقت للعمل به مع الحكمة من غير زيف ولا زلل لأمكنها أن تجمع كلمة المسلمين في مدة قصيرة. بل لو أن دولة حكيمة كانكلترا اعتنقت الاسلام وأقامت شريعته لتسنى لها امتلاك باقي الشرق وافريقيا كلها.

عرف الأوروبيون من المسلمين ما ذكرنا فانتفعوا بمعرفتهم. اجتهدوا في ازاحة القابضين على أزمة الحكومات الإسلامية عن صراط شريعتهم وأدخلوا عليهم القوانين الوضعية فنفرت قلوب الرعايا منهم وكرهت سلطتهم حتى صارت تخرج عليهم. واجتهدوا في حل عروة الرابطة الدينية من نفوس المسلمين باسم المدنية الجديدة التي تسمى التمسك بالدين تعصبا وتمثل هذا التعصب بمثال مشوه قبيح ينفث السموم في الأرواح فيقتلها ويعترض دون شمس العلوم والمعارف فيحجب أنوارها^(١) وما كان الأوروبيون ليتمكنوا من خلافة المسلمين بأنفسهم فيجعلوا اسم التعصب (بمعنى التمسك بالدين) بينهم سبة وعارا ويتخذوا هذا ذريعة لفصم عروة الدين وتوهين رابطته العامة ولكنهم تمكنوا من فتنة بعض المسلمين الجغرافيين^(٢) بمدنيتهم واتخذوهم أعواناً لهم على كل ما يقصدونه من

(١) قد شرحنا حقيقة هذه المسألة في مقالات نشرت في أعداد السنة الأولى للمنازل فلتراجع.

(٢) أعني بالمسلمين الجغرافيين الذين يعدون في اصطلاح الجغرافيا مسلمين وهم كل من ينتسب للإسلام ولو اسما وقد سنحت لي هذه الكلمة في أثناء خطاب كنت ألقته في جمعية مكارم

المسلمين. يردد المصريون الشكوى مع التوجع والتألم من المستردنلوب، سكرتير المعارف العام، القابض على أزمة المدارس كلها حيث يجتهد في محو معالم اللغة العربية وطمس آثار الديانة الإسلامية من المدارس وجعل رسومها موائل ودوارس ولا لوم على من يخدم دولته وملته بالصدق والنشاط وإغما اللوم والتثريب بل اللعن والتأنيب على الذين رضوا بان يكونوا معاول في يديه لهدم بناء جامعتيهم الدينية واللغوية وهم يعلمون إن هدمهما يعدم جنسيتهم بالكلية. وفي هذا محو الملة والأمة من لوح الوجود. هؤلاء هم الذين يجب أن يحفظ التاريخ ذكرهم محفوظاً بالخزي والمقت ملوثاً بقدر الخيانة والغش حيث يحفظ للمستردنلوب في خدمة ملته إسمائاً سميأً ويرفعه في صدق وطنيته مكاناً علياً. ويوجد في غير مصر كثير من هؤلاء المارقين.

فعلى كل مسلم حقيقي أن يسعى جهده في توثيق الرابطة الإسلامية الروحية بين كل من ينتسب للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بأن يعرف أهل كل بلاد تاريخ أهل البلاد الأخرى وشؤونها الغابرة والحاضرة وأن يكون لهم طرق للتعارف وأمثلة هذه الطرق الجرائد والاجتماع في موقف الحجيج العام ومما يقضي بالأسف واللهف ان الحجاج بعد ما يرجعون من أداء الفريضة يقضون أعمارهم في الحديث عن سفر الحج وما لاقوه وجرى لهم فيه ولا نسمع منهم خبراً عن أحوال إخوانهم من أهل الأقطار الأخرى الذين ضمتهم وإياهم (عرفات) حتى كأنهم لم يشهدوا ذلك الموقف الشريف الذي لم يسم بهذا الإسم «عرفات» إلا لأنه موقف التعارف بين الشعوب والقبائل «واحسرتاه فقدنا كل شيء حتى معاني أركان ديننا الكبرى وأسرارها وفوائدها» ومن الضروري في هذا أن يكون منا أمة يدرسون اللغات التي ينطق بها إخواننا في كل قطر. أليس من البلاء أن

الأخلاق في القاهرة فقلت يقال ان المسلمين ثلاثمائة مليون أو يزيدون وهؤلاء هم المسلمون الجغرافيون أما المسلمون الحقيقيون الذين يفهمون الاسلام حق فهمه ويعملون به فهم قليلون . . .

لغة أوردو التي ينطق بها ثمانون مليوناً من المسلمين في الهند لا يوجد تركي في الروملي أو الأناضول ولا عربي في العراق أو سوريا أو مصر أو الغرب يتعلمها ليتعرف بها شؤون أولئك الملايين من إخوانه؟ ونرى الجم الغفير من دعاة النصرانية يتعلمون هذه اللغة وسائر لغات العالم لاجل دعوة أهلها إلى دينهم.

متى عرف بعضنا تاريخ بعض وتعارفنا بما يمكن من طرق التعارف وتبادلنا الأفكار بالجرائد يتسنى لنا حينئذ أن نتفق على وحدة التربية والتعليم وكما أن هذا الوحدة إنما يكون بتعميم اللغة العربية وعلى وحدة الاشتراك في المشروعات والأعمال النافعة وبهذين الوجدتين تتكون «الجامعة الإسلامية» التي أكثر من ذكرها الكتاب وبحشوا فيها من وجوه كثيرة غير محررة فتضاربت أقوالهم وتناقضت آراؤهم.

قلنا إن الجامعة الإسلامية لها طرفان يضم المعتقدين بالدين الإسلامي ويربطهم برابطة الأخوة الإيمانية حتى يكونوا جسماً واحداً وقد انحلت هذه الرابطة ولكنها ما زالت ولن تزول والطريق إلى توثيقها وشدها هو ما قرأت آنفاً. وثانيهما يربط المسلم وغيره من أرباب الملل برابطة الشريعة العادلة التي يحكمون بها جميعاً بالمساواة وقد طرأ على هذه ما حل عقدتها في بعض الحكومات وما أزالها في حكومات أخرى. وعلى كل حال ينبغي للمسلمين في كل قطر أن يسعوا بالاشتراك مع مواطنيهم الذين يحكمون معهم بحكومة واحدة إلى كل ما يعود على وطنهم وبلادهم بال عمران ويفجر فيها ينابيع الثروة - هذا ما يجب على الأمة الإسلامية في إحياء جنسيتها بتقوية الرابطتين بقدر الإمكان. وأما الحكومات الإسلامية وفي مقدمتها الدولة العلية فيجب عليها أن تساعد رعاياها على هذه الأعمال وتسهل لهم سبلها وأن تجتهد بتقوية نفسها بالاصلاحات الداخلية والاستعدادات الحربية ليتمكنها حماية الخوزة والدفاع عن البيضة وأرى من الضروري لصيانة الدولة العلية من طمع الطامعين أن يسلك مولانا السلطان الأعظم، (أيده

الله تعالى بروح منه) في جميع الولايات الطريقة العسكرية التي سلكها في طرابلس الغرب وهو جعل كل فرد من الأفراد مستعداً للقتال إذا دخل العدو بلاده كما هو الواجب في الدين الإسلامي وأن لا يحرم ولاية من الولايات من فرسان الأليات الحميدية. فإن استعداد الدولة نفسها مهما بلغ لا يمكن أن تقاوم به أوروبا المتحدة عليها باطناً وإن اختلف دولها ظاهراً وأما استعداد الرعايا لمصادمة كل قوة أجنبية تدخل بلادهم حتى الفناء فهو يمنعهم من كل عداء. هذا هو رأينا في تكوين الجامعة الإسلامية بالطرق الممكنة ولا سبيل لدول أوروبا الى الاعتراض على شيء من ذلك. أما الاصلاحات الداخلية فأهمها جعل الحكومة شوروية. والعدل والمساواة بين الرعية. وانتقاء جميع الموظفين من الأكفاء المستعدين. وقد شرحنا رأينا في الاصلاح في مقالات سابقة فلا نعيده. «ومن يتق الله» مسترشداً بسننه الكونية وشريعته السماوية «فهو حسب» وكافيه ما يهيمه «ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدراً» [سورة الطلاق رقم ٦٥ الآية ٣].



الجامعة الاسلامية وآراء كتاب الجرائد فيها



[المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٣٧ - ٣٤٥]

أول من كتب وخطب في بيان أحوال المسلمين الاجتماعية وتمثيل أمراضهم ودلالاتهم على علاجها وارشادهم الى الاتحاد وجمع الكلمة حكيم الأمة الكبير وفيلسوفها الشهير السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني - تغمده الله تعالى برحمته - فان كان قد وقف نفسه على تكوين ما نسميه اليوم «الجامعة الاسلامية» وكان اكثر سعيه لها من الطريق الأقرب - طريق تنبيه الحكومات المسلمة المستقلة الى الاتحاد.

ولكن أباهما الحاكمون فكاره لها جاهل أو مكروه وهو عالم
ثم أشرب في قلبه مذهبه هذا الحكيم الثاني صاحب الفضيلة الشيخ
محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد (كما ألمعنا الى ذلك في عدد
سابق) ولم يدع الرجلان باباً للإصلاح الإسلامي إلا طرقاه وقد بدأ بباب
السياسة فكتبوا وخطبا ما شاء الله أن يكتبوا ويخطبوا فلم تأت النتيجة كما طلبا
ورغبا ثم استقر رأيهما على أن هذه الأمة بالدين وجدت وتكونت وبالدین
سادت وعزت ومن قبل الدين (أي الإعراض عنه) أخذت وابتزت ومن
قبله ضعفت وذلت. وبه يرجع إليها مجدها. ومن أفقه يبرز كوكب
سعدھا. فأنشأ جريدة العروة الوثقى لدعوة المسلمين إلى الوحدة
الصحيحة وأن يجعلوا إمامهم الأعظم القرآن الحكيم. أرشدت هذه
الجريدة العلماء إلى إماتة البدع وإحياء السنن كما أرشدت الملوك والأمراء
ولا سيما المختلفين في المذاهب (كأهل السنة والشيعة) إلى الاتحاد والاتفاق
وأن لا يجعلوا الخلاف الفرعي في الدين من أسباب التفرق والانقسام
الذي يقضي على الجميع. نهت وحذرت. وبشرت وأنذرت. بكلام
أصاب مواقع الوجدان. وبراهين ملكت قيادة الجنان. فاهتز لها العالم
الإسلامي هزة لو طال عليها العهد لزلزلت لها الأرض زلزالاً. ولنفر
المسلمون إلى الاتحاد خفاً وثقلاً. قال الأستاذ المفتي [الإمام محمد عبده]
محرر الجريدة حدثني بعض أهل العلم من بغداد قال: كنا نقرأ العدد من
العروة الوثقى في مجلس السيد سلمان أفندي نقيب السادة الأشراف فيتفق
رأينا على أنه لا بد أن يظهر في العالم الإسلامي عمل كبير قبل أن يصدر
العدد الذي بعد هذا. ونقل نحو هذا القول عن بعض فضلاء الغرب
والشرق. وسمع كاتب هذه السطور الاستاذ الشيخ حسين أفندي الجسر
مؤلف الرسالة الحميدية يقول ما مثاله لو طال الأمد على جريدة العروة
الوثقى لحدث في العالم الإسلامي انقلاب مهم ولهبّ المسلمون من رقادهم
ونشطوا لاسترجاع مجد آبائهم وأجدادهم. ولقد بلغ من غرام نبهاء

المسلمين بهذه الجريدة ان حفظها بعضهم عن ظهر قلب وبعضهم يحفظ نسخها الأصلية وبعضهم كتبها فلم يغادر منها شيئاً وهم يعيدون تلاوتها ويسترشدون بها أنا يعد آن. يحفظها أكابر العلماء في الشرق والغرب وإنني وجدت كل ما فاتني من أعدادها عند فضيلة الاستاذ الجسر فنسختها من عنده. وحدثني الفاضل صاحب جريدة ثمرات الفنون [عبد القادر القباني] إنه يحفظها في صندوق الحديد حيث يحفظ ائمن ما يملك. وبالجملية كانت العروة الوثقى قبساً من نور القرآن ونفخة من روحه وجدولاً من ينبوعه. ظهرت في ضوءها العلة والمعلول. وانتعشت بانتشاقها مشام العقول. ورويت من معين نصائحها الأكباد. حتى رجي ان تكون (وهي العروة الوثقى) رابطة الاتحاد. وقد خافت الدولة الإنكليزية يومئذ مغبة الأمر. ولم تكن أقدامها قد استقرت في مصر. فحملت حكومة مصر على منعها من دخول البلاد المصرية. كما منعتها هي من البلاد الهندية. وكان هذان القطران أهم موارد امدادها. ومعاهد امتدادها. فبطلت وهيات ان تنفصم عروة تعاليمها وارشادها.

ظهرت العروة الوثقى في جمادي الأول سنة ١٣٠١ [آذار ١٨٨٤م] وكل ما صدر منها ١٨ عدداً ثم مرت فترة من الزمن لم تذكر فيها الشؤون الاسلامية العامة في الجرائد الا ما يجيء في عرض القول أو يصيبها من رشاش أقلام غير أهلها من الكتاب مما لا يروي غليلاً ولا يغني فتيلاً حتى أنشأ نابغة الخطباء والكتاب السيد عبد الله نديم المصري الشهير مجلة الاستاذ في اوائل سنة ١٣١٠ [٢٤ آب ١٨٩٢م] وكتب فيها المقالات الطنانة الرنانة في تنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم وبسائر الشرقيين وتشريط همهم لتلافياها الا ان بيئة النديم «حاله ومحله» وزمنه وسياسته اقتضت ان يكون اكثر خطابه عاماً للشرقيين وفي كليات الأمور الاجتماعية وان لا ينحي باللوم على الرؤساء من الامراء والحكام والعلماء والمرشدين فكانت فائدة كلامه في التنبيه المطلق وفي جزئيات وطنية وأدبية وفروع دينية

وكان كلامه مؤثراً فيما نقل إليّ فلو بقي لأحدث في مصر تأثيراً سياسياً ادبياً له شأن. ولكن أخرج النديم من مصر بدعوى أن جريدته تنفخ روح التعصب الديني وتنفض سموم الثورة ولم يكن تم لها سنة ولقد قرأت منها أعداداً في سوريا رأيته يحترس فيها كل الاحتراس من الوقوع في هاتين التهمتين وانما ينفع الاحتراس بالنسبة للمؤاخذه القانونية دون المؤاخذه السياسية التي أخذ بها.

فتر بعد مجلة الأستاذ الكلام الذي يرمي الى «الجامعة الاسلامية» حتى وفقنا الله تعالى في العام الماضي لإنشاء المنار لإحياء تعاليم العروة الوثقى فوضعنا قاعدته على أساسها وأضأنا قمته بنبراسها إلا ما كان فيها من السياسة التي تتعلق بالمسألة المصرية والتحريض على الإنكليز فإن هذا أمر ذهب بذهاب وقته والعروة الوثقى نفسها صرحت مراراً بأن تلك الفرصة إذا ذهبت لا تكاد تعود وتستقر قدم الإنكليز في مصر وقد كان. ولكنها قالت في شأن النهضة الإسلامية الاجتماعية المطلقة التي كانت تعمل لها ما نصه: «إن الرزايا الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ما هم فيه فتقاربوا في النظر وتواصلوا في طلب الحق وعمدوا الى معالجة المرض وعلل الضعف راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف، وإن في الحاضر منها لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها وإلى الله عاقبة الأمور» انتهى من مقدمة العدد الأول. ولا ريب ان المسألة المصرية ليست في هذا العام [١٨٩٩] كما كانت في سنة ١٣٠١هـ (١٨٨٤م) أما المسألة الإسلامية فهي هي بل تقدمت الى الامام بالنسبة الى ما كانت عليه في ذلك العام.

قلنا إن المنار وافق العروة الوثقى في تعاليمها الاجتماعية وقواعدها التي وضعتها للوحدة الإسلامية وخالفها في وجهتها السياسية المصرية. ونقول أيضاً انه زاد عليها البحث في جزئيات البدع وتفصيل القول في التعاليم الفاسدة والعقائد الزائغة والتربية المفيدة ونحو ذلك مما ارشدت اليه اجمالاً ولم يتسع معها الزمان لتفصيله. ولهذا يقول قراء المنار انه لم توجد قبله جريدة في موضوعه. وقد اعترف لنا الكتاب المسلمون والمسيحيون ومن هؤلاء أصحاب المقتطف والمقطم [يعقوب صروف وفارس غر] وصاحب الاهرام [بشارة تقلا] وصاحب الهلال [جرجي زيدان] بأننا تصدينا لخدمة نافعة ولكن أصحاب المقطم كانوا يقولون لنا إن من الضروري أن يطلب المنار من القوة الحاكمة الإصلاح السياسي كما يطلب أهل العلم والدين بالاصلاح الديني. وصاحب الاهرام [بشارة تقلا] كان يقول لنا إن في طريق هذه الخدمة خطراً عظيماً وهو مقاومة أوروبا للمسلمين إذا هم حاولوا الترقى من وجهة الدين وقد كاشف برأيه هذا بعض أكابر علماء الإسلام العارفين بالسياسة منذ بضعة أشهر فراجعته العالم القول وكتب يومئذ صورة المذاكرة في الاهرام واجتمع به كاتب هذه السطور بعد ذلك وكنت في صحبة الاستاذ صاحب المؤيد [الشيخ علي يوسف] ففتح باب المذاكرة في المسألة وكان الكلام مشتركاً ولم يتفق معه على نتيجة واحدة. أما صاحب الهلال [جرجي زيدان] فإننا لم نر منه إلا استحساناً وتحبيذاً وإبانة عن اعتقاد أن هذه الخطة لا أنفع منها للمسلمين. ومثله كتاب دائرة المعارف وغيرهما من أفاضل المسيحيين المنصفين. وفي هذه السنة كثرت الكتابة في تنبيه المسلمين فنشر المؤيد كثيراً من المقالات لكتاب من المسلمين في الشرق والغرب ومنهم الفقير منشيء هذه المجلة وبعض تلك المقالات عرب من جريدة (محمدان) الهندية. وكتبت مجلة الموسوعات ايضاً عدة مقالات لكتاب متعددين. ورأينا في جريدة زمان التركية التي تصدر في قبرص مقالات تحت عنوان الاتحاد الاسلامي ولم نظفر بمن يعربها لنا. وسرى السر من الجرائد المصرية الى جريدة معلومات العربية في الأستانة

العلية والى جريدة ثمرات الفنون في بيروت فكتب فيها مقالات كثيرة في الموضوع ولو سمحت لهما حكومة البلاد لتوسعا في الكتابة ثم اصاب الرشاش غيرهما من الجرائد الاسلامية في الديار السورية أما الجرائد الهندية فكثير ما كتبت وقد ترجم بعضها كثيراً من مقالات المنار وكذلك جريدة الحاضرة التونسية. والحاصل ان اكثر الجرائد الاسلامية قد خاضت في مسألة الاجتماع الاسلامي من نحو سنة او اكثر ولم تكن تذكر قبل ذلك الا نادراً على ما علمت من صدر هذه المقالة وفي هذين الاسبوعين كتب فيها الاهرام بعنوان (الجامعة الاسلامية) ثم كتب المقطم وناقشهما المؤيد فيما كتبا - هذا ملخص تاريخ الكلام في هذه المسألة بحسب ما وصل اليه علمنا وبلغنا ان رجلاً عظيماً من فضلاء مسلمي القرم في بلاد روسيا اسمه اسماعيل بك قد أنشأ جريدة سماها (ترجمان) جعل جل مباحثها في الشؤون الاسلامية وأنشأ مدرستين لتربية ابناء المسلمين وتعليمهم في تلك البلاد ولم نقف على شيء من اعماله ولكن رائحته العطرية تدل على ان عمله عظيم.

أما الطرائق التي بحث فيها الكتاب فهي كثيرة ولم تنجل للناس الطريق المثل بقول احد إذ ما من قول الا وله وجه يعتمد عليه قائله وما من شبهة على فساد رأي الا ولصاحبها تكأة يستند عليها في تقويتها والأمر في نفسه اكبر من كل هؤلاء الكتاب وكيف لا وهو ترقية امة يبلغ عددها ثلاثمائة مليون من النفوس يتبوؤن كل قطر وينطقون لكل لغة وحكامهم من انفسهم ضعفاء ومن الأجانب عنهم اقوياء. وأضعفهم هذا الفقير قد اشتغل بدراسة هذه المسألة بضع سنين وهو في كل يوم يزداد بها علماً لم يكن عنده ويزيح جهلاً كان يغشاه - ان لم يكن في اصولها وقواعدها ففي جزئياتها وشواردها. وما يقف عليه الانسان في سنين لا يمكن ان يجليه لمن لم يقف عليه في مقالة او عشر مقالات (مثلاً) بحيث يؤدي اليه فكره ووجدانه تامين بتلك المقالات ولكن الميزان الذي يجب ان نزن به الأقوال والآراء لنعلم النافع منها والغير النافع هو ان ننظر فيما يعرض علينا فما كان

منها مقوّمًا لفكر ومصححاً لرأي أو اعتقاد فهو نافع وما كان منها مرشداً إلى عمل مفيد ممكن فهو نافع وما عدا هذين النوعين فهو اما خيالات وأوهام واما غش وتغريب واقل ضرر فيه انه حجاب على وجه الحقيقة وتعليل للآمال بما لا ينال وازاغة القلوب عن صراط الحق ومن انحرف عن الصراط المستقيم فهو يزداد بعداً عن الغاية كلما جد في السير وأي خذلان اكبر من كون سعي المرء واجتهاده مبعداً له عن غايته ومراده؟ لا يعرف الحق بقائله وكونه صديقاً او عدواً ولا بكونه يستلزم تعظيم كبير ومرضاته او عدم ذلك وانما يعرف الحق بذاته فمن رعى هذا حق رعايته رجي له التمييز بين الحق والباطل والتزيل بين النافع والضار. فاحفظ هذا الميزان وانظر ما يرجح فيه مما سيلقي عليك من الآراء والأقوال. الالهرام والمقطم متفقتان على ان الدعوة الى الجامعة الاسلامية باسم الدين مضرّة وغير موصلة الى الغاية وانه لا سبيل الى ترقى الأمة الاسلامية الا باتباع خطوات اوروبا كما فعلت اليابان. والمؤيد رد عليهما قولهما الأول ولم يبد رأياً جديداً الا انه وافق على ان مسلك الكتاب المسلمين في الدعوة الدينية مفيد كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوروبية مفيد مع ذلك وذكر في كلامه عن «الجامعة الاسلامية» مقالة لبعض أفاضل كتاب الهند نقلت في المؤيد من نحو شهر وذكر انه موافق على كل ما جاء فيها وخصص بالذكر اقتراح عقد مؤتمر اسلامي في دار الخلافة العظمى وقال إن المؤيد كان قد سبق إلى اقتراح هذا المؤتمر منذ أربع سنين. ومن الآراء التي تناقلتها الكتاب، فكانت مسلمة عند أولي الألباب، تعميم التربية والتعليم، انشاء الجمعيات والشركات والمنتديات العلمية والأدبية، تكثير الجرائد باللغات التي ينطق بها المسلمون، اتحاد الحكومات الاسلامية، العناية بأمر القوة الحربية، تعليم النساء بخصوصهن. ومهما تخالفوا وتناقشوا فلكل وجه وقد جمعنا بين الأقوال في مقالة نشرت في المؤيد حديثاً. ولكن قد ظهر في المقطم قول جديد في مقالة نسبت الى «مسلم حر الأفكار» لم يتابع به قائله مسلماً ولن يتابعه عليه مسلم لأنه ناسف لبناء الدين الإسلامي ومقوض

لعمود بنائه وهو زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر. ولقد وجد للإسلام أعداء اجتهدوا في كل عصر بمحوه أو اضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ولكن مجموع مفسداتهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمي إليه هذا القول الخبيث الذي لم يخطر في بال إبليس فهو أبلغ قول يشير الى أحكم رأي لمحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود فقاتل الله قائله ولا كثر فيمن يدعون الإسلام من امثاله وكفى بمقاتلنا التي صدرنا بها العدد الماضي رداً عليه ولدينا مزيد..

هذا، وإذا وزنت سائر الآراء بالميزان الذي وضعناه آنفاً يظهر لك الراجح والمرجوح من سائر الأقوال. يظهر لك أن من تلك الآراء ما لا يقوم رأياً واعتقاداً ولا يرشد إلى عمل نافع يرجى القيام به وذلك كعقد مؤتمر في الأستانة العلية على أن المنار كان قد اقترح في مقالات «الاصلاح الديني» (التي نشرت في اوائل شعبان من السنة الماضية) تأليف جمعية اسلامية تحت حماية الخليفة يكون مقرها في مكة المكرمة ولها شعب في سائر البلاد الإسلامية وجريدة مخصوصة او جرائد وبيئنا هناك وجوه ترجيح مكة على الأستانة كما بيئنا أصول وظائف الجمعية وأعمالها ونتائجها. أما الأصول فهي التوحيد في العقائد والتعاليم الأدبية التهذيبية والأحكام القضائية والمدنية واللغة وأما الأعمال فأهمها تلافي البدع والتعاليم الفاسدة واصلاح الخطابة والدعوة الى الدين وأما نتائجها فأهمها اتحاد الحكومات الاسلامية. وكل قول فصلناه تفصيلاً.

وإذا ارتقينا في الأسباب وسبرنا أعماق الأقوال والآراء ننتهي إلى القول بأن سبب النهضة الذي يجمع الأسباب كلها هو تعميم التربية العملية والتعليم الصحيح من الوجهة الدينية الجامعة لمصالح المعاش والمعاد - وهو ما صرحنا به في فاتحة العدد الأول من المنار وأقمنا عليه البرهان في العدد

الثاني وجربنا في سائر الأعداد إلى الآن على تفصيل إجماله وبيان إبهامه - (خلافًا لما قاله مصباح الشرق) وأكبر عقبة أمامنا في هذا الطريق هي ندرة الرجال القادرين على التعليم الذي نريده والتربية التي نبتغيها ومع ندرتهم لا تعرف الأمة قيمتهم ولا تنيط بهم ما خلقوا لأجله - فالجامعة الإسلامية والاتحاد الإسلامي وكل ما يرجوه الإسلام متوقف على وجود الرجال العارفين بحاجة الأمة وإناطة الأعمال بهم - فنسأل الله تعالى أن يكثر فينا من أمثالهم - وينفع امتنا بعلومهم وأعمالهم .



الدين والدولة - أو - الخلافة والسلطنة



١٣

[المنارج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٥٣ - ٣٦٠]

ارتأى بعض من كتب في «الجامعة الإسلامية» ان هذه الجامعة تتوقف على الفصل بين الدين والدولة وبين الخلافة والسلطنة بأن يكون الخليفة رئيساً روحياً والسلطان رئيساً سياسياً لا علاقة له بالدين واقترح اصحاب هذا الرأي من كتّاب النصارى على كتّاب المسلمين ان يكتبوا مبينين رأيهم فيه وها نحن أولاء قد لبينا طلبهم ونبدأ ببيان معاني هذه الألفاظ فنقول:

الدين: عرفه علماء المسلمين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل وإن شئت قلت إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية وقواعده عندهم ثلاث: تصحيح العقائد، وتهذيب الأخلاق، واحسان الأعمال. والأعمال قسمان: عبادات ومعاملات. ومن الثاني الأحكام بأنواعها - قضائية ومدنية وسياسية وحربية. ومن الناس من جعل الأحكام قسماً مستقلاً بنفسه ولا مشاحة في الاصطلاح. والدين عند النصارى هو (كما في دائرة المعارف) «عبارة عن

مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله . أو بين صفات تلك النسبة»^(١) وهو كما ترى لا علاقة له بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة . ومن المشهور أن الديانة النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها لما في الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية وأن سلطة الدين على الأرواح فقط . فيجب على كل متبع لهذا الدين ان يدين لكل سلطة ويدعن لكل شريعة حكمته ، بخلاف الدين الإسلامي فإنه مبني على السلطة والغلب وان يحكم العالم كله بشريعته وأن لم يدينوا كلهم به . إذ لا سبيل الى اتحاد النوع الانساني وجعله امة واحدة الا باحدى الوجدتين - وحدة الاعتقاد ووحدة الحكم العادل الذي يساوي بين الجميع . وقد بينا هذا في العدد الأسبق فلا نعيده . فيجب على المسلمين أن لا يدينوا إلا لمن كان على دينهم وإذا حاول أجنبي العبث باستقلالهم ودخل فاتح إلى بلادهم يتعين عليهم أن ينفروا خفافاً وثقلاً ويقاتلوا نساء ورجالاً حتى يدفعوا العدو أو يفنوا عن آخرهم . بل يجب عليهم ان يسعوا في نشر دينهم ورفع لواء سظلتهم حتى تزول الفتنة والشرك من الأرض ويكون الناس أمة واحدة تجمعها رابطة الاعتقاد الحق والحكم العادل أو الثاني فقط كما قدمنا وبهذا الأخير كان الإسلام لا إكراه فيه . ولا تنافي سلطته تقدم غير متبعيه . فضلاً عن ايذائهم وهضم حقوقهم «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين» [سورة المتحنة رقم ٦٠ ، الآية ٨].

الدولة : هذه الكلمة اطلاقاً فتطلق على سلسلة من الملوك تجمعهم اسرة واحدة أو جنس واحد يحكمون مملكة من الممالك . يقال : دولة الأمويين ودولة العباسيين والعثمانيين كما يقال دولة الفرس ودولة

(١) بطرس البستاني ، كتاب دائرة المعارف ، بيروت ، مطبعة المعارف ، ١٨٨٤ ج ٦ ص ٢٣٧ .

الرومانين. وتطلق على الحكومة والسلطة فيقال الدولة الفرنسية ويعني به حكومتها الحاضرة في مجموع بلادها. والحكومة في أصل اللغة مصدر حكم واسم من تحكم بمعنى فصل الخصومة. وفي العرف عبارة عن السلطة ورجالها القائمين عليها.

الخلافة: هي في الشرع الإسلامي النيابة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في حراسة الدين وسياسة الدنيا فهي جامعة للرئاستين معاً ويجب تفويض الأمور العامة الى الخليفة ولا تصح الأحكام في السعة إلا اذا كانت صادرة عنه مباشرة أو بواسطة نوابه. قال في الأحكام السلطانية: «والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء: أحدها - حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزم من الحقوق والحدود ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من زلل. الثاني - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم. الثالث - حماية البيضة والذب عن الحرم ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال. والرابع - إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك. والخامس - تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظهر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً. والسادس - جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله. والسابع - جباية الفبيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف. والثامن - تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير. والتاسع - استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ويكله اليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة

والأموال بالأمناء محفوظة. والعاشر - أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعوّل على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح وقد قال الله تعالى «يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» [سورة ص رقم ٣٨، الآية ٢٦] فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذره في اتباع الهوى حتى وصفه بالضلال وهذا وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع (لعله مسترعى) قال النبي صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» انتهى. فهذه وظائف الخلافة بالإجمال.

السلطنة: كلمة أخذها المولدون من لفظ «سلطان» ويعنون بها الدولة أو الحكومة يسمى حاكمها الأكبر سلطاناً. ولم يطلق لقب السلطان على أحد من خلفاء الأمويين والفاطميين والعباسيين وإنما حدث هذا اللقب في طور ضعف الخلافة العباسية الذي كان من أثره افتتاح العمال في الأقاليم على الخلفاء واستبدادهم بالأمر من دونهم واختراع الألقاب الضخمة وتحليلهم بها. ثم جعل الخلافة إسماً مهماً ليس لأربابها من الأمر شيء إلا نحو ذكر أسمائهم في الخطب وما هو بالأمر المهم في الدين ولا في الدنيا. وكان من تلك الألقاب الضخمة التي تلقب بها العمال والأمراء الذين استبدوا على الخلفاء لقب «سلطان». وأول من تلقب به من الأمراء المستقلين في عهد الخلافة العباسية (محمود بن سبكتكين الغزنوي) الفاتح الشهير في القرن الرابع للهجرة الشريفة [العاشر للميلاد].

من تدبر ما شرحناه من معاني هذه الكلمات الأربع يتجلى له أن الدين الإسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد ومبني على أساس السلطتين الزمنية والروحية وأن الديانة النصرانية على خلاف ذلك، وأن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والدنيوية، وأن كل حكومة تخرج

عن طاعته الشريعة فهي منحرفة عن صراط الاسلام، وأن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود وخضوع المسلمين الى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين. فإن القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يقرع دائماً آذانهم بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلاً بلسان عربي مبين: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٤٤]. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٤٥]. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٤٧].

إذا تمهد هذا فنقول للذين يدعوننا الى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطنة والخلافة لأجل تأييد «الجامعة الإسلامية» إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين بمعنى هذه الألفاظ عندنا فما نحن أولاء قد بينها لكم فارجعوا عن دعوتكم فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق. فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين لصاحب الدين الذي

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا فرس ولا شيء يباع بدرهم يأوي المغارة مثل راعي الضأن لا راعي الممالك في السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه إلى خدمته وتركهم الاشتغال بما ليس منه في شيء ونحن والنصارى في هذا الأمر على طرفي نقيض. فإننا إذا تلونا تلوهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذي هو السياج الحافظ للنصف الباقي. كلا، ان الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهدداً بالزوال. لا جرم أن ما تدعوننا إليه هو أقرب طريق لاعداد «الجامعة الإسلامية» فكيف جعلتموه طريق ايجادها. وهو أقوى علل شقائها. فأني تقنعوننا بأنه علة اسعادها؟

وإن كنتم تدعوننا إليه عن بينة وعلم. ووقوف على حقيقة الحكم. خدمة لمن فتنتم بمدنيتهم. واتصلتم بهم بجاذبية تعليمهم وتربيتهم، فاعلموا أن العلة لم تهبط بنا الى هذا الحضيض الذي يقال فيه: «حال الجريض دون القريض»^(١). وإن الجهالة ما امتلخت احلامنا. وأزاحت أبصارنا. ولا رمتنا بالأفن. وضيق العطن. بحيث صرنا نختل بهذه الوسوس. ونختلب بتلك الهواجس. أو ننخدع لذي «خواطر خواطر». ونغتر بكلام مارق غادر. يصف نفسه بأنه «مسلم حر الأفكار». وما جاءت حرية إلا من رق الكفار. فإن كان اتخذ لقب المسلم ذريعة. لهدم منار الشريعة. فكأين من منتسب مثله للإسلام. ينتهك حرمانه بالفعل لا بالكلام. ويساعد الأجانب على نقض أساسه. واطفاء نبراسه. متبجحاً بأنه من الأحرار المتمدنين. البراء من لوث التعصب للدين.

ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما ذكر هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذي يساوي بين طائفتهم وبين المسلمين ويخمد نيران الغلو في التعصب فينفقون على اعلاء شأن الوطن ويخدم كل دينه من الوجهة الروحية التي لا مثار فيها للتنافر ولا مبعث للتنافس والتفاخر. ويسهل علينا ان نبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا. فنقول إن بناء الشريعة الإسلامية قام على قاعدة العدالة والمساواة بين المسلمين وغيرهم في الأحكام والحقوق المعبر عنها بهذه الجملة التي يتناقلها الإسلام خلفاً عن سلف وهي «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». وقد دلنا التاريخ على ان الحكومات الاسلامية كانت تراعي هذه القاعدة بحسب تمسكها بالدين قوة وضعفا. ومن قابل بين مساواة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الامام علياً صهر النبي وربيه وابن عمه برجل من آحاد اليهود في المحاكمة وانتقاد علي عليه بقوله له «يا أبا الحسن» وعده التكنية

(١) أي حال الغم والغصص دون الشعر والطرب. المنجد في اللغة والاعلام. ص ٨٧.

اخلاقاً بالمساواة لما فيها من التعظيم وبين ما هو جار اليوم في فرنسا من التحامل على دريفوس وهو من اكابر عظماء اليهود حتى أنهم حاولوا قتل وكيله الذي يحامي عنه وهم أصحاب العلم الذي ينطق بالحرية والعدالة والمساواة. يظهر له الفرق بين المسلمين في بدايتهم والأوروبيين في نهاية مدنيّتهم فالشريعة في نفسها عادلة ولا يضر المسيحيين أن مواطنهم المسلمين يعتقدون أنها مساوية بل هو ينفعهم كما يأتي وهم لا فرق عندهم بين الشرائع إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها. إن الترقى الديني والمدني الذي نقصده من إحياء «الجامعة الاسلامية» يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم وهذا القول لا يخالف فيه أحد. ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب إلا إذا كان مبنياً في شريعتهم ومأخوذاً من أصول دينهم. فإذا فصل بين الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق والواجبات، غير واجب الاتباع في اعتقادهم. فإذا اخذوا به في العلانية لا يأخذون به في السر ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتاً في نفسها مقررأ في اعتقادها. فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرأً وجهراً وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقي المسلمون بل يتدلون ويهبطون كما علم بالاختبار والمشاهدة. فقد أنبأ التاريخ ان مبدأ الخلل والضعف الذي ألم بنا كان اهمال وظائف الخلافة والخروج بها عن معناها الذي هو حراسة الدين وسياسة الدنيا.

ولما ضعف الخلفاء عن القيام بالوظيفتين لجهلهم وانغماسهم في الترف والرفاهية استبد العمال بسياسة الدنيا فكانوا ملوكاً وسلطين وأهملت حراسة الدين فلم يكن لها زعيم يقيم السنن ويميت البدع، غير ما كان يأتيه بعض صلحاء الملوك أحياناً، فتمزق بهذا نسيج الوحدة وتفرق شمل «الجامعة الاسلامية» حتى وصلت الى ما نحن فيه الآن وكأن هذا امرأ

اقتضته طبيعة العمران . ولن يعود للإسلام مجده الا باحياء منصب الخلافة واتفاق المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سرّاً وجمهوراً ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم فيجب على من يهيمه ترقية شؤونهم أن يدعوهم به الى العلم والعمل ونفض غبار الجهل والكسل . والقيام بمصالح المعاش والمعاد . على ما تقتضيه سنن الترقى والاسعاد . فهو إمام كل إمام . وكما كان المبدأ في ترقّيهام كذلك يكون الختام .

تحريف الكلم عن مواضعه

١٤

[المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٨٥ - ٣٩١]

رد على مسلم حر الأفكار

يعلم القراء ما كان من خوض الجرائد في مسألة «الجامعة الاسلامية» وأن بعض كتاب النصارى ارتأوا أن ترقى المسلمين يتوقف على الفصل بين الدين والدولة والخلافة والسلطنة كما هو مقتضى أصول دينهم وخالفهم كتاب المسلمين في هذا لأنه مخالف لأصول الديانة الاسلامية وفروعها . ولكن نشر في المقطم مقالتان طويلتان بامضاء «مسلم حر الأفكار» وافق فيهما صاحبهما كتاب النصارى وجعل قاعدته فيها ان تكون وظيفة الدولة والحكومة «تأمين الناس على ارواحهم وأعراضهم وأموالهم وسن القوانين العادلة لهم» وهذا انحراف عن صراط الاسلام وتحول عنه لا يقول به الا من لا يعرف ما هو الإسلام أو من يرى أن نجاح المسلمين وترقيهم إنما يكونان بتركهم أصل دينهم والأخذ بأصل النصرانية في هذه المسألة . وقد أسهب المنار في الرد على هذا الكاتب وبين حكم الدين الإسلامي في

المسألة والفرق بينه وبين الدين المسيحي وأثبت أن كل بلاء حل بالإسلام والمسلمين فمرجعه إلى ما طرأ على الخلافة والخلفاء ففصل بين السلطة الدينية والسياسية وأنه لا يعود للإسلام كمال مجده إلا برجوع هذا الأمر إلى نصابه واناطته بمن يقوم به حق القيام . فإذا سلمنا لحضرة الكاتب « ان الغاية التي تسعى إليها الدولة في زماننا هذا دنيوية محضة » وهي ما مر عنه آنفاً من التأمين وسن القوانين فيجب علينا أن نطالبها بحفظ الدين والعمل بالشرع دون ما يخالفه من القوانين لا أن نشايعها على تعدي حدوده وإبطال شعائره تقليداً لديانة أخرى تعتبر ان الدولة والدين أمران متباينان يفترقان ولا يجتمعان . ويجب علينا أيضاً أن نقف مع ذلك عند هذه الحدود العادلة ونقوم بتلك الشعائر الشريفة ونربي عليها أبنائنا وبناتنا إلى أن يكون للأمة رأي عام تقدر به على إلزام دولتها بالترام دينها وشريعتها . ووجه المنار في الدعوة إلى الإصلاح الإسلامي الأمة الإسلامية دون حكوماتها لأن بعض تلك الحكومات أجنبية لا كلام لنا معها والأمراء والسلاطين من المسلمين قلما يلتفتون لإرشاد جريدة أو يجيبون مطلب رجل إنما شأنه في لسانه وقلمه فإذا خافوا تأثير كلامه في بلادهم منعوه دونها .

وبعد انتشار المنار المشتمل على الرد بأسبوع رأينا في المقطم مقالة بامضاء ذلك الكاتب «مسلم حر الأفكار» يرد فيها على المنار لكنه حرف الكلم عن مواضعه ونسب إلينا ما ليس لنا فزعم أننا حملنا عليه حملة منكرة لأنه نصح لأبناء ملته في المقطم «ان يجعلوا اتكاهم على انفسهم في تدبير مصالحهم ولا يلقوا كل اعتمادهم على الحكومة وأن يراعوا دوران الزمان وتغير الأحوال طبقاً لمقتضى العمران» الخ وإننا أنكرنا الخلافة العثمانية والصواب أن الحملة المنكرة إنما كانت لأجل المسألة المتقدمة التي زعم ان المنار موافق له فيها والمنار أول جريدة أنشئت في العربية تحث الأمة على الاعتماد - بعد الله - على نفسها إلى آخر ما تقدم آنفاً ولنا في هذا مقالات ونبذ كثيرة في المجلد الأول وفي المجلد الثاني وما وافقناه ولن نوافقه على

جعل الفصل بين الدين والدولة وقرار الدولة على ترك الشريعة السماوية وقيامها بتشريع جديد - من اعتماد الأمة على نفسها المطلوب منها ولا على جعله إياه من الأمور التي يجب أن تراعي به الأمة أحكام الزمان وتغيير الأحوال . فإننا نعتقد أن شريعتنا صالحة لكل زمان ويمكن اتباعها في كل حال بشرط أن لا تنقيد بقول مجتهد واحد من علمائها .

أما احتجاجه علينا بما شرحناه من سبب ضعف الخلافة واستبداد العمال بسياسة الدنيا وإهمال حراسة الدين وقولنا في إثر ذلك « فتمزق بهذا نسيج الوحدة وتفرق شمل » الجامعة الإسلامية - إلى قولنا - وكان هذا أمراً اقتضته طبيعة العمران » فهو حجة عليه لا له وظاهر في خلافه لا في وفاقه . وبيان من وجهين : أحدهما إننا صرحنا بأن خروج السلطة الدنيوية من أيدي الخلفاء واستبداد السلاطين فيها هو الذي مزق « الجامعة الإسلامية » كل ممزق فكيف نعود فنقول اليوم بأن ما كان سبب النقض والانقسام يكون اليوم سبب القتل والابرام . وثانيهما إن ما تقتضيه طبيعة العمران لا يكون ضربة لازب إلا إذا وجدت أسبابه ودامت علله . ويدلنا علم الاجتماع على أن للقوة والترقي نواميس وللضعف والتدلي نواميس أخرى وأن لكل أمة من الأمم شؤوناً مخصوصة في تقدمها وتأخرها وصعودها وهبوطها . وأفاد التاريخ - وهو مورد علم الاجتماع ومصدره - أن الأمة الإسلامية ما بلغت ذلك السؤدد الرفيع وما أشرفت على العالم بالأمر والنهي من شواهد العزة والسلطان . وما أشرفت على كرة الأرض بالعدل والاحسان من سماء العلم والعرفان إلا بدينها من حيث إنه جمع بين السلطتين في رئيس واحد مقيد بالشريعة العادلة التي يدين لها هو ومروءوه سراً وجهراً . ويرون اتباعها إيماناً والإعراض عنها كفراً . وإن ذلك السؤدد ما تداعى سوره، وزلزل عرشه وسريزه، إلا بما ذكرنا من إهمال وظيفة الخلافة التي ضمت السيادة من قطريها، وجمعت السعادة بين طرفيها . وكل واحد من الأمرين اقتضته طبيعة العمران . ولم تخرج فيه الأمة عن نواميس

الأكوان. فكيف نظر «ناصحنا حر الأفكار» بأحدى العينين. واختار لأمته أمرّ الأمرين؟ هذا ملخص ما قلناه في المسألة من حيث هي اجتماعية إسلامية وجوابنا عن شبهته فيه وهو صريح في أننا نحن وإياه على خلاف لا على وفاق.

وما كان لنا أن نتكلم في مسألة اجتماعية من الوجه النظري من غير أن نبين وجهتها من حيث الوجود والواقع لئلا نغش الناس بايهاهم أننا نطلب منهم ما ليس في أيديهم كامكان توحيد السلطة الإسلامية في هذا العصر بالنسبة لما نحن فيه من البحث ولذلك بينا في آخر تلك المقالة مقالة «الدين والدولة والخلافة والسلطة» أن السعي في إعادة مجد الإسلام المتوقف على اتفاق المسلمين على إمام واحد يعتقدون الخضوع له سرّاً وجهراً ليس من العبث، كما يدعي حر الأفكار، فإنهم إذا لم يكونوا متفقين على خليفة واحد فهم متفقون على القرآن وهو الإمام الأعظم والمصلح الأول الداعي الى كل هدى والناهي عن جميع أسباب الردى. وقلنا إنه يجب على من يهمة ترقية شؤون المسلمين أن يدعوهم بالقرآن إلى العلم والعمل والقيام بمصالح المعاش والمعاد مع مراعاة سنن الكون في السير. فحرف «حر الأفكار» الكلم عن مواضعه وزعم أنني أنكرت «ان للمسلمين اليوم خليفة حقيقياً» و«ان سلاطين الدولة خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم» والحق إنني إنما أنكرت وجود إمام غير القرآن يخضع له جميع المسلمين سرّاً وجهراً وهذا لا ينافي وجود خليفة حقيقي يخضع له البعض أو الأكثر دون الجميع. ومعلوم لكل أحد أن مسلمي مراكش وإيران لا يخضعون لخلافة آل عثمان فإذا كان الإخبار بهذا يدل على الاعتقاد ببطلان خلافة سلاطين آل عثمان فالإخبار بان بعض الناس ينكر وجود الله تبارك وتعالى يدل على اعتقاد المخبر عنهم بأنه ملحد مثلهم والحق أن حاكي الكفر ليس بكافر وإنني ما تعرضت في مقالتي تلك للخلافة العثمانية بنفي ولا اثبات لا تصريحاً ولا تلويحاً وان «حر الأفكار»

حرف الكلم ورماني بهذه التهمة عن سوء قصد لا عن سوء فهم فيما يظهر والله أعلم بالسرائر.

فتبين للبيب مما بسطناه ان صاحب المنار [محمد رشيد رضا] ما وافق ولن يوافق ذلك الملقب بمسلم حر الأفكار. وأغرب من زعمه الموافقة وأعجب أن كتابته تشيد عليه إحدى الغميزتين - عدم فهم الإسلام أو اعتقاد أن تركه سعادة للأنام - وهو مع ذلك ينفي التهمة عن نفسه بالاعتزاز بالأوروبيين والتبجح بالانتفاء إليهم والأخذ بتعاليمهم وإنكار إطلاق لفظ الكفار عليهم أو الحمل على هذا حيث قال بعد ما زعم أنني موافق له على ما اتهمته فيه بالغدر والمروق ما نصه: «وأغرب من ذلك وأعجب ان صاحب المنار يعيرني بقوله عني (يصف نفسه بأنه مسلم حر الأفكار وما جاءت حريته إلا من رق الكفار) فمن هم الكفار الذين يعينهم الأوروبيون الذين يعينني على الدرس في مدارسهم أم الانكليز المحتلون لهذه الديار» اهـ. وأقول في الجواب: أولاً - انني ما عبت على الدرس في مدارس الأوروبيين بل لا أعرف أين درس ولا أعرف شخصه الكريم أيضاً. ثانياً - ان احتلال المحتلين لهذه البلاد أمر سياسي عسكري لا علاقة له بالكفر والإيمان ولا نعلم عن الإنكليز أنهم أكرهوا أحداً على ترك دينه اللهم إلا أن يظهر مارق كفره الذي أشربه من قبل اعتزازاً بهم واعتماداً على منعهم قومه من إيذائه أو إمتهانه. ثالثاً - إن الدين الذي يتنسب إليه ويتكلم في ترقى أهله يسمى كل من لم يكن مسلماً بالكافر وهذا الإستعمال مستفيض في الكتاب والسنة وكتب الأئمة وهو اصطلاح شرعي لم يقصد به الذم والإهانة كما بينت ذلك في العدد الأول من المنار معززاً بالشواهد من كتب الدين واللغة - رابعاً - إنني أنا قد ذكرت في ذلك العدد أيضاً أن لفظ الكفر صار من أقبح ألفاظ السب والشتم لأنه يطلق في اصطلاح كتاب العصر على من لا دين له أو على من ينكر وجود الباري تعالى وإنه ينبغي لذلك ان يخصص في الكتابات العصرية بهذا المعنى.

وذكرت هناك صورة فتوى شرعية بعدم جواز مخاطبة الذمي بيا كافر إذا كان يستاء من ذلك ولكن الاصطلاحات الشرعية لا تتغير ومثل هذه المسألة إنما خصصت بالحكم الشرعي المقرر بالاجماع وهو عدم جواز إهانة الذمي ونحوه كالمعاهد والمستامن. خامساً - ان الذي أملى على الفكر كلمة «رق الكفار» هو النكتة البديعية فان في العبارة الطباق بين الرق والحرية والجناس المطلق بين الأفكار والكفار وأعني بالكفار الذين يتعلمون العلوم الحديثة وهم ليسوا على شيء من الدين غير ما يتلقونه بالتقليد الناقص وما يرونه بالمشاهدة ممن يعيشون معهم فيخرجون على غير دين بالكلية لا سيما إذا كانوا مسلمين وتعلموا في مدارس أجنبية. وذلك إن التلميذ المسلم لا يتعلم في المدارس الأجنبية الديانة النصرانية فيكون نصرانياً ولا يعرف الإسلام فيكون مسلماً وهؤلاء هم أضر على المسلمين من جميع العالمين ويصدق على المارقين منهم لفظ الكفر بمعنييه الشرعي والاصطلاحي العصري.

هذا، واني أختم كلامي بالنصيحة لحضرة الكاتب كما ختم كلامه بالنصيحة لي وأحب كما يحب أن أعيش معه ومع جميع الناس بحب وسلام فأقول: إذا كنت تحب أن تتكلم في الشؤون الاسلامية فيجب عليك أولاً أن تقف على علوم الشريعة من عقائدها وأصولها وفروعها وتفسيرها وحديثها وفقهها وآدابها لتكون على بصيرة من أمرك وأمر ما تدعو إليه كما هو شأن المسلم بمقتضى قوله تعالى «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» [سورة يوسف رقم ١٢، الآية ١٠٨] وإلا فالإلزام شأنك مكتفياً بعلومك الأوروبية، والسلام على من اتبع الهدى.





فلسفة الحرب الحاضرة

[بريطانيا العظمى والترانسفال الصغرى]

[المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٤٩٧ - ٥٠٢]

حكومة صغيرة ينقص عدد رعاياها عن مليون واحد تهضم حقوق دولة عظيمة رعاياها ثلاثمائة مليون أو يزيدون. ثم تنذرهما بالحرب ثم تبدأها بالقتال ويكون لها الظفر غير مرة، إن هذا شيء عجاب! أما هضم الحقوق فهو دعوى بريطانيا العظمى على الترانسفال الصغرى ويقول السياسة من غير الانكليز إنه لا ذنب للترانسفال إلا الإيذاء من ضيم إنكلترا والمحافظة على استقلالهم في جوارها وإن الانكليز خلقوا للترانسفاليين ذنباً ليتخذوه حجة لهم أمام أوروبا على اضطرارهم للإيقاع بهم وعدم خروجهم عن سنن التمدن والانسانية في إلزامهم بإجابة ما يطلبون. وإن غرض الانكليز الحقيقي الأخذ بشار الدكتور جسون الذي نكل به الترانسفاليون من قبل والتمهيد لمشروع سسل رود في جعل القسم الشرقي من أفريقية مستعمرة إنكليزية من رأس الرجاء الصالح الى الإسكندرية. ومهما يكن من الأمر فحسب الترانسفال أن معاملتها مع بريطانيا العظمى في السلم والقتال معاملة الاكفاء والاقبال. الجرائد في الغرب والشرق تصف الانكليز بالطمع والجشع ويرى ساستها أنه ليس لهذه الدولة حجة قيمة في التعدي على الترانسفال ويقولون إن البريطانيين المقيمين في تلك الجمهورية للتجارة واستخراج المعادن لا يشكون من حكومتها ولا يبالون بحقوق الانتخاب لأنهم لا ينوون الإقامة فيها واتخاذها وطناً وإن حكومتهم هي التي حملتهم على التبرم والشكوى لتتخذ ذلك ذريعة لمناسبة تلك الجمهورية، كما صرح بذلك بعض من عاد إلى أوروبا منهم في هذه الأيام. ونحن نقول إن هذه الحجة إلا كسائر الحجج التي تحتج بها الدول

الأوروبية في فتوحاتها - تمويها للعدوان ، وإرضاء للتمدن بالبهتان . كنشر
لواء الحرية ، واستبدال التمدن بالهمجية ، وإبطال الاسترقاق ، وتعميم
المعارف في الآفاق . إتحد المعنى وتعددت العبارات ، والصيد واحد والشباك
مختلفات . وإنما يعذل الأوروبيون بعضهم بعضاً بالخروج عن التعللات
المعتادة حسداً من عند أنفسهم للدولة السابقة في ميدان الاستعمار . وما
الاستعمار الا فتوح وتغلب بالحيلة والخداع مهما أفادا وإلا فبالحرب
والجلاد . وما كانت الحرب غاية يلجأ إليها بعد فراغ جراب الحيل إلا
لأجل الاقتصاد في المال والرجال . لا كما يقولون إنها شفقة على الانسانية ،
وأدب من آداب المدنية . فقد كان تنكيل الإنكليز بدرأويش السودان مما
تقشعر له الأبدان . ويدل على ان الأوروبي لا يرى غير قومه من نوع
الانسان . هذا ، والانكليز أبعد الأمم الأوروبية من الضراوة بالحرب .
وأقربها الى اختيار السلم .

هذا مجمل ما يقال في انتقاد الأوروبيين على الإنكليز وفي حقيقة
أمرهم . وأما هذه الجرائد الشرقية فهي ترجع صدى أقوالهم وتضيف إليها
ما شاءت السياسة من ذم الإنكليز وتنكبهم صراط العدالة وانحرافهم عن
سنن الفضيلة . وأما نحن فنقول إن إنكلترا ما جاءت أمراً فرياً فإن طبيعة
الاجتماع البشري كطبيعة كل موجود حي . ألم تر الى كل جسم حي من
نبات وحيوان كيف يطلب التغذية من الخارج ما دام حياً وما يدخل في
بنيته من الغذاء ينمي ويمده في بعض الأطوار ويحفظ عليه وجوده وقوته في
طور آخر . حتى اذا ما اذن بارىء الكون بانحلاله وعدمه يعجز عن تناول
الغذاء الكافي لحفظ وجوده فتفتك فيه عوامل الانحلال حتى يصير الى
الفناء والاضمحلال . وقد تتعطل وظائف التغذية في الجسم لعدة عارضة
ثم تزول تلك العلة بسبب من الأسباب كالمعالجة العملية فترجع الى
الجسم صحته فيعود متغذياً يطلب المدد لقوام حياته من الأجسام الأخرى
التي من شأنها أن تكون غذاء له - هذا الذي نشاهده في أشخاص الحيوان

والنبات في الأدوار الثلاثة - النمو والوقوف والانحلال الذي يعقبه الفناء - هو بعينه مشاهد في الأمم والدول - وهو فيها اضطراري لا اختياري وإن كانت جزئيات الأعمال تؤتى من الأفراد بالاختيار - فليس في طاقة الدولة القوية ذات الأمة العزيزة أن تمتنع عن طلب السيادة على غيرها وتوسيع دائرة نفوذها في الأمم الضعيفة كما أنه لا طاقة للأفراد من الإنسان وغيره من الأحياء على ترك الغذاء بالمرة لأن مصادمة الطبيعة ومقاومتها لإبطال عملها مما لا يستطيعه الناس - نعم، يقدر الإنسان على تأخير الغذاء عن وقته أو تقديمه عليه ويفضل غذاء على آخر مما في استطاعته تناوله .

والترجيح في هاته الأحوال تابع للعلم بالمصلحة والمنفعة ولكنه لا يترك الغذاء بالمرة مع الاستطاعة عليه إلا لعله في الجسم أو النفس وكذلك شأن الدول في الفتوح والاستعمار لا تتركهما إلا بعله العجز ولكنها تختار بلاداً على أخرى وقد تتعجل بشيء من ذلك أو تؤخره عن الوقت المناسب إذا اقتضت المصلحة ذلك - كما تؤكل الفاكهة قبل بدو صلاحها والطعام قبل نضجه إما لشدة الجوع وإما خشية أن يحال بينها وبين الأكل . وكما يؤكل اللحم قديداً حيث لا يوجد غريزاً طرياً . لا جرم أن تعدي إنكلترا على الترانسفال ومحاولة التهامها من الابتسار (أخذ الشيء قبل أوانه) ولكن الشديد القرم يأكل اللحم النيء وربما حملته الضراوة على نهش لحوم الأحياء . لا يرتاب أحد في أن شعب هذه الجمهورية شعب حيّ حافظ لوجوده متمتع بجميع ما تتمتع به الأمم الحية من المزايا الصورية والمعنوية . ومن طبيعة الجسم الحي المتمتع بالمزاج المعتدل الصحيح أن يدافع ما يعرض لمزاجه ويقاوي ما يعدو على حياته ولا يستسلم لعوادي البلاء . ويستهدف لعوامل الفناء . ومن يقول إن طبيعة الأشلاء كطبيعة أولى القوة من الأحياء؟ فما ظهر من كل من إنكلترا والترانسفال هو ما اقتضته طبيعة عمرانهما فلا لوم على الأولى ولا تثريب، وليس ما جاءت به الثانية بالأمر العجيب . وهذا هو ما وعدنا ببيانه في المنار الماضي .

يقال إن بين الإنسان وبين سائر الأحياء فرقاً فهو يعمل منفرداً ومجتمعاً بالاختيار لا بسائق الفطرة فقط ويوصف بالاعتدال في أعماله ومناشئها من أخلاقه وسجايه فيمدح. ويرمى بالتفريط أو الإفراط في ذلك فيذم. وهو مكلف بأن يعدل في تصرفه بالطبيعة ويقف في تحصيل مطالبها عند الحدود المشروعة والمعقولة. وإننا نرى الترنسفال في المدافعة أقرب إلى الإفراط من إنكلترا في التعدي والمهاجمة. بل إنها هي التي ألجأت إنكلترا للحرب بإبذارها الشديد المعلوم فكأنها هي التي ابتدأت الحرب بل هي التي ابتدأتها حقيقة. نقول إن هذا الكلام صحيح وإن حكومة الترنسفال قد تهورت ولكن لها عذراً في التعجل بالحرب لأنها علمت أن ذلك واقع ماله من دافع وأن الفائدة في التأخير إنما هي لعدوتها حيث تستكمل جمع القوة اللازمة لآبادتها. على أنها تلام على عدم التساهل في الدفع بالتي هي أحسن قبل أن تجهز الكتائب وتسوق الجنود إلى الحدود. اللهم إلا أن تكون على بينة أن تلك المطالب تعبت باستقلالها فإنها حينئذ يصدق فيها قول الشاعر

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً فلا يسع المضطر إلا ركوبها

فكيف بها إذا شعرت بأن غاية هذه المطالب محو وجودها القومي وادغامها في المستعمرة الكبرى التي تجدد بريطانيا العظمى في إنشائها وقد تجاوزت في التمهيد لها من الشمال الخرطوم وأم درمان. وتعلم (أي الترنسفال) أنها هي العقبة الكؤود التي لا بد من تمهيدها في الجنوب؟ أليست جديرة في هذه الحال بأن تتمثل بقول أبي الطيب.

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تعيش جباناً؟

بلى - الجبن والاستبسال، هما: عاملا الفناء والزوال، وعاقبة الشجاعة والاقدام. إما الظفر وإما مية الكرام. وليس استبسال شعب البويرس واستماتته لأجل الأمر الثاني (مية الكرام) كما يظن أكثر الناس بل هو يطمع

بالظفر بعدوّه ويرجو أن يكون له الغلب عليه لأسباب منها إعجابه بنفسه واستهانته بخصمه لا سيما بعد الظفر بحملة الدكتور جيمسون الانكليزي . فإن البويرس يعتقدون بأنفسهم أنهم أشجع الخلق وأبسلهم والباسل لا يستبسل . ومنها ، إن التعليم العسكري عام فيهم ومتى دخل العدو بلادهم فإنهم يتألبون عليه كباراً وصغاراً نساء ورجالاً حتى يظفروا به فينفوه أو ينفوه أو يبيدهم عن آخرهم . وبمثل هذه المزية تحفظ الشعوب الصغيرة استقلالها وبتركها حلّ الدمار بأقوى الأمم وأعظمها . ومنها ، إن لهم من ولاية الأورانج الحرة حليفاً وظهيراً - ومنها ، إنهم مدافعون وخصمهم مهاجم . ومنها ، إنهم يتوقعون أن يشور أبناء جنسهم في مستعمرة الرأس على خصمهم إذا لم يبقوا فيها حامية كافية لمنع الثورة ، وإبقاء الحامية مفرق لقوتهم ومضعف لهم . والظاهر أن بريطانيا العظمى على عظمتها إنما تقدر على التكيل بالترنسفال بالمطاوله لا بالمناجزة - ولا عار على أمة أن تغلبها أمة يزيد عدد رعاياها على عددها أكثر من ثلاثمائة ضعف - ولها الفخر الأكبر والشرف الأعلى في الشجاعة إذا هي طاولتها في القتال ، أو كانت الحرب بينهما سجال - فكيف اذا هي ظفرت ولو في بعض الأحوال؟

هذا خير مثال للأمم الحية والأمم التي تعد في الموق . وبه يفهم قول اللورد سالسبري إن الأمم الحية تزداد حياة والمائة تزداد موتاً - ولكننا بينا أن الأمم التي ظهر فيها الانحلال يجوز أن ترجع إلى صحتها بازالة العوارض التي طرأت عليها فغلبت التحليل على التركيب - فعسى ان يكون في كلامنا موعظة وذكرى «وما يتذكر إلا من ينيب» [سورة غافر رقم ٤٠ ، الآية ١٣] .



ذكرى لرؤساء الأمة

«إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا»

[سورة الانسان رقم ٧٦ الآية ٢٩]

[المنارج ٢ (١٨٩٩) ص ٥١٣ - ٥١٥]

ويل للمفرطين الذين هم في غمرة ساهون. تلمع لهم بروق الهداية ولا يبصرون. وتصيح بهم رعود النذر ولا يسمعون. وتفيض عليهم سماء النعم ولا يشكرون. أنذرهم الله بطشته بسوء الحال. وقلة المال. وزلزلة الاستقلال - فتماروا بالنذر. وأعرضوا عن الآيات والعبر. واعتذروا بالقضاء والقدر. وما أذنّب القضاء ولكنهم هم المذنبون. وما قصر القدر ولكنهم هم المقصرون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون. وما هي إلا كلمة واحدة تذهب باستقلالهم. وتقطع جبال آمالهم. وتحتاج ثمرات ما كان من أعمالهم. أستغفر الله. أنهم قوم لا يعلمون. ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون.

ويل للغافلين الذين هم في سكرة يعمهون. أضلهم الهادون. وأغواهم المرشدون. وفكك بهم الحراس الحافظون. فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. تفرقت بهم السبل فاعيتهم الحيل. واختلف فيهم الأدلاء فلا يدرون كيف العمل - وغلبت العادات السيئة فكثرت الخلل. وقوي سلطان التقاليد الباطلة فعم الزلل. فإذا قيل لهم إرجعوا إلى قرآنكم قالوا إنما نحن مقلدون. وإذا قيل حكموا العقل قالوا إنما نحن مؤمنون. كلا انه لا يشقي بالايان العالمون. وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون.

ويل للمرؤوسين من الرؤساء. وويل للرؤساء من المرؤوسين. وويل لعلماء السوء. وويل لخطباء الفتنة. وويل للذين يغرون الناس بأقوالهم.

ويفتنونهم بأفعالهم وأحوالهم. يزهدونهم وهم طامعون. وينفثون في أرواحهم سموم الخرافات وهم يعلمون. «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ١١-١٢].

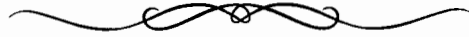
ويل للأمرء الظالمين. والسلاطين الجائرين. الذين جعلوا الرعية عبيدا. بل حسبوها حجارة أو حديدا. يستعبدونها كما يشاؤون. ويستعملونها بما يشتهون. لا يتقيدون بشريعة ولا قانون. ويرى كل منهم أنه «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» [سورة الانبياء رقم ٢١ الآية ٢٣].

حسبكم حسبكم أيها الرؤساء وأيقوا من نومكم أيها المرؤوسون. فقد ذهبت تلکم الأزمان. وتغيرت طبيعة العمران. ودخل البشر في طور جديد. فمنهم شقي وسعيد. فاما الذين سعدوا في دنياهم. وكاد يخلص لهم ملكها دون من سواهم. فهم الذين نظروا في الأكوان واسترشدوا بسننها. وسبروا أحوال الأمم فأخذوا بنافعها ومستحسنها. وطهروا أنفسهم من ضارها ومستهجنها. وبذلوا جلّ العناية في اختبار طرق التربية والتعليم. واختيار ما ثبت لهم أنه الصراط المستقيم. وإنما تعرف المبادئ بغاياتها. وصحة الأسباب بصحة مسبباتها. وهذه آثارهم بين يديكم. وهي أكبر حجة عليكم - يدير الواحد منهم شؤون الملايين من سائر الأمم. كأنه يدير الآلات الصماء أو يرفع النعم.

وأما الذين شقوا فهم الذين تنكبوا الطريق الأمم. وأعرضوا عن النظر في أحوال الأمم. وجهل علماءهم سنن الله في الخلق. وزعموا أن في تعلمها اعراضاً عن الحق. بل أوهموا أمتهم أن سنن الله وأحكامه في خليقته. مخالفة لسننه وأحكامه في شريعته. وإن العالم بالخليقة كافر أو منافق. والمشتغل بكتب الفقه (التي زعموا ان الشريعة محصورة فيها) هو المؤمن الصادق. هيهات، هيهات، لقد أضلّ الواهم قومه وما هدى، وإنما «ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى» [سورة طه رقم ٢٠، الآية ٥٠]،

قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون، وهم الذين يحاربون الإصلاح باسم الدين، وهو ما كان عليه آبائهم منذ مائة سنة أو خمسين. فيقولون ليس في الامكان إلا ابقاء ما كان على ما كان، لأن سعادة الأمة في حاشيتي التجريد والصبان، ومعرفة حكم مناكحة الانس والجان، وقطع السنين الطوال، في علوم لا تتعلق بها الأعمال، كابواب الرقيق، وما فيها من التدقيق. واذا قيل لهم اقتدوا بسلفكم الأولين، من الصحابة والتابعين، ومن يليهم من الأئمة الوارثين، الذين جمعوا بين مصالح الدنيا والدين، ولم يكن عندهم الصبان ولا ابن عابدين، فارجعوا إلى كتبهم، وتأدبوا بأدبهم، واستمسكوا بسببهم. فأما أدبهم فالسنة الصحيحة والقرآن، واتقان لغتهما بالكتابة واللسان. وأما سببهم فالاستعداد للقوة بقدر الإمكان، بحسب حال الزمان والمكان. وبذلك فتحوا البلدان، ودوخوا الفرس والرومان. إذا قيل لهم هذا يقولون اما اقتفاء آثارهم في الآداب والعرفان، فلا يستطيعه اليوم انسان، لفساد طبيعة الزمان. وأما اتباعهم في القوة، والنجدة والفتوة، فهو مطلوب من الحكام، لا من العلماء الاعلام. فإذا قلت كيف وان المدافعة عن الأوطان، هي عندكم من المفروض على الأعيان، حيث تحقق شرطه في هذا الزمان، وهي متوقفة على علم تقويم البلدان، ونحوه من العلوم التي يذمها منكم الجمهور الأكبر، ويقولون يجب ان لا يتلوث بها الأزهر، يجمعهم قوم ويهمهم آخرون، ويعرض عن الجواب المتكبرون. «إنظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون» [سورة الانعام رقم ٦، الآية ٦٥]. لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون، وهم الذين استبدل حكمهم قانون الإفرنج بقانون الديان. لأن سوء التعليم أبعد الفقه عن متناول الأذهان، وجعل الفقهاء بأحوال العصر جعله غير منطبق على مصالح الإنسان. وتجاوزوا الحد في الاستبداد، والعلو في الأرض والفساد. فجعلوا لأنفسهم الحق في ابطال الشريعة الإلهية، والعفو عن من يحكم عليه بأحكامها العدلية. على أنهم لم يتقيدوا بالقوانين الوضعية، ونظام الأمم المتمدنة الغربية فيا لها من

تجارة باثرة، وصفقة خاسرة، وما هو الا خسران الدنيا والآخرة. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٤٥]. لا أطيل في القول فشقاء أمتنا في كل مكان، قد شعر به منا كل انسان. ولم يزل منزلة الرؤساء من الأمة منزلة الوالدين من الولدان، وأمام هؤلاء الرؤساء الآن، فرصتان لاصلاح الشأن. إحداها في مصر وهي العلمية الدينية، والثانية في بلاد الدولة العلية، وهي السياسية الإدارية. فإذا انتهز علماؤنا وفضلاؤنا الأولى ودولتنا الثانية، فزنا إن شاء الله تعالى بالعيشة الراضية. وإلا أضاعوا ما تنتظره الأمة من المجد في دنياهم وهم غافلون، «ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون» [سورة فصلت رقم ٤١، الآية ٢٦].



الفرصتان



[الفرصة العلمية الدينية والفرصة السياسية الادارية]

[المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٥٢٩ - ٥٣٤]

من المجمع عليه أن المسلمين في هذه الأزمنة متأخرون عن جميع الأمم في حياتهم الاجتماعية فما من ملة من الملل إلا وقد سبقتهم، إما في بسطة المال وسعة الرزق وخفض العيش فقط كاليهود وإما في هذا وفي العزة والسيادة وقوة السلطان وسطوة الملك ايضاً. ومن المجمع عليه إن الأمة في أشد الحاجة إلى اصلاح يحفظ لها ما بقي لها من تراث أسلافها ويؤهلها لاسترداد ما سلب منه. ولا ريب في أن هذا الإصلاح اذا قامت به الحكومات والأمة معاً يكون أقرب حصولاً وأتم فائدة وأدنى لإزالة المرض وإصابة الغرض. وإنه لولا قدرة الحكومات على حمل الأمة على ما تريد

منها طوعاً أو كرهاً لما كان يتأتى الإصلاح من قبلها. ولولا أن صلاح الأمة يستلزم إصلاح الحكومة لما كان إصلاحها كافياً لبلوغ الغاية التي تقصد منه. أما وجه اللزوم فظاهر وهو إن الحكام أفراد من الأمة تختارهم هي لإدارة نظامها وتنفيذ أحكام شريعتها والصالح لا يختار إلا مثله «الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات» [سورة النور رقم ٢٤، الآية ٢٦] ولكن الإصلاح إذا بدأ في الأمة دون الحكومة فإنما يتعدى أثره للحكومة بعد زمن طويل وإذا بدأ في الحكومة أولاً يظهر أمره في الأمة في وقت قريب لما مررت به من التعليل. فوجب على المطالبين بالإصلاح أن يستصرخوا الحكومة والأمة معاً عسى أن تلبى الدعوة إحداها أو كليهما ولكن كثيراً من المتنبهين لوجوب الإصلاح يائسون منه لما يرونه من تقدم أوروبا السريع. وتأخر شرقنا المريع. بل موته الذريع. وأعني بموته قيام الغربيين بأعماله، واستئثارهم بأمواله، وذهابهم باستقلاله. وما كان لمؤمن أن ييأس «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» [سورة يوسف رقم ١٢، الآية ٨٧]. فكم سنحت لنا الفرص وما انتهزناها، وكم نادتنا النهز وما لبيناها. وقد قلنا في المنار الماضي إن أمامنا الآن فرصتين للإصلاح إحداها في مصر وهي العلمية الدينية، والثانية في بلاد الدولة العلية وهي السياسية الإدارية. وإننا مبینون هاتین الفرصتين في هذه المقالة بعض البيان.

أما التي في مصر فحرية التعليم والتصنيف والتحرير والطبع والنشر والخطابة وتأليف الجمعيات بأنواعها وهذه هي سلايم الترقى التي ترتقي فيها الأمم. ولا يوجد تحت السماء بلاد اسلامية متمتعة بتسام الحرية فيها كالبلاد المصرية. والسبب في هذا ظاهر فإن فقد الحرية في مثل هذه الأمور النافعة إنما يكون من فساد الأحكام واستبداد الحكام. وزمام السلطة في هذه البلاد بأيدي المحتلين وقد اقتضت سياستهم أن لا يتعرضوا لهذه الأمور، إما لأنهم لا يشاءون التعرض لها كرماء منهم وفضلاً على خلاف ما

يفعلون هم وسائر الأوروبيين في كل بلاد تنفذ فيها شوكتهم وتعلو كلمتهم، وإما لأن حكمة التدريج الذي يسرون فيه اقتضت أن يبدأوا بالأعمال المالية والإدارية والسياسية ويكتفوا من الأمور المعنوية بإدارة المدارس الأميرية على محور سياستهم، وإما لأسباب أخرى. ومهما كان من السبب فإن هذه الحرية فرصة تغتنم. فإذا فرطنا فيها ندمنا حيث لا ينفعنا الندم. إذ ربما تأتي أيام نحاسب فيها على خطرات القلوب وهواجس النفوس. ونجبر على التعليم الذي يُراد ونمنع من التعليم الذي نريد.

وأما انتهاز هذه الفرصة فبإصلاح التعليم في الأزهر الشريف وبالاجتهاد بتعميم المدارس الأهلية على الوجه المرضي. ولا مجال هنا لبيان الإصلاح الأزهري فإن لجنة من أكابر علمائه تبحث في هذه الأيام بطرق هذا الإصلاح فنرجى الكلام فيه إلى أن تفرغ من بحثها ونعلم ما تقرره، فإما ثناء وتحبيذاً، وإما انتقاداً وتقنيداً. وأظهر الدلائل على فساد طريقة التعليم المتبعة فيه من قبل أن الكثيرين أو الأكثر من الذين يمتحنون للتدريس يخرجون فلا يمنحون درجة من درجات التدريس على ما في الامتحان من السهولة وما منهم إلا من يقضي خمس عشرة سنة في التعليم على الأقل. على أن الذين يمنحون شهادة العالمية ويؤذن لهم بالتدريس لا يوجد واحد في المائة منهم يحسن لغة الدين قولاً وكتابة بحيث يقدر على الكلام والخطابة باللغة العربية الصحيحة ويكتب بالأسلوب العربي البليغ. ولا يعقل أن احداً يفهم القرآن والحديث اللذين هما ينبوعا الدين من غير أن تكون ملكة اللغة راسخة في نفسه. ولذلك ما ورد أحد من علماء المسلمين وغيرهم إلى هذه الديار واختبر تعليم الأزهر ألا وذمه وقال انه لا يرجى منه خير للمسلمين. فالأستاذ الشنقيطي من علماء المغرب، والأستاذ الشيخ شبلي النعماني مدرس العلوم العربية في كلية عليكره في الهند، والأستاذ الشيخ احمد جان القازاني مدرس العلوم العربية في مدرسة عالمجان في بلاد قزان الروسية، اتفقت كلمتهم مع اختلاف أقطارهم على أن التعليم

الأزهري لا يرجى منه خير للمسلمين إذا بقي على حاله . وأمثالهم كثير، ولا حاجة للاستشهاد بكلام الإفرنج لأن قومنا لا يقيمون لكلامهم وزناً ويرجون من يعبأ بكلامهم بأسوأ الظنون . ولا ننكر أن تعليم الأزهر على علاته وجوده خير من عدمه بالكلية . كيف وقد حفظ لنا بعض علومنا وآثار سلفنا حفظاً يحمد عليه وإن كان ناقصاً لا يبعث على العمل الذي تحيا به الأمة؟ ولا يرجى أن تفيض الحياة المليئة على الأمة إلا إذا صار المتخرجون منه متقنين لوظائفهم التي أنشئ الأزهر ووقفت عليه الأوقاف لأجلها وهي حفظ الدين ولغته بحيث يقدرّون على القيام بمنصب القضاء الشرعي على الوجه الصحيح العادل الذي لا يثلم به شرف الملة والأمة وعلى إرشاد الخاصة والعامة والتعليم في المدارس النظامية ليثوا الدين في جميع طبقات الأمة ويخاطبوا كل إنسان على قدر عقله وعلمه ويدفعون عنه الشبهات العصرية . ولن يقدرّوا على شيء من هذا إلا بتغيير أساليب التعليم وبالإطلاع على أحوال العصر وفنونه المتداولة ولو في الجملة، وسنفصل ذلك في وقته، إن شاء الله تعالى .

وأما فرصة الدولة العلية فهي اشتغال روسيا فإنكلترا وسائر دول أوروبا الكبرى عنها بالمسألة الصينية وإنما الخطر على الدولة من روسيا التي يعرف الناس أن سياستها التقليدية تقتضي نحو إسمها من لوح الدول وضمها إلى الأمبراطورية الروسية العظمى أو من اتفاق أوروبا على تقسيمها . يدل على شغل روسيا عنها بالطمع في الصين الفيحاء البعيدة الأرجاء . إن هذه الدولة قد عازمت على تعزيز الخط الحديدي العظيم الذي أنشأته في سيبيريا (وطوله ٤٦٩٥ ميلاً) بخط آخر ينشط من الطريق الأعظم في بلاد منشوريا التي هي في الشمال للصين ممتداً إلى ميناء آرثر ونيوشونغ ، ويقرب أن تمده من هذه إلى بكين عاصمة الصين . ويقدر المال اللازم لهذا النشاط بعشرين مليون جنيه كما قدر المال اللازم لطريق سيبيريا الأعظم بستة وخمسين مليون جنيه إذا مدّ عليه خط واحد . وإنها قررت إنفاق ٩ ملايين جنيه

لتعزيز أسطولها بالبوارج من الطرز الجديد. فخمسة وثمانون مليوناً من الجنيهات من دولة لا تعد من الدول الغنية ليس إلا لتلك الغنيمة الكبرى التي تتوقعها في الصين ويؤكد ذلك تقوية الأسطول مع أمنها على ثغورها في أوروبا من الدول البحرية، وعلمها بأن اليابان لا تقدم على محاربتها فتخاف منها على فلاديفوستوك وميناء آرثر ولا يخشى على هاتين الحاضرتين من غير اليابان. هذا، ولا بد لإنكلترا وفرنسا والمانيا من مزاحمة روسيا، ولا بد أن يمتد اشتغالهن بتلك المملكة الى سنين كثيرة. فيجب على الدولة العلية أن تشتغل بنفسها ما دام الطامعون في شغل عنها فقد مضى عليها نحو نصف قرن وهي مشغولة بالسياسة الخارجية عن الإصلاح الداخلي والدول الأوروبية تطالبها بالإصلاح وهي التي تحول بينها وبينه. وقد بينا رأينا في الإصلاح الواجب من قبل في مقالات نشرت في المنار وأخرى في المؤيد، وانتقاء العمال والحكام من الأكفاء. والدولة العلية وسلطانها الأعظم، أيده الله تعالى، أعلم منا بما ينبغي ويجب من ذلك.

وقد وجه مولانا الخليفة أنظاره في هذه الأيام الى هذا الأمر المهم فتعلقت إرادته السنية بزيادة الجيش لا سيما الأليات الحميدية وأمر من عهد قريب بإنشاء بارجتين جديدتين ونحت سلطاني وبإصلاح بعض السفن القديمة، كما أمر بإنشاء المكاتب والمدارس في بلاد اليمن وغيرها من الولايات المحروسة. ونسأل الله تعالى أن يلهم قلبه الشريف أن يصدر إرادته لجميع الولاة بترغيب الرعية في تأليف الشركات المالية وإنشاء المدارس الوطنية ولجميع الفيالق العسكرية بتعميم التعليم العسكري، وبالله التوفيق.



طفولية الأمة وما فيها من الحيرة والغمة

[الحاجة إلى المرشدين والمربين والمتقنين العارفين]

بالأمراض الاجتماعية وأدويتها]

[المنار ج ٢ (١٩٠٠) ص ٧٣٧ - ٧٤٠]

لا همّ للطفل في أول عهده بالوجود إلا إرضاء شهوة البطن يساق إليه الغذاء، فيلهم تناوله إلهاماً. ثم يعطى التمييز بالحواس الظاهرة، ثم بالحواس الباطنة. يكون فيه أولاً ضعيفاً ثم يقوى بالاستعمال تدريجاً. يطلب أولاً كل شيء يراه للأكل قريباً كان أم بعيداً، ثم يطلبه لأجل اللعب. يجهل أولاً تحديد المسافات فيمد يده الى قمر السماء ويحاول القبض على الطيور في الهواء ثم يشعر من تكرار الخيبة بضعفه وعجزه فيطلب مثل هذا من أبيه أو أمه لأنه يعهد منها بالمعاملة في كل يوم تحصيل رغائبه التي يعجز عنها. ثم يتم تمييزه لهذه البدييات وينتقل الى مبدأ طور الفكر والتعقل وإدراك المصالح والمنافع في الجملة وهو طور بين الطفولية والرجولية. ولكن الولدان يكونون فيه أقرب الى ماضيهم من مستقبلهم فيؤثرون ما يرتاحون اليه ويلتذون به على ما فيه كلفة ومشقة وإن كانت المصلحة وحسن العاقبة في هذا دون ما قبله. وينظرون الى أنفسهم وحدها دون من يعيشون معهم لأنهم يتوهمون أن الإنسان مكلف بنفسه دون غيره وأنه يمكن له أن يكون سعيداً بين الأشقياء وناعماً بين ذوي البأساء والضراء. ولذلك كانوا في أشد الحاجة الى الهادين والمرشدين الذين يثقفونهم ويربونهم مستعينين عليهم بهدي الدين وحوادث الكون والوجود، وإلا انتقلوا الى طور الرجولية بحيوانيتهم دون إنسانيتهم وبأجسامهم دون أرواحهم وأحلامهم.

وبعد، فإن هذا العدد العظيم الذي يبلغ ثلاثمائة ألف ألف أو يزيد، الذي نسميه الأمة الإسلامية، قد أمسى بحالة من الضعف الصوري والمعنوي والفقر المادي والأدبي يستحي من ينتسب إليه من وصفها وشرحها. وقصارى ما نقول فيه إنه لا يسمى أمة إلا بضرب من التجوز كما تسمى صورة الأسد المرسومة في الجدار أسداً. فقد كان المسلمون وهم أقل الأمم عدداً وعدداً أعز الأمم وأقواها وأعلمها وأغناها ثم انقطع السلك فتناثر الحب وبطل اطلاق اسم العقد عليه إلا إذا لوحظ ما كان دون ما هو كائن. ويظن الجاهلون أنه لا رجاء في نظم العقد ثانية وانتظام شمل المسلمين. ويعتقد الذين لا يقنطون من رحمة الله ولا ييأسون من روحه أنه لا بد أن ينجز لهذا الدين وعده «ليظهره على الدين كله» [سورة التوبة رقم ٩، الآية ٣٣؛ وسورة الفتح رقم ٤٨، الآية ٢٨؛ وسورة الصف رقم ٦١، الآية ٩]. فيستمر ظهوره وغلبته إلى آخر الزمان. وقد ورد في الخبر: إن أمة النبي، صلى الله عليه وسلم، كالمر لا يدري أوله خير أم آخره، بل ورد أيضاً، إن الخير فيه، عليه الصلاة والسلام، وفي أمته الى يوم القيامة.

قد أتى الأمة حين من الدهر والخير فيها يقل والشر ينمو حتى وصلت الى ما هي فيه اليوم. وإننا نرى الآن في جوها المظلم بالفتن برقاً يومض بين الغيوم المتكاثفة ويوشك أن يعم فيكون الظلام نوراً. أو أقول كما قال حكيمنا [جمال الدين الأفغاني] إنني أرى في هذه الشجرة اليابسة (الأمة الإسلامية) ورقات خضر ولا أدري هل هي من بقايا حياتها الأولى أم هي مبدأ حياة جديدة؟ وأزيد على هذا ترجيح الشق الثاني، بدليل أن الورقات تزيد ولكنها عرضة للتصوُّح والسقوط بما يهب عليها من بوارح المحن وزعازع الفتن إذا لم تحط بالتربية الصحيحة. ولذلك شبهت الطور الذي فيه الأمة بطور الطفولية ونهت الى شدة الحاجة الى المربين والمثقفين.

أليس السواد الأعظم منا لا يهمهم إلا لذاتهم وحظوظهم الشخصية كما هو شأن الأطفال؟ هل يفقهون معنى الأمة ويعلمون ما هي المقومات التي

تقوم بها والروابط التي تجمعها والأمر الذي تؤمه وتقصده؟ هل يتفكرون في الحياة الاجتماعية وما يعرض عليها؟ كلا، إن من يتجاوز فكره محيط شخصه فلا يعدو بيته وولده وهو في هذا لا يمتاز على الأنعام. وإذا ذكرهم مذكر أو نبههم منبه يحارون وتضطرب أفكارهم. ولا يكادون يفهمون الحقيقة وهم الآن على درجات فمنهم من لا يفكر في معنى الأمة قط ومنهم من يرى البعيد قريباً كالطفل الذي يمد يده لتناول القمر كما جرى ويجري لبعض الحكام وأصحاب السلطة كاسماعيل باشا وأصحاب الفتنة العرابية. ومنهم من يرى نفسه عاجزاً عن كل شيء ويرى الحاكم قادراً على كل شيء كما هو شأن الطفل الذي يطلب القمر أو الطير في الهواء من أمه أو أبيه. ومنهم من يفكر في المصالح والمنافع التي تخص الأمة ويعذل المقصرين وهو منهم ولكنه يغض الطرف عن عيوبه وينظر الى عيوب الناس بالنظارة المعظمة. وإذا عمل فإنما يعمل لشخصه وإذا وقعت مصلحة الأمة في طريقه داسها ومضى في سبيله كما هو شأن الولدان في أول طور الفكر والتعقل. ومنهم الذين دعوا الى الاجتماع لأجل العمل فاجتمعوا فصاح بهم صائح الفتنة ففرقوا «كناية أجفلت غفلاً من الغنم» أو كالصبيان يجتمعون للعب فينشق بهم ناعق فيتفرقون أيدي سباً لأنهم لم يتربوا على الاجتماع ولا يقدرّون الأعمال الاجتماعية قدرها، وليس عندهم شيء من أخلاق الرجال، كالصبر والثبات والاحتمال. نقول في الأمة «المجازية» ما قلنا في شأن الأطفال إنها في أشد الحاجة الى المرشدين والمربين الحكماء العارفين بالأمراض الاجتماعية وأدويتها وطريق علاجها لتكون بهديهم أمة «حقيقية» وقد يوجد فيها أفراد منهم يشاركونهم في عملهم أكثر منهم المتصدرين الجاهلين يهدمون ما يبنون ويفسدون ما يصلحون. «ويحسبون أنهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون» [سورة المجادلة رقم ٥٨ الآية ١٨]. وقد صار هؤلاء، الأطفال في أحلامهم، الرجال في اجسامهم، في حيرة وغم، عليهم الأمر باختلاف المرشدين. ويميل الأكثرون الى من لا يكلفهم عملاً

ولا يلصق بهم عاراً ولا زللاً. وسنبين مثرات الحيرة ومناشئ الغمة في
مقالة أخرى، إن شاء الله تعالى.

الحيرة والغمة. ومناشئهما في الأمة

١٩

[الترقي والتقدم والرابطة المالية والرابطة الوطنية]

[«المفاز» ج ٢ (١٩٠٠) ص ٧٥٣ - ٧٥٨]

كتبنا في المنار الماضي مقالة في «طفولية الأمة وما فيها من الحيرة والغمة»
بيننا فيها أن الأمة كالطفل فهي في أشد الحاجة إلى مرب يربيه التربية
القومية ومعلم يرشدها إلى ما ترتقي به في حياتها الاجتماعية. كما هو شأن
الطفل في حياته الشخصية. وألعبنا إلى أنه قد يوجد فينا أفراد يصلحون
لتربية الأمم وارشادها يشاركهم في منصبهم كثيرون من الذين يفسدون في
الأرض ولا يصلحون. ومن هنا جاءت الحيرة والغمة. الأمة في طور
الطفولية لا تميز بين النافع والضار ولكنها تميل كما قلنا في تلك المقالة إلى
جانب الراحة واللذة فتسمع لمن لا يخطئها في اعتقاد ولا رأي ولا يذم لها
خلقاً ولاعادة ولا يحملها على ترك لذة أو احتمال مشقة في عمل نافع إلا أن
يكون ذلك من الضروريات التي لا تخفى على الأطفال. ولو أن ما عليه
الأمة رؤساؤها ومرؤوسوها من تقاليدها وآرائها وأخلاقها وعاداتها وعلومها
وأعمالها صواب لا انتقاد عليه. فكيف تكون حينئذ أمة ضعيفة مهضومة
الحقوق مسلوبة المنافع تنتقص من أطرافها ويتخطفها الناس؟ ولأي شيء
كانت في أشد الحاجة إلى المربين والمرشدين؟ حارت الأمة وحقيق بأن تحار
وغم عليها الأمر واضطرب فيها فكر كل ذي فكر وما أجدرها بالغمة
والاضطراب! وقد وعدنا في مقالة المنار الماضي بأن نبين مثرات الحيرة

ومناشئ الغمة في مقالة مخصوصة وها نحن أولاء نفي بالوعد في هذه المقالة فنقول:

قد اشرنا في مقدمة العدد الأول من المنار إلى أكثر المسائل التي لبست على الأمة الحق بالباطل وشبهت الرشاد بالغَيّ وشرحنا كثيراً منها في مقالات مطولة بعد ذلك. ونقسم ما نذكره ههنا إلى قسمين: قسم قديم العهد دخل أكثره على الأمة من باب الدين فاخترق القلوب ونفذ الى أعماق النفوس. وقسم حديث النشأة قد مر على الأمة من باب التمدن العصري. أما الأول فمن أهم مسائله اعتقاد أن الأمة يجب أن تكون دائماً في تدل وهبوط وأن الترقى والتقدم مستحيلان لأن هذا من علامات قرب الساعة. وهذا الاعتقاد فاش في المسلمين ويروون فيه أخباراً وآثاراً اشبهه على الجماهير صحيحها من سقيمها وحقها من باطلها. ولا يمكن أن تنجح مع هذا الاعتقاد أمة. ومنها، إنه ليس للمسلمين إلا نهضة واحدة تكون قبيل قيام الساعة على يد «المهدي المنتظر» الذي ينصر بالكرامات والعجائب لا بالقوة والعصية. وهذا الاعتقاد قريب مما قبله في مضرتة وفي شبهه وأدلته. ومنها، إن الدنيا والآخرة ضرطان وضدان لا يجتمعان، وإن من يرغب في زينة الدنيا ولذاتها يكون منحرفاً عن طريق الآخرة، والكتب والخطب مملوءة بهذا ويستشهدون عليه بالآيات والأحاديث من غير فهم غافلين عن كون وجوب الأخذ بالكتاب كله والجمع بين تلك النصوص وما يناقضها إذا كان معناها ما يزعمون كقوله تعالى «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ٣٢]. ومنها زعم أن العلم بالموجودات وخواصها المفصل ذلك في الطبيعيات يؤدي إلى الكفر وترك الدين مع أنه أصل البراهين على الاعتقاد. وقد نبه عليه القرآن كثيراً ويستحيل أن تنجح أمة في هذا العصر إلا بالصنائع المأخوذة من هذه العلوم. ومنها طلب المصالح والمنافع من غير الطرق التي جعلها الله تعالى

في نظام الخليفة طريقاً لها كالاكتفاء على الكرامات والخوارق من الأحياء والأموال. وهذا شائع في المسلمين. فقد جاءني وأنا أكتب في هذه المقالة بريد سوريا وفيه مكتوب من بلدي القلمون يطلب فيه مني أن أرسل ورقة مكتوبة لرجل أصابه مرض في رجله فأقعده للاستشفاء بها، فإنه يعتقد أنه لا يشفى إلا بهذا. ومن أدلته على اعتقاده أنه رأي مرة في المنام فخفّ ألم رجله. وجاءني في مكتوب آخر أن امرأة من أهلي كانت مصدوعة فوصل إليها أثر مني فشفيت. وأنا أعتقد أنني وورقتي لا نفع ولا ضرر. وإن فشّ هذا الاعتقاد في الأمة سببه أمثال هذه الوقائع والحكايات ويستدلون عليه بجواز وقوع الكرامات ولا دلالة فيه. لأن مسألة الكرامات من الأمور النادرة التي لا يصح أن يعتمد عليها في المصالح والمنافع. ومنها، فهم القضاء والقدر على غير وجههما. ألا ترى أن سلفنا الصالح، رضي الله تعالى عنهم، ما ازدادوا بهذا الاقداماً على الأخطار، وتقدماً في الفتوح والاستعمار. وخلفنا الطالح جعلها بمعنى الجبر وسلب الاختيار، وسمع بعض ما لهم في هذا من الأشعار:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ومنها، فهمهم للتوكل بما يوقع في الكسل. ويحول دون التدبير والجد في العمل. ومما نظموا في ذلك:

لا تدبر لك أمراً فأولو التدبير هلكى
حقق الأمر تجدنا نحن أولى بك منكاً

وكذلك فهمهم للقناعة. بما يؤدي إلى مثل هذه الشناعة. قالوا:

اقنع بخبز وملح وماء وجهك صنه
فالرزق لا شك يأتي والموت لا بد منه

ومنها، غير ذلك مما أكثرنا الكلام فيه من قبل فلا نعيده فالبحث في هذه

الأشياء على غير ما ألف الناس وفهموا يشير فيهم الحيرة والاضطراب،
والخلاف فيها بين المصلحين وبين المحافظين على مرضاة الجباهير يشير في
النفوس رواكد الأوهام ويوقعها في الحيرة والاضطراب.

ومما يعد في القسم الأول وليس من الدين الاعتماد على الحكام والعلماء
فإن بعض الباحثين في أحوال الأمة ممن لهم نظر في علم الاجتماع يرون أن
الأمة لا تنجح ما دامت تخضع لهم الخضوع الأعمى، بل لا بد أن تفهم
وظائفهم وتلزمهم بها. ويرون أن الانتقاد عليهم يلجئهم ولو بعد حين إلى
القيام بخدمة الأمة. ويرى الجمهور أن الانتقاد عليهم مضر إلا في مصر
بالنسبة لحكومتها فإن الأكثرين يرون الانتقاد على حكومتهم لاتهمها بمخالطة
المحتلين دون الانتقاد على حكومة الدولة العلية. ومنه، إن معرفة الحق
بقائله وهذا مجال واسع ومضراته كثيرة وله شعب لا تحصى. من أهمها عدم
أخذ العلم والصناعة عن الأوروبيين. ومن الناس من يدخل هذا الأخير
في باب الدين فيزعم أن جميع ما نحتاج إليه في هذا العصر يوجد في كتبنا.
وإذا نازعه في هذا منازع يرميه بنسبة الدين وأهله للتقصير. ومنه، مسألة
تربية النساء وتعليمهن فنون تدبير المنزل وتربية الأولاد والاقتصاد في
المعيشة. ومن الناس من يهدم هذا الركن من سعادة الأمة بمعول الدين
ذاهبين إلى أن المرأة ما خلقت إلا للفراش وأن النساء رياحين أو شياطين
متشدقين بقول بعض المتحذلقين «المرأة ريحانة لا قهرمانة». وهذا الاعتقاد
يهتك كل حجاب ويذهب بالعفاف والآداب.

وأما القسم الثاني فمن أهم مسائله ذم التعصب الديني. وقد بسطنا
الكلام عليه في عدة مقالات في المجلد الأول من المنار. وسنشر فيما يأتي
مقالة العروة الوثقى فيه إن شاء الله تعالى. ومنها، مسائل الحرية والماسونية
والمدينة ومنها مسألة الجامعة الوطنية فهي من الآلات المحللة لجسم المجتمع
الإسلامي ومقطعة للرابطة الدينية التي هي أقوى الروابط وأشرفها. وقد
ظهر أثر ضررها في المسلمين ولكن أنى لهؤلاء الأطفال في مهود الحياة

الاجتماعية أن يميزوا بين الرابطة المالية والرابطة الوطنية فلا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. إن الذين نفثوا في المسلمين سم الوطنية وجعلوه أقدس الروابط الاجتماعية أرادوا به أمرين: أحدهما فصم العروة الإسلامية الوثقى التي تربط المسلمين في جميع أقطار الأرض وتجعلهم أخوة وثانيهما التأليف بين المسلمين وبين من يخالفهم في الدين في بلادهم لتصان بذلك مصالح المسيحيين في بلاد الإسلام. والأمر الأول مضر بالمسلمين دون الثاني. والأمة في طور الانحطاط تختار الضار على النافع فأثرت نزغات الوطنية في التفريق بين المصري والسوري المسلمين ولم تجمع بين المسلم والقبطي المصريين. والسبب في هذا الأخير أن الارتباط الوطني ما جاءهم من طريق الدين فلم يؤثر فيهم. وأما التفريق بين المسلمين فقد ساعد عليه فساد الأخلاق مع الغفلة عن مساسه بآداب الدين وقطعه رحم الأخوة الإسلامية. ومن العجيب أن نزغات الوطنية قد تعدى أثرها من المتمدين الذين نفثوا سمومها إلى علماء الدين حتى سمعنا أن رجلاً من أكابرهم ذكر أمامه المسجد الذي أوصت به الست الشامية المشهورة وبناه أقاربها الشوام أحسن بناء. فقال مولانا الأستاذ كلمة ثناء على المسجد وأعقبها بقوله: «ولكن من الأسف انهم حشوه بالشوام»، مع أن جميع الموظفين فيه مصريون ما عدا الخطيب فهو رجل من صالحى الشوام المجاورين في الأزهر. كانت الواقعة رحمها الله تعالى تعتقد صلاحه ولذلك عينته خطيباً في حياتها فأمضاه الناظر بعد مماتها.

هذا ما سمح المقام بذكره من مناشىء الخيرة والغمة في هذه الأمة لأنها في طور طفولية كما قلنا وفهم ما ينفعها ويضرها يعسر عليها إلا بالزمان الطويل، وقد شرحنا بعض هذه المثارات وغيرها كما قلنا وسنشرح البعض الآخر مرة بعد مرة لا سيما «الوطنية». وأرجو بمساعدة الذين بلغوا طور العقل والكمال من أفراد الأمة أن ينتشر ما أقول لا سيما عند النشء الجديد الذي رجع إليه بعض ما فقدته المسلمون من الاستقلال في الرأي والإرادة

فأمسوا يعرفون الرجال بالحق لا الحق بالرجال . وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال .



الوحدة العربية

٢٠

[«المنار» ج ٣ (١٩٠٠) ص ١٢١ - ١٢٤]

يود كل مسلم عثماني أو محكوم من دولة غير إسلامية لو تكون الدولة العلية في أعلى درج العزة وأقصى غايات القوة فيعود للإسلام مجده على يديها ويشتد أزره بساعديها ويكون الترك والعرب وسائر العناصر الإسلامية في هذا المجد سواء . وما كان أقرب هذه الأمنية لو استن من جاء بعد السلطان سليم ياوز، عليه الرحمة، من الملوك بسنته السياسية فعمموا اللغة العربية وجعلوها اللغة الرسمية ووجهوا عنايتهم إلى ضم سائر الممالك الإسلامية اليهم . ولكن لم يصل عقل أحد منهم إلى ما وصل إليه ذلك العقل الكبير بل ظلوا مفتونين بالبلاد الأوروبية التي أنفقوا على فتوحها خزائن قوتهم وما زالت تتربص بهم الدوائر حتى أمكنها بمساعدة الدول القوية أن تستقل دونهم مملكة بعد مملكة وولاية بعد ولاية . وما انفصلت ولاية من تلك الولايات من جسم الدولة إلا وأحدثت فيه من الضعف مثلما يضعف الجسم الحي الذي تقطع أعضاؤه واحداً بعد واحد لفسادها أو خروجها عن ما يقتضيه مزاج مجموعة الجسم .

كلنا نعلم أن أوروبا متحاملة على الدولة العلية وأنه لا ينجي الدولة من الخطر الذي يتهدها منها الا قوة الأمة شاملة لجميع عناصرها الحقيقية . ونعلم أن العرب وهم العنصر الأكبر متأخرون عن الترك وينذرهم من الخطر ما لا ينذر الترك . والعرب عز الإسلام وبيضته وبلادهم منبع

حكيمته، ومنبعث أشعته. فيها أسس بنيانه، وفيها تقام أركانه. فإذا غلب الأجانب العرب على أمرهم وأنشبو برائتهم في أحشاء بلادهم فذلك هو الموت الأحمر والبلاء الأسود الذي يسلب من المسلمين أسرار الرجاء، ويذهب بما بقي لهم من الدماء (بقايا النفس). والعياذ بالله تعالى. ومهما سلمت الأمة العربية وبلادها فإن النفوس تظل مطمئنة راجية أن يعتز الإسلام بها يوماً من الأيام.

إن أنواع القوى للأمم ثلاث: العلم، والثروة، والاستعداد الحربي. فأما العلم فإن الدولة قد خصصت جزءاً من مالها للمعارف إلا أنها كادت تجعل ذلك محصوراً في البلاد التركية فليس لها في البلاد المقدسة مدرسة ولا مكتب. ولا نقول كما يقول سيؤا الظن إنها تتحرى بقاء العرب على جهالتهم وضعفهم لئلا يسترجعوا الخلافة منها، بل نقول ما يقتضيه حسن الظن والتأليف بين العنصرين وهو إن الدولة عاجزة عن تعميم المعارف ومن السياسة تقديم عاصمة السلطنة وما أطاف بها على سائر البلاد. وإذا كانت عاجزة فالواجب على العرب خاصة والمسلمين عامة أن ينوبوا عنها بإحياء البلاد العربية بالعلوم والفنون ويعرفوا أهلها ما يتوعددهم من نوائب الدهر وغوائله، وكيف يمكنهم حفظ مهد الدين وكعبة الاسلام؟ وإن قوماً من عقلاء المسلمين وفضلائهم يسعون في هذه الأيام بإعادة مجد الإسلام فنحضر كل مسلم على أن يجيب داعيهم ويمد اليهم ساعد المساعدة. وأخص بالذكر الذين يسعون في إنشاء «دار علوم» في مكة المكرمة. وهذا سعي في مقدمات الوحدة العربية يرضي الدولة العلية ولا يهيج علينا دول أوروبا فهو على ما اشترطنا في مقالة «إعادة مجد الاسلام». وأما الثروة فهي في هذا العصر تابعة للعلوم والفنون والسلطة فلا غرو حينئذ أن يكون الترك فيها أحسن حالاً من العرب.

وأما القوة الحربية فقد وجهت الدولة العلية عنايتها لتعليم فنونها للأتراك أيضاً. فلا يكاد يوجد عندها قائد عسكري من العرب وما كانت

الدولة مقصرة بهم أكثر من تقصيرهم بأنفسهم فإنهم لعموم الجهالة يرغبون عن الخدمة العسكرية ولا يرغبون فيها. وحيث كان التكلان في حماية البلاد على الدولة نفسها فلا فرق بين بلاد العرب وغيرها إذ الجميع بلادها فهي تحميها على السواء ما دامت قادرة، وستدوم ان شاء الله تعالى. وأما إذا كان من المخبوء لها في مطاوي الغيب أن سيجيء يوم تحتاج فيه هذه البلاد الى المدافعة عن نفسها بنفسها حيث يكون قواد الترك مشغولون بأنفسهم وحفظ بلادهم عن غيرها فذلك يوم تحتاج فيه الى قواد مهرة في الفنون العسكرية من أهل البلاد أنفسهم. فإذا وجدوا وما وجود السلاح الجديد إلا أيسر من وجودهم فحينئذ يرجى بشجاعة العرب وبسالتهم أن يظلل الأمن تلك البلاد المقدسة من لفحات هجير ذلك اليوم العصيب، ويقيها بفضل الله من عواصف ذلك الكرب المهيّب. ولهذا قد اقترح المنار غير مرة على مولانا السلطان الأعظم، أيده الله بنصره وتوفيقيه، أن يعمم التعليم العسكري في جميع المملكة لأجل أن يكون كل قطر قادراً عن الدفاع عن نفسه إذا وقعت الواقعة وانكسر الباب الذي نسمع أوروبا أنا بعد أن تنادي انه «مفتوح» فادخلوه عسى أن تنالوا شيئاً. ثم يسكت المنادي معتبراً ان «الباب المفتوح» قد أغلق الى أجل مسمى. فإذا وفقت الدولة العلية لهذا ينال سائر البلاد العربية منه ما نال طرابلس الغرب ويجب على أبناء العرب المشتغلين بالفن العسكري علماً وعملاً أن تسمو أنفسهم الى إحراز الغاية من هذا الفن الجليل استعداداً لذلك الأمر الجلل. وهذا نوع من الاستعداد لحفظ الأمة العربية وسلامه وحدتها لا يخل بسيادة الدولة العلية على بلادها ولا مجال لأوروبا لمعارضتنا فيه. بل يحصل ولا تشعر به لأنه عمل نفسي محض فمن لي بمن ينفثه في روع كل فرد من أهله. ووراء هذا النوع نوع آخر يعرفه أهل الرأي الصائب والعقل النافذ لا يسطر في الكتب والجرائد لأنه مخالف لما شرطناه للكلام في الوحدة العربية.

وخلاصة القول إن جميع العناصر الإسلامية أمست مهددة من أوروبا، وإن الخطر الأكبر على من كان أضعف في القوى الثلاث التي ذكرناها في هذه المقالة، وإن الخطر الذي يلحق بالإسلام من استيلاء الأجانب على العرب أشد من كل خطر يصيبه من استيلائهم على غيرهم من العناصر أكثر استعداد من العرب لحفظ وحدته، وإنه لا يفيد الإسلام قوة واحد منها كما يفيد قوة العنصر العربي. فيجب إذن على الأمة العربية أن تسعى في تقوية نفسها وجمع كلمتها وحفظ وحدتها ويجب على جميع المسلمين أن يساعدوها على ذلك لأنها روح الجامعة الإسلامية التي توجهت إليها أفكار عقلائهم بعدما كاد الضغط يسحقهم سحقاً. أما كفاكم أيها المسلمون ما جناه عليكم اختلاف العناصر وتفرق الأجناس؟ أما أن لكم ان تعلموا أن أمتكم هذه أمة واحدة؟ إعلموا وإعملوا وعلى الله المتكل في نجاح العمل.



فرنسا والاسلام

٢١

[جعل باريس بديلاً من مكة - الديمقراطية الدينية]

[المنار ج ٣ (١٩٠٠) ص ١٥١ - ١٥٧]

عجباً للدم الذي تحرك لكلام الموسيو هانوتو كيف لم يتبيخ لكلام القومندان نابليون في. وعجباً للقلوب التي جرحها ذلك كيف لم يذبحها هذا. بل عجباً للنفس التي اضطربت للأول كيف لم يزلزل الثاني وجودها زلزالاً. الا ان قومنا لا يزالون أغراراً يغترون بالظواهر، وينخدعون للمظاهر. ويخلبون بالاوهام، ويعيشون بالأحلام. يصيحون من السب، ويسكتون على الضرب. ويتململون من الكلام، ولا يتألمون من الكلام

(بالكسر الجراح). حاشا نفرأ من أهل الفهوم، المشرفين على حقائق العلوم، والاستثناء - كما قالوا - معيار العموم.

صاح الصائحون، وناح النائحون، وكتب الكاتبون، وخطب الخطابون. وما ذلك إلا لما رواه هانوتو عن الغالين في التعصب الديني من قومه من وجوب نسف الكعبة ونقل قبر النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى متحف اللوفر في باريس لتتحل رابطة جامعة الاسلام، ويقع أهله في اليأس التام. ونحو هذا الهذيان، الذي يقوله طفل فلا يلتفت له سائر الصبيان. اللهم إلا ما كتبه ذلك الامام [محمد عبده]، من روائع الحكم وحقائق الاحكام.

كتب نابليون في الاسلام والمسلمين ما كتب فعلم المسلمين من هم وما هو الاسلام لو كانوا ممن يعلم أو يتعلم، وأنى لمن يجهل تاريخ الاسلام، أن يعرف تأثيره في الأنام. وكيف يهرب من هذا الجهل، من يقول علماءهم أن هذا العلم يضعف العقل. يبحث نابليون في عن مكان تتوجه اليه وجوه المسلمين وتتولاه قلوبهم، وترمي اليه أبصارهم، وتمتد نحوه أعناقهم ليجعلوه قبلة لآمالهم، وكعبة لاقبالهم، ومعهداً لاجتماعهم، ومعهداً لارتباطهم. لآمالهم بفرنسا واقبالهم عليها واجتماعهم في دائرتها وارتباطها بحبل سيادتها.

علم نابليون في أنه لا يوجد في الدنيا بلد من البلاد تتعلق به قلوبهم وتتوجه إليه نفوسهم إلا مكة المكرمة والمدينة المنورة وأنى لفرنسا أن تقبض على زمام السلطة الإسلامية فيهما؟ ذلك ما لا مطمع فيه وقد أشار الكاتب بأن تجعل باريس بديلاً من مكة وأن تستلفت اليها أنظار العالم الإسلامي بتأليف جمعية فيها من كبار علماء الاسلام من جميع الأقطار وأن يكون للجمعية جريدة إسلامية باللغات المشهورة بينهم. فهو يرى أن هذه الجمعية التي يقاد أفرادها الى أوروبا بسلاسل الذهب والفضة كافية لتحويل قلوب الأمة الإسلامية الى فرنسا. وصرح بأن اجتماع المسلمين على

دولة أجنبية أقرب من اجتماع بعضهم على بعض لما بينهم من تفرق المذاهب وتعدد المشارب. فهل يفقه المسلمون بعد سماع هذا الكلام معنى «الجامعة الإسلامية» وكيف تكون وبماذا تكون؟ هل يفتنون للسر الغريب في فريضة الحج ويتنبهون الى أنه لم يوجد دين من الأديان ولا حكيم من الحكماء قدر أن يضع وضعاً يجذب به أرواح الشعوب من جميع أقطار الأرض الى مكان واحد فتطير بأجسامهم اليه لتقوية الجامعة المليية بينهم وهو ما وضعه دين الاسلام دين المدنية الكبرى والاجتماع؟ هل يتدبرون سوء مغبة اختلاف المذاهب في الملة التي يتبرأ كتابها ونبيها من المتفرقين في الدين ويسعون في شعب الصدع ورتق الفتق؟ هل يتفكرون بعده في معنى اجتماع العلماء وما له من النفع العميم؟ وما في اختلافهم من البلاء العظيم؟ هل يعقلون بعده فوائد الجرائد الدينية الإسلامية وآثارها؟

قد بينا كل هذا ودعونا إليه في مقالات «الاصلاح الاسلامي» التي نشرناها في المجلد الأول من المنار. دعونا إلى تأليف جمعية إسلامية يكون لها شعب في كل قطر إسلامي وتكون عظمى شعبها في مكة المكرمة التي يؤمها المسلمون من جميع أقطار الأرض ويتآخون في مواقفها ومعاهدها المقدسة. ويكون أهم اجتماعات هذه الشعبة في موسم الحج الشريف حيث لا بد أن يوجد أعضاء من بقية الشعب التي في سائر الأقطار يأتون الحج فيحملون الى شعبهم من المجتمع العام ما يستقر عليه الرأي من التعاليم السرية والجهرية. وقلنا هناك، وهذا أحد مرجحات وجود الجمعية الكبرى في مكة المكرمة على وجودها في دار الخلافة، وثم مرجحات أخرى من أهمها البعد عن دسائس الأجانب ووساوسهم والأمن من وقوفهم على ما ينبغي عدم وقوفهم عليه في جملته أو تفصيله. ومنها، إن لشرف المكان والحالة قاصده الدينية أثراً عظيماً في الإخلاص والتنزه عن الهوى والغرض فضلاً عن الغش والخيانة. وينبغي أن يكون للجمعية الكبرى جريدة دينية علمية تطبع في مكة أيضاً. وأية شعبة استطاعت إنشاء جريدة تنشئها.

وارتأينا أن يكون في أعضاء الجمعية العاملين العلماء والخطباء ليتسنى للجمعية إفاضة تعاليمها على قلوب جميع المسلمين. وبينا أعمال الجمعية ونتائجها. ومنها، الجمع والتأليف بين أهل المذاهب لا سيما الفرقتين العظيمتين: أهل السنة والشيعة.

بماذا قابل المسلمون هذا الاقتراح؟ السواد الأعظم لا إحساس لهم ولا شعور وأما المتصدرون للكتابة وإرشاد المسلمين في الجرائد فقد مسخوه مسخاً واستدبروا به المقصد فأنشأوا يكتبون مقالات يحثون فيها على عقد «مؤتمر إسلامي» في القسطنطينية. ولا ينتظر من التائه في مفاوز الخيال إلا طلب الفوز من المحال. ولقد كان من حجتنا على هؤلاء أننا نعرف لهم بإصابة رأيهم إذا وجدت جريدة من جرائد الأستانة العلية توافقهم في الدعوة إليه لأن تلك الجرائد يشبه أن تكون كلها رسمية لأنها لا تكتب إلا ما يملئها أولو الأمر. ثم علمنا أنه يوجد من يسعى بما اقترحناه عملاً لا قولاً، وما كان غرضنا من القول إلا تنبيه الأفكار إليه، ولكن المسلمين أمسوا أعداء أنفسهم يبلغون من نكايتها ما لا يبلغه الأجانب منهم أو كما قلت في مكتوب أرسلته من سنين لأحد عظماء المسلمين [أرسله إلى السيد جمال الدين الأفغاني] «إن الممالك الإسلامية أمست كالمریض الأحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث أنه دواء» ولولا رجال فضلاء منبثون في بعض الأنحاء لانقطع بنا «والعياذ بالله» حبل الرجاء.

قال هذا الضابط إن الوحدة الإسلامية النظرية «كذا» قد تمزقت بالفتوحات المتوالية وانشقت إلى أقسام دينية لا حدود لها ولا نظام لحكوماتها. وقال قبل هذا إن الإسلام أصابه الشلل من سوء إدارة مدبريه ومديري شؤونه. وكرر القول بأن دوام فتوحات أوروبا المسيحية قد آلت المسلمين فطفق يتقرب بعضهم من بعض وأحسوا بالحاجة إلى الاجتماع وحث أمته أن تكون «الجامعة الإسلامية» على يديها ويديها. وعنده إنه لا يمكن أن توجد بنفسها وإنما إذا وجدت فإنها تنحل بعد ثلاثة أشهر من

وجودها. ثم صرح بأنه لا ينقص الحركة نحو «الجامعة الإسلامية» إلا شيء واحد إذا وجد تكون به قوة الإسلام وغلبته. ألا وهو اختيار مكان غير تابع لدولة من الدول كي يتم به الأتثمار بين الفرق الإسلامية المختلفة. فإن عدم وجود هذا المكان هو السبب في عدم استقرار الفرق الدينية الإسلامية في مكان ثابت فلكل منها آثار تتفاوت في الشدة أو الضعف في بغداد ومصر والأستانة وفارس والهند وأفريقية. قال: ولو اهتدى رؤساء تلك الفرق إلى وجود بقعة على سطح الأرض تكون للإسلام بمثابة رومية أو الفاتيكان للمسيحيين فلا ينقضي زمن يسير حتى ينعقد فيها مجتمع إسلامي يخضع لإرادته العالم الإسلامي بأسره. وعقب هذا بالتنبيه على عموم دعوة الإسلام يشير إلى أن هذا المجتمع لا بد أن يصل مده إلى أطراف العالم الإنساني.

ونقول نحن أين رومية والفاتيكان من مكة؟ رومية لا يحج إليها النصراني ولا يعتقد بحبرها الأعظم جميع فرقهم ولا يوجد مسلم يؤمن بنبوّة محمد، صلى الله عليه وسلم، إلا ويستقبل في صلاته مكة ويحج إليها عند الاستطاعة لا فرق بين سنيّ وشيعيّ ووهابي وخارجي... ولكن أمراء المسلمين وسلاطينهم هم الذين جنوا على الإسلام وأهله ما لم يجنه الأعداء فجعلوا البلاد المقدسة دون سائر البلاد فأخذهم الله بذنبوهم وفرق كلمتهم وجعل «بأسهم بينهم شديد... ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» [سورة الحشر رقم ٥٩، الآية ١٤].

ذكر هذا الضابط الباسل بل الضابط العاقل أن من الأمور السياسية التي يجهلها الأوروبيون كون الحكومة الشرعية في الإسلام مبنية على قواعد الدين والمبادئ الديمقراطية، وأن أعظم مصيبة ألمت بالمسلمين هي اتخاذهم الديمقراطية أساساً لحكومتهم وعدم حرصهم على البناء الذي شادوه فوقها. ثم ذكر أن هذا الأساس هو الذي يبنى عليه هيكل الوفاق

بين فرنسا التي حكومتها ديمقراطية لا علاقة لها بالدين وبين الإسلام الذي تسوسه الديمقراطية الدينية.

لقد صدق الرجل فيما حكاه عن أساس الحكومة الإسلامية ويتذكر قراء المنار أننا ذكرنا غير مرة أن الإسلام هو الذي وضع أصول الحكومة الديمقراطية المعتدلة ولكن العالم الإنساني لم يكن استعد لها كمال الاستعداد ولذلك لم يتعد العمل بها زمن الراشدين حتى جعلت السلطة المطلقة للأفراد. ومني الزعماء بالاستبداد. فكان ما كان من الفساد والإفساد. واما اعتماد المسلمين على فرنسا في تكوين جامعتهم على الوجه الذي ارتآه فهو المرام الذي لا يدرك واللبانة التي لا تقضى. وكأني به وقد نسي أساس الديمقراطية الذي عمل الخلفاء والملوك المسلمون في نقضه من القرن الأول الى الآن فما استطاعوا له نقضاً وبقي المسلمون على ضعف الدين فيهم لا ينقادون ظاهراً وباطناً إلا لشريعتهم السهاوية وخضوعهم الظاهر للحكام القانونيين منهم ومن غيرهم لا يطابق باطنهم، ولولا العجز ما خضعوا ولا رضخوا. وهذا العجز لا يدوم لأن طبيعة العمران قاضية بأنه سيزول قريباً بزوال سببه وهو الجهل العام بالشؤون الاجتماعية الذي تقطعت بمده روابطهم المالية. وقد علم الكاتب هذا ونبه عليه غير مرة. هذه الجامعة لا تستطيع دولة أوروبية على تكوينها إلا اذا دخلت في دين الإسلام وقد كتبنا في المنار من قبل: أن الدولة الأوروبية التي تدخل في الإسلام يمكنها أن تضم إليها العالم الإسلامي كله وان تمتلك به الدنيا بأسرها. نعم، يمكن لفرنسا أن تعيش مع المسلمين بسلام وأن توسع دائرة استعمارها لبلادهم إذا هي عاملتهم بالحسنى ولم تمس استقلالهم الديني بوجه ما. ويمكن أيضاً للمسلمين أن يستفيدوا من انصراف عناية دولة كفرنسا إلى الاستفادة من قوة الإسلام. ولكن من الذي يستفيد وماذا يستفيد وكيف يستفيد؟ اترك الكلام في هذا لأجل ان تشتغل به الأفكار وربما نعود اليه في فرصة أخرى.

[التفاضل بينهما - الجامعة الإسلامية]

[المنازع ٣ (١٩٠٠) ص ١٦٩ - ١٧٢: وص ١٩٣ - ١٩٨]

(١)

قام في الإسلام دول وممالك كثيرة أعظمها شأنًا وأطولها زمانًا وأشدّها بأساً وأوسعها سلطاناً دولتا العرب بأقسامها والترك. وإننا نرى الكتاب يجبطون في التفاضل بينهما خبط عشواء وقد غلا بعضهم في النيل من العرب حتى زعم أنهم لا قابلية فيهم للتمدن ولا قدرة لهم على سياسة الممالك وإقامة دعائم العمران. وأفرط هؤلاء في مدح الترك حتى كادوا يرفعونهم عن رتبة البشرية إلى مصاف الملائكة المقربين زاعمين أنهم ما وجدوا إلا ليكونوا ملوكاً حاكمين أو آلهة معبودين. ومن الناس من تحامل على الترك حتى سلبوهم مزاياهم وفضائلهم وزعموا أنهم خلقوا فتنة للناس وبلاء على الإنسانية. فريق يتزلف فيعنيه التزلف وفريق يتعسف فيضله التعسف. وإننا نكتب نبذة في هذا المقام مما يليه علينا التاريخ الصادق ويشهد به الوجود الثابت «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين» [سورة النحل رقم ١٦، الآية ٩].

نكتب لبيان الحقيقة. والعلم الصحيح لا يكون إلا نافعاً، كما أن الجهل بحقائق الأمور لا يكون إلا ضاراً. فلا يمكن أن ينكر علينا كتابتنا هذه إلا من يفضل الجهل على العلم والظلمة على النور والضلالة على الهداية. ومن منافع العلم بهذه الحقيقة أن يعرف العرب الكرام أنهم فوق ما يقول فيهم أعداؤهم اللثام فينشطوا لدفع العار الذي يرمون به ويجتهدوا في استرجاع مجد سلفهم الصالح ومفاخر آبائهم الأولين. وأن يعرف الترك

للعرب فضلهم كما يعرف العرب لهم فضلهم ويأخذ كل منها بيد أخيه ويتعاوننا على الوحدة الإسلامية معتقدين أن الإسلام ساوى بينهما في الحقوق وأخى بينهما في الدين . وإنه ليس وراء هذا إلا التفاضل بالأعمال فيجب أن يكون عمل كل منها متمماً لعمل الآخر وإن امتياز جنس على جنس كما كان سبب الضعف فيما مضى يكون سبب الموت والفناء فيما يأتي من الزمن .

وصف مؤرخ الترك العالم الشهير جودت باشا الدولة العثمانية في كلامه على تأسيسها بقوله «إنها كانت جامعة للديانة والشجاعة العربية متصفة بالثبات الذي هو من أخلاق الترك فلذلك كانت على صغرها في أول نشأتها مستعدة لأن تكون كهفاً وملجأً للملة الإسلامية» . وما قال هذا المحقق إلا حقاً فإن الترك نجحوا بهذه الصفات الثلاث : العظمى منها أخذوها كغيرهم عن العرب وهي الدين . والثانية شبههم فيها بالعرب والمشبه به يكون أرقى وأقوى من المشبه في الصفة التي بها المشابهة . وأما الثالثة فهي مما امتاز به الترك على كثير من الشعوب والأجناس وهي أحد الأسباب في ثبات ملكهم وطول زمن دولتهم ، أعزها الله وزادها ثباتاً وبقاء بفضلهم وكرمه . وثم سببان آخران جديران بالالتفات : أحدهما - أن الترك طبعوا كجميع الشرقيين ما عدا العرب على الخضوع الأعمى لرؤسائهم وتقديس ملوكهم وأمرائهم وإنما حصل التنازع على السلطة في العرب للمبدأ الديموقراطي الذي جاء به الاسلام وكان العرب أشد الناس استعداداً له ولكنهم ما رعوه حق رعايته بل تقلص ظلهم بعد الراشدين رويداً رويداً بضعف الدين في النفوس كما سنبينه بعد . وثانيهما - إن حالة البلاد الإسلامية التي نشأت فيها الدولة وفتوحاتها في جهة أوروبا دون بلاد المسلمين وحالة المسلمين في البلاد المجاورة لها كانت تقتضي نجاح هذه الدولة وثباتها ، ذلك ان الاختلافات السابقة والفتن والحروب الداخلية واغارة جنكيز خان وأولاده وتدوينهم المسلمين وتنكيلهم بهم شر تنكيل ،

كل ذلك كان مريباً للأمة الإسلامية على اختلاف شعوبها ومعداً لها بل وملجأ إلى الخضوع والسكينة. فهذا هو المانع للشعوب الإسلامية من الكر على الشعب التركي وتدوينه وازالة سلطته وما كان أحد ليقوى في تلك الأزمنة على المسلمين إلا المسلمون الذين كان بأسهم بينهم شديداً وما كانت اغارة تيمورلنك على البلاد الإسلامية في أوائل نشأة هذه الدولة إلا زلزالاً عنيفاً صدع البلاد المجاورة لها، وما أضر ببلادها هي إلا قليلاً. ما أضر بالدولة بل رباهما فإن السلطان بايزيد الأول الذي أسره تيمورلنك كان منغمساً في الترف مسترسلاً في اللذات وقد خانه عسكره فانضوى قسم كبير منه إلى تيمورلنك على أنه كان لا يزيد عن تسعين ألف فارس وكان عسكر تيمور ٣٨٠ ألفاً من التتر الأشداء الغلاظ. مات السلطان بايزيد بعد ثمانية أشهر من أسره (سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م) فتنازع أولاده على الملك فولى تيمورلنك على البلاد العثمانية أمراء قرامان والسلاجقة ورحل عنها إلى الهند بعد ما عاث وسلب ونهب وظل سرير السلطنة إحدى عشرة سنة بغير سلطان فضعفت الدولة بذلك ولكن لم يكن في جوارها دول قوية تغتنم الفرصة فتجهز عليها ولذلك عادت إليها قوتها سريعاً على يد السلطان محمد حلبي بن السلطان بايزيد الأول الذي كان أول من أحدث العساكر البحرية في الدولة وارسال الصرة السلطانية الى الحرمين الشريفين.

إنما الترك أمة حربية وما كانوا أشد بأساً من العرب وأين فتوحاتهم من فتوحات العرب مع أن مدتهم أطول من مدة دول العرب كلها؟ البلاد التي فتحها العرب هي التي نما فيها الإسلام وثبتت أصوله وعلت فروعه ومعظم البلاد التي فتحها الترك كانت وبالأعلى على الإسلام والمسلمين ولا تزال تنذرهم بالبلاء المبين. لا أقول إن تلك الفتوحات مما يعاب بها الترك ويذمون ولكنني أقول إن الفضل الأكبر في الفتوحات الإسلامية للعرب وإن الدين انتشر بالعرب واعتز بهم فأساسهم أقوى أساس، ونبراسهم أضوء

نبراس، وهم «خير أمه أخرجت للناس» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١١٠].
ولا أنكر أن للترك فضلاً، وذكاء ونبلاً. ولا أحب أن أطيل القول في
المقابلة بالفتوحات وما هو أكثر منها فائدة للإسلام والمسلمين فكل من له
ثمة من معرفة التاريخ الماضي والحاضر يعرف أن معظم البلاد التي تمكن
فيها الإسلام هي مما فتحه العرب وانتشر الدين فيه بواسطة العرب.
وسنأتي في مقالة أخرى على المقابلة بين الجنسين في العلوم والفنون والزراعة
والتجارة وسائر أمور المدنية والعمران.

الترك والعرب (٢)

[المنار ج ٣ (١٩٠٠) ص ١٩٣ - ١٩٨]

بيننا في المقالة السابقة ان المزية التي امتازت بها دولة الترك العثمانية على
كل دولة عربية هي بقاء دولتهم وثباتها زمنياً يناهز زمن دول العرب كلها أو
يزيد. وأوضحنا الأسباب في ذلك ملمين بأسباب تنازع الدول العربية في
السلطة وإنهم على تنازعهم وتحاذلهم كانوا أوسع فتوحاً وأكثر نشراً للإسلام
ونصراً للدين من الترك. ووعدنا بأن نقابل بين الفريقين ونفاضل بينهما في
العلوم والمعارف والمدنية والعمران. وها نحن أولاء منجزوا موعدنا فتدبر
ما نكتبه تدبراً.

من أحاط خبراً بحال الشعبين في هذه الأيام ولم يكن عارفاً بتاريخهما
الماضي ولا واقفاً على علل الأحوال الحاضرة وأسبابها يحكم بأن الترك أقرب
إلى المدنية من العرب لأنهم أرقى منهم في الفنون والعلوم العصرية وما
ينشأ عنها من الصناعات وما يتبع ذلك من مظاهر الجمال والجلال والبهاء

والكمال. فإذا مدَّ عينيه بعد هذا إلى مناشيء الأمور وعللها رأى أن المال المخصص للمعارف في الدولة ينفق في الأستانة العلية وما يليها من بلاد الترك إلا نزرأً يسيراً يصرف إلى ما يتصل بها كسوريا فهو كالرشاش يصيب الأرض المجاورة لمكان مرهوم أو ذي صيّب لا يروي غليلاً ولا يغني فتيلاً. وإذا رأى هذا وعرفه يرجع عن حكمه لا محالة وإذا هو رجع القهقرى في التاريخ إلى أيام دول العرب وشاهد ما كان منهم: من العلم أيام لا علم إلا علمهم، والصناعة حيث لا صناعة تعلو صناعتهم، والزراعة أزمان لا زراعة كزراعتهم، والتجارة حيث لا أحد يجاريهم في تجارتهم، يتجلى له أن قابليتهم للكمال أقوى، واستعدادهم للمدنية أعلى، وعقولهم في العلم أرقى، وهمتهم في العمل أعلى. فانهم أوجدوا مدنية لم تكن، وأحيوا علوماً كانت مدفونة في مقابر مكاتب الرومان وغيرهم، ونفخوا في العالم الانساني روحاً جديداً كان مبدأ الانقلاب الأعظم في تاريخه، وأفاضوا على أرضه الميته صيب الحكمة والجد والعمل، فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج.

وأما الترك فلم يظهر فيهم أيام عزهم وقوتهم شيء من ذلك مع أن لهم سلفاً فيه وقد غمرتهم في هذه الأيام المدنية الأوروبية وجاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم «ولا تجد أكثرهم شاكرين» [سورة الاعراف رقم ٧، الآية ١٧]. لا تكاد تجد منهم مكتشفاً ولا مخترعاً، ولا تكاد تجد فيهم صاحب مذهب في الأصول العلمية ولا صاحب رأي في المذاهب الفلسفية، ولا تكاد تجد فيهم شركات صناعية أو تجارية تضرب في الأرض ابتغاء الثروة والكسب. إلا أنني أعيد القول بأنهم أرقى من العرب في هذه الأيام لما ذكرت من الأسباب لا لأن استعدادهم أقوى. وأعيد القول بأن الغرض من المقابلة والمفاضلة بينهم وبين العرب بيان الحقيقة وخدمة التاريخ وحث الشعبين على أن يكونوا شعباً واحداً يخدم الوحدة الاسلامية التي يجب ان تكون فوق كل جنسية. بل ان تتلاشى فيها

كل جنسية وأن يسعى عقلاء الفريقين في التأليف والتوحيد، فان الترك يظهرون احتقار العرب حتى أن لفظ «عرب» من الفاظ الشتم في لغتهم، والعرب يعتقدون أن الترك تحروا نحو آثار المدنية العربية من بغداد وغيرها متعمدين. وقد انتهى بهم سوء الظن الى الاعتقاد بأن الجامع الأموي ما أحرقه إلا الأتراك لأنه من الآثار العربية التي يفتخر بها. ولو أردنا أن نفيض في هذا الموضوع ونشرح بعض ما يتحدث به الناس من ذلك في سوريا وغيرها لقضى المصريون منه عجباً. ومن ذلك، إن قاضياً تركياً جاء الشام فمكث فيها عدة سنين معظماً مبجلاً محترماً مكرماً وعندما نقل منها قال لأخص أصدقائه عند الوداع: أدعو الله ان ينزع بغض العرب من قلبي، فإنني ما رأيت منكم إلا كل لطف وكمال. ومما هو مستفيض عن جهلائهم أنهم ينكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي ويزعم بعضهم إنه قال «أنا عربي وليس العرب مني». ولم يعرف انه كان مثل هذا بين العرب وبين غير الترك من الأعاجم الذين استولوا على عروش السلطة في البلاد الإسلامية. وهذه دولة الفرس الحاضرة لم ينقل عن أهلها أنهم ييغضون العرب أو يحتقرونهم لأنهم عرب. وإن من الأعاجم من يعتقد أن العرب أفضل من جميع الأجناس لأن النبي الأعظم منهم والقرآن بلسانهم وهم الذين نشروا الدين وأيدوه. ومن هؤلاء الأفغان الذين يتعصبون لجنسهم أشد التعصب ويرون أن الأفغاني هو أفضل الناس لأنه أفغاني ولكنهم يستنون العرب.

يا قوم، إن ربكم يقول لكم «ان هذه امتكم أمة واحدة» [سورة المؤمنون رقم ٢٣، الآية ٥٢] ويقول «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٣] ويقول «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين» [سورة الانفال رقم ٨، الآية

[٤٦] وجاء في السنة الصحيحة «لا تنازعوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره». يا قوم، إن في تاريخ من قبلكم أعظم عبرة لكم. ألم يقص عليكم ما أصاب الأمة من تنازعهم على الخلافة والمملك ومن اختلافهم وتفرقهم في الدين؟ أصابهم شر عظيم قذف بهم من الفتنة إلى الهاوية وخزيت الأمة كلها بخزي رؤسائها في الدين والدنيا. ولما تجددت لها دولة قوية وهي «الدولة العلية»، أعزها الله تعالى، لم تسع في أبان قوتها في رتق الفتق ولم تعمل لاستئصال جراثيم الفتن السابقة واصطلامها لأنها كانت دولة قوة وبأس لا دولة علم وحكمة. وما كان بين المسلمين وما هو كائن لا يحويه الا العلم الاجتماعي الصحيح وهو ما كان ضعيفاً أو معدوماً في دولهم العلمية فما بالك بغيرها؟ ما محا الترك سطور التعصبات الماضية ولكنهم زادوا في الطنبور نغمة وهي التعصب للجنس الذي محاه الإسلام من أعرق الأمم وأشدّها فيه وهي الأمة العربية. ثم قام في هذه السنين في مصر من زاد في الطين بلة فأحدث في الإسلام بدعة التعصب للوطن والافتخار بلفظ الوطنية. فهذه المدى تقطع روابط الإسلام ويمزق أهله كل ممزق. والآخذون بها هم الذين يذفّفون على المسلمين ويحولون بين عقلائهم وبين ما يشتهون من الوحدة الإسلامية. ومن العجيب أن هؤلاء الأغرار يغشون الناس في مصر بأنهم من أنصار الدولة العلية والمخلصين لها وليست الدولة من سلالة الفراعنة ولا من أبناء وادي النيل الذي يتعصبون له ويحملون الناس على مناوأة كل من ليس من أهله. ومنهم من يجاري الناس في هذه الأيام بذكر «الاسلام» و«الجامعة الاسلامية». وكيف تتكون «الجامعة الإسلامية» إذا كان المسلم المصري يعادي المسلم الشامي والمغربي والحجازي وأولئك يعادونه أيضاً؟ نسأل الله البصيرة والهداية هؤلاء الأغرار لعلهم يرشدون.

ونحمد الله أن مولانا السلطان الأعظم عبد الحميد الثاني، أيده الله

تعالى، هو الملك الثاني، والأول هو السلطان سليم ياوز، الذي عقل
مضرة التعصب للجنس، ولولا شدة عصبية الأتراك لقلب الأوضاع وغير
ما عليه الدولة من نظام الاجتماع. وكلنا على علم بحزب «تركيا الفتاة»
الذي تألف لمقاومة ذاته الكريمة لأن سياسته غير مرضية عندهم. وقد شغل
فساد هذا الحزب الضار أفكار جلالته فأخذ جزءاً غير قليل من وقته الثمين
ولولا هم لصرف في مصلحة الدولة والأمة. ورأيت أيضاً غير واحد من
عظماء الأتراك سياسته إسلامية لا تركية ولا وطنية، ومنهم دولة الغازي
مختار باشا الذي كنت أسمع من الناس انه كان في اليمن يسير سيرة
تركية، وإن العرب هناك لاقوا من تعصبه أضعاف ما يقتضيه التأديب
وتستلزمه المصلحة. ولكنني لما اتصلت بدولته في مصر وذاكرته في شؤون
الدولة العلية والإسلام كذب الخبر الخبر. وعلمت أن سياسته إسلامية وإن
شئت قلت سليمية، نسبة للسلطان سليم عليه الرحمة، إلا أن يكون هذا
الرأي قد حدث عنده بعد ذلك، وعلى كل حال نسأل الله تعالى أن يكثر
من أمثال هؤلاء العقلاء الفضلاء في الدولة العلية عسى أن تتوحد الأمة
بسعيهم وتكون «الجامعة الإسلامية» باهتدائهم وهديمهم. وما ذلك على
الله بعزیز.



[المنار ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢١٧ - ٢٢١]

أتى على الأمة الإسلامية حين من الدهر وهي في سكون وهمود ونوم مستغرق حسبته الأمم الحية موتاً فطفقت تتنازع على تراثها واقتسام بلادها. ولم تقنع بأخذ البلاد وما فيها من الخيرات والبركات بل حاولت الانتفاع بهذا الجسم الكبير الذي فقد الحياة الاجتماعية كما تنتفع بالأحجار والآلات والأدوات. بل طمعت في سلخ جلده لتتخذ منه القفازان لأيدي السيدات الناعمات لما فيه من المشاكلة والمناسبة. وحاولت سحق عظامه لأجل تصفية السكر في معاملها أو لتدخله في مادة الطعام المسمى «المكرونه». وما كان هذا بدعاً في نظام الخليفة ولا غريباً في تاريخ الأمم فإن انتفاع الإنسان بسائر المخلوقات حتى ما كان على شكل الإنسان وابتلاع القوي للضعيف وتحلل الميت ثم دخوله في بنية الحي كل ذلك معهود ومشهود في كل زمان ومكان. نقب في الولايات المتحدة الأميركية التي هي زينة الدنيا هل تحس فيها أحداً من سكانها الأولين أو تسمع لهم ذكراً؟ كلا، إنهم ادغموا في بنية الأمة الحية المستعمرة كما ادغم الرومانيون والمصريون في بنية الأمة العربية عندما استعمرت بلادهم من قبل «ولن تجد لسنة الله تبديلاً» [سورة فاطر رقم ٣٥، الآية ٤٣].

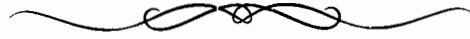
إلا أن الأمة الإسلامية لم تصل في الضعف إلى ما كان عليه هنود أميركا عند دخول الأوروبيين بلادهم وليست النسبة بينها وبين الطامعين فيها كالنسبة التي كانت بينها وبين الرومانيين وغيرهم من قبل. فإن القوة التي سادت بها على جميع الأمم في أوائل نشأتها إنما هي قوة الإصلاح السماوي

الذي كان البشر كلهم في أشد الحاجة إليه لما كان عليه جميع الأمم من الفساد وقد ترك المسلمون في هذه الأزمنة أكثر قواعد ذلك الإصلاح وأخذت الأمم الغربية منها ما استعلت به على المسلمين الذين أخذته هي عنهم واقتبسته من أنوار علومهم. وما يحتاج المسلمون الآن إلا إلى التفاتة واحدة الى ما كان عليه سلفهم مع ملاحظة أن سعادتهم كانت فيه وشقاوتهم بتركه فيعودوا إليه مسارعين. ويستتبع هذا مجارة الغربيين في جميع علوم الدنيا وفنونها والقوى الآلية الناشئة عنها وتدحض حجة الأوروبيين القائلين إنهم إنما يعتدون عليها لأنها عدوة المدنية الحاضرة ولا يحاولون إلا تحيلتها بهذه المدنية حباً بالإنسانية.

قلنا إن الأمم الحية حسبت الأمة الإسلامية مئة فتحاملن عليها تحاملاً شديداً وتصرفن فيها كما يتصرفن بالجمادات وبيناهن وادعات ساكنات غاراً آمناً لا يحسبن حياة هذا الجسم الذي بين ايديهن حساباً. وإذا به قد اختلج بعض أعضائه وتحرك لسانه بالتأوه والصياح فاضطربن لحركته اضطراباً عظيماً وعلمن أن فيه رمقاً من الحياة وأمسين في خوف وحذر من سريان الحركة في جميع الأعضاء ثم نهوض الجسم كله ومنازعتة إياهن الحياة والبقاء كما هو شأن جميع الأحياء. وطفقن يتساءلن عن السبب في هذه الحركة وعن الطريق المثلى لإبطائها فكثرت الآراء وتعددت الأقوال وصرحت جريدة التيمس الشهيرة من عهد قريب بأن السبب في هذه الحركة الإسلامية هو شدة تحامل الأوروبيين على المسلمين، وذكرت من الجزئيات في هذا مقالات هانوتو الأخيرة والرسالة التي نشرها القسيسون في مصر وسموها «أيها المسيح أم محمد»، وجعلت العذر للمسلمين في ذلك. وكل الأوروبيين يخشون أن تكون نتيجة هذه الحركة قيام المسلمين على الأوروبيين والمسيحيين عموماً وهو وهم بعيد وخطأ لا يحوم حول الصواب. وما تلك الحركة والصيحة إلا حركة النائم المستغرق نخس ولكز فتحرك وصاح ثم مضى في نومه ولكنه كان في هبوغ وتسبيخ (هو أشد

النوم) فصار في طور الكرى والغمض (أي بين النائم واليقظان) ومن كان هذا شأنه فهو قريب من اليقظة والانتباه ولا شك ان قليلاً من الضغط السابق ونزراً من مثل التحامل الماضي يوقظان هذه الأمة في وقت قريب. ولذلك أشارت جريدة التيمس بوجوب كف الأوروبيين عن التعرض لدين المسلمين وقالت إنهم إذا عادوا بعد ذلك للكلام في «الجامعة الإسلامية» ومزج السياسة بالدين فلا عذر لهم. وتعلم التيمس كما يعلم جميع ساسة أوروبا وعلمائها أن المسلمين لا جامعة لهم ولا جنسية إلا في دينهم. فإذا انحلت الرابطة الدينية فليس لهم رابطة تقوم مقامها ويستحيل أن تنجح أمة بل أن توجد بدون رابطة عامة يرتبط بها جميع أفرادها وتكون لها المكانة العليا من نفوسهم. وإن فريقاً من الذين تربوا في مدارس الأوروبيين وما على شاكلتها واشربت قلوبهم عظمتهم ومدنيتهم قد حاولوا أن يقنعوا المسلمين بأن نجاحهم وسعادتهم في «الرابطة الوطنية» وأن خيبتهم وشقائهم في الرابطة المليية التي يطلقون عليها عند الذم لفظ «التعصب الديني». ولكنهم ما نجحوا في إرشادهم أو إغوائهم هذا ولا ينجحون مهما كتبوا وخطبوا لأن غير المسلم منهم لا يلتفت لقوله المسلمون ومن عساه يوجد منهم مسلماً فهو على غير بينة مما يدعو اليه او من الذين اذا سموا الوطنية «اشرف الروابط». يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وقد قلنا ولا نزال نقول إن الفائدة الحقيقية من هذا الشيء الذي يسمونه وطنية هي أن تعيش أبناء الأديان المختلفة في كل بلاد بالمجاملة والمسالمة والتعاون على ترقية بلادهم وهذه الفائدة لا توجد على كمالها إلا في الإسلام ولا يمكن لأحد أن يقنع المسلمين بها على أنها وطنية شريفة. ويمكن لكل أحد أن يشرها قلوبهم باسم الدين اشراً. فليهدأ روع ساسة أوروبا وجرائدها فما على المسيحيين في بلاد الإسلام من سبيل وليس المقصود من الحركة الإسلامية إلا أن تجاري الأمة سائر الأمم الحية في ميدان الحياة، فتتعلم كما يتعلمون، وتعمل كما يعملون، وتكتسب كما يكتسبون، وتقتصد كما يقتصدون، ثم تحفظ استقلالها كما يحفظون.

وإن تعجب فمن العجب العجائب أن جسم الأمة الإسلامية لم يشعر كله بهذه الحركة التي حدثت فيه . وأكبر أمرها الأوروبيون ولم ينس الناس تلك المحاورة بين أحد مشايخ الأزهر واحد المجاورين فيه وكيف رد الشيخ على المجاور قوله في فوائد علم تقويم البلدان والتاريخ أن بعض عقلاء المسلمين وفضلائهم يسعون في هذه الأيام بتنبية المسلمين لجمع كلمتهم واتحادهم ولا بد في هذا من معرفة أهل كل قطر منهم أحوال الاقطار الاسلامية الأخرى وهذا من علم تقويم البلدان والتاريخ . وما كان رد الشيخ على هذا إلا أن قال إنه لا يسلم أن أحداً يسعى فيما ذكر وانه هو لم يسمع بهذا إلا في ذلك اليوم من ذلك المجاور! فكأنه لم يقرأ المؤيد ولا جريدة أخرى من الجرائد الإسلامية بل وغير الإسلامية قبل ذلك اليوم . وكأن هذه المسألة نظرية من النظريات الفكرية فيكفي في منعها قوله لا نسلم! ويقول العقلاء إنه لا وسيلة لتعميم هذه الحركة الإسلامية وتقويتها إلا استمرار أوروبا على الضغط على المسلمين لا سيما من الوجهة الدينية كمحاولة منع الحج وتقديم القول بأن بعض الأوروبيين تنبهوا لهذا الأمر ولا ندري ماذا تكن عاقبته والله بكل شيء عليم .



أوروبا والاصلاح الاسلامي



[الدين الاسلامي دين سلطة وسياسة]

[المنار ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٤١ - ٢٤٥]

بيننا في المقالة التي افتتحنا بها الجزء الماضي من المنار أن الأوروبيين كانوا يظنون أن الأمة الإسلامية قد قضى عليها فلا ترجى لها حياة اجتماعية، وأنهم لما رأوا بعض أعضاء هذه الأمة تحرك ذعروا ودهشوا وأوجسوا في

نفوسهم خيفة وطفقوا يراقبون شخصها في نومه فكلمها تعاراً^(١) قالوا إنه هب مستنفرأ لاجلائنا من بلاده وتقليص ظل سلطتنا عن رأسه. ونعني بهذا اهتمام القوم لما تكتبه الجرائد الإسلامية وما ترمي به أفواه الخطباء في الجمعيات التي نمدحها إذا قلنا إنها في دور الطفولية فقد بلغت أن قناصل الدول في مصر يهتمون بترجمة كل ما يكتب حتى في الجرائد الصغيرة التي تشبه فقاقيع الماء تظهر كهيئة القبة الزجاجية ولا تلبث أن تتلاشى وتضمحل ولا يكاد يشعر بها إلا من يراقبها مراقبة دقيقة.

يروعهم منا اسم «الإسلام» و«الجامعة الإسلامية» و«الاتحاد الإسلامي» يظنون أن وراءها غارات تشنّ وحروب تشبّ وتعصباً يدمي وتحزباً يفني. والصواب أن أكثر اللاغطين بتلك الكلمات، والراقمين لها في تلك الورقات؛ إنما يقصدون بها تزيين اللفظ، واستلفات اللحظ، جلباً للمال، وتحسباً للحال؛ كالصدي يحكي الطائر المغرد، والأخذ بالظواهر قصارى فعل المقلد:

وقد يتزى بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان ما لا يلائمه وأما من يتكلم عن بصيرة، ويعمل عن حمية وغيرة؛ فهم يعلمون أن محاولة الطفور غرور بل جنون، وأن بلوغ الغاية في البداية محال لا يكون؛ فلا يطالبون المسلمين بأن يكون لهم سلطان واحد وحكومة واحدة وأن يخرجوا على حكامهم من غير المسلمين فيبيدوهم أو يجلوهم عن بلادهم فإنهم يعلمون أن التحريض على هذا تحريض على إبادة الشرق أو إبادة العالم الإنساني إلا قليلاً، والتحريض على مثل هذا يمنعه كل دين ويأباه كل عقل. نعم، إن هنا مسألة يسوء الأوروبيين ذكرها في الجرائد على أن ذكرها وعدمه سيان لأنها معلومة بالضرورة لكل مسلم وهي أن الدين الإسلامي دين سلطة وسياسة لا دين تعبد وتحت فقط. فمن أصوله أن

(١) التعار هو ان يتكلم الانسان في يقظة خفيفة من نومه ثم يأخذه النوم.

يسعى أربابه بأن تكون لهم السلطة على العالم كله لا على المسلمين وحدهم كما يظن البعض، ولكن هذا الأمر من وظائف الخلفاء والأمراء لا من وظائف العامة فترشدنا إليه الجرائد والخطباء. وتؤلف لأجله الجمعيات. وإننا نعتقد أن الله تعالى ما كلفنا بنشر ديننا في جميع العالم ورفع لواء سلطتنا على رؤوس جميع الشعوب لأجل الأبهة والفخفة وتمتع الملوك والأمراء بالسلطة المطلقة واستعباد الناس وإذلالهم وإنما أمرنا الله باستعمار الأرض وإصلاح الناس. ولذلك ذكر في أول الآيات التي نزلت في الإذن بالقتال هذا المقصد الشريف. فقال عز من قائل «إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد^(١) يذكر فيها اسم الله كثيراً ولنصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٣٩ - ٤١] فذكر من الحكمة في الإذن بالقتال المدافعة وإزالة الظلم وحفظ المعابد التي يذكر فيها الله تعالى وذكر من وصف المقاتلين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك إما بالإلزام وإما بالتربية والتعليم، وهذا هو الإصلاح الأكبر. فإذا كان حكامنا يتركون سيل الفساد والظلم في بلادهم وما يجرف حتى صارت أبعد بلاد الله عن العمران وأقربها إلى الفساد، فكيف لنا أن نحرضهم مع هذا على أن يضموا غيرها إليها؟ كلا، إننا لا نطلب من حكامنا الآن إلا إصلاح البلاد التي يحكمونها وإقامة العدل فيها لتعمر البلاد وتسعد العباد. وأما الأمة فإننا نطالبها في كل قطر من الأقطار وتحت حكم أية دولة من الدول بشيء واحد، صرحنا به مراراً تارة بالإجمال وتارة بالتفصيل، وهي مجارة الأمم الحية في العلوم والأعمال. وإن سألتهم عن السبب في مطالبتها بهذا بلسان الدين، وسوقها إليها بسوط

(١) الصوامع للعباد والبيع معابد النصارى والصلوات لليهود والمساجد للمسلمين.

الدين؟ فهاؤم اقرءوا جوابيه: [«هاؤم اقرءوا كتابيه»] سورة الحاقة رقم ٦٩ الآية ٢٩].

أنتم أيها المعارضون تعتقدون أنه لا سبب لتأخر الأمة الإسلامية في جميع بقاع الأرض عن سائر الأمم إلا دينها الذي هي عليه فكيف يمكن لأحد أن يتصدى لإصلاح هذه الأمة بقول أو فعل ولا يكون جل عنايته أو كلها في دينها؟ لقد حفيت الأقلام وخفتت الأصوات من كثرة ما كتبنا وخطبنا في موضوع شقاء المسلمين بدينهم الذي سعد به أسلافهم وبيّنا أن علة الشقاء إنما هي في ابتداعهم فيه لا في اتباعهم له وفي لبسه كما يلبس الفرو مقلوباً كما قال الإمام علي، كرم الله وجهه، في بعض أهل عصره واستقباحهم ما استحسنة واستحبابهم ما كرهه. فإن الإسلام دين الفطرة الأمر بكل علم نافع والنهي عن كل جهل مضر. فأمسى أهله يعادون كل علم لأجل الدين ويقاومون كل إصلاح باسم الدين ويفندون كل نظام لتأييد الدين ويؤيدون كل خلل انتصاراً للدين. فإذا قلت: عليكم بالعلوم الطبيعية لأنها الموصلة إلى الصناعات، قال علماءهم: إن هذا يحاول هدم الدين. وإذا قلت: عليكم بالفنون الرياضية، قال علماءهم: إن هذا يريد إفساد عقول المسلمين. وإذا قلت: انظروا في التاريخ وتقويم البلدان لتعرفوا حالة الإنسان، قال علماءهم: إن هذا يصدنا بهذا اللغو عن علوم الدين. فما هذا الدين الذي هو أكبر بلاء على المتدينين؟ هل هو الإسلام الذي تستلفتنا آيات كتابه التي لا تحصى للنظر في ملكوت السموات والأرض ويقول إن الله تعالى أنشأنا من الأرض واستعمرنا فيها وسخر لنا جميع المخلوقات لنتنفع بها؟ كلا. هل هو الإسلام الذي أرشدنا قرآنه إلى سنن الله في الآفاق وفي أنفسنا وهدانا للاعتبار بها؟ كلا. هل هو الإسلام الذي حثنا على الجد والعمل ونفرنا عن الخمول والكسل حتى قال نبيه صلى الله عليه وسلم «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها» كلا؟ وإنما هي بدع وتقاليد ألقت فيها كتب لا تحصى وحشيت فيها كتب لا تستقصى ويسمى مجموعها ديناً.

قد كان عند الأوروبيين مثلما هو عندنا اليوم وما تسنى لهم الإصلاح الديني إلا بعدما وضعوا تلك الحواجز الحديدية دون تلك الكتب الخرافية: التي أفسدت العقول، وغلت الأيدي عن العمل، وقيدت الأرجل دون السعي، وجعلت زمام إرادة العامة في أيدي رؤساء الدين. أليست طبائع الأمم متشابهة وسنن الخليقة واحدة؟ بلى، وإن للمسلمين سلفاً لم يكن للمسيحيين مثله، وفي القرآن من الحث على العلم والعمل ما ليس في الإنجيل ولا في التوراة، فلا بد إذن من الدعوة إلى الإصلاح الديني قبل كل شيء. وسنبين الأصول التي يجب الابتداء بالدعوة إليها بحسب ما يسمح به المقام، إن شاء الله تعالى.

هانوتو والاصلاح الاسلامي

٢٥

[الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية]

[المنار ج ٣ (١٩٠٠) ص ٣٣٧ - ٣٤٥]

ألم المسلمين من مقالات هانوتو. عظمة أمر فريضة الحج. رأي كيمون في نسف الكعبة ونقل القبر المعظم عليه كثيرون من الأوروبيين. حاجتنا إلى معرفة رأي الأوروبيين فينا. وفاء كتاب الإسلام الذي عربه فتحي بك زغلول بهذا الغرض. أوروبا والإسلام. خطأ الأوروبيين في اتهامهم إيانا بالسعي في أن يكون لنا حاكم واحد. قولهم إن الدين الإسلامي يحول دون تقدم المسلمين. مناقشة هانوتو في رده على كيمون. الفصل بين السلطتين السياسية والدينية. سيرة فرنسا في الجزائر وتونس. النسبة بين الصلاة والحج. المساواة في الإسلام. حقيقة أثر الإسلام في التقدم والتأخر. الرأي في إزالة سوء التفاهم بين أوروبا والمسلمين.

نشرت مقالات هانتوتو في «الاسلام» فما بلغت البلاد الإسلامية إلا وقامت لها وقعدت وأشد ما أمضها منها وجرح وجدانها هو ما نقله عن «كيمون» من التحريض على نسف الكعبة المكرمة ونقل القبر المعظم إلى متحف اللوفر ومن وصف الإسلام بالأوصاف القبيحة الشائنة وما صرح هو به من رغبة أوروبا في الحيلولة بين المسلمين وبين أداء فريضة الحج التي هي من أركان الدين الإسلامي لا من أعماله المندوبة أو المستحبة ولا من الواجبات المخير بها المكلف. ولو أن ما جاء في تلك المقالات هو رأي كيمون وحده أو رأيه ورأي هانتوتو معاً لما كان لنا أن نلقي إليه بالاً أو نعهده بلاء. ووبالاً ولكنه رأي الكثيرين من الكتاب والسياسيين. ومن البلاء الأكبر أننا نجعل هذا وهو من أسوأ أنواع الجهل وأقبحها وأشدّها ضرراً ووخامة عاقبة لأن بغض الأمم الأوروبية واحتقارهم لنا ما جاء إلا من هؤلاء الكتاب والسياسيين القابضين على أزمة النفوس والمتصرفين في الوجدانات والعقول. وقد ذقنا مرارة هذا البغض والاحتقار وربما كان ما سنلاقيه من الألاقى (الدواهي) أشد مما لاقيه في الماضي.

علم عقلاؤنا شدة حاجتنا إلى الوقوف على اعتقاد الأوروبيين فينا فقام صاحب المهمة العلية والغيرة المليّة أحمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر بترجمة كتاب من الكتب التي ألفوها في الإسلام^(١) ليكون عبرة لنا وباعثاً لعلمائنا وكتابنا على الدفاع عن حقيقتنا ببيان حقيقة الإسلام لهم ليزول سوء التفاهم وبإصلاح شؤوننا حتى لا يكون لهم حجة علينا فلم يكن من بعض أصحاب الأنظار القصيرة والآراء الأفيئة إلا أن نفروا ونفروا من قراءة الكتاب المذكور زعماً منهم أن تعظيم الدين ومن جاء به إنما يكون بجهل ما يقوله خصماؤه فيه وما يريدونه من السوء به ومن هؤلاء

(١) هو كتاب عنوانه الاسلام - خواطر وسوانح من تأليف الكونت هنري دي كاستري وهو من أحسن الأوروبيين الذين كتبوا في الإسلام رأياً وأحسنهم فيه فهماً واعتقاداً وأحسنهم عنه دفاعاً ولكنه يعرفنا جميع خطأ المخطئين وعيب العائنين.

الأغرار من خطأ المؤيد بنشر ترجمة مقالات هانوتو الأخيرة.

دع هؤلاء الغافلين في جهلهم الذي سموه تعظيماً وهلم بنا للبحث في هذا الموضوع الذي هو أهم مصالح الإسلام والمسلمين - موضوع العلاقة بين أوروبا والإسلام وما يريده القوم منا وما نريده منهم وما نريده من أنفسنا تجاههم. تتهم أوروبا كتاب المسلمين بأنهم قاموا في هذه السنوات الأخيرة يطالبون إخوانهم في جميع أقطار الأرض بالاتحاد والاجتماع تحت راية واحدة والسعي في أن يكون حاكمهم كلهم واحداً منهم. فحزبها هذا الأمر وأهمها لأن غايته نزع المستعمرات الإسلامية من مخالب الدول المسيحية. وقد كتبنا في الجزء الحادي عشر من هذه السنة مقالة عنوانها «أوروبا والإصلاح الإسلامي»^(١) بينا فيها أن كتاب المسلمين لا يطالبونهم في هذه الأيام إلا بمجاراة الأمم الحية في العلوم والأعمال وما خطر على بال أحد منهم أن يحضهم على السعي في أن يكون لهم حاكم واحد وكل يعتقد أنه لا سبيل إلى ذلك. والآن نعيد القول بمناسبة ما جرى بين موسيو هانوتو وسعادة بشارة باشا تقلا ونشر في جريدة الاهرام منذ أيام. وأهم ما في تلك المذاكرة أمور:

أحدها - قول هانوتو للبasha [بشارة تقلا] «أنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطني الفرنسيين ولم أستشهد بكيمن وهو يوناني الجنس إلا لأفند أقواله التي لم ينفرد بها فإن كثيرين من الكتاب الألمان والفرنسيين والإنكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله. وخلاصة كتاباتهم أن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لأن الإسلام معتقدتهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة وهي أنه كلما تقدمت أوروبا تأخر الشرق لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماضي وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوروبا علماً ومدنية فنجحت مع أن العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على

(١) المنار ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٤١ - ٢٤٥. انظر أعلاه ص ١٦٣.

ما كانت عليه في السنين الغابرة. وأنا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقادي أن الإسلام لا يحول دون الإصلاح والمدنية واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثلاً أؤيد به أقوالي وسياستي. هذه هي روح كتابتي السابقة وإنها ستكون روح اللاحقة». ثم ذكر أن مغزى كتابة هؤلاء لا تخرج عن إعادة الكرات الصليبية. ونحن نقول إنه لم يفند رأي كيمون إلا من هذه الجهة جهة التحريض على الحرب الصليبية لما في ذلك من الخطر على العالم كله فإن مناوأة ثلاثمائة مليون مسلم، أو مجنون كما يقول كيمون، يتمنون الموت في سبيل الدين ليس بالأمر الهين والسهل. ولكن فلسفته في عقائد الدين الإسلامي كان من معناها أن المسلمين أو الساميين عامة لا يمكن أن يجاروا المسيحيين أو الأوروبيين لأن طبيعة عقائدهم لا سيما القضاء والقدر تحول دون ذلك. وذكر أن تمسك المسلمين بدينهم المقتضى للتأخر يسهل على أوروبا أن تحل رابطته وتفصم عروته واستشهد على هذا بأن فرنسا تمكنت من فصل تونس عن مكة وذلك بمنع أهلها من أداء فريضة الحج الشريف.

ثانيها - مسألة الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية وهي أهم المسائل التي تطلبها أوروبا من المسلمين. والجرائد التي تدعو الشرقيين أو المسلمين إلى مدنية أوروبا تجتهد في إقامة الحجج على أن النجاح موقوف على هذا الفصل وربما كان فيهم من يعتقد ذلك حقيقة وقد كتبنا في هذا غير مرة ومن ذلك مقالة عنوانها «الدين والدولة والخلافة، والسلطنة»^(١) بلغنا أن قناصل الدول في القاهرة ترجموها وأرسلوها إلى أوروبا. وليس من غرضنا الآن إلا مناقشة موسيو هانوتو للوقوف على حقيقة مراده. قال في

(١) المنارج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٥٣ - ٣٦٠ انظر أعلاه ص ١٠٨.

حديثه مع [بشارة] تقلا باشا بعد كلام في المسألة «وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسيين في مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسية» ونحن نقول إن المسلمين يكتفون من الفرنسيين وغيرهم من المتسلطين عليهم من الأوروبيين بأن لا يتعرضوا لشيء من أمور دينهم، ولكن الفرنسيين منعوا الحج من القطرين واستولوا على الأوقاف ومنعوا حقوق الحرمين الشريفين منها. وذكر العلامة الشيخ محمد بيرم [التونسي] في رحلته (صفوة الاعتبار) أنه لم يبق في مدينة الجزائر إلا أربعة جوامع. ولقد عارض الباشا [بشارة تقلا] هانوتو مذكراً له بأن أهل الجزائر غير راضين عن فرنسا فاعترف بذلك ووعد بالكتابة فيه وأكد القول بأن أهل تونس راضون بإصلاح فرنسا بلادهم لاحترامها جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية وهي راضية منهم باحترام سلطتها السياسية. وإذا كان هذا القول صحيحاً فما هو إلا لأنهم يعتقدون أن منع الحج أمر عرضي مؤقت الغرض منه المحافظة على الصحة وأنهم يتوقعون في كل عام الأذن لهم بإقامة هذا الركن الإسلامي العظيم. فإذا علموا بعد ذلك بأن الغاية منه فصل تونس عن مكة فلا يمكن أن يرضى منهم واحد بذلك ولا بد أن تظهر آثار السخط عليهم أجمعين إذ لا فرق عندهم بين أن يمنعوا من دخول المساجد لأداء الصلاة وبين أن يمنعوا من دخول الحرم الشريف لأداء الحج، بل المنع الأخير أشد جناية على الدين لأن الصلاة يصح أن تؤدى في البيوت والطرق وكل مكان وأما الحج فلا يصح إلا في مكة المكرمة. فإذا كان ما يقوله موسيو هانوتو حقاً فما على حكومته إلا أن تثبته بإزالة المنع من الحج وبدون هذا لا يمكن أن يصدق هذه الأقوال أحد من قارئها على أنهم أقل القليل. إن الأمة الإسلامية أصبحت أسوأ اعتقاداً بفرنسا من سائر الدول بسبب منع الحج لأن لأهل الجزائر وتونس شؤوناً خاصة في بلاد الحجاز تستلقت إليهم جميع الشعوب الإسلامية وذلك في اجتماعهم ومدافعة

بعضهم عن بعض وكلامهم وعاداتهم وقد نقل إلينا أنهم افتقدوا بعد المنع في عرفات لا سيما في هذه السنة وكان حديث الحجاج أن فرنسا منعتهم من أداء فرضهم غلواً في التعصب على الإسلام.

يسهل على هانوتو وغيره أن يقنع بعض من يقرأ كلامه من المسلمين بالأدلة النظرية على حسن قصد فرنسا بمنع الحج في هذه السنين ويتعذر عليه وعلى كل أحد أن يقنع العالم الإسلامي بذلك ولكن يسهل على فرنسا هذا الاقتناع بإزالة المانع كما قلنا.

ثالثها - قول موسيو هانوتو إن أوروبا لا تسعى إلا لمصلحتها السياسية، وإنها ستتفق على المسائل الشرقية اتفاقها الآن على دولة الصين، وإن من جهل كتابنا التحيز للألمانين لنكاية الإنكليز والانتصار للفرنسيين على الألمانين «مثلاً». وهذا القول صحيح وهو موضع العبرة لمن يعتبر والعظة لمن يعقل وقد بالغ هانوتو في تبرئة أوروبا من التعصب الديني على المسلمين وخطأ الذين يدعون هذا محتجاً بحرب القريم وغيرها فإذا سلم له المسلمون احتجاجه وقالوا إننا لا ثقة لنا بأوروبا ولا يمكن أن نأمن لها ونظمئن بوعودها لأنها طامعة في بلادنا وعاملة على نزع استقلالنا بعامل المصلحة والسياسة لا بعامل الاعتقاد والدين فهل يمكن لهانوتو أن يزيل هذا العذر بفصاحته بعدما أثبت أسبابه بصريح قوله؟

رابعها - قول [بشارة] تقلا باشا لهانوتو «المسلمون يعتقدون أن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الإسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة إلى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم». قوله هذا مبالغ فيه فإن المسلمين كانوا ولا يزالون يقلدون المسيحيين المناصب العالية ويثقون بمن يصدق ويسير بالأمانة وانظر كيف كان رستم باشا موضع ثقة الأمة الإسلامية وإمامها الأعظم السلطان عبد الحميد وانظر إلى كثرة الموظفين في الدولة العلية من الأرمن على خيانتهم وثوراتهم المتعددة وانظر إلى الحكومة

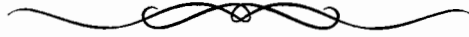
المصرية كيف كانت تقدم المسيحيين ولو غرباء على المسلمين المصريين أصحاب البلاد ولكن تكرار الخيانة يعلم البليد الحذر.

خامسها - قول موسيو هانوتو إنه كان يجب على المسلمين الذين عركتهم حوادث السنين أو الذين درسوا في أوروبا أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم وأن يسعوا في إزالة سوء التفاهم بين الشرق والغرب بأن يتلو تلو أوروبا في الاجتهاد والاقدام كما فعلت اليابان. ومن الأسف أن هذا الرجل على سعة معارفه بأحوال عصره لما يدر بأن عقلاء المسلمين وكتابهم قد جعلوا كل عنايتهم في هذا الأمر النافع وقد صدق في قوله إن التعليم لا يفيد إذا لم يصحبه التهذيب، وفي قوله إن المتعلمين في أوروبا منا ربما كانوا أكثر من الذين تعلموا فيها من اليابان ولكن ظهرت في اليابان نتيجة لم يظهر مثلها عندنا.

سادسها - ما ختم به قوله من أن النجاح مشروط «بخدمة الوطن خدمة منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية. قال: لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع إلا عنصراً واحداً، إلى أن قال، لهذا كانت الرابطة الوطنية أعم وأشد من الرابطة الدينية وهي التي كانت قاعدة أوروبا وبها تقدمت وتمدنت ونجحت». ونحن نقول إن هذا القول لا يصدق على الدين الإسلامي فإن الرابطة الإسلامية لها طرفان طرف روحي يضم أبناء الدين ويجعلهم أخوة بعضهم أولياء بعض في الدين، وطرف مادي اجتماعي يضم مع المسلمين غيرهم من العناصر، ما عدا المحاربين الذين لا عهد لهم، ويجعل الجميع سواء في الحقوق لا يفضل المسلم مهما كان عظيماً على غير المسلم مهما كان حقيراً. وبهذا يمكن أن تعمر البلاد وتسعد العباد وقد أوضحنا هذا المبحث في مقالة نشرت في المجلد الثاني من المنار عنوانها «الجنسية والدين الاسلامي»^(١) ونوّهنا به في مقالات أخرى كثيرة.

(١) المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٢١ - ٣٢٧. انظر أعلاه ص ٩٤.

ولا يمكن لكتاب المسلمين أن يجعل كل واحد منهم إرشاده لأهل بلاده خاصة لأن تأخرهم لم ينسب إلى بلادهم وإنما هو منسوب إلى دينهم وهم يوافقون كتاب أوروبا على قولهم إن للدين أقوى الأثر في هذا التأخر ولكنهم يخالفونهم في وجهه. فأولئك يزعمون أن طبيعة الدين تقتضي هذا ونحن نوقن أن طبيعته تقتضي التقدم وأن التأخر ما جاء إلا من الانحراف عن سننه ولبسه كما يلبس الفرو مقلوباً، كما قال الإمام علي كرم الله وجهه. وقد بينا هذا من قبل في مقالات كثيرة ولكن صوتنا لا يصل إلى هانوتو وأمثاله من السياسيين والكتاب الأوروبيين ولا ينقل لهم الوسطاء بيننا وبينهم إلا أقوالاً مقتضبة مختزلة يستثيرون بها إحتهم علينا ولو نقلوا إليهم كتابة من يعتد بكلامهم ويوثق بمعرفتهم للإسلام لقبه المنصفون وزال سوء التفاهم الذي نتمناه كما تمناه هانوتو وغيره من العقلاء أو أشد تمنياً، وربما كان فيه الخير للفريقين فعسى أن نصل إلى هذه الأمنية بالجرائد الشرقية التي تنشر باللغات الأوروبية كالمؤيد الفرنسي في مصر ومحمدان ومسلم كرونكل في الهند وغيرها من الجرائد المسيحية المنصفة، والله يجزي المحسنين.



الرجال أم المال

٢٦

[الإصلاح الذي تحتاجه الأمة]

[المنارج ٣ (١٩٠٠) ص ٥٠٥ - ٥٠٩]

الخلاف في أن الإصلاح يتوقف أولاً على الرجال الكاملين أو على المال. أماني طلاب المال للإصلاح. وصف ثلاثة نفر من المصلحين. أماني بعض الأغنياء البخلاء في الإصلاح. شبهة وجوابها. تضييع ما ترك السلف.

الأزهر. مدرسة خليل آغا. الحسينية. المصلحون ما كانوا أغنياء. لوثر. بوكر واشنطن. السيد جمال الدين [الأفغاني]. السيد أحمد خان. وعد مؤكد ومؤجل.

قلنا في مقالة سابقة إننا إذا ارتقينا في الأسباب التي تحتاجها الأمة لصلاحها وفلاحها ننتهي إلى السبب الأخير الذي يجب أن يكون أولاً حتى إذا كان يكون به كل مراد وتوجد به كل رغبة وتحقق به كل أمنية وهو الرجال الذين لهم علم صحيح بمصلحة الأمة الحقيقية. ومعارج ترقيتها الصورية والمعنوية. وعزيمة ماضية وإرادة قوية. تبعث على القيام بالأعمال الاجتماعية. والثبات في سبيل المصلحة المالية. لا يصدهم عن ذلك صد. ولا يقفون من سيوف القواطع عند حد.

كتبنا هذا الرأي وعرضناه على من نذاكرهم ونباحثهم مشافهة في مسائل الإصلاح الذي تحتاجه الأمة فوافقنا فيه بعضهم وارتأى آخرون أن السبب الأول الذي يجب أن يكون قبل كل شيء وبوجوده يوجد كل شيء هو المال. وهذا هو الذي يلهج به الأكثرون من المتكلمين في الإصلاح والذين توجهوا للعمل بزعمهم ولكنهم لم يعملوا لأن أيديهم لا تصل إلى المال الكافي للقيام بالعمل الذي يتخللونه ويشبه أن يكون هذا في الغالب من الأعذار التي يعذر بها الكسالى أنفسهم والتعللات التي يتعلل بها المغرورون الذين يصور لهم الوهم أنهم من أئمة المصلحين ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون. ولو ساعدتهم الناس بالأموال، ودانت لهم المصاعب والأهوال، لنهضوا بالأمة نهضة الأسد الرئبال، وعملوا من غرائب الإصلاح ما لا يخطر على بال. تلك أمانيتهم وأحلامهم، ووساوسهم وأوهامهم، وكل من تراه في بطالة وكسل، أو حيرة وغمة لا يهتدي معها للعمل. فاعلم أنه ليس من الرجال، ولا تعلق به أملاً من الآمال، وإن اغدقت عليه سحب الأموال.

نعم، إن صاحب العرفان والإرادة، عندما تتوجه نفسه للإفادة، يرى

أن جلائل الأعمال، إنما يستعان عليها بالمال، ولكنه لا يطمع نفسه بالمحال، ولا يطلب بسببه ما لا ينال، وإنما يرد أقرب الموارد، ويسلك أمثل الطرق، ويدخل البيت من بابه، ويضع الأمر في نصابه. ولقد رأيت مصلحاً حقيقياً طلب مبالغ كبيرة من المال رأى أن الإصلاح يتوقف عليها فأصابها ولكنه لو وجد بضعة رجال على مذهبه لأمكنه أن يعمل بهم من الإصلاح أضعاف ما عجزت عنه تلك الألوف من الجنيهاً. وأعرف رجلاً آخر مجاً للإصلاح أعوزه المال فطلبه من طريقه الطبيعي ولما يصب الحظ الذي يمكنه مما يريد ولنا الرجاء أن سيصيبه، ويكون منه للإصلاح نصيبه. ومن المصلحين من يعمل بمال قليل يستدره بعمله وإذا استعان فإنما يستعين بمال أبيه، ومرشده ومربيه، على أن أنفع الأعمال، لا ضرورة فيه للمال، وهو ما يعرفه أهله.

ومن الناس من يملك الألوف من الدنانير ويقول آه لو كان لي في السنة عشرون ألف جنيه أو خمسون ألف جنيه لفعلت وفعلت، ومنهم من يملك عشرات الألوف ويزعم أنها لا تقع موقعاً من كفايته، ولو بلغت مئات الألوف لأحيا البلاد، وأسعد العباد. فهؤلاء هم الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقطعون أعمارهم بالتمني وربما كانوا لا يشعرون، ومن لا يعمل بالنزر اليسير، لا يعمل بالجزم الكثير. على أن المال لدى هؤلاء كثير ولكنهم يبخلون «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» [سورة التغابن رقم ٦٤ الآية ١٦].

ما استغنت أمة بعد فقر إلا وكان غناها بالرجال فإذا كان المال هو الذي ينتج الرجال الذين ينقذون الأمة من شقائها وبلائها ويتشلونها من محنها وفتنها ويرفعونها من ضعتها وسقوطها، فمن أين يأتي المال ومن الذي يجيء به؟ وإذا قيل إن الأمة مهما ضعفت وتأخرت عن غيرها فلا بد أن يبقى عند أفراد منها بقية مما ترك سلفها من الثروة، إن كان لها سلف مجيد، أو مما يكسبه بعض أهل الهمة والنشاط الذين لا يخلو شعب منهم فلتنفق هذه

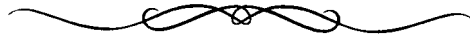
البقية على تربية الرجال الأكفاء الذين يقدرّون على القيام بالإصلاح العام وبذلك يكون المال هو الذي يوجد الرجال. نقول في الجواب إن الأمة في مثل هذا الطور تكون ثروتها في سفهائها، جهالها ومصرفيها، الذين لا يسمحون بالمال إلا للشهوات البهيمية، واللذات الحسية، ولا نذكر الأمراء الظالمين، والحكام الجائرين، الذين يعلمون أن الإصلاح يقضي على فسادهم، ويظهر الأرض من بغيهم واستبدادهم، فلا يقيمونه بل يقاومونه، ولا يعضدونه ولكن يعضدونه (يقطعون). فإذا أردت الاستعانة على الإصلاح بأموال أولئك الأغنياء السفهاء الأشحاء فكيف يتسنى لك أن تنفخ روح حب الأمة في قلوبهم وتجعل الإيثار مكان الأثرة من نفوسهم؟ اللهم، إن كان يوجد في الأمة من له هذا السلطان على النفوس وهذا التأثير في الوجدان فأولئك من الرجال الذين يجب أن يكون وجودهم قبل وجود الأموال.

وأما المال الذي هو بقية مما ترك السلف الصالح فهو أداة ولا بد للأداة من عامل، والعمال هم الرجال الكملة الذين قلنا إن الإصلاح لا يوجد إلا بهم. هذه أوقافهم على المدارس والأعمال النافعة تؤكل إسرافاً وبداراً، والأمة تزداد جهلاً وخساراً، وتباراً ودماراً، ولا تجد لهم من أهل تلکم المدارس مصلحين ولا أنصاراً. هذا الأزهر العظيم الذي تنفق عليه عشرات الألوف من الجنيهات هل تجد للأمة رجاء فيمن تربوا فيه واقتصروا على تعليمه بأن يكون نهوضها وإصلاح شأنها على أيديهم أم هل سمعت أهله يوماً يذكرون الأمة وتقدمها وتأخرها في درس من دروسهم أو مجلس من مجالسهم؟ أظنك إذا ذكرت واحداً منهم وقلت إنه محل الرجاء فإنما تذكر من لا ينطبق عليه الوصفان المذكوران آنفاً. وهذه مدرسة «خليل آغا» يبلغ ريع أوقافها زهاء عشرة آلاف جنيه ولا يجني المسلمون من ثمرتها أكثر مما يجنون من سائر المدارس الأهلية التي أنشأها في هذا العصر بعض الشبان لتكون معاشاً لهم يأكلون من ثمرات ريعها ولا

يهمهم أتربى وتعلم من يدخلها أم لا . ولا تنس المدرسة «الحسينية» التي خصصت أوقافها الواسعة بخمسين متعلماً وأجري عليهم وعلى أساتذتهم من الأرزاق ما يمكنهم من تحصيل جميع العلوم والفنون إلى أن يكونوا من أعظم المعلمين والمرشدين . فلو كانت هذه المدارس تدار بأيدي رجال ممن وصفنا لك لكانت منبع الحياة الطيبة التي يرجوها الباحثون في حال الأمة الاجتماعية وما يجب لها من الإصلاح .

بعيشك راجع تاريخ الإصلاح في الأمم والشعوب هل تجد مبدأه الرجال الفقراء أم أصحاب الغنى والثراء هل كان «لوثر» غنياً وهل نشر مذهبه بالمال؟ وهل استرد «بوكر واشنطون» ساعته التي رهنها لأجل استتجاره من يعلم تلامذة مدرسته شيء من الأجر حيث احتاج إلى ذلك القسم الصناعي منها؟ وهل أدى المائة ريال التي اقترضها واشترى بها الأرض التي بنى مدرسته فيها فكانت ينبوع حياة السود؟

وانظر هل كان السيد جمال الدين الأفغاني الذي نفخ روحاً إصلاحياً في مصر فسرى في جسم الأمة سرياناً لا يزال ينمو ويزداد، وكل ما نحن فيه من البحث والسعي فهو أثر من آثاره، وقبس من ناره . وانظر هل كان السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكر (في الهند) من الموسرين أم كان من المعوزين . فقد سبق الكلام على غير «لوثر» من هؤلاء المصلحين وللتحفن القراء بسيرة غيرهم ولو بعد حين، إذا مد الله في الأجل . وهو الموفق لخير العمل .



[المنار ج ٣ (١٩٠١) ص ٨٥٢ - ٨٦٦.
المحاورة الثالثة عشرة بين المصلح والمقلد.]

نهى الإمام أحمد وأتباعه عن التقليد. ترك التقليد ليس غمطاً للأئمة والعلماء. أحكام الشرع قسماً روحاني لا تقليد فيه وديني يتبع فيه أولو الأمر المجتهدون. الوحدة الإسلامية في المعاملات السياسية والقضائية، المشاورة والإجماع. تفويض الشارع أمر الأحكام لأولي الأمر المجتهدين. تقديم الحكم بالمصلحة الموافقة للقواعد العامة. نكاح المتعة. حكم بالاستحسان عند الحنفية. حكم القاضي بعلمه. أسباب الحكم ليست تعبدية. حكم القضاء على الظاهر وحكم الدين على الباطن. العدل هو ما يوصل إلى الحق. اقتراح على أهل الحل والعقد أن يؤلفوا كتاباً في السياسة والقضاء يوافق المصلحة الإسلامية في هذا العصر.

اجتمع الشيخ المقلد والشاب المصلح لإتمام المحاورة والمناظرة بعد فترة طويلة وابتدأ الشاب الكلام فقال:

المصلح - الأولى لنا أن نورد شيئاً مما يؤثر عن ناصر السنة الإمام أحمد ابن حنبل، رحمه الله تعالى، في النهي عن التقليد. ليعلم الذين ركنوا إلى تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة أنهم ليسوا على هديهم في هذا التقليد. وقد كان هذا الإمام الجليل متأخراً قليلاً عن الثلاثة، وإن أدرك بعضهم وصحب أحدهم، وكان قد رأى بؤادر التزام تقليد الذين تكلموا في الأحكام وكتبوا فيها وعلم أن الإمام مالكا، رحمه الله تعالى، قد ندم قبل موته أن نقلت أقواله وفتاويه ولذلك لم يدون مذهباً واقتصر على كتابة الحديث ولكن أصحابه جمعوا من أقواله وأجوبته وأعماله ما كان مجموعته

مذهباً كما قال العلامة ابن القيم. وسأله أبو داود عن الأوزاعي ومالك أيهما أتبع فقال: لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء ما جاء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه فخذ به وذكر أن الرجل بخير في التابعين.

المقلد - إذا كان خير في إتباع التابعين فتلك رخصة بتقليدهم.

المصلح - إنه كان يفرق بين الإتياع والتقليد. قال أبو داود سمعته يقول: الإتياع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه ثم هو من بعد في التابعين بخير. وقال أيضاً: لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا. فالتقليد هو الأخذ بقول أحد من غير معرفة دليله وإتباع النبي، صلى الله عليه وسلم، لا يمكن إلا بعد العلم بستمته فاتحد الدليل والمدلول. وأما الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، فقد اختلف الأئمة في الأخذ بالموقوف عليهم فمنهم من يقول به كأحمد [بن حنبل] ومنهم من يقول هم رجال ونحن رجال ومنهم من فصل، وليس هذا من غرضنا الآن، ولكننا نفهم من عبارة الإمام أحمد أن مراده الاهتداء بعمل الصحابة وسيرتهم لا تقليد واحد منهم بعينه في كل ما يقول، وإنما خير في التابعين لأن المختار من لا يتبع الهوى في اختياره وإنما يسترشد بمن يراه أقوى دليلاً، وأقوم قياً.

المقلد - أليس هؤلاء الأئمة الأربعة خيراً من كثير من التابعين فلماذا لا نختار اتباعهم ونكون آخذين برخصة الإمام أحمد في ذلك بالأولى؟

المصلح - إن الأئمة الأربعة أولى بأن يُتبعوا في سيرتهم العلمية والعملية من كثير من التابعين وقد إتبع أحمد الشافعي في طرق الفهم والاستنباط وفضله في حداثة سنه على الشيوخ الذين كان يُرحل إليهم ولكنه لم يقلده تقليداً. روى الحاكم بسنده إلى الفضل بن زياد العطار أنه قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول «ما مس أحد محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في عنقه منّة». ولولا أن المتأخر من العلماء يهتدي بهدي المتقدم لما ارتقى علم في الدنيا ولو أن المتأخر يأخذ بكل ما يقوله المتقدم لما ارتقى علم في الدنيا.

المقلد - إذا كان الإمام قد نهى نهياً صريحاً عن تقليده فلماذا دَوَّن أصحابه مذهباً مستقلاً وحملوا الناس على العمل به؟

المصلح - هذا السؤال يرد على سائر المقلدين فإن الأئمة الثلاثة نهوا عن التقليد أيضاً كما قلنا في مجالسنا السابقة وقد كان أتباع الإمام أحمد أبعدهم عن التقليد المحض وأقربهم إلى ما كان يسميه إمامهم إتباعاً واهتداءً وذلك أنه لا يزال مذهبهم الحديث والفروع الفقهية عندهم مدللةً باتباع السنّة في الغالب، ولذلك كان أكثر الحفاظ والمحدثين من أتباعه وليس فيهم من يترك الحديث لقوله كما يفعل سائر فقهاء المذاهب الأخرى وهم أكثر الناس نعيّاً على التقليد والمقلدين.

قال الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في كتاب تلبيس ابليس: اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد وفي التقليد إبطال منفعة العقل لأنه خلق للتأمل والتدبر وقبيح ممن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة.

واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم التفحص عن أدلة إمامهم فيتبعون قوله وينبغي النظر إلى القول لا إلى القائل كما قال عليّ، رضي الله عنه، للحارث بن عبد الله الأعور بن الحوطي وقد قال له أتظن أن طلحة والزبير كانا على الباطل؟ فقال له؛ يا حارث، إنه ملبوس عليك أن الحق لا يعرف بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله.

وقال ابن القيم العلامة المحدث المشهور بعد كلام في النفس الامارة ثم النفس المطمئنة: «فإذا جاءت هذه بتجريد المتابعة للرسول، صلى الله عليه وسلم، جاءت تلك (أي الأمانة) بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم فأتت بالشبهة المضلة بما يمنع من كمال المتابعة وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق والله يعلم أنها كاذبة، وما مرادها إلا التفلت من سجن المتابعة إلى فضاء إرادتها وحظوظها، وتريه (أي تري صاحبها) تجريد المتابعة للنبي، صلى الله عليه وسلم، وتقديم قوله على الآراء في صورة تنقص

للعلماء وإساءة الأدب عليهم المفضي إلى إساءة الظن بهم، وأنهم قد فاتهم الصواب فكيف لنا قوة بأن نرد عليهم أو نحظى بالصواب دونهم، وتقاسمه بالله إن أرادت إلاّ احساناً وتوفيقاً. «أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٦٣]. والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وإهدار أقواله والغائها أن تجريد المتابعة لا تقدم على ما جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم، قول أحد ولا رأيه كائناً من كان، بل ينظر في صحة الحديث أولاً فإذا صح نظر في معناه ثانياً، فإذا تبين له لم يعدل عنه ولو خالفه من بين المشرق والمغرب. ومعاذ الله أن تتفق الأمة على ترك ما جاء به نبينا، صلى الله عليه وسلم، بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به ولو خفي عليك فلا تجعل جهلك بالقائل حجة على الله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، في تركه بل إذهب إلى النص ولا تضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ولكن لم يصل إليك علمه.

«هذا - مع حفظ مراتب العلماء ومولاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه فهم، رضي الله عنهم، دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقدير قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم منك. فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النصوص أعلم فهلاً وافقته إن كنت صادقاً. فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فإنهم كلهم أمروا بذلك بل مخالفتهم في ذلك أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا بها ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم. ومن هذا تبين الفرق بين تقليد العالم في جميع ما قال وبين الاستعانة بفهمه، والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب دليله من الكتاب والسنة والمستعين بإفهامهم يجعلهم بمنزلة الدليل الأول فإذا وصل استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره. فمن استدل

بالنجم على القبلة لم يبق لاستدلالة معنى إذا شاهدها. قال الشافعي: من استبانت له سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

«ومن هذا تبين الفرق بين الحكم المنزل الواجب الإتياع والحكم المأول الذي غايته أن يكون جائز الإتياع بأن الأول هو الذي أنزل الله تعالى على رسوله، صلى الله عليه وسلم، متلوّاً أو غير متلوّاً إذا صح وسلم من المعارضة وهو حكمه الذي ارتضاه لعباده ولا حكم له سواه. وإن الثاني أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب إتياعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها. فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله قطعاً وحاشاهم عن قول ذلك وقد صح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، النهي عنه في قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة أصحابك فإنكم إن تحفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا» أخرجه الإمام أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه من حديث بريدة. بل قالوا اجتهدنا رأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله ولم يلزم أحد منهم بقول الأئمة. قال أبو حنيفة هذا رأي فمن جاء بخير منه قبلته. ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه. وكذلك قال مالك لما استشاره هارون الرشيد في أن يحمل الناس على ما في الموطأ فمنعه من ذلك وقال: قد نفر أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في البلاد وصار عند كل قوم من الأحاديث ما ليس عند الآخرين. وهذا الشافعي نهى أصحابه عن تقليده وكان يوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه. وهذا الإمام أحمد أنكر على من كتب فتاويه ودونها وكان يقول: لا تقلدوني ولا تقلدوا فلاناً وفلاناً وخذوا من حيث أخذوا».

قال المصلح بعد ايراد هذه الجملة الصالحة من كلام ابن القيم: إنني سقت هذا الكلام بطوله لاذكر بك بخلاصة ما مر من النقول والدلائل وقد رأيت هذا الكلام اليوم وأعجبني جداً.

المقلد - حاصل ما فهمته منك أن مذهبك مذهب المحدثين ولكن ماذا تفعل بالحديث إذا خالف مذاهب أهل السنة كلهم كحديث أحمد ومسلم الذي ورد في آخر كلام ابن القيم الذي يثبت الحكم لغير الله تعالى في قوله «أنزلهم على حكمك»؟ وأهل السنة يقولون لا حكم إلا لله وحكمت المعتزلة العقل.

المصلح - إنما سمي أهل السنة بهذا الاسم لأنهم يتبعون السنة إذا صحت وهذا الحديث صحيح عند أئمتهم في الحديث والفقه فمن خالفه منهم فقد خرج عن السنة في هذه المسئلة وإذا أخذ به المعتزلة فهم على السنة فيها. وكأني بك لا تزال مصرّاً على أن مذاهبكم هي الأصل الذي يعرض عليه الكتاب والسنة فإن وافقاه قبلاً وإلا رُداً بضروب من التأويل ومن اعتقد هذا فهو بعيد عن السنة بل هو بعيد عن الإسلام. وأنا أقول معاذ الله أن تكون مذاهب أهل السنة مخالفة لهذا الحديث ولكن عليك بالفهم، ولا تؤاخذني بهذه الكلمة، فقد آلمني قولك هذا بعد كل ما تقدم.

أما أحكام الدين فهي لله كما قال أهل السنة والجماعة أخذاً من قوله تعالى «إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» [سورة يوسف رقم ١٢ الآية ٤٠]. ولكن أحكام الله تعالى على قسمين: قسم لا يستقل العقل بمعرفة أصوله ولا فروعوه وهو الروحاني المحض الذي يتقرب به إلى الله تعالى، وإنما يفهم العقل فائدته ومنفعته الدنيوية في جملته ويفوض الأمر في منفعته الأخروية إلى الله تعالى، كالإيمان بالغيب من أمور الآخرة وما يتعلق بها، وكالعبادات ومواقبتها ومقاديرها. فهذا القسم يؤخذ عن الشارع ولا يتصرف العقل فيه بزيادة ولا نقص، وقد تقدم الكلام عليه في بحث الوحدة الإسلامية في العبادات

وما في معناها . وقسم يستطيع العقل أن يعرف وجه المصلحة فيه بالتأمل والنظر وبالاختبار والقياس ولكنه يكون عرضة للخطأ والضلال في بعض مسائله لضعفه تارة ولميله مع الهوى تارة أخرى . فوضع له الشرع قواعد عامة ليبنى أحكامه الجزئية عليها ويرجعها إليها . وهذا هو قسم المعاملات الدنيوية المبنية على أساس دفع المضار وجلب المنافع وارتكاب أخف الضررين عند تعارضهما وتحتم وقوع أحدهما ، وهذه المسألة لازمة لما قبلها وكلاهما مجمع عليه . وهذا القسم هو الذي يجب تقليد العامة فيه لأولي الأمر الذين يجب أن يكونوا مجتهدين في علوم الدين والدنيا ولذلك سباهم الشرع أئمة .

المقلد - أذكر أن الوحدة الإسلامية التي ذكرت من قبل في شأن القسم الروحاني من الدين هي أن يكون ما أجمع عليه المسلمون الذين يُعتدّ باسلامهم هو الذي يدعى إليه وهو الذي يلحق للجماهير بحيث يعرفه ويفهمه كل من يدخل في الإسلام وتكون المسائل الخلافية الدينية كالمسائل العلمية لا تنافي الأخوة الإسلامية في شيء يتبع العالم فيها ما صح عنده من غير أن يعيب مخالفه فيها . وإذا عرضت للعامي يسأل من يثق بدينه وعلمه عن حكم الله فيها ، فإن كان عنده شيء من الكتاب والسنة ذكره له وإلا توقف كما كان أئمة السلف وعامتهم يفعلون . إذا تحققت الوحدة الإسلامية في هذا القسم بما ذكرت فكيف يمكن أن تتحقق في القسم الثاني الذي جعلت مدار جزئياته على اجتهاد أولي الأمر وهم لا بد أن يختلفوا كما عرف بالاختبار وهل من دليل على تفويض الأحكام إليهم من السنة غير حديث أحمد ومسلم الذي تقدم؟

المصلح - أما جمع الكلمة وتحقيق الوحدة الإسلامية بذلك فبوجوب طاعة أولي الأمر إذا حكموا بأمر أو قرروه وأمروا به أي مما يتعلق بالمصلحة في المعاملات ، فإننا استثنينا الأمور الدينية المحضة لأن الله تعالى أكملها أصولاً وفروعاً كما تقدم شرحه . ولما كانت هذه وظيفة أولي الأمر اشترط

فيهم أن يكونوا من العلم في مرتبة الاجتهاد المطلق وفرضت عليهم المشاورة وجعل إجماعهم حجة شرعية بالنسبة إلى الجمهور المكلف بقبول أحكامهم لثلاث تنشق العصا وتستباح البيضة بالخلاف والتفرق. وأما الأدلة على تفويض الأمر إليهم غير ما تضمنته الآية والحديث السابق فأحاديث منها ما رواه أحمد والبخاري في تاريخه والدورقي وغيرهم عن علي، كرم الله وجهه، قال: قلت يا رسول الله إذا بعثتني في شيء أكون كالسكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فقال: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب». يدل الحديث على أن مراعاة المصلحة هو الأصل فيمن عهد إليه شيء من أمر الناس لا الأخذ بظاهر قول الشارع في الجزئيات، وإن فرض عدم انطباقه على المصلحة، ويصلح الحديث حجة للحنفية على تقديم الاستحسان على القياس الجليّ المقدم على خبر الواحد إن أريد بالاستحسان ما نفهمه من أنه ما يوافق المصلحة العامة من الأحكام، فإن ذلك هو الذي يوافق القواعد الأصلية الثابتة بالنصوص القطعية. وهذا ظاهر في الأحكام الدنيوية والمعاملات المعاشية لأنها ليست تعبدية ولذلك تسري على المؤمن والكافر ويحكم فيها العرف الذي يختلف باختلاف الزمان والمكان. وهذا الاستقلال الذي يدل عليه الحديث لا ينافي وجوب المشاورة في الأمور الثابتة بنص القرآن. كما لا ينافي اتباع سائر القواعد الشرعية التي هي أصول الاستنباط والاجتهاد بل يستلزمها بدليل آخر.

المقلد - إن قولك هذا يناقض ما أطلت به وأوردت عليه نصوص الأئمة من أنه لا يجوز لأحد أن يرغب عن السنة إذا صحت عنده.

المصلح - إن هذه المعارضة هي أقوى شيء راجعتني فيه منذ تكلمنا في هذا الأمر. والجواب عنها أنها مسلمة في الأمور الدينية المحضة وهي التي لم نجعل فيها رأياً لإمام ولا حاكم. وأما الأمور السياسية والقضائية فهي محل الشبهة والجواب عنها أنه يجب العمل بالحديث الصحيح فيها إذا لم يناف المصلحة والمنفعة. فإن فرض أنه وجد حديث لا ينطبق على المصلحة فإننا

نعتبر هذا الحديث معارضاً للأصول العامة القطعية المؤيدة بالكتاب والسنة العملية والقولية أيضاً كحديث «لا ضرر ولا ضرار» ونحوه. ولا شك أن هذه الأصول مرجحة على ذلك الحديث الذي فرضنا وجوده لأنه لا يكون إلا من أحاديث الأحاد التي لا تفيد إلا الظن فلا يقال حينئذ إننا تركنا السنة بتركه أو رغبنا عنها وإنما رجحنا منها ما هو أولى بالترجيح. على أن الخليفة العادل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قد قضى في مسائل كثيرة بخلاف ما كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كمسألة الطلاق الثلاث التي تكلمنا عنها بالتفصيل في شرح المقدمة الحادية عشرة من المحاورة السابعة. ومنها مسألة المتعة أخرج مسلم وغيره من حديث جابر قال: كنا نستمتع بالقبضة من الدقيق والتمر الأيام على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر وصدرأ من خلافة عمر حتى نهانا عنها عمر في شأن حديث عمرو بن حريث. وروى عبد الرزاق في مصنفه أن ابن عباس كان يراها حلالاً ويقرأ «فما استمتعتم به منهن» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٢٤] قال وقال ابن عباس في حرف أبي بن كعب «إلى أجل مسمى» قال: وكان يقول يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها عباده ولولا نهي عمر لما احتيج إلى الزنا أبداً وهو صريح بأن عمر نهى عنها اجتهداً منه.

المقلد - إن نكاح المتعة محرم بإجماع أهل السنة ولولا خلاف الشيعة فيها لكان فاعلها كافراً ويروون أن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، رجع عن إباحتها وورد في الأحاديث الصحيحة النهي عنها.

المصلح - مهلاً، إن كان هناك اتفاق من المتأخرين فسببه امتثال المسلمين لقول عمر وهو إقرار له على الحكم بتحريم شيء كان أحل للضرورة فخاف عاقبة توسع الناس فيه ورأى المصلحة في إبطاله وهو مأمور أن يحكم بمقتضى المصلحة فهو بذلك ممثّل أمر الله وأمر النبي، صلى الله عليه وسلم، فيما فوّض إليه وعهد إلى أمانته فلا يقال إنه خالف

النبي، صلى الله عليه وسلم، لأن من تعارض عنده قولان فعمل بأرجحهما لا يقال إنه غير متبع. وأما الصحابة فقد نقل عنهم الخلاف في المسألة فروى ابن حزم تحليلها عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود وجابر بن عبد الله ومعاوية وعمرو بن حريث وأبو سعيد وسلمة إنا أمة بن خلف ومنهم أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. وروى عن جابر أنه قال بعد ما ذكر أن عمر نهى عنها في آخر خلافته: إنه إنما أنكرها إذا لم يشهد عليها عدلان فقط. قال ابن حزم: وقال بها من التابعين طاوس وعطاء وسعيد ابن جبير وسائر فقهاء مكة. وما ورد من الأحاديث في النهي عنها ثم الاذن فيها ثم النهي عنها فبعضه ضعيف وبعضه صحيح. وصرح بعضهم بأن الاذن محمول على حال الضرورة بنحو سفر وغربة والمنع محمول على حال الإقامة ولو كان النهي قطعياً عاماً مؤبداً لما جهله الصحابة الذين استمروا على استباحة المتعة طول حياته، عليه السلام، ومدة خلافة أبي بكر ومعظم خلافة عمر حتى نهاهم عنها.

المقلد - لقد شهدت لك أيها الشاب الفاضل بسعة الإطلاع وطول الباع ولو لم يكن من مضرة التقليد إلا عكوفنا على كتب أصحاب مذهبنا وإهمالنا النظر في كتب السنة لكفى، وأنني والحق أحق أن يتبع لا أدري ماذا أقول لك وإن كان في نفسي حرج من بعض ما تقول وأخشى أن تكون مخادعي بقوة عارضتك فبينما أنت تقيم البرهان على أنه لا يجوز العمل بقول أحد غير المعصوم إذا بك تنهض بالحجة على ترك الحديث لاجتهاد المجتهدين. نعم، إنك جعلت لكل محلاً بحيث لا يعترض عليك لا سيما وقد وافقت في كل قول إماماً من الأئمة. فإن الإمام أبا حنيفة وأصحابه يقدمون الاستحسان على القياس وعلى خبر الواحد وقد انشرح صدري لتفسيرك الاستحسان ولكنني أعني بالمخادعة إن من يسمع منك أحد الكلامين لا يخطر له على بال أنك تقدر على الاحتجاج للثاني. وقد كان وقع لكلامك شيء في نفسي من الاستحسان والقياس.

المصلح - أحسنت فيما ذكرت من مضرّة التقليد فإنه الحجاب الأعظم دون العلم والفهم ولو شئت لزدتك من ذكر الأحكام التي حكم فيها عمر رضي الله عنه بمثل ما حكم في الطلاق الثلاث ونكاح المتعة ولكن الوقت قد ضاق فإن أحببت الاستزادة فشرّفي مرة أخرى أزدك، إن شاء الله تعالى. وأريد الآن أن أقرأ عليك جملة نفيسة قالها الإمام الشوكاني في بحث خلاف العلماء في قضاء القاضي بعلمه وهي :

«والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن يقال : إن كانت الأمور التي جعلها الشارع أسباباً للحكم كالبينة واليمين ونحوهما أموراً تعبدنا الله بها لا يسوغ لنا الحكم إلاّ بها وإن حصل لنا ما هو أقوى منها بيقين فالواجب علينا الوقوف عندها والتقيّد بها وعدم العمل بغيرها في القضاء كائناً ما كان. وإن كانت أسباباً يتوصل بها الحاكم إلى معرفة المحق من المبطل والمصيب من المخطيء غير مقصود لذاتها بل لأمر آخر وهو حصول ما يحصل للحاكم بها من علم أو ظن وإنها أقل ما يحصل له ذلك في الواقع فكان الذكر لها لكونها طرائق لتحصيل ما هو المعتبر فلا شك ولا ريب أنه يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه لأن شهادة الشاهدين والشهود لا تبلغ إلى مرتبة العلم الحاصل عن المشاهدة أو ما يجري مجراها، فإن الحاكم بعلمه غير الحاكم الذي يستند إلى شاهدين أو يمين ولهذا يقول المصطفى ، صلى الله عليه وآله وسلم ، «فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فلا يأخذه إنما أقطع له قطعة من النار» فإذا جاز الحكم مع تجويز كون الحكم صواباً وتجويز كونه خطأ فكيف لا يجوز مع القطع بأنه صواب لاستناده إلى العلم اليقيني؟ ولا يخفى رجحان هذا وقوته لأن الحاكم به قد حكم بالعدل والقسط والحق كما أمر الله تعالى» أه المراد منه على أن له فضل بيان .

المقلد - ان أحكام المعاملات عندنا من الدين ونحن متعبدون بها .

المصلح - نعم إنها من الدين بمعنى أن الدين أرشدنا إلى إتباع الحق وإقامة العدل فيها وهي أحكام يتحرى فيها الحاكم ذلك فإن أصابه فقد

أصاب حكم الله كما ورد «حيثما وجد العدل فهناك حكم الله» ولذلك يقول الفقهاء: فله كذا أو الحكم كذا قضاء لا ديانة أو ديانة لا قضاء. والأصل في هذا حديث «إنما أنا بشر وانكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» رواه أحمد والستة عن أم سلمة (الألحن بالحجة هو الأوضح بها والأظهر احتجاجاً) فالحق ثابت في نفسه لا يتغير أخطأه الحاكم أم أصابه وكذلك العدل لأنه إصابة الحق.

المقلد - العدل هو ما وافق الحكم الشرعي والجرور والظلم ما خالفه لقوله تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ٤٥].

المصلح - إن الظالمين الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الذين لا يحكمون بالعدل لأن الذي أنزله الله تعالى وجعله آلة الحكم بين الناس هو العدل قال تعالى «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٥٨]. وقال عز وجل هو «الذي أنزل عليك الكتاب بالحق والميزان» [سورة الشورى رقم ٤٢ الآية ١٧]. فالله تعالى لم ينزل آيات قرآنية بعدد الوقائع التي تحدث للناس وقال احكموا بها فإنها العدل وإنما أعطانا ميزاناً نعرف به الحق الراجح من المرجوح وهو ما أرشدنا إليه من القواعد العامة التي يكون بها الترجيح وأشرنا إلى بعضها في كلامنا السابق. أرأيت أن العرب عندما كانوا يسمعون الأمر بالحكم بالعدل يفهمون منه أن العدل هو أحكام فرعية منصوصة يجب العمل بها؟ أرأيت ذلك الرجل الذي قال «يا محمد، إعدل» يريد احكم بالفروع التي جئت بها وجواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل» يريد به ذلك؟ والحديث رواه أحمد ومسلم عن جابر وسببه أنه عليه السلام كان يعطي الناس شيئاً من الفضة

عند منصرفه من حنين. نعم، إن ما ورد في الكتاب وصح في السنة من الأحكام فكله عدل وقسط ولكن الأحكام الاجتهادية التي استنبطها الفقهاء منها ومنها ولذلك وقع فيها الاختلاف والحق في نفسه واحد سواء أكان الذي أخطأه مجتهداً معذوراً، أم مقصراً مأزوراً؛ والعدل هو ما يحفظ الحق أو يوصل إليه من غير ميل مع إحدى الريحين، إلى جانب أحد الخصمين؛ وهو المقصود بالذات، وإن تعددت الطرق والدلالات، واختلفت باختلاف الأزمنة والأمكنة والحالات. أرأيت إذا وضع القاضي متهمين في بيت ووضع عندهما حافظة الصوت (فونوغراف) فتكلما في كيفية ارتكابهما الذنب واثمرا في كيفية الإنكار فنطقت بذلك الآلة أمام القاضي ألا يكون موقناً بذنبهما وهل يأتي مثل هذا اليقين في شهادة الشاهدين؟

وحاصل ما أريد بالوحدة الإسلامية في السياسة والقضاء أن يجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والفضلاء ويضعوا كتاباً في الأحكام، مبنياً على قواعد الشرع الراسخة، موافقاً لحال الزمان، سهل المأخذ لا خلاف فيه، ويأمر الإمام الأعظم حكام المسلمين بالعمل به وهذه هي وظيفته فإن لم يقم بها لأنه ليس أهلاً لها فعلى العلماء أن يقوموا بها ويطالبوه بتنفيذها، فإن لم يفعلوا فيجب على كل مسلم أن يعرف أن الأمراء والعلماء هم الذين أضاعوا الدين، وفرقوا كلمة المسلمين، وليستعدوا لتقويمهم إن كانوا مؤمنين، اه.



[المنار ج ٤ (١٩٠١) ص ٦٣٧ - ٦٣٩]

يحاول بعض السفهاء الذين يتلذذون بأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون أن يفتحوا على الجنب العالي الخديوي (عباس) الباب الذي فتحه حزب تركيا الفتاة على مولانا السلطان الأعظم [عبد الحميد الثاني] من تجربة الناس على الخوض في شخصه المعظم بالقول والكتابة وشغل فكره الشريف بمكافحة الأشخاص والبحث عن الأفراد الذين يكتبون ويتقولون ويمثلون ويصوّرون ثم تلافي ما عساه ينجم عن كتابتهم وسعيهم وسعايتهم في الآستانة العلية أو الديار المصرية .

وقد توسّلوا إلى هذا المقصد الخسيس بالوشايات القولية والمنشورات السرية ومن ذلك ما نوهت به الجرائد اليومية من المنشور الذين يُرجفون فيه بأن بعض زعماء المسلمين وأمرأهم قد بايعوا الجنب الخديوي بالخلافة ومن تصوير مولانا السلطان ومولانا الأمير يلعبان على «البلياردو» برأسي ليون فهمي وصالح بدرخان وغير ذلك مما لا نذكره .

ونحن نعتقد أنه إذا لم يقفل هذا الباب قبل تمادي السفهاء فيه فإنه يتعذر إقفاله بعد ذلك أو يتعسر ولا وسيلة لإقفاله إلا تنزيه سمع مولانا العزيز أيده الله عن سماع كلمة واحدة من كلام هؤلاء السفهاء وتكريم نظره العالي عن التصويب الى شيء مما يكتبون، بلّه أشخاصهم الخسيصة، وذواتهم المنحوسة؛ فإن مولانا السلطان الأعظم قد أعياه أمرهم، بعد أن راج في سوق السياسة سحرهم، وهو صاحب السلطة المطلقة والإرادة النافذة والكف الفائضة. ولو أنه، أيده الله تعالى، أيأسهم من سماع كلامهم، والنظر في مواقع سهامهم، لاستراح وأراح.

ثم إن لمولانا العباس حفظه الله من بُعد النظر وجودة الفكر ما يمكنه به أن يقنع مولانا السلطان الأعظم بمصدر هذه الأراجيف إذا فرض أنها وصلت إلى يلدز. وأما مصر فلا تأثير فيها لشيء من هذا الهذيان إلا إذا راج في المعية السنية وبيد مولانا الأمير إبطال هذا التأثير وبيده تربية هؤلاء السعاة المفسدين، والسفهاء الطامعين؛ ولا شك أن جميع رجال حكومته، ووجوه رعيته؛ محبون لمقامه الكريم، ومخلصون لجنابه الفخيم؛ ولا يوجد فيهم من تحدّثه نفسه بأن يطالبه بمثل ما يطالب ذلك الحزب المشؤوم مولانا السلطان أو ينسب إليه تقصيراً في أعمال الحكومة. ولا يمكن أن يكون لكلام المرجفين أدنى تأثير في نفس أحد منهم فكيف يؤثر في نفسه العالية؟؟ كلا، سوف يخسؤون، ثم كلا، سوف يخسؤون «وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون» [سورة الشعراء رقم ٣٦ الآية ٢٢٧].



حياة أمة بعد موتها

«جمعية اليهود الصهيونية»

[المنار ج ٤ (١٩٠٢) ص ٨٠١ - ٨٠٩]

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٤٦].

كنا نتحدث في أيام العيد مع صاحب الدولة رياض باشا في حال المسلمين وما يحتاجونه من الإصلاح فجاء ذكر اليهود عند ذكر ركن كل إصلاح وتقدم وهو «المال» وذكرنا الجمعية الصهيونية ومساعدتها في إعادة السلطة والملك إلى شعب إسرائيل. فقال الوزير: إنه أطلع في هذه الأيام

على كتاب لبعض الأوروبيين المحاذين لليهود ألفه صاحبه للوقعة والإزراء بهم فكان كله تعظيماً في الحقيقة وتبجيلاً. ومما فيه: إن أزمة المنافع في باريس أو فرنسا بأيدي اليهود. وقد رغب إلى بعض أفاضل المصريين بتعريبه لا ليستاء الاسرائيليون ولكن ليعتبر المسلمون.

أنى يعتبر المسلمون بأحوال البشر، وما في الأرض من الآيات والعبر، على أبصارهم غشاوة وفي آذانهم قر وقلوبهم في أكنة لا يصل إليها وعظ الواعظين، ولا تنبيه المنبهين. فالعبرة بعيدة عنهم ما دامت هذه الحوائل والموانع بينهم وبينها، وسننبه عليها في هذه المقالة، وإن كنا فصلنا القول فيها من قبل، فإن أكثر قومنا ينسون النافع ويحتاجون إلى التكرار.

لو كنا نسمع أخبار الأمم سماع تدبر، أو نعقل الحوادث بحكمة وتبصر، لما كنا نضرب المثل إلى اليوم بذل اليهود وضعفهم ونخشى أن نكون في يوم من الأيام مثلهم ونحن لا نعرف أنفسنا ولا نعرفهم. لا نعرف من فضلنا عليهم في الحياة الاجتماعية إلا أن بعض بلادنا لا تزال تحت رئاسة أمراء منا، وإنهم محرومون من السلطة. ويا ليتنا كنا نبصر الطريق التي تسير فيه أمراؤنا بتلك البقايا من البلاد لنعلم أهو طريق سلفنا العدول الصالحين الذين ورثوا الأرض لأنهم صالحون لعمارتها؟ أم هو طريق خلفهم المستبدين الجائرين الذين أضاعوا أكثر الممالك الإسلامية حتى لم يبق لنا منها إلا ذلك البعض الذي أعمانا الغرور به على ما نشاهد من استبداد الأجانب علينا فيه.

ثم يا ليتنا كنا نبصر الطريق الذي يسير اليهود فيه الآن لنعلم هل هو طريق سلفهم الذين كانوا مغرورين بالنسب الشريف، سلالة الأنبياء، واللقب الضخم، شعب الله - أبناء الله وأحباؤه، والاعتماد على بركة التوراة في الاستفتاح على الأمم والانتصار على المناصبين من غير عمل بما ترشد إليه من الاتحاد والاعتصام؟ أم هو طريق آخر اعتبروا فيه بسنن الله في خلقه فحافظوا على لغتهم وجامعتهم المالية مع تشتتهم في جميع أقطار

الأرض وتقرب بعضهم من بعض بالتعاقد والتعاون وأخذوا بجميع علوم العصر وفنونه النافعة وبرعوا في جمع المال الذي هو أساس القوة والعزة في هذا العصر؟ أليس هذا هو الطريق الذي استقام عليه الإسرائيليون في هذا العصر فنبتت شوكتهم المخضودة، وعادت عزتهم المفقودة، ولا ينقصهم أن يكونوا أعظم أمة على سطح الأرض إلا الملك وهم يسعون إليه من طريقه الطبيعي. وإن اليهودي الواحد اليوم أعز من ملك من ملوك الشرق فإن أية دولة أوروبية تهدد أعظم سلطان شرقي بالقول والفعل وتحمله بالقوة على أن يهين نفسه وقد حاولت دولة فرنسا أن تهين رجلاً يهودياً فقامت عليها القيامة وكادت تشب فيها الحروب الداخلية المجتاحة لولا أن تداركتها وذلك في مسألة دريفوس التي لم ينسها أحد ممن عرفها.

للإهود جمعيات ملية كثيرة، ولا نجاح للأمم إلا بالجمعيات، ولم نسمع بذكر الجمعية الصهيونية إلا من نحو خمس سنين وهي جمعية سياسية غرضها الاستيلاء على البلاد المقدسة لتكون مقر ملكهم وعرش سلطانهم وقد جاء ذكر هذه الجمعية في العدد السادس من منار السنة الأولى (ص ٤٤ و ٤٥) وفيه أن حركة هذه الجمعية ظهرت فجأة في النمسا وألمانيا وإنكلترا وأميركا. ولم تكن تظهر في أول الأمر طلب الملك وإنما كانت تتظاهر بحب نقل فقراء اليهود المهاجرين والمخرجين (المنفيين) إلى بلاد فلسطين، ليعمروها ويعيشوا في ظل السلطان آمين، وكأنها وثقت بقوتها الآن، فخرجت من مضيق الكتان، وقد بعثت منذ أشهر المستر إسرائيل زنفويل من لندره إلى الأستانة للمساومة في شراء القدس الشريف. ويقال، إنه لقي من الحضرة السلطانية التفاتاً وانعطافاً. وبعد رجوعه خطب في الجمعية فقال ما مثاله بالعربية:

«إن اليهود سيرجعون بكثرة إلى فلسطين مملكتهم القديمة التي لا يمكن أن تغرب شمسها من سماء أفكارهم وسيبلغ عددهم فيها سنة ٢٠٠٠ أي

آخر القرن العشرين المسيحي ألفي ألف (مليونين) نفس . وسيجعلون تلك الأراضي جنات عالية قطفها دانية وينشؤون فيها حدائق ذات بهجة ويصلون أطرافها وأرجاءها بالسكك الحديدية ويقيمون فيها حكومة منتظمة خاصة بها تكون نموذج الكمال، لجميع الأمم والأجيال، فيكون شعب إسرائيل مناراً على جبل صهيون تهدي به الأمم كلها إلى المدنية الفضلى في الأحوال الاجتماعية والسياسية والقضائية والأدبية والزراعية وسائر الشؤون المعاشية . ومن قوانينه تتعلم دول أخرى طرق الرشاد في تدبير الممالك كما تتعلم الأمم والشعوب من نظامه الاجتماعي حقيقة المدنية، ومن سيادته الروحية معنى الديانة الحقيقية» .

قال : «وبالجملة فلإني معتقد بنجاح الآمال في امتداد ملة اليهود بعد رجوعهم إلى فلسطين، ويمكن أن يقال إنه منذ زمن المسيح إلى هذا العهد لم يطلع العالم على شيء من حياة الإسرائيليين وأعمالهم . وقد كانوا مضطهدين من المسيحيين والوثنيين في كل مملكة فكان ذلك هو السبب في بقائهم بما قرّب بعضهم من بعض وألف بين قلوبهم ومنعهم من مخالطة غيرهم والتزوج ممن سواهم» .

ثم قال : وغاية ما يرمي إليه اليهود هو جمع النقود الكافية لاقتناء أرض فلسطين من السلطان الذي ستكون الحركة الكبرى تحت سيادته وقد بلغ ما جمع إلى الآن ألف ألف ريال أميركاني (مليون) وفي كل مدينة وكل قرية يتبوءها اليهود في مشارق الأرض ومغاربها فرع من الجمعية الصهيونية يجمع المال لهذا الغرض . وكل ما جمع فهو من الفقراء لأن الأغنياء مشغولون بمنافعهم الشخصية عن إعطاء هذا المشروع حقه من العناية والاهتمام . على أن تهاون الأغنياء لا يخدم نار الحمية المالية في نفوس الفقراء . يدل على ذلك جمع النقود بسرعة من كل صوب وانهمار صيها من كل أفق ويرجى أن نوفق في بضع سنين لجمع مقدار من النقود يكفي لبلوغ الغاية ونيل الأمنية» إلخ .

أظن أن الخطيب مبالغ في نسبة أغنياء اليهود إلى عدم العناية بمساعدة الجمعية الصهيونية ولعل الحكمة في ذلك تنشيط الفقراء والمتوسطين على البذل بقدر الإمكان ثم يكون الأغنياء هم الذين يتمون العمل إتماماً. وإلا فمن ينكر كرم البارون هرش والإنفاق من سعيه على شراء المستعمرات لقومه. ومتى بسط مثل هذا الغني السخي يده لمساعدة هذه الجمعية فقل قد قرب مجيء ذلك اليوم العظيم.

جمع فقراء اليهود ألف ألف ريال لهذا العمل ولديهم مزيد وهذا بعدما عمموا المعارف في طائفتهم فهل ينشط المسلمون في مصر وهم يقربون من عدد يهود الأرض لمساعدة الجمعية الخيرية بجمع ألف ألف قرش على إنشاء مدرسة كلية في القطر المصري؟

هذا، ومن تصريح الجمعية الصهيونية بمقاصدها السياسية على رؤوس الأشهاد الصحيفة العبرانية الفرنسية التي نشرها فرع الإسكندرية في غرة الشهر لدعوة اليهود إلى سماع الخطب والمناقشات ليلاً في قاعة الملهى العباسي وقد افتتحت بما معناه بالعربية الصحيحة :

«دعوة صهيونية لليهود الإسكندرية»

«أيها الإخوان: إن شعبنا ما برح يعلل النفس بأن تكون له أمة (دولة) ولم يتوان في السعي ولن يتوان مهما عارضته الصوارف، وناهضته الصوادف، وقد مضى على أولئك الذين دافعوا الدفاع الأخير عن بيتنا المقدس ألفاً سنة كانت الأيام فيها تساورنا وتحاول محونا من لوح الوجود فعجزت بأبنائها عن زلزال عقائد إسرائيل. وإن قواعد ديننا وأحكام شريعتنا تقضي علينا بأن نستمسك بعروة وطننا القديم ونعتقد أنه سيعود إلينا مجدداً التليد ومكانتنا السامية. تمزق شعب إسرائيل كل ممزق وتفرق شمله في الأرض ولكن بلاد صهيون كانت معهد الارتباط بين أفرادها فهي

مأمن السرب، وفرجة الكرب، وبسببها بقينا حافظين للعهود، محافظين على سنن الآباء والجدود.

«إن أعاصير الظلم والاضطهاد، وعواصف التعصب والعناد، التي تعصف باليهود لتمسكهم بدينهم قد اضطرتنا إلى العمل بما تكنه السرائر، وإظهار ما انطوت عليه الضمائر، والخروج من مضيق الاستعداد، إلى فضاء الإيجاد، فالمشروع الصهيوني يطالبنا الآن بالمبادرة إلى العمل، والمسارة إلى اتخاذ الحيل، ويحذرنا عاقبة الفتور والكسل، حسبنا أننا مخرجون (منفيون) من كل مكان، مبغضون من كل إنسان، يرمينا الشائء بذلك الوصف الشائن الذي نبذنا من أجله بلقب «اليهودي التائه» على حبننا للإصلاح وخدمتنا الجليلة لكل بلاد تبوأناها وإعلاء شأن المدينة في كل مملكة استوطناها. إذاً لا علاج لهذا الامتهان إلا الاتحاد والاعتصام لتأييد النهضة الملية التي تأسست في النمسا من أفاضل شعبنا لحفظ حقوقنا المقدسة. وقد أشرعنا الطريق للسير وما بقي علينا إلا أن نسلكه.

«إخواننا: عليكم نعتد في نجاح المشروع الصهيوني في أرض مصر فلنسلك مسالك إخواننا في الأقطار البعيدة فقد مهدوا لنا السبيل، فإذا عضدناهم فساعة الفوز آتية بعد زمن قليل، ويناجيننا الشعور بحاجة بعضنا إلى بعض بأن ستبادرون إلى إجابة دعوتنا وحضور ليلتنا لسماع الخطب في ملهى «منفراشو» الساعة ٩ من مساء السبت ١١ الشهر (الافرنكي) ونحن في انتظاركم شاكرين لكم سلفاً محبة صهيون».

قسم جمعية بارخورسبا. الاسكندرية.

ماذا عسانا نقول الآن في تنبيه قومنا إلى الاعتبار باتحاد اليهود وسعيهم لاسترجاع مجدهم، بل لأن تكون لهم مملكة تقتدي بها جميع الممالك فيكونوا أئمة للعالمين؟ نعيد بعض ما قلناه في العدد السادس من السنة الأولى عند ذكر خبر الجمعية ولم يكن أحد يذكر عنهم أنهم يطلبون الملك إلا ما أشرنا إليه في ذلك العدد من أنفسنا. ذكرنا يومئذ خبر هذه الحركة الصهيونية عن

مجلة المقتطف الغراء لفوائد بينها هنالك نذكر منها هنا الفائدة الثالثة وهي^(١):

٣ - إيقاظ قوم قد رزؤا بالخمول، وكاد يعمهم الذهول، واستلفاتهم (كذا) إلى الروابط المحكمة بين اليهود مع تفرقهم في الممالك وتشتتهم في الأقطار وكيف يمدون سواعدهم لمساعدة إخوانهم ومعاضدة قومهم من وراء البحار وشعوف الجبال. ولم يصدهم تنائي الديار، عن المواصلة في الأفكار، والتعاون بالدرهم والدينار، الذي يحقق به كل أمل، ويناط به كل عمل، فياً أيها القانونون بالخمول أقنعوا رؤوسكم (ارفعوها) وحدقوا أبصاركم وانظروا ماذا تفعل الشعوب والأمم. أصيخوا لما تتحدث به العوالم عنكم. أترضون أن يسجل في جرائد جميع الدول أن فقراء أضعف الشعوب الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقتدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل أربابها أجراء، واغنيائها فقراء،؟ تفكروا في هذه المسألة واجعلوها موضوع محاورتكم لتبينوا هل هي حقة أم باطلة، صادقة أم كاذبة، ثم إذا تبين لكم أنكم مقصرون في حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم وملتكم فانظروا وتأملوا وتفكروا وتذاكروا وتحاوروا وتناظروا في مثل هذا الأمر فهو أخلق بالنظر من اختلاق المعاييب، وانتحال المثالب، وإلصاقها بالبراء. وأحرى بالمحاوره من التدقيق والتجني على إخوانكم فإن في الخير شغلاً عن الشر وفي الجد مندوحة عن الباطل «وما يتذكر إلا من ينب» [سورة غافر رقم ٤٠ الآية ١٣].

هذا ما قلناه من نحو أربع سنين فماذا نقول اليوم؟ لا ينفع القول مهما بالغ المنذر في البيان، وأدلى بالحجة والبرهان، أو يزول ذلك الوقر من

(١) خبر واعتبار [هجرة اليهود إلى فلسطين]. المنارج ١ (١٨٩٨) ص ١٠٥ - ١٠٨ (الطبعة الثانية). أنظر أعلاه ص ٢٢ - ٢٥.

المسامع وتزاح تلك الغشاوة عن الأبصار وأعني بالوقر ما ملأ أسمع الناس وقلوبهم من إطرء الأمراء والحاكمين وإقناع النفوس بأن سعادة الأمة إنما تفيض من سماء عظمتهم فما عليها إلا الاتكال عليهم وتعظيمهم وبذل النفس والنفيس في التقرب إليهم، وأعني بالغشاوة تلك التمويهات التي يغشون بها الجمهور ليطمئن إلى الأقوال، ويغفل عن نتائج الأفعال، وليس من موضوعنا بيان نتائج سياسة كل أمير من أمراء المسلمين فمجموعها ما نحن فيه فإن لم يكونوا هم المبسلين للأمة والمضيعين لها بسلطتهم المطلقة فلا شك إنهم لم يحفظوها من الإبسال والهلكة. ولا نريد من مقالنا هذا أن تخرج الأمة عليهم فإن هذا يكون عوناً للأجانب على سرعة الإجهاز علينا ولكننا نريد أن لا تعتمد الأمة عليهم بل تسعى بكل ما في طاقتها لتحصيل العلوم النافعة والثروة الواسعة والتربية الرافعة. فمن كان من أمرائهم محسناً كانت الأمة عوناً له إذ هي قوام الملك وعماده، وعدته وعتاده، ومن كان مسيئاً جبروا نقص إساءته بأحسنهم حتى إذا صاروا أمة حقيقية لها رأي عام قوموه أو قوموا خلفه بتقييده بالشرع والشورى سالكين في ذلك الطرق الحكيمة التي لا تخشى مغبتها، ولا تحذر عاقبتها.

إصلاح الدولة العلية - رأي يستحق النظر



[تغيير عاصمة السلطنة]

[المنار ج ٤ (١٩٠٢) ص ٩٢١ - ٩٢٥]

ضمننا في هذه الأيام سامراً من سمار أهل الفضل ومحبي الإصلاح فطفق القوم يتحدثون في شؤون المسلمين في مراكش والجزائر وتونس ومصر والدولة العلية وإيران والهند وأفغان وبلاد العرب فكان من رأيهم أن

المسلمين في كل قطر من أقطار الأرض متشابهون في أخلاقهم وأطوارهم وقابليتهم للإصلاح. وإن كل ما أصابهم من البلاء والشقاء فهو من أمرائهم وحكامهم لأنهم يخضعون لرؤسائهم خضوعاً أعمى. وإنه متى صلحت حال حكومة إسلامية تصلح بذلك أحوال الأمة التي تحكمها لا محالة. وإن للبلاد العثمانية عامة ولبلاذ مصر خاصة مزية لا تشاركها فيها بلاد إسلامية أخرى وهي أن الإصلاح الحقيقي إذا وجد في أحدهما أو كليهما فإن أثره يتعدى إلى جميع الأمة الإسلامية وبه يكون مجد الإسلام الحقيقي وذلك لاتصالهما بالحرمين الشريفين وكونها قلب البلاد الإسلامية. وتفضل الحكومة العثمانية الحكومة المصرية بأن أكثر المسلمين في العالم يعتقدون أن رئيسها هو خليفة المسلمين وإمامهم الديني وبأنها سيدة مصر وحاكمة الحرمين الشريفين وبأنها مستقلة استقلالاً يمكنها أن تفعل ما تشاء من الإصلاح بدون سيطرة الأجانب. ونتيجة هذا كله أن الإصلاح الإسلامي إذا التمس من حكومة فإنه محصور في الدولة العلية لأن حكومة مراكز في أقصى الأطراف وحكومة الأفغان كذلك في طرف بعيد لا تأثير له إلا في موضعه وحكومة إيران لا تلتئم مع سائر المسلمين لاختلاف المذهب، وبقية البلاد الإسلامية تحت سيطرة الأجانب.

ثم أنشأوا يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، وهو الإصلاح وإمكانه وكيف يكون، قالوا: إنه ممكن واختلفوا في كونه مرجواً ومأمولاً أم لا؟ فقال بعضهم إن الشعب التركي لا يحسن الاستعمار ولذلك بقيت الشعوب التي استولى عليها حافظة لغاتها وتقاليدها وعاداتها حتى كانت كلما أنست من الدولة المتغلبة عليها غرة خرجت عليها وحاولت نبذ سلطتها وما زالت تناوشها وتثور عليها إلى أن تمكن أكثرها من الاستقلال بعد ضعفها، ولولا أن العنصر العربي أكثره يدين بالإسلام فيرتبط معها برابطة الدين لاستقل دونها كما استقل غيره وكبر جهلاً منها أن بقيت متعصبة لجنسيتها التركية فإن المسلمين لا رابطة لهم ولا جامعة ولا وحدة

إلا في دينهم . فلو أنها ساوت بين التركي والعربي كما ساوى بينهما الدين وعملت لإحياء بلادهم وعمارتها وجعلت لسانها الرسمي لسان القرآن لاستولت بهم على جميع المسلمين وكان لها منهم قوة لا تغالب .

كيف يرجى الإصلاح الإسلامي من الترك وأهل الحل والعقد منهم لا يرون لأنفسهم صلاحاً إلا بتقليد الإفرنج في كل شيء والنشر الجديد المتعلم أوروبي النزعة في كل شيء حتى في جعل الدين آلة من آلات السياسة؟ فإذا أتيح لهم أن يحفظوا استقلالهم وتكون لهم حكومة منتظمة وأمة مرتقية فإنما يكون ذلك بحصر سلطتهم في البلاد التركية المحضة بأن يجعلوها كأمة من أمم أوروبا في جميع شؤونها وأطوارها . وإذا هم سلكوا هذا المسلك وارتقوا هذا الارتقاء الجنسي على الطريقة الأوروبية فلا يمكن أن يكون لهم نفوذ وسلطان في سائر العالم الإسلامي . وهذا سبب من أسباب التنازع المستمر بين مولانا السلطان عبد الحميد وبين النشر التركي الجديد والحق فيه معه وإن كان لهم وجه من طرف آخر وهو طلب تقييد السلطة بالشورى والشرع والقانون . وإن لي صديقاً من غير هذه البلاد كان ولا يزال يقول أن الترك لا ينقضون ولا بد أن تكون لهم دولة منتظمة في بلاد الأناضول .

وقال آخر : إن دولة الترك بقوتها العسكرية وموقعها الجغرافي وسلطانها الدينية لها تأثير كبير في انعاش قوى المسلمين سواء أحسنت الاستعمار وحكمت الديار أم لا فسقوطها ، والعياذ بالله تعالى ، يوقع المسلمين في يأس وقنوط ولا يمكن أن يجتمع شملهم بعد ذلك إلا بدعوة إسلامية مؤيدة من الله تعالى كدعوة المهدي الذي ينتظرونه وأنى لهم بذلك .

ثم بعد اتفاق الآراء على أن إصلاح الدولة خير للمسلمين على كل حال خاض القوم في كيفية الإصلاح . فذكر بعضهم رأياً ربما ينكره الكثيرون بادي الرأي ويحسبون أنه من الخواطر الخيالية التي تسنح للأذهان في بعض الأحيان فيبادر اللسان إلى ذكرها إعجاباً بغرابتها . والصواب أنه

رأيي تمخضت به الحلوم لا الأحلام، وولدتها الأفكار الصحيحة لا الخيالات والأوهام، وإنني أعرف من دون أصحاب سامرنا الذين وافقوا قائله عليه رجلين من أعلم الناس بالعلم الاجتماعي جزماً بصحته جزماً، وقالوا بوجوبه حتماً:

ذلك الرأي هو تغيير عاصمة السلطنة واستحسن صاحب الرأي أن تكون العاصمة مدينة بورصة وقال إن تغيير البيئة «الوسط» يسهل على الدولة سبيل الخروج من كثير من العادات الضارة والتقاليد التي أرهقتها من أمرها عسراً. وقد اعترض بعض السَّامَر على هذا الرأي فأجابه غير واحد بما أقنعه.

أما القسطنطينية العظمى فيجب حينئذ أن تكون معسكر الدولة الأكبر، وينبوع قوتها الأغزر، حفظاً لموقعها الحربي وأمناً عليها من اختلاف العناصر وكثرة الأجانب. وأما ما في قصور السلاطين من الذخائر وآنية الذهب والفضة ونحو ذلك فيجب أن يباع منه كل ما لا يعد من الآثار التاريخية التي في حفظها فائدة وتستعين الدولة بذلك على الإصلاح الإداري والحربي فإن الشرف الحقيقي خير لها من الشرف الوهمي.

استحسن إخواننا السامرون أن نعرض هذا الرأي في المنار على الباحثين في الإصلاح فعرضناه لتصقله الأفكار وتستبطن فوائده القرائح حتى إذا ما عنت الفرصة المناسبة لانفاذه توجهت إليه النفوس وطالبت به الناس عن بينة وبصيرة. ولسنا نعي أن هذا الانتقال هو عين الإصلاح وإنما نريد أنه مقدمة من مقدماته ربما ترتقي إلى أن تكون شرطاً يلزم من عدمه عدم الإصلاح ولا يلزم من وجوده وجوده، وإنما يسهل سهولة كبرى تكاد تكون سبباً. وإننا نعرض على الأفكار ثلاث فوائد إجمالية ونكل التفصيل فيها إلى أفكار الباحثين.

الفائدة الأولى - البعد عن تأثير الأجانب وسيطرة السفراء وأفتئاتهم وهذه الفائدة لا يعرفها حق المعرفة إلا الواقف على أحوال الآستانة وأحوال

بلاد الأناضول بحيث يفرق بين طبيعة البيئتين . فمن كان يهيمه هذا الأمر فليبحث عنه حتى يصيب المطلوب منه . ولعل بعض الباحثين يقول بعد التأمل أن يجب أن تكون العاصمة أبعد عن البحر من بورصة وأشد إغلاً في البلاد الإسلامية .

الفائدة الثانية - الاقتصاد في المال فإن حال أهل الأستانة وتقاليده البيت السلطاني وتقاليده الحكومة تقتضي نفقات عظيمة تذهب بالجزء العظيم من بيت المال ولا سبيل إلى تخفيف ذلك إلا بالانتقال إلى عاصمة أخرى .

الفائدة الثالثة - ترك التقاليد والعادات والرسوم الضارة والاقتصاد في الأعمال . فإن كثيراً من هذه التقاليد حكمت به طبيعة البيئة ومجارة الغربيين الذين يمازجون الأتراك أشد الممازجة في هذه المدينة الأوروبية ولا يمكن التفصي منها إلا بمغادرتها إلى بيئة لم يستحوذ عليها التنوع في الترف والتغالي في تقاليد المدينة الأوروبية . وحسبنا الآن هذا التنبيه والله الموفق .





[المنار ج ٥ (١٩٠٢) ص ٢٩٢ - ٢٩٨]

لا تزال دولة فرنسا في حيرة وعمّة لا تهتدي معها إلى طريقة تطمئن إليها في سياسة مستعمراتها الإسلامية، فكتّابها من الفلاسفة والسياسيين يواصلون البحث في الإسلام على مر الأيام والأعوام لأجل إشراع هذه الطريقة، وما هم بمشرعيها، ولما تطمئن نفوسهم إلى شيء كاطمئنان نفس إنكلترا في سياسة مستعمراتها الإسلامية وغير الإسلامية. لقد ظهرت نتيجة حسن سياسة إنكلترا في ارتباكها بحرب الترانسفال فلقد كانت عاجزة عن تأديب مملكة واحدة من ممالكها الاستعمارية الواسعة إذا هي تألبت عليها وشارت تريد الخروج من دائرة سلطتها. والله يعلم ما يكون من أمر مستعمرات فرنسا معها إذا وقعت في مثل ذلك الارتباك وأنتهت إلى مثل ذلك الخطر الذي كانت فيه إنكلترا أيام كانت الحرب في شبابها.

سلكت فرنسا مع المسلمين مسلك العنف والضغط حتى حالت بين المسلمين الذين تحت سيادتها أو حمايتها وبين العلم والتعليم، وزعمت أن فرقا بينها وبين إنكلترا فإنها تحكم شعوباً لا تزال الشهامة الإسلامية والشجاعة العربية متمكنة في نفوسها وأن إنكلترا تسوس قوماً فسد بأسهم وهجرتهم الشجاعة والشهامة بما توالى عليهم من ظلم حكامهم كالهنديين والمصريين الذين لا تحشى بادرتهن، ولا تحذر غائلتهن. وجهلت أقرب حوادث التاريخ في مصر وهو خروج المصريين على حكامهم الذين يدينون بدينهم وينطقون بلغتهم عندما أمكنتهم الغرة من الخروج عليهم حتى كان العلماء، وهم أبعد الناس عن السياسة، من خطباء الثورة العربية ودعاتها

بعدما كانوا يقولون بوجوب طاعة هؤلاء الحاكمين والخضوع لهم . ولا أنسى كلمة سمعتها من كبير العلماء في بلد من سوريا قالها في محفل كبير ذكرت فيه الثورة العرابية فقال ذلك الشيخ رحمه الله «كلنا عرابيون» ودعا لعرابي وحزبه بالنصر . وإذا وجد في العلماء رجل واحد بصير بالسياسة كان يحذر العرابيين وينذرهم سوء عاقبة الثورة كالشيخ محمد عبده فذلك لا ينافي أن الجماهير كانوا راضين عنها وداعين لها .

أتجهل فرنسا أن سياسة الظلم والقسوة التي نفخت روح الثورة في المصريين، الجبناء في نظرها، على حكامهم المسلمين تخشى عاقبتها من الجزائريين والتونسيين وهم من أهل النجدة والبأس والشجاعة والشهامة؟ أتجهل السر في سكون هؤلاء الذين عهدهم بالثورة غير بعيد عند ظهور انكسار إنكلترا في الحرب المرة بعد المرة؟ السر ظاهر غير مكتوم وهو أنهم في رخاء من العيش يرفلون في ظلال الحرية التامة ونعيمها . نعم، إنهم يتمنون الاستقلال التام لأنه هو كمال الحياة الاجتماعية ومن نجا من الاستعباد والاستذلال، يشتهي كمال الاستقلال، ولكن الناس لا ينبعثون إلى الثورة إلا بالظلم والتضييق فإن الانفجار نتيجة الضغط .

إذا كانت إنكلترا لا تساعد استعداد الشعوب على الترقى كما هو شأنها في زنجبار فإنها قلما تعارضه لأنها لا تحارب الطبيعة . فقد كان مسلمو الهند في جهل وخمول فتركهم وشأنهم فظهر فيهم مرشدون اشتغلوا بتربيتهم وتعليمهم فصادفوا من الحكومة الإنكليزية ارتياحاً بل تشيخاً ومساعدة وأعطتهم الحرية التامة في انشاء المدارس والجرائد وعقد الجمعيات . والبريد عندهم حر فلم نسمع أن جريدة منعت عن الهند وأن مكتوباً ضاع أو رسالة اختزلت أو كتاباً أرسل فلم يصل . فهل تعامل فرنسا أهل الجزائر بمثل هذه المعاملة أو بما يقرب منها؟

لقد كان لفرنسا في سيرة الإنكليز في الاستعمار ما يغنيها عن كثرة البحث والتأليف والتصنيف في حال المسلمين وكيف ينبغي أن يعاملوا،

ويغنيها عن تأليف اللجنة التي ألفتها من عهد قريب لتمحيص البحث في هذه المسألة .

يحكم كتاب فرنسا وساستهم على المسلمين من غير أن يستشيروهم أو يعرفوا ما يكتبه الأحرار العارفون بالدين وأهله عنهم ، ولكن بعض حكامهم يستكتبون بعض المصانعين لهم ما أرادوا ويغشون أنفسهم وقومهم بما يوهمونهم أن هذا هو رأي علماء المسلمين وأهل الرأي فيهم . أكثر ما يكتبه الفرنسيون عن الإسلام والمسلمين يُحفظ القلوب ويشير الأحقاد ويخرج الأضغان وكل هذا يُحتمل ما دامت القوة فإذا عرض عليها ما يضعفها فهناك يحددون شر ما يزرعون . وليس من العقل الاغترار بدوام القوة .

الفرنسيون أبعد الناس عن الدين وعن التعصب له ولكنهم إذا كتبوا عن الإسلام فإنما ينفثون السموم ويُظلون المسلمون بظلٍّ من يَحْمُوم ؛ إلا ما كان من فيلسوف حكيم يكتب للعلم لا للسياسة . حكومة الجمهورية ليست مسيحية فتتعصب على الإسلام لأجل النصرانية ، وإنها لتقاوم النصرانية في بلادها كما تقاوم الإسلام في مستعمراتها ، ولكنها تعتقد أن المسلمين قوم حرب وأن دينهم يطالبهم بأن يكونوا سائدين غير مسودين ، وأنهم يتربصون بمن يسودهم الدوائر حتى إذا ما سنحت لهم الفرصة وثبوا ، فسلبوا ونهبوا ؛ وإن السياسة الواقية أن يوضعوا في الأوهاق ؛ وتغل الأيدي إلى الأعناق ؛ وأن تحجب شمس العلم عن الأنظار ؛ وتحول بين الأسماع وما في العالم الاسلامي من الأخبار ؛ وأن تراقب الحكومة السائحين ، إذا كانوا مسلمين أو عثمانيين ؛ - ومن الاعتقاد ما هو ظن وإن بعض الظن إثم . ولا شيء يخرج الصدور ؛ ويُمضُّ النفوس مثل هذه المعاملة السوءى لأنها برهان على أن هذه الحكومة تبغض المسلمين والجاهل لا يعرف سبباً للعداوة والبغضاء إلا الأمر العام وهو الدين . لذلك يعتقد الأكثرون في المستعمرات الفرنسية أن فرنسا تبغض المسلمين لأنهم مسلمون يعبدون الله

من دون المسيح ويؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ونحن العقلاء نقول إن الأمر ليس كذلك ومثلنا من يقدر على إقناع المسلمين لأننا من خدّمة الدين والعلم فيهم ، ولكن هذا الإقناع يتوقف على وصول صوتنا إلى تلك المسامع وفرنسا لا ترضى بذلك بل ولا ترضى بأن يتعلم المسلمون إلا اللغة الفرنسية التي تزيد المسلمين بغضاً في فرنسا، كما صرح بذلك بعض كتابها، وذلك إنهم يرون في الكتب والجرائد الفرنسية الطعن الموجه مصوباً دائماً إلى صدور المسلمين . وفرنسا أقدر منا على إقناع المسلمين بحسن نيتها وسلامة عاقبتها إذا برهنت عليه بالعمل ولكن يتعذر عليها إقناع مسلم واحد بالقول وإن أوتيت من سحر البيان ؛ وخلاصة اللسان ، ما لم يؤثّر إنسان .

فرنسا في شك مريب من أمر مسلمي مستعمراتها لا تدري أيّمكن أن تعيش معهم في وئام ، وهدون وسلام ، ام ذلك من الأماني والأوهام ، التي لا تدرك ولا ترام ، ولا شك عندنا نحن في الإمكان ، والمرتاب لا يقنعه البرهان ، ولكن ربما تقنعه حوادث الزمان ، والمريب يكون دائماً في حذر ، والظالم لا يمكن أن يأمن الغيّر ، ولو أخلصت فرنسا النية ، لعرفت القضية ، وبلغت الأمنية .

لو أطلقت فرنسا لأهل الجزائر حرية العلم والدين وحافظت فيهم على أحكام شريعتهم وآدابها وساعدتهم على ترقّي بلادهم وعمرانها وأقامت فيهم العدل وأباحّت لكل أحد أن يمازجهم ويرى ما هم فيه حينئذ من غبطة ونعيم لكانت هذه المعاملة الحسنى أقوى جاذب يجذب جيرانهم المراكشيين إلى الدخول في حكم الولاية الجزائرية قبيلاً بعد قبيل ، لا سيما إذا جعلت للولاية حاكماً مسلماً يصدر الأحكام الشرعية وينفذها .

قد نعلم أن من الفرنسيين من يسخر من هذا الكلام إذا سمعه متوهماً أننا نقوله خداعاً لهم لا عن اعتقاد منا بصحته . ولا يعلم الساخر المفروض

أننا أقرب إلى الشك في كون إحسانهم معاملة المسلمين خيراً للمسلمين منا إلى الشك فيما قلناه، فإذا الظلم والقسوة في المعاملة هي التي تربى الأمم وترجع إليها استعدادها المفقود، أو تبعث فيها استعداداً لم يكن بالموجود، ولقد كانت الحرب الروسية العثمانية أكبر منبه للمسلمين إلى الحياة الاجتماعية في مشارق الأرض ومغاربها، وإن كانت أكبر خسارة على المسلمين في الظاهر. وإن من سياسة المسلمين وعقلائهم من يعتقد أن نجاح الإسلام الأكبر يتوقف على سقوط كل هذه الحكومات الإسلامية التي بقيت لها رسوم ماثلة، فإن أعظم أدواء المسلمين الاجتماعية اعتيادهم على حكوماتهم واستبداد حكامهم بهم فلن تعود إليهم قوتهم الحقيقية واستقلالهم الذاتي إلا بسقوط هذه الرسوم ليرجعوا إلى قوتهم الذاتية الاستقلالية.

بِمَ يفسر مسلمو الجزائر وتونس وغيرهم عداوة فرنسا للسيد المهدي السنوسي وهو من رجال الدين وشيوخ الطريق؟ ولماذا يكتب الفرنسيون في جرائدهم وكتبهم أنه لا بد من استئصال قوته، واصطلام دعوته؛ وإخماد جذوته؟ كما بينا ذلك في العدد ٢٣ من مفار السنة الأولى. ولماذا لا يحفل الانكليز بذلك ولا يبحثون عن زواياه واتباعه في السودان ومصر؟ ولماذا لم يكتب أحد من الانكليز ناصحاً قومه ومبيناً لهم الحيل والبدسائس التي تتفتت بها القوة السنوسية؟ إن سياسة فرنسا في أفريقيا خرقاء وربما تكشف هذه المناوشات الأخيرة بينها وبين المهدي السنوسي خرقها إلا إذا أراد الله لها زيادة الاستدراج والإملاء إلى أجل مسمى، وإلى الله المصير.





الوفاق الاسلامي الانكليزي

[استقلال الفكر واستقلال الارادة]

[المنار ج ٥ (١٩٠٢) ص ٥٤٥ - ٥٥٠]

لقد أذن الله المسلمين أن يهبوا من رقادهم، ويسترجعوا مجد أجدادهم، وقد سبق لنا أن قلنا في مقالة نشرت في الجزء الرابع من المجلد الثالث^(١) أن مجد الإسلام قام على أساسين وأنه هدم بهدمها وإنما يعود بإقامتهما وهما استقلال الفكر واستقلال الإرادة. أما الأول فيإقامته بالاجتهاد في علوم الدين والدنيا، وأما الثاني فيإقامته بالقوة الخ ما هناك. وقد لاحظ من قرأ مقالة (مسترد. ج. كوربت) الإنكليزي الذي عربتها جريدة المؤيد ونشرتها في ستة أعداد وذكرنا أقطاب مسائلها في نحو صفحتين من الجزء الماضي، إن هذا الكاتب السياسي يبني دعوة قومه الى الاتفاق مع المسلمين على أمرين: أحدهما - إن دين الإسلام دين مدنية يمكن لمتبعيه أن يتفقوا مع أمة راقية كالأمة الإنكليزية ويسيروا معها في كل طريق من طرق العمران فتتفع بهم ويتففعوا بها. وهو يشترط في ارتقائهم، ما يشترطه أشهر فضلائهم، وهو إطلاق العقل من القيود والأغلال، وتمتعه بنعمة الاستقلال، والتربية الدينية، التي تعيد اليهم صفات الرجولية، وثانيهما - إن للمسلمين قوتين واحدة في آسيا وهي الأمة الأفغانية، وأخرى في أفريقيا وهي الفرقة السنوسية. وقال الكاتب إن الواجب على الإنكليز أن يستعينوا بمسألة القوتين، على تمكين سلطتهم في القارتين، وذلك بجعل مصالحهم متفقة مع مصالح الأمة الاسلامية.

(١) المنار ٣ (١٩٠١) انظره أعلاه ص ١٥٩.

ومساعدتها على العروج في معارج المدنية، فإنها أمة واحدة لا جنسية فيها ولا وطنية. (فليعتبر الأحداث الذين يفرقون بين المصري والشامي، والمغربي والحجازي).

هل نحن في حاجة الى مساعدة دولة قوية حرة كالدولة الانكليزية؟ وهل الدولة الإنكليزية في حاجة إلينا؟ نعم، ولكن فرقاً بين الحاجتين. نحن نحتاج إلى مثل الإنكليز الذين لهم السلطان الرسمي وغير الرسمي على نحو نصفنا لأجل النهوض والقيام، وهم يحتاجون إلينا لأجل الثبات والدوام، أو نحن نحتاج إليهم في الحال، وهم يحتاجون إلينا لأجل الاستقبال. وهل يصدق الإنكليز في مساعدتنا على التقدم والرقى إذا نحن صدقناهم؟ نعم، إذا قالوا صدقوا ولن يقولوا حتى يعتقدوا بأن المصلحة في ذلك وحتى يثقوا بنا. وقد رأينا هذا الكاتب منهم يحاول إقناعنا بالمصلحة وبكوننا أهلاً للثقة وقد سبقه إلى ذلك غيره من كتابهم وعلمائهم. فهل وجد فينا من حاول إقناعنا بذلك مع أننا أحوج الى الوفاق منهم؟ إذ من البديهي أن المحكوم الجاهل الضعيف أحوج الى مرضاة حاكمه العالم القوي. ولكن الجاهل يمنعه الجهل أن يعلم المصلحة وإذا علمها يمنعه الضعف أن يدعو قومه إليها لأن الجاهلين إنما يتخاطبون بما يهونون لا بما ينتفعون. أرأيت كيف كان السيد احمد خان ظنناً في قومه متّهماً في بلاده عندما قام يدعو الى الوفاق بين مسلمي الهند وحكامهم من الانكليز؟ لا جرم ان هذا هو شأن الجهل ولكن المسلمين أنشأوا يتسلّلون منه لئلا يجرم ان هذا هو شأن الجهل ولكن المسلمين أنشأوا يتسلّلون منه لئلا يجرم ولذلك لا يلاقي من يجهر في مصر بمثل دعوة المرحوم السيد احمد خان عشر معشار ما لقي من الظنة وما عانى من مرارة التهمة، وان كانت مصر ليست من الأمبراطورية البريطانية كالهند.

المسلمون في مصر عرفوا ما كان عليه إخوانهم مسلمو الهند أيام الجفاء بينهم وبين الإنكليز وعرفوا ثمرة دعوة احمد خان وثمره مدرسته في حفظ حقوقهم ومصالحهم بالوفاق مع الانكليز واسترجاع ما كان سلب منها

بالتدريج . وظهر لهم خذلان أحداث السياسة الذين جعلوا النعاق بالتنفير من الإنكليز منبعاً للمال ومنبراً للجهاد وعلموا أنهم غاشون خادعون ضالون مضلون فتغيرت الأحوال وصار شيخ الجامع الأزهر يزور عميد الإنكليز في مصر وشاعر الخديو يمدح ملك الإنكليز وينشر ذلك في الجرائد التي تنتمي الى الإنكليز وليس هذا ولا ذاك ممن تضطربهم وظيفتهم أو تقضي سياستهم بأن يفعلوا ما فعلوا .

إننا نعلم مع هذا أن أكثر المسلمين يرتابون في تحقيق هذا الوفاق ولو عرفوا مصلحتهم ومصلحة القوم بالبرهان لما كان لهم أن يرتابوا . ان من مصلحتنا التي لا نشك فيها أن تكون تربيتنا إسلامية دينية ونرى الإنكليز الداعين الى الوفاق يرون رأينا في هذا . إن من مصلحتنا أن نكون رجالاً مستقلين في علومنا وأعمالنا ونرى الإنكليز يدعوننا الى ذلك ويقولون إنه يساعد على الوفاق بيننا وبينهم . إن من مصلحتنا إحياء اللغة العربية لغة الكتاب والسنة واللغة الجامعة للأمة ونرى الإنكليز يوافقونا على ذلك . فهل نرتاب في أن شيئاً من هذه الأمور هو من أهم مصالحنا؟ كلا .

يقول قائل : إن كاتب المقالة وطائفة من الكتاب والسياسيين الإنكليز قالوا بهذا القول ولكن الدولة لم تقل به ولم ينتشر بعد فيصير رأياً للأمة البريطانية فنقول إن الحكومة ستضطر إلى مجارة الأمة . فهل نخدع لقول بعض الكاتبين ، ونثق بمن لا يتفق معنا في لغة ولا جنس ولا دين؟ ونقول في الجواب : قد قال مثل ما قال هؤلاء حاكم الهند العام الذي يحكم مئتي مليون من النفوس منهم نحو تسعين مليوناً من المسلمين أو زهاء خمسة أضعاف ما تحكمه الدولة العلية من المسلمين . وهب أنه لم يقل بذلك أحد من الحاكمين البريطانيين فأنا سائلك : أي خدمة تقدمها أنت وقومك للإنكليز جزاءً على اعتقادك بإخلاصهم في حب الوفاق معكم فتخاف ان تضيع هذه الخدمة مع من لا يستحقها؟ لو أن هذه الدولة محتاجة إلينا اليوم في عمل اختياري وهي تخطب ودادنا لنخدمها به لكان لنا أن نقول :

إنه يجب علينا أن نأخذ بالاحتياط ولا نخسر عملنا حتى نثق بصدق مجاملنا.

يقولون لنا بلسان حالهم أو بلسان مقالهم: تربوا التربية الدينية، واتصفوا بصفات الاستقلال والرجولية، وتعلموا العلوم والفنون، وحصلوا المال والثروة ونحن نساعدكم على ذلك. فهل من الاحتياط أن لا نشتغل بشيء من ذلك لأن هذا ثقة بالقوم ولا ينبغي لنا أن نثق بهم إلا بعد قيام البرهان على صدقهم؟ كيف يكون هذا وإن ما يصدر عنهم هو عين البرهان على صدقهم؟

يقول القائل: إنهم يخادعون بمثل هذه الأقوال أمير الأفغان والسنوسي ليكون الأول معهم على روسيا وليأمنوا من إغارة الثاني على السودان. ونقول إن هؤلاء الكتّاب يخاطبون دولتهم وإن حاكم الهند كان يخاطب رعيته المسلمين ومثله حاكم سيراليون (راجع صفحة ٧٠٧ من المجلد الرابع) فهل اتفق هذا وهو في غربي أفريقيا مع ذلك في شرقي آسيا على مخادعة السنوسي الذي لا يسمع خطبهما ولا يقرأ الجرائد فيعرف خبرهما؟ نعم، إن أمير الأفغان يعرف أحوال الهند وما يقول حاكمها. ولكن حاكم الهند العام لا يقول للمسلمين: «انني لو كنت مسلماً لما أضعت من وقتي خمس دقائق من غير فكر في ترقية شأن الاسلام» ولا ينصح للمسلمين بأن يقيموا التربية الدينية ويعددهم بمساعدة الحكومة لهم لمجرد المخادعة. فإنه إنما كان يخاطب قوماً عاملين، يخاطب رجال التربية الاسلامية في احتفالهم العام بمدرسة عليكره. فقلوه هذا أكبر منشط لهم بالفعل. ثم ما كان لأمر الأفغان أن ينخدع بالأقوال، التي لا تنطبق على الأعمال.

يقول هذا القائل: إن هؤلاء الحكام يقولون هذا ليطمئن المسلمون إلى حكومتهم وهم يعلمون أن المسلمين لا يعملون. ونقول: إذا كنت أيها المسلم أسوأ ظناً بقومك منك بالإنكليز فلا تجعل الذنب على خير الفريقين ولكن اجعله على شرهما وهو من يقال له إعمل لنفسك فلا يعمل ثم يعتذر

بأن من يقول له إعمل غير مخلص في قوله. واعلم أن عقلاء المسلمين لا يرضون لأنفسهم ما وصفتهم به وأن الإنكليز لم يقولوا ولن يقولوا للمسلمين اقعدوا ونحن نسعى لكم. وإنهم إن قالوا لرعاياهم: إعملوا ونحن لا نعارضكم فلهم الشكر. فإن زادوا وقالوا ونحن نساعدكم فلهم الفضل العظيم، فإن سائر المستعمرين من الإفرنج يمنعون رعاياهم ومن في حمايتهم من غير أهل دينهم من التعلم، وكل وسائل التقدم.

هذا الوفاق يراه المصريون رأياً جديداً ويراه سائر العثمانيين قديماً فهو رأي أكثر وزراء الدولة وساستها ولكنه كان وفاقاً انكليزياً تركيا. وكان عليه العمل بين الدولتين ولا ننسى مساعدة بريطانيا العظمى للدولة العلية في الحروب الروسية حرب القريم وما بعدها. ثم تراخت عرى الصلة بينهما بعد احتلال انكلترا مصر وكادت سياسة المستر غلادستون التحمسية تقطع تلك العرى تقطيعاً بما ظهر من تعصبه على الدولة وعلى الإسلام في ابان الفتنة الأرمنية. وكان من أثر ذلك توثيق عرى الصلة بين السلطان وعاهل الألمان وضعف نفوذ الانكليز وكسدت تجارتهم في البلاد العثمانية حتى قال البرنس بسمرك ما معناه: ان المعلم غلادستون قد هدم بشقشقته الحمقى ما بنته دولته في نحو قرن. ولا يزال أكثر نبهاء العثمانيين يفضلون الإنكليز على كل دولة أوروبية وهذا كله مبني على قاعدة مسلمة عندهم وهي إنه لا بد للدولة من الاعتماد على دولة أوروبية في سياستها الخارجية.

إنكلترا قصرت مع الدولة العلية وإن مجاملتها لها تزيد جميع مسلمي مستعمراتها ثقة بها فهي تنفعها في الوفاق الاسلامي الانكليزي أكثر مما تنفع المسلمين الذين تحكمهم فيما نظن. فإن تعلق آمال أولئك المسلمين بالدولة العلية يشبط همهم عن السعي في الاستقلال الذاتي الذي هو روح الحياة الاجتماعية كما بيناه من قبل ويزيد عليهم ضغط حكامهم لأنهم يرونهم ميالين إلى حكومة أخرى. ومن شأن الضغط أن يفيد ولكنه لا يفيد ههنا لأن المضغوط عليه لا يحاول الخلاص من الضغط لاعتماده على غيره

وقد ثبت هذا بالتجربة المؤيدة للنظر. كان الوفاق إنكليزياً تركياً فأصبحنا نتحدث بوفاق إسلامي إنكليزي وهو وفاق أشرف وأعلى وأعم وأنفع. كانت سياسة انكلترا في ذلك الوفاق مبنية على قاعدة: يجب أن لا تسقط تركيا ولا تقوم يجب أن لا تموت ولا تحيا. وأما قاعدة هذا الوفاق فهي: يجب أن يعود للمسلمين استقلالهم الذاتي وأن ينفخ فيهم روح الدين الإسلامي بفضائله وآدابه ليعثهم الى المدنية الحقيقية ولكن يشترط أن يكونوا هم العاملين والإنكليز من المساعدين. فإذا صح هذا فهو أكبر أمنية يتمناها كل عاقل من المسلمين. ويرضى هؤلاء العقلاء من إنكلترا بأن لا تكون على الدولة العلية إذا لم تكن معها وبأن لا تدخل جزيرة العرب؟ ولا تمكن دولة غير مسلمة من دخولها كيفما كان حال الدولة العلية؟ لأن الجزيرة عند المسلمين معهد ديني كالمسجد ومن أركان الوفاق إقامة دين الإسلام لا هدم مناره وتعطيل شعاره.

الواثقون بدينهم من هؤلاء العقلاء يعتقدون بأن الأمة الإنكليزية الحرة إذا عملت بنصيحة مستر كربت وأضرابه (ومنهم اسحق طيلر الذي نشرنا كثيراً من مقالاته في أجزاء من السنة الماضية والسنة الحاضرة) ودرست الإسلام درساً صحيحاً فإنها تدخل فيه أفواجاً. وقد سبق لنا القول بأن أمة أوروبية كهذه اذا دخلت في الإسلام فإنها تملك بالمسلمين الشرق كله. ولا يبعد أن تملك بهم الغرب أيضاً فان أكبر قواد الحرب في أوروبا قالوا انه يسهل عليهم أن يفتحوا أوروبا كله بمئة ألف من جيوش المسلمين.

أنى لنا بصوت ندي من ذي برهان قوي، يبلغ قومنا مبلغ انتفاعهم من هذا الوفاق ويعلمهم كيف يقنعون الإنكليز به ويمثلون له مصلحتهم فيه مشدودة مع مصلحتنا في قرن. إن هذا من وظيفة الجرائد ووظيفة أهل الرأي في الأمة. وقد علمنا من ذاكرناهم من عقلاء المصريين الارتياح لهذا الوفاق إذا وثقوا من رضاء الدولة الإنكليزية به ورأينا الجريدة السياسية الكبرى للمسلمين في مصر المؤيد موافقة عليه ولا يوجد في مصر جريدة

سياسية غيرها يعتد المسلمون برأيها في مصلحة المسلمين . إلا أن هؤلاء يرتابون في إنكليز مصر إن لم يرتابوا في إنكليز الهند وحجتهم في الارتباب ما ذكره المؤيد ويذكره جميع الناس من تصرف المستر دنلوب في المعارف تصرف من يريد إضعاف اللغة العربية والدين الاسلامي في مدارس الحكومة . وانتقاد عمل المستر دنلوب مجمع عليه في مصر لا يختلف فيه مع المسلمين القبط ولا السوريون فهو منتقد في غير ما ذكرنا من أمر اللغة والدين . ولا ينسب عمله إلا إلى سياسة دولته ، وإن كان يجوز انه خطأ في إدارته .

والذي يكشف عن وجه الحق في هذه المسألة وأشباهاها هو أن يرجع بعض الوجهاء العقلاء الى من بيده أزمة سياسة هذه البلاد وهو اللورد كرومر ويبينوا له الضرر فيما يعتقدونه ضاراً للبلاد أو للمسلمين في لغتهم أو دينهم فإن أشكاهم وأزال الضرر فعليهم أن يعتقدوا أن الإنكليز لا يريدون بالمسلمين سوءاً وإنما يحبون أن ينتفعوا من بلادهم وينفعوهم جزاءً على ذلك . وإن تبين له الضرر وأصر على إبقائه فلهم أن يسيئوا الظن بدولته وأن يعتقدوا أن هذه الأقوال التي تقال في الخطب والكتب والجرائد تغريب وتمويه . أما نحن فنظن أنه لا يقتنع منهم بمضرة إلا ويزيلها قياساً على من كلمه في شأن إبطال النيابة من المحاكم وبين له أن ذلك ضارٌ بالبلاد فنكت فتل الاتفاق على ذلك بعد توكيده . وعلى من كلمه في مسألة بيع الدائرة السنية وبين له مضرة الفلاحين فيه فنقض الاتفاق بعد إبرامه . ومثل ذلك كثير .

ونختم البحث بقول ينبغي أن نكرره دائماً وهو أن من لا يعمل لنفسه فلا يصح أن يطالب غيره بأن يعمل له . ومن كان مقصراً في حفظ حقوقه فلا يلوم من غيره إذا قصر فيه . ومن عرف نفسه وعرف مكانه ممن يعيش معهم لا يُظلم ولا يهضم . ومن أعطي الحرية في العلم والعمل ، فليس له عذر في التقصير والكسل ومن عرف قوة الرابطة الإسلامية لا يقطعها بمديّة

الوطنية. فلولا أن المسلمين كالجسد الواحد، كما ورد في الحديث، لما طلب الإنكليز الوفاق معهم، ومن ظلم نفسه كان جديراً بأن يظلمه غيره.
إذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه
والسلام على من تدبر القول فحكم عليه لا على القاتل، وكان همه منه التمييز بين الضار والنافع والحق والباطل.



باب ردّ الشبهات عن الاسلام

٣٣

السلطان الدينية والمدنية

[المنار ج ٥ (١٩٠٣) ص ٨٤١ - ٨٥٩]

نحن المسلمين نعتقد أن دين الله تعالى واحد في جوهره وأن البيان والهدى فيه، إنما اختلف باختلاف الأزمنة، وأن الناس كانوا في كل زمان يأخذون من هداية الدين بقدر استعدادهم. وأن حالة الاجتماع في الأمم السابقة كانت قاضية بإضاعة كتب الدين كلها أو بعضها إذا طال الأمد على من جاء بها وأن أقرب الملل ظهوراً من الإسلام لم تسلم من هذه الإضاعة. وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حفظ كتابه كله وظهر في وقت ارتقت فيه حالة الاجتماع حتى يمكننا أن نحكم بأنه لم تتلاش ثمرة من ثمار العقول بعد الإسلام ولن تتلاشى فهو مبدأ تاريخ جديد في البشر.

قلنا إن أقرب الملل زمنياً من الإسلام لم تسلم من الضياع وظاهر أننا نعني اليهودية والنصرانية فكل من الفريقين قد فقد السند المتصل لكتبه المقدسة فهو غير موجود قولاً ولا كتابة. وهذا هو المراد بقوله تعالى فيهم «أوتوا نصيباً من الكتاب» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ٢٣]. وقوله عز وجل في

كل منهما «فنسوا حظاً مما ذكروا به» [سورة المائدة رقم ٥ الآية ١٤]. والحظ بمعنى النصيب أي أنهم حفظوا بعض ما أوتوه ونسوا بعضه. ومتى ذهب بعض الدين صار الباقي غير موثوق به وإن سلم من التحريف فيه والإضافة إليه فكيف إذا لم يسلم؟ وقد أنزل الله تعالى القرآن «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه» والمراد بالكتاب الجنس والمهيمن المراقب الذي عنده نبأ ما يراقبه فما صدقه القرآن من تلك الكتب فهو من النصيب الذي أوتوه، وما أخبر به وليس موجوداً فهو من الحظ الذي نسوه، وما كذبه فهو مما زادوه وأضافوه فهو الحكم العدل، وإنه لقول فصل وما هو بالهزل.

وكان الواجب أن يحكموه فيما شجر، وينتهوا عما نهى ويأتمروا بما أمر، وكذلك فعل الموفقون، وصد عنه الآخرون، والسبب في الصدود هو السلطة الدينية التي جعل ذووها الدين لمصلحتهم تقليدياً محضاً عقود عقائده بأيدي الرؤساء مثل الأخبار والأساقفة يقلدونها الناس ويحمونهم سواها وينشؤون الأحداث، من الذكران والإناث، على اعتقاد وجوب التسليم لهم، والرجوع في كل أمر الدين إليهم، ولا يزال أثر هذه التنشئة ظاهراً فيمن يترى في مدارس القسيسين فتراه يناظر في المسألة فاذا قامت عليه حجتك قال إن هذا الذي تقول، ظاهر في نفسه ومعقول، ولكنه من أمر الدين والقسيس يقول بخلافه ولا قول في الدين الا ما يقول القسيس ولا يشترط أن يكون قوله معقولاً ولا مفهوماً!

فإذا قال النصراني إن السلطة الدينية مثار التعصب الذميمة، ومبعث العداوة والبغضاء بين الجيران والأقربين، والحجاب دون المساواة بين أهل الوطن الواحد في الحقوق، والقيد الذي تقيد به الإرادة والعزيمة، والغل الذي يغلل به العقل والفكر، فالمسلم يصدقه ولا ينازعه يصدقه حامداً لله تعالى أن ليس في دينه طائفة جعل لها الإسلام حق السيطرة على العقول والأرواح تودع فيها ما تشاء وتحرمها مما تشاء وتتصرف في المسلمين باسم الدين كما تشاء. ثم يلتفت فيرى أن المسلمين الذي قلّدوا الرؤساء

الروحيين عند النصارى لم يبلغوا أن صار لهم سلطة حقيقية منتظمة يحاسبون بها الأفكار على خواطرها والعقول على معارفها بل هؤلاء هم الذين كانوا يتسامحون مع الفكر والخيال ما لا يتسامح غيرهم ويعدون كل معرفة تقرب من الله تعالى لأنهم يقولون: إن لله طرائق، بعدد أنفاس الخلائق، ثم يلتفت من جانب آخر فيرى أن هؤلاء المقلدين في السلطان الروحي لا تعظم سلطتهم إلا حيث يصغر العلم بالدين، ولا يقوى نفوذهم إلا حيث يضعف نفوذ الحكم الإسلامي، وما عزّ لهم سلطان في مكان، إلا وكان وبالأعلى على المسلمين والإسلام، فإن كنت نسيت حوادث مهدي السودان، فأمامك حادثة خارجي مراکش الآن.

للعلماء والعقلاء والكتاب والخطباء أن يقولوا في السلطة الدينية النصراية ما شاءوا، ولهم أن يسعوا في فصلها وإبعادها عن السلطة المدنية ما استطاعوا، فإنها سلطة كانت ولا تزال ضارة حيث وجدت وتوجد وكان معظم ضررها أيام كانت مقرونة بالسلطة المدنية. لهم أن يسموها سلطة فإن لها في كل مملكة رئيساً عاماً يولي سائر الرؤساء في المملكة. وهؤلاء الرؤساء الذين هم أركان سلطته منبثون في كل مدينة وفي كل قرية ولا يوجد حكام مدنيون في جميع القرى والمزارع كما يوجد هؤلاء الحكام الروحانيون. ولهم أن يقاوا هذه الحكومة ويقاوموها، ولهم أن يخضدوا من شوكتها، ويضعفوا من صولتها، ولهم أن يقولوا إنه لولا فصلها عن السلطة المدنية، لما تنسنا نسيم الحرية؛ ولهم أن يعذروا الأمة الفرنسية؛ إذا حاولت اصطلام هذه السلطة بالكلية؛ المسلم يعذرهم في كل هذا لأنه من الإصلاح الذي جاء به الإسلام كما ألمعنا في صدر هذا المقال فمن لم يأخذه من الإسلام مباشرة فله أن يأخذه من نظام الفطرة إذا هداه العلم إليه وما الإسلام إلا دين الفطرة الهادي إلى نظامها وسنن الله فيها.

ومن الظلم البين أن يرمى الإسلامي نفسه بتقرير السلطة الدينية المعروفة عند النصارى. والإسلام هو الذي أبطل كل سلطة يكون بها

فريق مسيطراً على روح فريق وحاكماً على حريته في غير ما يجرمه الشرع على كل رئيس ومرؤوس أو يطالب به كل رئيس ومرؤوس. إن الذين اتبعوا سنن مَنْ قبلهم وقلدوهم في مثل الأمر لم يتقنوا التقليد وكان روح الإسلام مانعاً أن يبلغوا منه كل ما أرادوا. ولكن الإسلام لم يسلم من أعداء يلصقون به كل عيوبهم ويقولون عليه الكذب وهم يعلمون. نعم، إنهم يعلمون أنهم يخلقون عليه إفكاً لأنهم اطلعوا على ما كتبنا وكتب بعض الأئمة في بيان نفي هذه السلطة ثم يفتأون يعيبون الإسلام بها ولهم غرض يرمون إليه وراء تشكيك المسلمين في دينهم وتغييرهم منه وقد أشرنا إليه في مقال مضى ووعدنا ببيان الحق فيه كما بيناه في غير ذلك من شكوكهم وشبهاتهم.

(شاهد في الموضوع من منار السنة الأولى)

صدرنا العدد ٢٢ من منار السنة الأولى بمقالة في «سلطة مشيخة الطريق الروحية» قلنا في أولها: «لقد أتى على الإنسان في طور اجتماعه أدوار؛ ومرت عليه أجيال وأعصار، وهو مغلول الإرادة ومقيد الجوارح بسلطتين عظيمتين قويتين للقائمين عليهما النفوذ التام في أفرادها، والتصرف المطلق في آحاده، وهما سلطة الدين وسلطة السياسة - أو كما يقول أهل العصر - السلطة الروحية والسلطة الزمنية^(١)» [المنار ج ١ (١٨٩٨)].

ثم قلنا بعد كلام في حال هاتين السلطتين وتأثيرهما وحال الأمة التي تحكم بهما ما نصه:

«وبالجملة إن أمة هذا شأنها تكون دائماً متقلقلة كقذح الراكب لا تثبت على حال ولا تستقر على شأن. وجميع ما انتاب الأمم من رفعة وضعة وعلم وجهل وسعادة وشقاء فقد كان مرجعه إلى تصرف الأمراء والحاكمين، والرؤساء الروحيين، ولقد كان الشر أغلب على الأمم من

(١) المنار ج ١ (١٨٩٨) العدد ٢٢.

الخير والشقاء أشمل لها من السعادة لأن الرئيس الفاضل الحكيم لا يأمن من العثار وإذا عثر عثرت معه الأمة وهوت وقد يهدم الرئيس الجاهل الغوي في مدة قليلة، ما بنته الحكماء في الأجيال الطويلة.

ولهذا كانت سعادة البشر موقوفة في نيلها أو كمالها على تحديد القوانين والشرائع الروحية والزمنية (المدنية) وجعل الناس فيها شرعاً (أي سواء) لا مزية لرئيس على مرؤوس إلا بما يمتاز به المرؤوسون بعضهم على بعض وبما لا تقوم الرئاسة بدونه كوجوب الطاعة للسلطان ولا طاعة لأحد على أحد فيما وراء الشريعة والقانون. ولكن لم تأت شريعة سماوية ولم يوضع قانون بشري لهذا التحديد والمساواة حتى جاءت الديانة الإسلامية فحددت الشريعتين (المدنية والروحية) معاً وجعلت الناس فيهما سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالعلم والعمل، واقتلعت جذور الطاعة العمياء وبينت أن الدعوة إلى الحق لا تكون إلا بالحجة والبرهان بمثل قوله تعالى «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» [سورة يوسف رقم ١٢ الآية ١٠٨]. فسر العلماء البصيرة بالحجة الواضحة. وقوله تعالى «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ١١١].

«وبناءً على هذا كان الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم الرأي قائلين: هل هذا شيء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحي؟ فإن قال هو من عندي جاءوا بما عندهم من الرأي وربما رجع النبي إلى رأيهم كما جرى في بعض الغزوات (منها بدر وأحد). وأوقف أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب الإمام علياً مع رجل من آحاد يهود للمحاكمة وعاتبه عليٌّ بعد المحاكمة بأنه لم يساو بينه وبين خصمه لأنه كناه وسمى خصمه وفي التكنية تعظيم وتعظيم أحد الخصمين ولو بمثل هذا منافٍ للعدالة والمساواة. وراجعت امرأة عمر وهو على المنبر في مسألة تحديد المهر محتجة عليه بآية «وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٢٠]. فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وأبلغ من هذا إن النبي ، عليه الصلاة والسلام ، طعن سواد بن غزية بقدرح «سهم لا نصل له ولا ريش» في بطنه وهو مكشوف ليستوي في الصف يوم بدر فقال: قد أوجعتني فأقذني: فكشف له عن بطنه ليقصص منه ففطّق يتمسح به وكان ذلك منه توسلاً للتوصل الى هذا الشرف العظيم . وأذن الناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه وإذا كان نحو ضرب فليقتصص منه وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى انه ضربه يوماً فقال الرجل: إني كنت عاري الكتف أو الظهر: (شك من الراوي) فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف وكان شأنه في ذلك شأن سواد بن غزية.

«والنتيجة إن الإسلام قرر العبودية لله وحده والحرية في ضمن دائرة الشريعة والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات وإطلاق الإرادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس روحي ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبداً كاملاً لله حراً كاملاً بالنسبة لما سواه» .

هذا بعض ما قلناه في المسألة من نحو خمس سنين وبعده كلام في سلطة مشيخة الطريق كيف ظهرت وماذا أعقبت.

(مجمّل الدلائل على نفي السلطة الدينية في الإسلام)

١ - أقوى الدلائل على أنه لا سلطة دينية في الإسلام كما في النصرانية تحديد وظيفة الرسول في القرآن بأنه مبلغ لا مسيطر ولا وكيل ولا جبار على الناس قال تعالى «إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ» [سورة الشورى رقم ٤٢ الآية ٤٨]. وقال عز وجل «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ٢٧٢]. قال تبارك شأنه «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [سورة القصص رقم ٢٨ الآية ٥٦]. وقال عز اسمه «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» [سورة ق رقم ٥٠ الآية ٤٥]. وقال تعالى جده «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ» [سورة الغاشية رقم ٨٨ الآية ٢١]. وقال جل جلاله «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» [سورة الانعام رقم ٦ الآية ١٠٧ : وسورة الزمر رقم ٣٩ الآية ٤١ :

وسورة الشورى رقم ٤٢ الآية ٦]. فأين هذا كله من ملة يدّعي رؤساؤها أنهم وكلاء الله في الأرض. هل يقاس النقيض على النقيض؟

٢ - سيرة النبي، عليه الصلاة والسلام، فقد سمعت آنفاً أنه كان يقيد من نفسه ويرجع عن رأيه الى رأي أصحابه. وأعجب من هذا أنه رجح الرأي الموافق لرأيه في مسألة أسرى بدر وكان الرأي الآخر هو الأصح فعاتبه الله عتاباً شديداً حتى بكى عليه الصلاة والسلام.

٣ - سيرة الخلفاء الراشدين كما سمعت آنفاً عن عمر ويؤثر مثله عن سائرهم ولم تكن سيرتهم في المساواة وفي تحكيم الأمة بأنفسهم من مزاياهم الشخصية وإنما هو شيء أخذوه من القرآن ومن السيرة النبوية كما علمت وإنما مزيتهم أنهم فهموا الإسلام كله وكانوا أشد من غيرهم غيره عليه وعملاً به.

٤ - لو كان الإسلام شرع هذه السلطة المعروفة في الملل السابقة عليه من البوذيين والبراهمة والاسرائيليين والنصارى أو أجازها لوجد لها في المسلمين نظام ورؤساء كما وجد عند غيرهم ولكن شيئاً من ذلك لم يوجد وإنما وجدت طائفة تصدت للتربية والإرشاد ثم انقسمت الى طوائف وجماعات ولم يكن لهم سلطة على أحد وإنما يتبعهم من شاء باختياره ولم يسلموا مع ذلك من رمي الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين ومن تفريق الحكام شملهم، ولذلك لم يكن لهم ظهور إلا حيث يضعف علم الدين وحكمه كما قلنا آنفاً. وأما لقب «شيخ الإسلام» فهو من اختراع الملوك والأمراء الذين بعدوا عن المظهر الديني فاستعانوا بمن له هذا المظهر لأجل التأثير في نفوس العامة المقلدين.

نعم، إن السلطة الدينية وجدت على حقيقتها في طائفة الباطنية ثم وجدت لهذه الطائفة حكومة مدنية في العبيدين (الفاطميين) ولكن مذهب الباطنية ليس من الإسلام في شيء ولذلك لم يستطع العبيديون أن يؤيدوه

بسلطتهم تأييداً ظاهراً فيقال ان السلطة الدينية قد اجتمعت مع السلطة المدنية في طائفة تنتمي الى الإسلام في الجملة. فعلم مما تقدم أنه ليس في الإسلام سلطة دينية فما هذا الذي يعيب الإسلام به بعض كتاب النصارى وما هذه النصائح التي توجهها تلك الأقلام إلى الأمة الإسلامية لتقنعها بوجود الفصل بين السلطتين الدينية والمدنية؟ الجواب، إن المراد بذلك أن يترك المسلمون شريعتهم كما يعلم من الفصل الآتي:

الشريعة والدين في الإسلام

جرى عرف الكتاب الأوروبيين ومن تبعهم من الشرقيين لا سيما كتاب النصارى بأن يطلقوا إسم الدين على ما يتعلق بالاعتقاد بالله وبالوحي وما يعد به من أمور الغيب وما يفرضه من العبادة ويخصوا كلمة الشريعة بما يتعلق بالمعاملات والأحكام القضائية والمدنية والسياسية. وكل باحث في التاريخ من هؤلاء الكتاب يعلم أن الإسلام جاء بدين وشريعة ومن ذلك قول بعضهم: إن محمداً، عليه الصلاة والسلام، كَوْن في عشرين سنة أمة وجاءها بدين وشريعة ولم يتفق لغيره في العالم الجمع بين هذه الأمور الثلاثة: فهؤلاء يعلمون أن الشريعة قسيمة الدين في الإسلام وأن ما يدين به المسلم ربه وما يعامل به الناس كله مقتبس من نور واحد وهو نور الوحي الذي أوحاه الله إلى محمد، عليه الصلاة والسلام.

لا فرق في الإسلام بين القسم الديني البحت والقسم الشرعي إلا في شيء واحد وهو إن الاعتقاد والعبادة لما كانا لا يختلفان باختلاف الزمان والمكان وأحوال الأمم وجب الاعتماد فيهما على الوحي في الجملة والتفصيل والكلليات والجزئيات. وأما المعاملات الدنيوية فلاختلافهما باختلاف ما ذكر قد وضع الإسلام لها قواعد كلية وأصولاً عامة وفوض استنباط الجزئيات التي تحدث إلى أولي الأمر العارفين بمقاصد الإسلام وبأصوله العامة وقواعده الكلية فهم يبينون الأحكام بالشورى في كل ما يحدث للناس من

المصالح استنباطاً من تلك الأصول والقواعد. قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٥٩]. فذكر أولي الأمر بصيغة الجمع. وقال «ولو رُدُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» [سورة النساء رقم ٤ الآية ٨٣]. ذكر أولي الأمر بصيغة الجمع أيضاً وأناط بهم استنباط الحكم الذي يحتاج إليه أو يتنازع فيه.

ثم إن الأحكام الشرعية المنصوصة أو المستنبطة تحتاج إلى منفذين ولا بد أن يكون هؤلاء رئيس لثلاث تكون الأمور فوضى وقد سمي الرئيس الأول في الإسلام بعد وفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، خليفة له وسمي من بعده أمير المؤمنين واستمر هذا اللقب. ووظيفة هذا الرئيس حماية الدين وأهله وتنفيذ أحكام شريعته فليس هو مسيطرًا على الناس في دينهم ولا مستقلاً بوضع الأحكام الشرعية لهم وإنما هو حافظ للنظام؛ ومنفذ للأحكام، وسلطته هذه كما ترى مدنية شورية، لا مطلقة ولا استبدادية؛ ولكن الإسلام أوجب عليه أن يعمل بالشرع وحرّم عليه أن يكون شارعاً بنفسه وأوجب طاعته بالمعروف، كما أوجب على الأمة إزالة سلطانه إن حملها على غير المشروع؛ فصح بهذا الاعتبار أن يقال إن السلطة المدنية في الإسلام مستندة إلى الدين أو إنها سلطة دينية. ولكن لا يصح أن تشبه بالسلطة الدينية عند غير المسلمين ولا أن يجعل صاحبها جامعاً بين سلطتين إحداهما على الأرواح والعقول والثانية على الأجسام والأعمال.

هذا هو ديننا وهذه هي سلطته فبماذا يطالبنا ذلك الكاتب النصراني وبماذا ينصح لنا؟ هو يطالبنا بأن نجعل رئيسنا المدني شارعاً ومنفذاً لما يشرعه لنا من الأحكام وينصح لنا بأن نترك شريعتنا القائمة على أصول ديننا ويزعم أن بناء الشريعة على قواعد الدين وجعل الحكام حماة للدين ومنفذين له هو الذي أزال الدولة العباسية، وفرق شمل الأمة الإسلامية،

ومن رأيه أن المسلمين لا ينجحون ولا تقوم لهم قائمة ما دام سلطانهم مكلفاً بالعمل بشريعتهم الدينية وتنفيذها!

لو جمعت كل ما ورد من الكلم في جميع اللغات ليدل على معنى التعجب وأضفت إليه كل امارات التعجب ودلائله في الحركات والإشارات العضوية والقلمية وقدرت على تصوير جميع انفعالات المتعجبين وتأثراتهم النفسية وألصقت ذلك كله بهذه النصيحة النصرانية للأمة الاسلامية لما وفيت حق البيان في كونها عجيبة غريبة مذهشة للمتعجبين!

شبهات المشكك

١ - يقول هذا الناصح الأمين، أو المشكك في الدين، إن غرض الدين في الأرض مناقض لغرض الحكومة في الأرض فكيف يجمع الإسلام بين النقيضين؟ ونحن نقول له ان الإسلام جاء للإصلاح في الأرض وكل ما يناقض الاصلاح فهو إفساد تجب إزالته فالواجب أن يكون غرض الحكومة الاسلامية موافقاً لغرض الدين الإسلامي . وما لا خلاف فيه بين فقهاء الإسلام أن أحكامه الشرعية كلها مبنية على قاعدة «درء المفسد وجلب المصالح» فأى حاكم من حكامنا يقدر ان يأتينا بشرع أصلح من هذا الشرع إذا نحن تركناه عملاً بنصيحتك وجعلنا الحاكم هو الشارع؟

٢ - يقول الناصح الأمين؛ أو المشكك في الدين، إن من التناقض بين وظيفة الدين ووظيفة الحكومة أن الدين وضع قواعد وتقاليد للعقل وطرقاً لسير الفكر فقيد بذلك الحرية العلمية . والحكومة لا تكلف الإنسان بأن يسير في فكره على طريق مخصوص وإنما هي حامية لحرية النفس وما يتبعها من المال والدم والشرف . ونحن نقول إذا كان دينك كذلك فدين الإسلام مناقض له غير مناقض لوظيفة الحكومة التي ذكرتها . وذلك أنه تقرر فيه حرية العقل فلا يخرج المسلم عن حكمه في عقائده (كما بيّنّا ذلك في الجزء

الماضي^(١) وتقرر أن أحكامه ترجع إلى خمس قواعد يسمونها الكليات الخمس وقد جمعها صاحب عقيدة الجوهرة بقوله:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

٣ - يقول الناصح الأمين: أو المشكك في الدين، يجب أن تكون الحكومة مساوية بين من تحكمهم وإن اختلفت أديانهم وأن تكون حامية لهم على السواء أيضاً والدين مناقض لها في ذلك. ونحن نقول: إذا كان دينك كذلك فديننا مناقض له لا لما يجب أن تكون عليه الحكومة. وذلك إن المساواة من أصوله وقد أشرنا في الفصل السابق من هذا المقال إلى مساواة عمر بين الإمام علي ورجل من آحاد اليهود ومطالبة علي له بالمساواة في اللقب أيضاً وهذه مساواة لم تصل إليها حكومة ولن تصل إليها حكومة. إلا أن تكون مقيمة للإسلام على حقه. وأما الحماية فمن الأصول المأثورة في ديننا هذه الكلمة الجليلة «وان نحميهم مما نحمي منه أنفسنا» وهذه الكلمة الفضلى «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

٤ - يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين، إنه ليس من شأن السلطة الدينية، الدخول في الأمور الدنيوية؛ لأن الأديان شرعت لتدبير الآخرة لا لتدبير الدنيا. ونحن نقول: إذا كان دينك كذلك فديننا ليس كذلك فانه شرع لبيان مصالح الدارين، والإرشاد إلى طرق السعادتين، فكيف تحكم على الأديان كافة بما تعتقده في دينك؟ وهل كنت أنت الواضع للأديان كلها فتقول إنني وضعت دين الإسلام هكذا أيضاً وأهله قد زادوا فيه فأنا الآن أطالبهم بالرجوع إلى الأصل؟ إن المسلمين لا يقبلون منك ذلك لأن ائمتهم عرفوا الدين بأنه وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه صلاحهم في الحال؛ وفلاحهم في المال.

(١) المنارج ٥ (١٩٠٣) ص ٥٤٥ - ٥٥٠. أعلاه ص ٢٠٩.

٥ - يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين، إذ الجمع^(١) بين السلطتين يضعف الأمة ضعفاً مستمراً لأنه يقتضي اضطهاد العقل والذكاء ويعرض الحكومة لثورة الأمة بإغراء عدو يثيرها عليها ويكون سبب الشقاق الديني بين الطوائف التي تتألف منها الشعوب ويعرض الدين لأكاذيب السياسة ومفاسدها. ونحن نقول: إن كل هذا قد وقع في دينه فلا ننكره وإنما ننكر قياس ديننا عليه وهو مباين له. وحسبنا أن الذي وقع عندنا هو نقيض ما وقع عندهم فإن الحكومة الإسلامية التي يسميها جمعاً بين السلطتين (وقد فهمت معناها) قد أعطت الأمة قوة لم يقاوها فيها أحد في زمنها وما ضعفت الأمة الإسلامية إلا بضعف الشرع وعدم إقامته وهذا أمر لا خلاف فيه. وكذلك لم يضطهد العقل والذكاء في الإسلام في عصر إقامة شريعة الإسلام وإنما وقع شبه اضطهاد بعد ضعف الشرع والتهاون في تنفيذه. أما الثورات التي يخافها الناصح على الحكومات الإسلامية إذا بقيت على شريعتها فهي أجدر بالوقوع إذا خرجت الحكومات عن الشريعة لأن الخروج على السلطان لا يجوز في الإسلام إلا إذا خرج السلطان من الإسلام بترك الشريعة وإذا أخطأ فالواجب أن ترجعه الأمة عن خطئه بالمعروف: قال صاحب عقيدة الجوهرة:

وواجب نصب إمام عدل	بالشرع فاعلم لا بحكم العقل
فليس ركناً يعتقد في الدين	فلا تحد عن حكمه المبين
إلا بكفر فانبذن عهده	فاله يكفيننا أذاه وحده

وأما الشقاق الديني بين الطوائف والملل فلم يعهد في بلاد الإسلام أيام إقامة الشريعة والعمل بها بل كانت الطوائف في هدون وسلام لأن الدين يوجب ذلك وكان معمولاً به. والذي يوجب الشقاق هو جعل الدين مصلحة لرؤساء مخصوصين يناهض كل رئيس بطائفته سائر الطوائف فهو

(١) وردت «الجميع».

الصق بالفصل بين السلطتين وجعل كل واحدة مستقلة لها رؤساء يديرونها منه بالجمع بينهما خصوصاً جمع الإسلام بالمعنى المتقدم . وقد ذاعت الأمة النصرانية بأس هذه الرئاسة وكانت هي التي ابتدعت الحرب بين طائفتين من أهل دين واحد للخلاف في الدين . ولو لم يكن لكل طائفة رؤساء مخصوصون لما وقع شيء من ذلك . وقد سرت عدوى النصرانية الى غيرها وأصاب المسلمين شرر تلك النيران فحدث بين أصحاب المذاهب شيء من الشقاق لتعصب كل طائفة لإمام مخصوص وعلماء مخصوصين . وقد علمت أن رجال الدين لم تنتظم لهم في المسلمين رئاسة لأن طبيعة الإسلام تأبى ذلك ولهذا لم يعظم النفور والشقاق بين أصحاب المذاهب الإسلامية كما عظم بين أرباب المذاهب النصرانية . على أن المذاهب المتعددة في الدين هي مخالفة لوضع الدين لأنها تفرق فيه واللّه يقول «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» [سورة الشورى رقم ٤٢ الآية ١٣] . ويقول «إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء» [سورة الأنعام رقم ٦ الآية ١٥٩] . ولكن جاءنا من كتاب النصارى في هذا العصر من يقول إن التفرق إلى شيع من طبيعة ديننا ولا علاج لهذا التفرق إلا ترك حكامنا لشريعتنا!

وأما تعريض الدين لأكاذيب السياسة ومفاسدها إذا كانت الشريعة مستمدة من الدين فهو نقيض المعقول وخلاف الواقع . فإن السياسة كما قال الكاتب مبنية على الرياء والمخاتلة ولا علاج للرياء إلا الدين وقد شدد فيه الإسلام حتى سماه «الشرك الأصغر» فاذا بُنيت السياسة على قاعدة الدين سلمت وسلم معها الدين وإذا انفصلت من الدين فسدت وأفسدت الدين ولذلك استعاذ منها الإمام كاتب مقالات «الإسلام والنصرانية» بما استعاذ ووصفها بما وصف . وقد قلب الحقيقة الناصح أو المشكك فجعل انفصال الحكومة من الدين هو سبب السلامة!

الوحدة الدينية والوطنية

يقول الناصح الأمين، أو المشكك في الدين، إن الوحدة الدينية التي يطلبها الإسلام مستحيلة الوقوع ومحاولتها كان أكبر أسباب الفتن التي حدثت في الإسلام والمسيحية. ويزعم أن البشر قد ارتقوا عن طلب الوحدة الدينية التي كانت عامة فيهم إلى الوحدة الوطنية وتدحرج في البيان إلى ذكر فرنسا التي ارتقت فيها هذه الوحدة الجديدة التي حصر فيها سعادة البشر حتى حكمت بإبطال مدارس الرهبنات وحتى حرمت على رئيسها ذكر اسم الله تعالى أو ذكر العناية الإلهية في خطبه. وههنا شعر بأن هذا التدحرج قد انهار به في هوة الباطل فعاد يعترض على هذه «الطريقة الجديدة» ويذكر من مفاسدها. وهكذا شأن من يهرف بما لا يعرف. وقد استدل على استحالة الوحدة الدينية بما كان في أوروبا من المفاسد والفتن بسببها وبعدم نجاح البابا فيها وبسعادة أوروبا بعد إقامة السد بينه وبين الأحكام. ثم جرى على عادته في تشبيه الإسلام بالنصرانية فزعم أن الذي أسقط دولة بني^(١) العباس هو عجزهم عن حفظ المملكة بالوحدة الدينية وعدم اهتدائهم إلى الوحدة الوطنية! سبحان الله ما أعلم هذا الكاتب بالتاريخ وما أقدره على استخراج طبائع الملل منه!

خبرونا أيها المؤرخون والمطلعون على كتب التاريخ أي مؤرخ قال إن سبب سقوط بني العباس هو حكمهم بالشريعة الإسلامية أو قال إن أصحاب الملل المختلفة في بلادهم كانوا ساخطين على الحكم بالشريعة وطالبين أن تستبدل بها قوانين غيرها يضعها الحكام أو المحكومون وأنهم لذلك ثاروا على الدولة حتى أسقطوها بالحروب الأهلية التي مشارها التعصبات الدينية؟ لم يقل بذلك عالم ولا جاهل وإنما هو زعم افتحره وافتحره واخترعه وابتدعه ناصح المسلمين الأمين أو مشككهم في الدين.

(١) وردت «بين».

لسقوط دولة العباسيين أسباب أهمها أمران ذكرهما مؤرخ الدولة العثمانية الأكبر جودت باشا ناظر العدلية، رحمه الله تعالى، قال بعدما ذكر فضل المأمون في ترويج العلوم وتوسيع نطاق المدنية ما تعريبه: «إلا أنه أخطأ خطأ بيناً في أمر يتعلق بتدبير المملكة وهو أنه أعطى ولاية خراسان لرجل يسمى طاهراً مكافأة له على قتل أخيه الأمين فانخذ نيسابور عاصمة لها وجعلها موروثه له ولأعقابه من بعده فكان ذلك باعثاً على إزالة رهبة الخلافة من صدور العمال، وسبباً في الخروج عن الطاعة والنزوع إلى الاستقلال، ثم جاء بعده الخليفة المعتصم فجمع بعض الأحداث من الترك وجعلهم عسكرياً خاصاً به ولما اشتد ساعدهم خرجوا عن طاعته وأحدثوا ثورات هائلة كما وقع قديماً في عسكر قياصرة رومية».

وظاهر أن ما عمله المأمون مخالف للشرعية الإسلامية ومناف للوحدة الدينية. وإن ما عمله المعتصم كان لإخلاله بأصول الأحكام الإسلامية من الشورى وكفالة الأمة للإمام والتحري في اتخاذ البطانة فقد قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عَنِتُّمْ» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١١٨]. الآية. وللمفسرين وجهان في قوله «من دونكم» قيل هم المنافقون وقيل الكافرون. وكان أولئك الأحداث أحد الفريقين فإنهم اتّخذوا بطانة ولما يدخل الإيمان في قلوبهم كما علم من مقالات «الاسلام والنصرانية» وقد تحقق فيهم قوله تعالى «لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتهم» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١١٨]. ولكن ناصحنا الأمين حرّف قول الإمام في هذا المقام الى فتنة سياسية فزعم أن مراده الحكم بأن الترك والفرس لا يعتدّ بإسلامهم وأن الدين خاصّ بالعرب أي أنه لا يعتدّ بإسلام مثل البخاري ومسلم وأبي حنيفة والغزالي، الخ! نعوذ بالله نعوذ بالله.

يا حسرة على أعداء الشريعة الإسلامية التمسوا لها عيباً فيها فأعياهم وأعوزهم، فالتمسوه في المقيمين لها (كأبي بكر وعمر) فأعياهم وأعجزهم،

فنقبوا عنه فيمن انحرفوا عن صراطها فنكبوا فأصابوه وأصقوه بها وقالوا
إنها شريعة ضارة يجب تركها واختراع شريعة بدلها!

كانت رابطة الوحدة في الاجتماع البشري محصورة في البيوت
(العائلات) ثم اتسعت فصارت في القبائل ثم اتسعت بناموس الترقى
فكانت الشعوب والأمم الكبيرة التي وحدتها الجنسية باللغة أو الدين أو
البلاد (الوطن) وكان الدين خاصاً لا يتعدى الشعب الذي وجد فيه إلى أن
ظهر الإسلام. فإن في الأناجيل المعتمدة عند النصارى إلى اليوم أن
المسيح، عليه السلام، قال: «لم أرسل إلّا إلى خراف إسرائيل الضالة»
وقال «ما جئت لأنقض الناموس وإنما جئت لأتمم» والناموس هو شرع
الإسرائيليين الخاص بهم وتتميمه ببيان الحق فيما اختلفوا فيه منه وفي بيان
أسراره والتوسع في القسم الروحاني منه. وأما ما ينقلونه عنه من انه قال
«اكرزوا بالانجيل في الخليقة كلها» فهو مخالف لما تقدم في الظاهر ويمكن أن
يتفق معه بجعل (أل) في الخليقة للعهد أي الخليقة المعهودة وهي الأمة
الاسرائيلية حيث كانت وأين وجدت.

بعد هذا استعدّ البشر بناموس الارتقاء إلى وحدة أوسع من كل ما
تقدم - الى وحدة يمكن أن تدخل فيها جميع الشعوب والقبائل والأمم
والأجناس المختلفين في البلاد واللغات والأديان - إلى وحدة لها رابطتان:
إحدهما - جثمانية اجتماعية عمرانية دنيوية وهي أن يحكموا بشريعة عادلة
تساوي بينهم في الحقوق لا يمتاز فيها كبير على صغير ولا غني على فقير ولا
عربي على عجمي ولا متدين بدين على متدين بغيره. وثانيتهما - روحانية
أخوية أخروية تحتص بمن يجمعهم الاعتقاد الصحيح، المبني على البرهان
الصريح، وهذه الوحدة هي الوحدة التي جاء بها الدين الإسلامي وعمل
بها المسلمون في الصدر الأول فكان المخالفون لهم في الدين يفضلون
حكمهم على حكم المتحدين معهم في الدين واللغة والوطن. ولم توجد
المساواة ولا العدالة الصحيحة إلى اليوم إلا في الإسلام، فهذه الدول

الأوروبية الراقية بالوطنية لا تساوي بين أبنائها وأهل مستعمراتها في الأحكام بل ألزمت الحكومات الضعيفة في غير بلادها بالخروج عن العدل والمساواة وتمييز أجناسها على رعايا كل حكومة من تلك الحكومات. فالمصري يقتل في مصر إذا قتل أجنبياً ولكن الأجنبي لا يُقتل بالمصري. وقد كنا أوضحنا هذا البحث في مقالة عنوانها «الجنسية والدين الاسلامي»^(١) فلتراجع في المجلد الثاني من المنار. وفي سائر مجلدات المنار مباحث كثيرة تؤيد هذه المسائل المتفرقة وتعضد القضايا المتعددة في هذا المقال.

فتبين بمجموع ما تقدم أن الوحدة التي جاء بها الإسلام هي أعلى ما يترقبه البشر وأفضل ما يتوجهون إليه ولكن الرئاسة الروحية في الديانة النصرانية التي جعلت الدين مصلحة من المصالح ينتفع بها الرؤساء وخروج الحكام المنتسبين للإسلام عن قواعدها هما السدان المانعان من انتفاع البشر بها وستدك الحرية السدين، ويجمع البشر بالإسلام بين السعادتين.



الدولة العلية ومكدونية

[الثورة في مكدونية]



٣٤

[المنار ج ٦ (١٩٠٣) ص ٣٨ - ٤٠]

نجم من عدة أشهر ناجم من الثورة في بلاد مكدونية فشخصت له أوربا وأسرعت روسيا والنمسا إلى الدولة العلية بالنصيحة والحث على تلافي الأمر والمسايرة إلى إصلاح البلاد ووضعنا للإصلاح (لائحة) عرفنا بها سائر الدول ثم قدمناها إلى الدولة ملحتين في المبادرة إلى قبولها فلم

(١) المنار ج ٢ (١٨٩٩) ص ٣٢١ - ٣٢٧. أعلاه ص ٩٤.

تلبث الدولة أن قبلتها على علامتها خلافاً لعاداتها في التريث واللي. ومن موضوع اللائحة وجوب استعمال الأوربيين في الإصلاح لأنه لا ثقة لأوروبا برجال الدولة. وقد ساء معشر الألبانيين، ولم يقع موقعه من نفوس معاشر المسيحيين. لأن نفوسهم طمعت بالاستقلال، فكل ما دونه يعد عندهم من الأعياب الأطفال.

كان في أثر ذلك أو معه حركة في البلغار وهزة في السرب وطاف في الأذهان، أن هذه الفتنة ستعم بلاد البلقان، وظهرت من بعض الدول العظام أمارات الاتفاق مع روسيا والنمسا ومن بعضهن علائم السكوت وعدم المعارضة. واختلفت الظنون في نية روسيا فجنح بعض إلى ترجيح كفة السلم من جانبها بدليل نصائحها المتتابعة للبلغاريين وغيرهم من شعوب البلقان بأن يخلدوا إلى السكينة، ويتفوّوا ظلال الهدون والمسالمة، ومال بعض إلى ترجيح كفة الحرب بدليل التقاليد القديمة التي وضعها بطرس الأكبر في وصيته (التي نشرناها في الجزء الماضي) وما يصدق ذلك من أخبار استعدادها الحربي في هذه الأيام.

الحق أن لكل من الرأيين وجهاً وجيهاً وأن سياسة روسيا أصبحت دقيقة المسالك مشتبهة الأعلام فبينما ترى قيصرها ينادي بوجوب تعميم الأمن والسلام، ومد ظلاله على رؤوس جميع الأنام، تراه يستعد للكفاح استعداداً صورياً ومعنوياً. فأما الصوري فبإنشاء الأساطيل وتكثير الأسلحة وإتقان العلوم العسكرية. وأما المعنوي فبمحالفة بعض الدول القوية ومسالمة بعض. ولقد كان الإنكليز عون الدولة العثمانية على روسيا فحال لون السياسة الجامعة بينهما وتغير شكلها وتبدل السلطان عاهل الألمان بالإنكليز وهو ملك يُطعم ولا يُطعم شديد الجشع قوي الطمع إذا رأى روسيا وقد جدّ جدّها يكتفي منها بلقمة كبيرة يلتهمها ويتركها بعد ذلك وشأنها. ولا يطوف في خاطر عاقل أنه يسمح بجندي الماني واحد لصديقه السلطان، إذا نزل مع الروس في ميدان الطعان.

كانت قلوب المسلمين في العيدين محومة فوق بلاد مراكش تؤلمها فتنة الخارج، كما تسوءها سيرة المالك، وقد دخلت عليها السنة الجديدة فاستقبلها هم أكبر من هم مراكش - هم الدولة المسلمة الكبرى، وقاها الله تعالى، ولا خوف عليها إلا من روسيا. فإذا كانت لا تريد سوءاً فدع البلقان يضطرم بنيران الثورة اضطراباً ولا تخش مغبته فالدولة قادرة على تأديبه. وأسوأ عاقبة تنتظر حينئذ استقلال مكدونية أو وضعها تحت حماية الدول الكبرى على المذهب الجديد في سير أوروبا بالمسألة الشرقية مذهب التفكيك وتحليل العناصر. وهذا المذهب خير لدول أوروبا وأسهل طريقاً من حرب الدولة لأجل الفتوح والتغلب لأن هذا يعوزه الاتفاق على ما يتعسر الاتفاق عليه ويقتضي بذل أموال غزيرة وسفك دماء عزيزة. وهو خير للشرقيين أو المسلمين وأسهل عليهم أيضاً لأن كل عنصر ينحل من عناصر بلادهم وكل قطعة تنتقص من أرضهم تفيدهم عبرة كبرى وتعلمهم كيف يحفظ الباقي. فإذا لم يتعلموا بتكرار النذر، وأنواع العبر، وكانوا يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، فهم أموات غير أحياء وما يشعرون أياهم يعيشون.

مسألة مكدونية مسألة عشواء والحكم فيها غامض لما تقدم ولأن النصراني فيها وفي جميع ما بقي تحت حكم العثمانيين من بلاد أوروبا وما يدانيها كبلاد الأرمن قد توجهت نفوسهم إلى الاستقلال واعتقدوا أن أوروبا نصيرة لهم وأن الذريعة الوحيدة لإثارة نعرتها عليهم وتصديها لفصلهم من جسم الدولة الثورات التي تضطر الأتراك إلى سفك قطرات من دمائهم تأديباً لهم. ولعل أوروبا في مجموعها وروسيا حاضنة جرائم فكر الاستقلال في البلقان في خاصتها تعجز عن ضبط حركة هذه الثورة التي تولدت وتأصلت ورسخت واندفعت عن بصيرة أو غير بصيرة. هذا ما يخشى على تقدير إرادة روسيا إطفاء الثورة والاكتفاء بما طلبت من الإصلاح فكيف إذا كانت تريد شيئاً آخر.

ماذا يجب على الدولة أن تفعله في هذه الفتنة وماذا يجب عليها أن تفعله

في نفسها لأجل مستقبلها؟ أما الأول فالظاهر أن الذي تعمله الآن من إجابة طلب روسيا والنمسا إلى الإصلاح الذي طلبته بدون تحوير ولا تأخير ومن اختيار الموظفين الأوربيين للإصلاح من الأمم الأوروبية الضعيفة ومن الاستعداد للكفاح إذا طرأ ما هو أعظم من ذلك هو الواجب الذي لا يمكن غيره. وأما الثاني فإن الجواب عنه لا يفهم ولا يقبل إلا بعد العلم بأمور كثيرة أهمها: مالية الدولة وإن لدينا رسالة مطولة أو كتاباً صغيراً في ذلك لأحد الكتاب العثمانيين مستقى من الينابيع الرسمية وإننا ننشره تبعاً في أجزاء المنار ليصح للقارئ معرفة الدولة وما يجب أن تعمله لتنجو من الخطر. وإن فهم حقيقة الدولة مما لا بد منه للمشتغلين بمسألة الإصلاح الإسلامي لما لهذه الدولة من المكانة في الوجود ومن المكانة في نفوس المسلمين في جميع أقطار الأرض. ولهذا أخذنا على أنفسنا أن نكتب في كل جزء من منار هذه السنة شيئاً عن الدولة العلية من بيان حقيقة وجودية ورأي معقول نرجو الانتفاع به. ونتجنب في ذلك المدح والذم للأشخاص المعينين.



اليهود والماسونية. وحدث الوطنية



[مصطفى كامل]

[المنار ج ٦ (١٩٠٣) ص ١٩٦ - ٢٠٠]

(اليهود): لا يوجد شعب في الدنيا كشعب اسرائيل في تمسكه بالرابطة المالية، والعصبية الجنسية، فهم يحبون ويحاولون أن يحولوا جميع منافع الشعوب الذين يعيشون معهم إليهم. ولولا أنهم يعتقدون أن دينهم خاص بهم لا يجب عليهم الدعوة إليه لحاولوا إرجاع جميع الأديان إليه بالهمة التي

يحاولون بها تحويل قوى الشعوب كلها إلى منفعة بني إسرائيل . وكل هذا - لولا غلو فيه - من الفضائل التي يحمد صاحبها عليها ولكن الغلو في حب الذات كالتقصير فيه كلاهما من الأمور الضارة بصاحبها . لهذا نرى هذا الشعب مضطهداً من جميع الشعوب والأمم لا يتسع له صدر إلا صدر المسلمين . ألم تر أن الذين تطردهم الممالك وتخرجهم من أرضها لا يجدون في الغالب ملجأ إلا بلاد الدولة العلية حتى بلاد فلسطين التي يطمعون أن يستقلوا بها ويحدثوا فيها ملكاً جديداً .

(الماسونية): جمعية سياسية سرية تكونت في أوروبا - خلافاً لما يزعمون من قدمها - لمقاومة استبداد رؤساء الدنيا من الملوك والأمراء ورؤساء الدين من البابوات والقسيسين الذين كانوا متضافرين على استعباد الناس وحرمانهم من نور العلم والحرية وقد اتفق على تكوينها اليهود والنصارى ولذلك جعلوا رموزها وإشاراتنا منتزعة من الكتاب المشترك الذي يسمى الكتاب المقدس وأسندوها إلى بناء الهيكل المقدس هيكل سليمان ، عليه السلام ، وهو المسجد الأقصى . وقد قامت هذه الجمعية بعملها على أحسن وجه ولم يعد لها الآن عمل في تلك البلاد . وإذا كان منشؤها والمنشأة لهم من غير المسلمين كان فيها أمور متعددة تخالف الإسلام وكان الداخل فيها عرضة لمخالفة دينه إلا أن يكون عالماً متمكناً .

ثم إن الإفرنج عندما تغلغلوا ورأوا مزاج السيادة الإسلامية لا يقبل مشاركا له في حكمه فهو يجيش انفعال جميع المسلمين لنبذ سلطة كل من يحاول السيادة عليهم استعانوا بالماسونية على إضعاف هذا المزاج وتوسلوا إلى بعض كبراء المسلمين وأغنيائهم بما توسلوا واستعانوا عليهم بنصارى بلادهم ويهودها فأدخلوا طائفة منهم وبقي أكثر المسلمين إلى اليوم يعد الماسونية نزغة من نزغات الكفر أو وسيلة إليه . إلا أن الشعب المصري سريع الانقياد إلى التقليد ولذلك كثر الداخلون في هذه الجمعية من أهله . على أن أهلها يتصلون من الأديان ويدعون عدم التعرض لها بحال .

ولما هاجر السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق وموقفه إلى هذه البلاد ورأى من استبداد إسماعيل باشا الخديو الأسبق ما يزيد على ما كان في أوربا من الاستبداد ورأى أن الجمعية الماسونية تجرّ هذه البلاد إلى أوربا بخيوط سياسية خفية ولكنها متينة قوية فهي كالحبوط التي يربط بها المشعوذ التماثيل التي يلعب بها وراء الستار فيحسب الصبيان أنها هي التي تلعب بنفسها. وكذلك كانت مصر ألعوبة في أيدي الأوربيين. فأراد السيد رحمه الله أن يربي فيها رجالاً يعرفون كيف يحفظون بلادهم وأنفسهم فوجّه همته إلى استخدام الماسونية في تعليم تلامذته ما لا يمكن التصريح به إلا في جمعية سرية فدخل في الماسونية ودخل معه تلامذته النابغون فجعل بهم قوة للمصريين وصار رئيس محفلهم ولكنه كان غالباً في مضادة الانكليز لما كان من زحفهم على بلاده ولما كان يعتقد من طمعهم في مصر وقد صرح به كتابة فقاوموه حتى اضطروه إلى ترك الماسونية مع كبار حزبه ولم يكن للماسونية عمل في مصر لمصر إلا تلك المدة. ثم إن الماسونية صارت في مصر آلة لبعض زعمائها في جلب المنافع ثم كثر فيها الغوغاء حتى قل احترامها وانطلقت الألسنة بالطعن فيها وليس هذا مما يعيننا الآن.

حدث الوطنية^(١) شاب يعرف قراء المنار أنه يلغظ بالوطنية على غير هدى وأن له جريدة أنشأها لتعظيم شخصه باسم الوطنية وللانتقام لشخصه بكل اسم. يمقت كل من ليس مصري الأصل لأجل مصر. ويمقت من المصريين الأصلاء من ليس مسلماً لأجل المسلمين ويمقت كل مصالح المسلمين لأجل شخصه فهو لنفسه علة العلل، في كل قول له وعمل، وإليك هذا الشاهد العادل.

مفتي الديار المصرية [الشيخ محمد عبده]، مصريّ الوطن ويشغل في

(١) صاحب جريدة اللواء مصطفى كامل.

مصر أكبر الوظائف الدينية ويرأس جمعية خيرية ليس لها ثانية لخدمة مسلمي مصر وهو في علوم الدين والدنيا وفي كبر العقل وقوة الإرادة مفخر المسلمين ومفزعهم يرجعون إليه في الدفاع عن دينهم وفي قضاء حوائجهم ويرون أكبر خدمة قام بها للإسلام تفسير القرآن الشريف على طريقة روحية عمرانية تظهر أن القرآن الحكيم ينبوع السعادة الدينية والمدنية في كل عصر.

ولكن هذا الرجل خلق من طينة الجدد فهو لا يقيم وزناً للأحداث المتفجحين فيزله من منزلة العدم لا يحترمهم ولا يحتقرهم. وحدث الوطنية يجب أن يدهن له كل عظيم فهو لا يحب مفتي الديار المصرية. وكان ينبغي أن يعامله بالمثل لا يعظمه ولا يتناول ويتسلق ويتعالى لغمص حقه. فإذا لم يستطع صبراً فلينتظر له هفوة يتيسر له التلبس بها على العامة بأنها تضر بالوطن الذي يدعى حبه، أو الإسلام الذي يتألف حزبه، ولكن من الناس من يبلغ من نفسه مبلغاً لا يصل أحد إليه إلا بخذلان من الله!

أنظر الفرص التي يتتهز مثلها حدث الوطنية - كان مفتي الإسلام في جماعة من «كبار الوطن العزيز» قد ركبوا مركبة مما أعدته الحكومة للمدعوين لحضور احتفال خزان أسوان فحاول أحد الخدمة من الإفرنج إنزالهم منها ليركب فيها نساء من قومه فانتهره المفتي فعاد خائباً. ولما علم بذلك زعيم الوطنية بزعمه بادر إلى إرسال رسالة برقية إلى جريدته جعل عنوانها «اهانة المفتي» وحكى القصة على غير وجهها، فهذه هي «الوطنية الحقة» التي يتنفج بها - يفتخر بأن خادماً أجنبياً أهان أكبر رجال «الوطن المحبوب» وما أهانهم ولكنه يفتخر بما يفتخر ويفتخر.

وإن تعجب فأعجب مما قصصناه من فرصة هذا الوطني التي اغتناها لخدمة الوطن ما نقصه الآن من فرصة هذا المسلم التي اغتناها لخدمة الإسلام، بل لتأييد بعض ماسون اليهود في الاحتجاج على تفسير القرآن. إن نبذة التفسير التي نشرناها في الجزء الثاني من منار هذه السنة هي

مأخوذة من الدرس الذي ألقاه المفتي في ٦ ذي القعدة سنة ١٣١٧ هـ/ ٨ آذار سنة ١٩٠٠ م] أي منذ ثلاث سنين وشهور وقد نقلتها عنا جريدة الرائد العثماني التي قامت تندد في هذه السنة بسيئات اليهود حتى أنهم حاكموا صاحبها وحكم عليه بشدة علم بها أن الحكومة انتصرت لهم وما كانوا مهضومين ولا مظلومين. توهم بعضهم أن مفتي الديار المصرية صاحب النفوذين الديني والأدبي كتب الآن يساعد تلك الجريدة بقلمه المؤثر فوجلوا ووجهوا ولبأوا إلى جمعيتهم الماسونية وكتبوا بقلم الطيش والعجلة احتجاجاً باسم الماسونية على مفتي الديار المصرية الذي يفسر القرآن العزيز في الأزهر باسم الله الرحمن الرحيم وطلبوا إيقافه عند حده. وأرسلوا نسخاً من احتجاجهم إلى أمير البلاد وإلى اللورد كرومر وإلى رئيس النظار وإلى جميع الجرائد اليومية فلم يحفل أحد باحتجاج هذا المحفل إلا رئيس الماسونية العام في هذه الديار (عطوفتلو) إدريس بك راغب فانه كتب محتجاً على الاحتجاج مبيناً للمحفل أنه خالف قانون الجمعية.

ولكن حدث الوطنية نشر صورة الاحتجاج في جريدته وقام ينتصر لعثرة عثرها بعض يهود الماسون على مفتي الإسلام من حيث هو مفسر للقرآن وسؤل إليه غروره أن ذلك انتقام من المفتي، فما كان إلا زيادة في إجلاله وتعظيمه - حضر رئيس ذلك المحفل الماسوني من الإسكندرية مخصوصاً لزيارة المفتي في الأزهر والاعتذار له ثم كتب هذا الرئيس رسالة نشرها في الجرائد المشهورة في ذلك أثني فيها بما أثني. وزاره في الأزهر أيضاً الرئيس الأعظم للمحافل الأفريقية إدريس بك راغب. وكتب بعض أدباء اليهود في الجرائد يبين خطأ الاحتجاج ونشره وأثني على المفتي بما أثني. وكتبت الجرائد المعتمدة مقالات في ذلك بأقلام كتابها وأقلام غيرهم من الفضلاء سفهوا فيها منشور الاحتجاج والجريدة التي نشرته وفي مقدمة هذه الجرائد المؤيد والاهرام والمقطم والبراميد. ولولا أن كان جميع الكاتبين متفقين

على الاعتذار عن المحتجين بسوء الفهم والاعتراف بأن مفتي الديار المصرية لهذا العهد هو روح الوفاق والوئام، وداعية الاتحاد والالتزام، وإنه لا يرضيه أن يهضم حق فرد من الأفراد ولا طائفة من الطوائف لأن الشريعة التي هو أحد أئمتها قضت بالعدل والمساواة حتى كان خلفاؤها الراشدون يساوون آحاد اليهود بأكبر كبرائهم - لولا هذا لأحدث ذلك المنشور ثورة فكرية قلمية على اليهود سيئة المغبة وكان إثم ذلك على من كتب المنشور بسوء الفهم، ومن نشره بسوء القصد.

«ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوء» [سورة الروم رقم ٣٠ الآية ١٠]. وأي شيء أسوأ ممن أرضى نفسه وأغضب اليهود الذين انتصر لهم بما كاد يوقعهم فيه من الفتنة وأغضب المسلمين لأنه انتصر لليهود عليهم في أمر ديني محض وأغضب الله تعالى لأنه انتصر لأفراد من اليهود على كتابه العزيز وأراد أن يساعدهم على إيقاف من يبينه للناس عند حده وما هو إلا منعه من بيانه للناس ونقض ميثاق الله الذي أخذه على العلماء «ليبينه للناس ولا تكتمونه»^(١) [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١٨٧].

وهنا نكتة لطيفة وهي أن اليهود قد كتبوا ما كتبوا معتزين بالحرية التي في مصر الآن كما صرحوا بذلك في منشورهم وحدث الوطنية يتبجح دائماً بدم هذه الحرية لأن منبعها الاحتلال الانكليزي فهل كانت هذه الحرية جديرة بالمقت والذم من حيث رفعت أثقال الظلم عن كاهل الأمة المصرية وصارت جديرة بالرضى والمدح من حيث يراد بها منع تفسير القرآن من الجامع الأزهر؟ كلا، إن تلك الحرية ما كانت مذمومة عنده من جهة الأحكام إلا لأنه لم يقدر أن يكون فيها حاكماً وما صارت ممدوحة عند الاستعانة بها على منع كتاب الله إلا لأن مفسره لا يدهن له ولا يعتبره زعيماً للوطن فثبت بهذا أن حدث الوطنية لا يخدم إلا شخصه مباشرة واسم الوطنية والإسلام، إنما يذكران إذا صلحا للاستخدام.

(١) وردت «يكتمونه» خطأ.

فعلم مما تقدم أنه لم يكن من مصلحة اليهود أن يطرقوا هذا الباب - دعوى تحامل المسلمين عليهم وكراحتهم لهم - لئلا يفتح فيعجزوا عن إغلاقه هم والحرية التي استنجدوا بها وهي العون عليهم ما لم يخالف أحد القانون في اعتدائه، المسلمون أقرب الناس إلى مسالمتهم بما يرشد إليه الإسلام والتاريخ شاهد عدل في الماضي والحاضر ولكن أهل هذه البلاد يؤثر فيهم القول والوهم فإذا صدقوا أن مفتي الإسلام قد برى قلمه للنيل منهم يعتقدون أنهم خطر كبير على المسلمين أو المصريين. ومن يقدر على إزالة اعتقاد العامة بعد رسوخه؟ قدر بعض الأحداث على تحريك أضغان المصريين على السوريين بكلمات هذوا بها فكان من أثرها أن الألوف من الناس يعتقدون أن السوري بلاء على مصر على أن السوريين موافقون لهم في اللغة والجنسية العثمانية ومنهم من هم على دينهم وليس لهم امتياز يثقل عليهم كامتياز الأجانب ثم إنهم أقل الشعوب التي هاجرت إلى هذه البلاد كسباً، فاليهود والأرمن واليونان وجميع الشعوب الأوروبية تفوقهم ثروة ومن هؤلاء من أفسدوا البلاد بالخمور والفجور ولا ترى مع هذا جريدة مصرية تذكر أحداً منهم بما تذكر به السوريين مما لا يرضي. والسوريون هم الذين خدموا العلم والأدب خدمة لم يدركهم بها المصريون إلى الآن. نعم، إن فيهم بعض السفهاء وفاسدي الآداب والجنسية. وأي شعب ليس فيه الصالح والطالح والمصلح والمفسد؟ فإذا كان أولئك الأحداث قد أثروا هذا التأثير بمعونة الاستعداد للشر فما بالك بهذا الإمام الكبير. كان من حظ اليهود أنهم طرّقوا الباب فلم يفتح لأن المفتي وجميع من يتصل به من حملة الأقلام لا يحبون فتحه ولو فتح لما أغنت عن اليهود الماسونية شيئاً، أما كون الماسونية خرجت في هذه المسألة عن حدها فلا نزاع فيه بعد ما علمنا من احتجاج أستاذها الأعظم على كاتبي المنشور. وكل مخطيء قد رجع عن خطئه إلا حدث الوطنية فعلم أنه هو الذي كان سيء القصد دون اليهود وغيرهم.

الدولة العلية ومكدونية . ورأي في الاصلاح

[المنار ج ٦ (١٩٠٣) ص ٤٢٨ - ٤٣٤].

كتبنا في الجزء الأول والثاني^(١) من هذه السنة نبذتين عن الثورة التي نجمت في بلاد مكدونية قلنا في الأولى إن المسألة عشواء والحكم فيها غامض لأن أهل هذه البلاد وغيرهم من النصارى في بلاد الدولة طامعون بالاستقلال وأوروبا عون لهم ولأن غرض روسيا غير معروف وعليه المدار في هذه المسألة. وقلنا في الثانية إننا اطمأننا من جهة روسيا بعض الإطمئنان وبنينا ذلك على ما كان نقل من ترك روسيا لمنشوريا بسبب الحاجة إلى المال. وتوقعنا من تقرب إنكلترا إلى فرنسا وزيارة ملك الأولى لرئيس الثانية أن يتفقا على عدم إسعاف روسيا على حرب تركيا إذا كانت تريد ذلك وتمهد له بالثورة. وقلنا أيضاً إنه إذا كان اتكال بغاة مكدونية على البلغار والصرب فلا خطر على الدولة العلية لأنها قادرة على تدويخ هاتين بسهولة وإن هي لم تستفد من تدويخهما شيئاً لتعصب أوروبا.

ثم تحولت الأحوال وظهرلنا من الوقائع ما لم نكن نحتسب. ظهر لنا أن روسيا لا تترك منشوريا وهي أول ثمرة تذكر بتلك الملايين التي أنفقتها في مد خطوط الحديد إلى الشرق الأقصى ووراءها من المقاصد الاستعمارية والتجارية ما ووراءها. ثم علمنا أن توجيه عناية الروس الكبرى إلى تلك البلاد ومزاحمة اليابان بالمناكب في ربوعها قد حرك في نفوس اليابانيين الإباء والحمية فصاروا يهجون بمحاربتها حتى قال قائلهم: إننا قد جارينا أوروبا في كل علم وكل عمل وجارينها في القوى البرية والبحرية حتى

(٢) المنار ج ٦ (١٩٠٣) ص ٣٨ - ٤٠. انظر اعلاه ص ٢٣٢.

صرنا في مقدمة دولها العظمى وهي مع ذلك ترانا دونها ذهاباً مع التقاليد الماضية التي تفضل الجنس الأبيض على الجنس الأصفر فلا وسيلة لإقناع أوروبا بمساواة الجنسين إلا بمحاربة روسيا فيأظهار شرفنا ببرهان ساطع يخطف أبصار أمم المدنية لا يكون إلا بهذه الحرب: وما أرى هذه الهواجس إلا من وسوسة الانكليز الذين يعتمدون عليها في إغراء بعض الشعوب ببعض وكانت أنفع لهم من أساطيلهم التي يفاخرون بها.

هذا شاغل كبير لروسيا عن القصد إلى حرب الدولة العثمانية فإن محاربة الترك تضطر روسيا إلى توجيه جميع قواها إلى الشرق الأدنى وهي لا تأمن حينئذ من اليابان ولكنها إذا وجهت جميع قواها إلى الشرق الأقصى لمحاربة اليابان فإنها لا تخاف من الترك اعتداءً ولا تخشى لأنهم أسوأ كما قال الشاعر العربي:

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل مغفرة ومن إساءة أهل سوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الخلق إنسانا

فهذا هو السبب فيما ظهر لنا من رغبة روسيا أولاً وآخرأ في مبادرة الدولة إلى الإصلاح وفي سكوتها عن عقاب قاتل قنصلها الأول لأن قاتله من الإلبانيين الذين كانوا متمردين على الدولة وفي اكتفائها بعقاب قاتل قنصلها الثاني ومن عاونه بأشد العقوبات ونفي والي موناستير إلى طرابلس الغرب وفي نصحتها للبلغار بعدم مساعدة الثائرين. ولو كانت تريد سوءاً لوثبت إليه بما فتح لها من المنافذ وما أشرعت لها الفتنة من الطرق. ويقال إن بين السلطان والقيصر اتفاقاً سرياً نذكر موضوعه بعد.

يعجب الواقفون على أخبار الثورة من سلوك البلغار مع سلوك روسيا فإنهما يسيران متدابرين فيما يتراءى للناظرين - روسيا تسعى في إطفاء النار والبلغار تذكيتها وتحضيها وتمد البغاة في غيهم حتى أن ضباط عساكرها ينسلون من معسكرهم لإدارة الثورة إدارة عسكرية منتظمة وذلك لا يكون

إلا بإيعاز من حكومتهم. أليس في هذا السلوك مثار للريب؟ أيعقل أن تتحرش بلغاريا الضعيفة بالأسد التركي إلا إذا كانت واثقة بأن وراءها أسد أو أسوداً؟ إذا لم يكن الأسد الروسي الذي أعطى هذه البلاد استقلالها هو الذي يحميها من قرنه التركي فعلى أي الأسود تعتمد؟ الأقرب عندي أن يكون الخوف اليوم في موضع الرجاء بالأمس. فإننا لما كنا نسيء الظن بروسيا أحسنا الظن بالإنكليز حتى توقعنا أن يكون الغرض من زيارة ملكهم لفرنسا الاتفاق معها على عدم الرضى من روسيا بمحاربة تركيا لكيلا تساعدنا فرنسا على ذلك ولما ترجح عندنا الآن أن روسيا لا تريد حرباً ولا تضمر غدرًا انعكس الرأي الأول وظننا السوء بإنكلترا وتوقعنا أنها قد اتفقت مع فرنسا على النفخ في نار الثورة وإغراء البلغار بإمدادها ووعدنا بالمساعدة على ضم مكدونية إليها كلها أو بعضها. وهل يتيسر لهما الوفاء بالوعد إذا لم تكن روسيا والنمسا معهما؟ لا حاجة لنا بالبحث في الجواب ولكننا في حاجة إلى التأمل في معاملة أوروبا وماذا يجب علينا؟

إن سلوك أوروبا الجديد في حل المسألة التي يسمونها الشرقية ويعنون بها الإسلامية سلوك عجيب، وأعجب صوره وأغرب أشكاله ما كان من نتيجة محاربة الدولة العلية لليونان فقد جعلت أوروبا الدولة البائدة بالعدوان، المغلوبة في ميدان الطعان، هي الفائزة بالنتيجة إذ جعلت وليّ عهدها حاكماً على ولاية عظيمة من بلاد الدولة المنتصرة (وهي جزيرة كريت) على أن تكون هي الحافظة والحامية لتلك الولاية. وما يدرينا لعلهم يريدون الآن سلخ ولايات مكدونية من الدولة بمثل تلك الطريقة. وهكذا يقطعون في كل مرة عضواً من جسم الدولة يغذون به من يرونه أولى به حتى لا يبقى إلا الرأس والقلب فيسهل على الرؤوس الاتفاق على الإيقاع به.

إننا نرى دول أوروبا عابثة في كل حين باستقلال الدولة ففي كل حادثة لهم أوامر تطاع ومناهي تجتنب والدولة راضية وكل ما تجنيه من الظفر في

بعض الأحيان لا يخرج عن مراوغة في تنفيذ بعض الأوامر أو إرجائها وكلما تم للدولة ضرب من ضروب هذا الظفر الوهمي هتف المغرورون مع الغارين: نحن أصحاب السياسة المثلى والكلمة العليا: فإذا انتهى أجل الإرجاء، وحل اليأس محل الرجاء، سكتوا واجمين. أو خادعوا أنفسهم معتدلين.

يقول الأوروبيون: إن الذي أذل تركيا وذلّلها لهم هو ظلّمها لمن ليس على دينها من رعيّتها لا سيما النصارى. ولنا أن نقول إن وجدنا سامعاً: إذا كانت هذه الدولة تظلم المخالفين لها في الدين فلماذا يهرب اليهود من مشرق أوروبا (روسيا) ومغربها (اسبانيا) إلى بلادها؟ أمن المعقول أن يهرب الناس من ظل العدل إلى هاجرة الظلم؟ وإذا زعمتم أنها تظلم النصارى خاصة فكيف يعقل أن تظلم المخالف الذي يجد أنصاراً أقوياء ينتقمون له وتدع من لا وليّ له ولا نصير؟ وإذا كانت أوروبا تعبت باستقلال الدولة وتفتتت عليها في سياستها الداخلية حباً بالعدل بالمدّومين فما بال هذه الرحمة لا تحرك لهم عاطفة على اليهود الذين يستحرق القتل فيهم بأيدي النصارى لأنهم يهود؟ ليس موقفنا مع أوروبا موقف جدال وحجاج ولكنه موقف قوة وضعف فالقوة تفعل والضعف يفعل.

لماذا كنا ضعفاء وعندنا جيش يشهد له الأعداء بأنه في مقدمة جيوش الأمم الحربية بسالة وشجاعة وتدريباً؟ يقول قوم إن ضعفنا محصور في قلة المال ونقول إن عند الدولة من الذخائر ما يساعد على كل عمل تريده وعندها من موارد الثروة ما أن أحسنت استغلاله واستعماله كانت من أغنى الدول. ويقول آخرون إن ضعفنا محصور في الجهل دون سواه ونقول إن الأمة جاهلة ولكن عند الدولة من الرجال من لا ينقصهم شيء من علوم الإدارة والسياسة. والصواب أن ضعفنا كله معلول لعدة واحدة وهي السلطة المطلقة.

صاحب السلطة المطلقة أقدر على الإصلاح إذا هو علم وأراد ولكنه قلما

يريد. ولم نر أمة من الأمم صلح حالها وارتفع شأنها بسرعة كالأمة اليابانية التي نهضت بهمة عاهلها (الميكادو) على أنها هي الأمة الوحيدة التي ارتقت بملكها وسائر الأمم المرتقية إنما نهضت بأنفسها وأصلحت حال حكامها وأوقفتهم عن حدودهم.

قد بينا في السنة الأولى أركان الإصلاح التي يجب على الدولة العلية إقامتها بعد بيان أسباب الضعف ومناشئ الخلل من تاريخ الدولة الرسمي (تاريخ جودت باشا). ويعتذر بعض الناس عن السلطان بأن مداراة دول أوروبا في الخارج ومناهضة حزب الترك الأحرار في الداخل لم يدعاه وقتاً يصرفه في إصلاح المملكة. ونقول في الجواب أما حزب الأحرار فالصادقون من أهله تؤمن غائلتهم بمجرد الشروع في الإصلاح والمحتالون على المناصب والرواتب علاجهم الإعراض عنهم وعدم المبالاة بهم مهما قالوا وفعلوا.

وأما دول أوروبا فلا مفر من عدوانها وافتئاتها على الدولة وعيبتها باستقلالها في بلادها إلا بالقوة. فأول عمل يجب على السلطان وجوباً فورياً هو الإسراع بإصلاح القوة البحرية وزيادة القوة البرية حتى تكون القوتان في المكانة الأولى ولا أستحي أن أقول إنه يجب أن يكون قصده في عمله هذا إلى جعل قوة الدولة في البر والبحر كقوة دولة فرنسا سواء. ولا يمكن القصد إلى هذا العمل العظيم إلا بعد السماح ببيع تلك الكنوز من ذخائر الملوك الذهبية والجوهرية إلا ما كان أثراً تاريخياً يفيد بقاءه العلم. فإذا أنف السلطان من بيع تلك القناطير المقنطرة من أواني الذهب والفضة ومن الجواهر التي لا صناعة فيها يضمن بها التاريخ وكان لا يجد المال لهذا الإصلاح إلا ببيعها فإن دولته ستفقدها من يوم من الأيام ويكون قد أبى بيعها بعز الدولة لبيعها بذلها وهوانها، (لا قدر الله تعالى).

ومن الناس من يزعم أن دول أوروبا لا تمكّن السلطان والدولة من زيادة القوة وإبلاغها درجة الكمال فإذا هي شعرت بأنه يقوي البحرية

ويعمم التعليم العسكري في الولايات فإنها لا تمهله أن تقتسم بلاده وتعمل بحل عقدة المسألة الشرقية. ونحن نقول: إذا كان من الثابت عند السلطان أن أوروبا لا تتمكن من الإصلاح لأنها تريد أن تحتج بالخلل على تمزيق الدولة وتقطيعها قطعاً سهل عليها ابتلاعها وأنه إذا حاول تقوية دولته لتتمكن من الاستقلال ظاهراً وباطناً فإن دولها تنفق حينئذ على الإيقاع بها مرة واحدة - فأي مرجح للرضى بالتقطيع إرباً إرباً على الاستبسال والتعرض لإحدى الحسينيين حفظ الاستقلال أو موتة الأبطال؟

يقال إنه كان من رأي رجل الدولة العظيم فؤاد باشا أن تمنح الدولة العليا جميع ولاياتها النصرانية في أوروبا استقلالاً إدارياً وأنه صرح في وصيته المشهورة بأن هذه الولايات لا بد أن تنفصل من جسم الدولة في المستقبل فإذا أعطتها الاستقلال الإداري النوعي باختيارها فإنها تقبل مع الشكر والحمد كل ما تشترطه عليها الدولة وإلا فإن كل ولاية منها لا تنفصل إلا بعد أن تسفك الدولة في سبيلها دماء عزيزة وتنفق أموالاً غزيرة فيكون انفصال كل منها ضعفاً على ضعف؛ وقد علمت الدولة صدق هذه الفراسة باليقين، وذات مرارتها بالفعل، فما بالها تلدغ من الجحر الواحد مرتين؟

يجب على الدولة أن تهتم بالإصلاح اهتماماً صادقاً وأن تنشر لواء العدل والمساواة في الحقوق على رؤوس جميع رعاياها، وأن تبدأ بما قلناه من ترقية قوتها البحرية والبرية، وتبذل في سبيل ذلك كل رخيص وغال. فإن علمت أن أوروبا تحول دون ذلك وإنها قادرة على أن تحول، وإنه لا يرضيها الآن ما كان يرضيها من قبل، كالعامل بالقانون الأساسي، فليس أمامها إلا سلوك إحدى طريقتين لحفظ حياتها المستقبلية.

الطريقة الأولى - أن تجعل ولاياتها كالولايات المتحدة في أمريكا تستقل كل ولاية في إدارتها الداخلية ويكون حكامها منها ولا مجال هنا للخوض في

كيفية هذا الاستقلال وشروطه ، فالدولة والسلطان أعلم منا به وبسعادة البلاد المتمتعة به . نعم ، إن الحكم المطلق ألد وأشهى ولذلك لم نطلب من السلطان ترك هذه اللذة والتنازل عن هذه الشهوة إلا إذا كان غير واثق بدوامها .

الطريقة الثانية - أن يتفق مع روسيا ، إذا رضيت ، على أن تعيد إليه بمساعدة فرنسا ، مصر والسودان وتحالفه محالفة حربية على الاستقلال التام في الولايات التركية والعربية ، وأن يعطيها في مقابلة ذلك الأستانة وما شاءت من الولايات المسيحية في أوروبا ، ويعدها بالمساعدة المعنوية على امتلاك الهند ، ثم يجعل التخت في دمشق الشام . ويعتني بعد ذلك ويجد في عمران البلاد العربية التي أهملها أو خربها سلفه من السلاطين ، ويجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، ويجتهد في استعرا ب الترك أجمعين ، ويؤلف منهم ومن عرب العراق ونجد والحجاز قوة عسكرية منتظمة ، ويقيم الشرع . فإذا هو فعل ذلك يكون له ملك عظيم وعز منيع ويأمن غائلة الخارجين بدعوى الخلافة . . فإذا لم ترض فرنسا بإعادة مصر عثمانية محصنة فليكتف ببلاد الأناضول والأكراد والعراق وسوريا وبلاد العرب . فإذا وفقت دولته لترك الجنسية التركية ، والتعصب لها ، وأصلحت هذه البلاد وعززتها ، فإن ملكها يكون بها عظيماً ويتيسر لها بعد ذلك القيام بعمل عظيم .

وإذا بقيت الدولة على حالها فخير مستقبلها مع أوروبا أن يتركوا لها بلاد الترك الخالص المسلمين تحكمها باستقلال أو تحت حماية ، وشرها ، وقاها الله من شرها ، ان يحى أثرها بالتدريج حتى لا يبقى لها عين ولا أثر .





تعريب مقالة نشرت في جريدة «ترك» الغراء

[المنار ج ٦ (١٩٠٤) ص ٩٥٤ - ٩٥٩]

إن دعوى الخلافة هي من أهم الأسباب الداعية لتشتت المسلمين والممانع الوحيد لوفاقهم ووثامهم وما هي بالشيء الجديد. وإنما بدأت منذ زمان سيدنا علي ومعاوية ونمت بعدئذ وتشعبت إلى شعب كثيرة. واشترأبت نحوها أعناق الأمم الإسلامية بأسرها حتى أن كل أمة من هذه الأمم لا يروقها وجود الخلافة عند غيرها ولا تراها صالحة إلّا لها. فكم من دماء على هذه المسألة قد أريق، وكم أرواح زهقت، وأطفال يمت، ونساء رملت، وكم أضرت هذه الدعوى بالإسلام من الأضرار البليغة المادية والأدبية.

وأكثر الكل تبجحاً بدعوى الخلافة هم العرب إذ يتخذون انتسابهم إلى النبي «ص» ونزول القرآن باللغة العربية ومدنية العرب بعد الإسلام حجة على تأييد مدعاهم. ولا يروقهم كون الخلافة بيد الترك الذين تشرفوا بالدين الحنيف منذ سبعة قرون ولا يرونها لاثقة بهم. ومع ذلك فإن الوفاق والوثام لا أثر لهما بين العرب. فترى مثلاً أن أهل الحجاز يريدون أن يكون شريف مكة هو الخليفة وأن الخلافة حقه لا ينازعه فيها منازع. كما أن كل شيخ من مشايخ عربان اليمن يريد الخلافة لنفسه. أما السوريون فإن أفكارهم تناقض هذه الأفكار كل المناقضة. ولو عطفنا النظر إلى المسلمين القاطنين في أفريقيا لرأينا المراكشيين يدعون أن سلطانهم من نسل النبي وأنه أحق بالخلافة من غيره. أما سكان وادي النيل فإنهم يريدون أن تكون

القاهرة مركزاً للخلافة كما كانت في العصور الغابرة فتراهم لا يألون جهداً في تعميم هذا الفكر بين أفراد المصريين. وأما الإيرانيون فإنهم لا يعتقدون بصحة خلافة الذين تولوا الخلافة بعد أولاد الرسول ولا يقبلون غيرهم أحداً، فعلى ظني أن هذه الدعاوى جميعها مبنية على أسس واهية وهذه الأفكار أوهام باطلة وهذه الأقوال غير صحيحة.

فأول شرط من شروط الخلافة هو أن تكون الأمة التي تبغي حمل تبعة هذا المنصب على عاتقها هي أكثر الأمم الإسلامية جاهاً وأبعدهم في الحضارة شأواً وأقدرهم على درء العدو عن حوزة الخلافة المقدسة، وهو ما يقضي به العقل والشرع. فإذا نظرنا إليهم نظرة الناقد البصير فهل نرى غير العثمانيين منهم أمة تحوز هذه الأوصاف جميعها؟ كلا، فالخلافة لا تقاس بباباوية الكاثوليك. ولم تكن وظيفة الخليفة محصورة في رفع الأكف والدعاء لحفظ الخلافة الإسلامية وصيانتها. بل إن من الواجب على الخليفة أن يريق الدماء ويبدل الأموال للذود عن حقوقها.

فلا المراكشيون الذين لا يزالون على ما كانوا عليه من الهمجية منذ القرون الوسطى، ولا حملة الرمح ورماة السهام من قبائل أفريقيا، ولا شريف مكة الذي لا يهمه سوى سلب الحجاج أموالهم، ولا أصحاب الأوهام الباطلة من المصريين بقادرين على القيام بحقوق هذا المنصب. ولا يمكن أن يقوم بأعبائه غير العثمانيين الذين تؤهلهم له حضارتهم وموقعهم الجغرافي وبسالة جنودهم وانتظامها. وما أتوه من الخدم الجزيلة وما أراقوه من الدماء في سبيل هذه الغاية في العصور الخالية هو أقوى دليل على ما قدمنا. ولكن هل استفادوا مقابل ذلك شيئاً من الفائدة المادية؟- كلا، ثم كلا. فلو لم يحملوا تبعة هذا المنصب على عاتقهم لاستراحوا من هذا العناء، ولأمضوا حياتهم السياسية بكل راحة وهناء، ولما تسلطت النصارى حتى الأميريون منهم على الأتراك، ولما ترقبوا الفرص لإيقاع الأذى بهم وكل ذلك لم يكن إلا لكون الأتراك هم عضد الإسلام الأقوى. وجميع

السهم المصوبة نحو الإسلام لا تقع إلا على رؤوس الأتراك. أما ما يقال من أن الترك لم يقوموا بأعباء هذا المنصب حق القيام فهو صحيح. ولكن لبرز من يقدر على القيام بأعبائه أكثر منهم على شرط أن يؤيد أقواله بالأفعال. وحينئذ يرى العثمانيين مستعدين لتسليم هذه الأمانة المقدسة والانزواء في زاوية الراحة.

أما إذا قال قائل إن الحكومة العثمانية لا تترك للسوريين واليهانيين والبغداديين مجالاً، فنقول: من ذا الذي يا ترى غل أيدي المراكشيين والتونسيين والمصريين عن العمل؟ ولكن هيهات «طبيب يداوي والطبيب عليل» أهـ.

المنار: قول الكاتب الأديب إن دعوى الخلافة كانت بلاءً على المسلمين وأنها أضرت بهم كثيراً صحيح وكان يجب عليه أن يبحث في تلافي هذا الضرر لا أن يهيج به بتعظيم قومه وتحقير سائر المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم، وكان يجب عليه أن يمثل لهم قوة الدولة العثمانية عزاً لهم وشرفاً، لا عاراً عليهم وهضماً. إن الكاتب أخطأ في سيره بمقالته وأنا نبين له خطأه ووجه الصواب الذي كان ينبغي له أن يعرفه وأن يعرف الناس به وهو أنه لا يوجد في سوريا ولا في مصر من يفكر في جعل خليفة المسلمين سورياً أو مصرياً أو بغدادياً. وأما الكلام في المسألة فقد وجد في مصر وحدها من أفراد من أهل البطالة الذين يكسبون المال والجاه من الآستانة ومصر بكتابة التقارير، للإيهام والتغدير، وقد كتبوا أوراقاً ونظموا أشعاراً يوهمون بها السلطان بأن خديو مصر يسعى للخلافة سعيها وأن الأمة المصرية تابعة له. ويريدون بهذا التقرب إلى السلطان تارة وإلى الخديو أخرى على أنهم يخوفون السلطان منه ليقضي له حاجاته عنده وحال هؤلاء معلوم وهم يوقنون بأن الأمة المصرية لا تفكر في هذا المعنى ولا ترجوه، فضلاً عن كونها تسعى إليه.

هذا ما نعلمه علم اختبار في القطرين ونعرف برواية الصادقين أن أهل

مكة والمدينة لا يريدون أن يكون أميرها خليفة للمسلمين، وكذلك البلاد العربية كلها تود أن تكون دائماً تحت رعاية الدولة العثمانية وسيادتها بشرط أن تقيم فيها العدل. وأما الذين يخرجون في اليمن فهم معدودون يستفزههم ظلم أحكام الترك فيهيجون، ولو حكموا بالعدل لما كانوا يثورون، فهذا ما نقوله بناءً على اختبار من نقى بهم كصديقنا محمد باشا عبد الوهاب أمير دارين وصديقنا المرحوم [عبد الرحمن] الكواكبي الذي ساه في الجزيرة واختبرها حق الاختبار ولكن العرب لا يصبرون على الضيم فإذا ساءت معاملتهم ساءت أعمالهم. وأما أهل مراكش فلا علاقة لهم بالسلطة التركية. ودعوى سلطانهم الخلافة كدعوى سلطاننا لم تحمل أحدهما صاحبها على منازعة الآخر، وأما كونها مانعة من اتحادهما فالملوم فيه أعلم السلطانين وأحكمهما إذ يرضى أن يكون اللقب سبب التفريق بين رؤساء المسلمين بلا فائدة. وأما الإيرانيون فعذرهم أوضح الأعذار لأن المسألة عندهم دينية محضة فلا يمكن مطالبتهم بترك اعتقادهم إلا بالحجة الدينية ومقالة جريدة ترك سياسية لا دينية.

فعلم من هذا أن تصوير الكاتب الفاضل مسألة الخلافة غير صحيح من جهة الواقع، أي أنه ليس في المسلمين من ينازع الترك بالفعل لأجل لقب الخلافة وهذا هو روح المسألة.

وأما قوله ان العرب يحتجون على كونهم أحق بالخلافة بكذا فغير صحيح أيضاً وإنما يحتجون بالأحاديث الصحيحة المتفق عليها الناطقة بأن الخلافة في قریش هي حجة لم يخالفهم فيها أحد من علماء الترك فهذه كتبهم في العقائد والفقه والحديث متفقة مع كتب علماء العرب على اشتراط القرشية في الخلافة. ولا يقدر أن يقول أن حديث الرسول من «الأوهام الباطلة والأسس الواهية» وإنما الباطل ما ذكره هو في شروط الخلافة من الجاه والحضارة والموقع الجغرافي! نعم، إن القوة هي المدار الحقيقي ولكن يجب على المسلمين أن يجعلوا قوتهم مؤيدة للحق الذي جاءت به شريعتهم

وحجة له لا خاذلة له وحجة عليه . ولو كانت الحضارة شرطاً لما صحت خلافة الراشدين .

وأما قوله : هاتوا لنا من يقدر على القيام بحقوق الخلافة من غير الترك لنسلمها إليهم ، فجوابه : إن الخلافة ليست حقاً شائعاً منتشرأً بين أفراد الشعب التركي الممتاز على جميع الشعوب بحضارته فيقال ذلك ، وإنما هي منصب تقلده الأمة لرجل واحد وهذا الواحد يجب أن تقيده الأمة بشريعتها . فإذا كان ما يقوله الكاتب صحيحاً فيختر الترك أو ليربوا رجلاً قرشياً من آل البيت على صفات الخلافة ويجعلوه بقوتهم التي وصفها خليفة للمسلمين ولا يتوقف هذا على ما يعجز الكاتب به الشعوب الإسلامية من مطالبتها بالاستعداد لإزالة قوة الترك وإيجاد خلافة بقوة أخرى!

وخلاصة القول ، إن البحث في الخلافة والخليفة من اللغو الذي يخشى ضره ولا يرجى نفعه . وإن الذي يجب على كل مسلم في هذا العصر هو أن يؤلف بين المسلمين في حكوماتهم وأفرادهم وأن لا يجعل هذا اللقب سبباً للتفريق ولا اختلاف اللغات سبباً للاختلاف . وإنه لا يضر الترك شيء مثل جعلهم التركية جامعة لهم يفتخرون بها على سائر المسلمين وتعمدهم إضعاف الشعوب الإسلامية ليمتازوا بالقوة وحدهم . فإنهم إذا أمسوا وحدهم فلا بد أن تبتلعهم أوروبا ، وقد رأوا العبرة بالممالك التي انفصلت منهم والممالك التي تهدد بالانفصال . والكاتب الفاضل يعلم أن القوة التي افتخر بها ليست مؤلفة من الترك وحدهم بل منهم ومن العرب والأكراد والأرناؤط وغيرهم . فعليه أن يحث قومه على مساواة جميع الشعوب التي تتألف منها الدولة بأنفسهم في بلاد الدولة ، وأن يتقربوا من سائر الشعوب الإسلامية بخدمة الإسلام نفسه أي بإحياء لغة كتابه المنزل من عند الله تعالى على رسوله العربي ، وإقامة شريعته العادلة ، وبتأمين حرم الله وحرمة رسوله فإن عار سلب الشريف أموال الحجاج إنما هو على الدولة التي تحكم الحجاز لا على الشريف الذي هو أحد عمالها الذين

يوليهم سلطانهم «خادم الحرمين الشريفين». فإذا فعلت الدولة ذلك ووجهت قوتها إلى جمع الشعوب، وتأليف القلوب، رجي لها الفوز بالمرغوب، وإلا كانت هي المقطعة لأوصال الإسلام محافظة على سيادة العنصر التركي.

وأما ما تبجح به من أعمال الترك وجهادهم في سبيل الخلافة المقدسة فهو أغرب ما في المقالة، فإن الترك أيام حروبهم وفتوحاتهم لم يكونوا يذكرون لفظ الخلافة ولا يتبجحون به كالיום، ولم تكن حروبهم دينية إذ لم يكن يتقدمها دعوة إلى الإسلام ولم تكن لحماية الدعوة وحرية الدين، وإنما كانت لسعة الملك. ولذلك لم ينتشر الإسلام في الممالك التي افتتحوها بسعيهم وإقامتهم للدين، ولا ارتقت فيها الحضارة بمدنيتهم، ولا اتسعت دائرة المعارف بعلومهم، ولا قدروا على تحويلها إلى لغتهم وجنسهم بحسن سياستهم، بل أحفظوها عليهم، حتى أمكنتها الفرصة فتملصت من أيديهم، وهذا حق يسوءنا ذكره، ولا يسعنا إنكاره، فعلينا وعلى أخينا الكاتب الفاضل أن نرغب عن الفخر بالباطل، إلى تأليف القلوب بالحق، وما هو إلا شدة حاجة بعضنا إلى بعض وتناسي أننا شعوب مختلفة. فحسبنا أن الإسلام جمع بيننا وجعلنا بنعمة الله إخواناً وإن الخلافة الحقيقية لم تكن إلا للراشدين ثم صارت ملكاً عضوضاً.

ألم يكن أفضل مما كتبه في رمي العرب عامة والمصريين والسوريين منهم خاصة ببغض الترك وتمني نزع لقب الخلافة منهم أن يذكر الجميع بأن أوروبا واقفة للمسلمين عامة بالمرصاد وأن أعون شيء لها عليهم اختلافهم وتفرقهم، وأنه لا مصلحة لأحد منهم في هذا التفرق، وأن الدولة العلية هي أقوى دولهم، فإذا أوقع الأعداء بها وهي قائمة، فكيف يرجي أن تنهض بهم أمة نائمة؟ ألم يكن الأفضل لمن يعتقد أن التنازع على لقب الخليفة هو المانع من اتحاد المسلمين أن يدعوا قومه إلى السكوت عن هذا اللقب ويدعوا سائر الحكومات الإسلامية إلى الاتحاد على حفظ البلاد

الإسلامية مع بقاء كل أمير في إمارته وكل سلطان في سلطته كما يتحالف ويتحد ملوك النصارى؟

ليخبرني الكاتب الفاضل أي ضرر يلحق الدولة أو الإسلام والمسلمين إذا سكتنا عن الفخر بهذا اللقب الذي اعترف هو بأن ادعائه قد فرق كلمة المسلمين؟ إن قال: تفوت فائدته في تكبير أوروبا شأن الدولة العلية، أقول: وهل كان هذا التكبير إلا ضاراً؟ إذ هو الذي أقام قيامة أوروبا على الترك كما قال، وهو الذي يحمل دول أوروبا على التضيق على مسلمي مستعمراتهم توهماً أنهم يميلون إلى الدولة على أنهم لا يتركون الضغط على الدولة لإرضائهم. وإن قال: إنه يفوتها بذلك ما تجنيه من مسلمي تلك المستعمرات من الفوائد، نقول: لا نسلم أن نحو مساعدة مسلمي الهند لسكة الحديد الحجازية وهو لأجل لقب الخلافة، ولئن سلمنا لنقولن إن هذه الفوائد لا توازي بعض مضرة مناهضة أوروبا ونفور العرب من الدولة إن صح قوله الأول إنهم نافرون.



الخلافة - أو الترك والعرب



٣٨

[المنار ج ٧ (١٩٠٤) ص ٧٠ - ٧٤].

ما رأينا جريدة بينها وبين مشرب صاحبها من البون مثل ما نراه في جريدة الجوائب المصرية فإن صاحبها خليل أفندي المطران لا يرى منه جليسه إلا الأدب والذكاء ونبذ التعصب والتحمس الديني ولكنه يرى من جريدته أحياناً ما يخالف هذه المزاي. ذلك إن هذه الجريدة كانت أيام فتنة بيروت ناراً تتلظى من التعصب على المسلمين، ولو كانت منتشرة في سوريا لما خمد لهيب الفتنة إلى اليوم وإلى ما شاء الله تعالى.

والشاهد المقصود لنا بالذات ما كتبه في مسألة «دعوى الخلافة» التي ناقشنا فيها جريدة ترك الغراء، إذ ادعت أن العرب في جميع البلاد وسائر الشعوب الإسلامية تحسد الترك على لقب الخلافة ويدعي كل منها أنه أحق بالخلافة من الترك، وإذ قامت تفاخر هذه الشعوب بتفضيل الترك عليهم. ولما كنا على علم يقيني بأن النداء باسم الجنسية والتفاخر بها والتعصب لها مما لا يبيحه دين الإسلام ومما يفرق كلمة المسلمين ويجعل «بأسهم بينهم شديد» [سورة الحشر رقم ٥٩، الآية ١٤] أنكرنا على رصيفتنا هذه الخطة وأكدنا لها القول بأنه لا يوجد شعب إسلامي يفكر في منازعة الترك السلطة لأجل لقب الخلافة، وأن العرب في الحجاز ونجد والشام ومصر وغيرها من الأقطار يتمنون لو تدوم سلطة الدولة العثمانية مؤيدة بالقوة والعدل ما دامت الأرض والسماء، وأنه لا يضر هذه السلطة شيء مثل المفاخر بالجنس التركي واحتقار سائر الشعوب الإسلامية لإثبات فضله عليها. وقد قلنا إن جميع من لقيناهم من كبار رجال الترك الفضلاء قد وافقونا على اعتقادنا هذا.

فتطفت جريدة الجوائب المصرية على الجريدتين الإسلاميتين وافتاتت علينا بالحكم فكتبت في العدد الـ ٣٥٤ الصادر في ١٢ محرم ١٣٢٢هـ/ ٢٩ آذار ١٩٠٤ م] نبذة افتتحتها بقولها «تشغل الخلافة أفكار المسلمين في جميع الأقطار لكثرة ادعاء الملل الإسلامية بها فالعرب والترك يتزاحمون عليها» الخ ما قاله مناقضاً لقولنا في الرد على جريدة ترك.

وقد جعل ملة الإسلام الواحدة مللاً متعددة فكنا نداوي علة اختلاف الجنس بمرهم الاتحاد الملى فحكمت علينا جريدة الجوائب المصرية الغراء بأنه ملل متعددة لا ملة واحدة فما هذا الافتئات وما هو الغرض منه يا ترى؟

ومن العجب أن هذه الجريدة الجديدة على تحكمها قد تبرأت من التحكم وزعمت أن كلامنا ومناقشتنا تنتج التفريق الضار بجميع الأمم

الشرقية، فانتحلت لنفسها القصد الذي دفعنا إلى الكلام، وكلامها ينتج نقيضه، إذ أثبتت أن التنازع بين الترك والعرب واقع بالفعل، فإذا صدقها الشعبان فإن كلاً منهما يعتقد أن الآخر خصمه. وإنما نحاول نحن اقناع الفريقين بأن هذا التنازع وهمي أو خيالي لا وجود له إلا على ألسنة أفراد من المنافقين.

ثم استدلت الجريدة على أن الترك أحق من العرب بالخلافة بدليل يثبت نقيض المدعي وهي أبلغ المطاعن في السلطان عبد الحميد قالت: «لا بأس أن نذكر كلمة تنسب لجلالة السلطان الأعظم عبد الحميد فقد أوصل إليه بعض المقربين لجلالته صوت تشكي الحجاج عموماً من عون الرفيق باشا شريف مكة وظلمه واستبداده الفائقي التصور والحد طمعاً بأن يصدر جلالته إرادته السنية بعزله وتعيين خلف له. فدرى جلالته بالغرض من التشكي وقال إنني لا أعزل عون الرفيق باشا ولن أعزله كل حياته بل أتركه عبء ومثلاً للذين يستثقلون ظلم خليفة الترك لأريهم كيف يكون ظلم خليفة العرب؟» ١. هـ كلام الجوائب المصرية بحروفه.

فهذه الجريدة تريد أن تقنع قراءها العرب بأن ظلم الشريف الذي يشكون منه مع غيرهم إنما هو جزء من ظلم السلطان التركي لأنه على قولها قد أقامه هناك ليظلم ولن يردعه عن ظلمه في الحرم لغرضه السياسي في ذلك. وكل الناس يعلمون أن أمراء مكة يربون في الأستانة على ما تحب الدولة العثمانية وترضى وأنهم عمال للحكومة العثمانية فإن أساءوا وظلموا فالإساءة والظلم ينسبان إلى من ولّاهم وأقرهم على ظلمهم.

ومن يربط الكلب العقور ببابه فكل بلاء الناس من رابط الكلب

هذا ما تنشره هذه الجريدة وأصحاب جريدة ترك الفضلاء يطبعون جريدتهم في مطبعتهم فيعلمون ما هنالك ولا يردون عليها ولا يدافعون

عن جنسهم وسلطانهم إلا الأوهام التي يسندها الجواسيس ودعاة الفتنة إلى العرب، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

كتبنا هذه الكلمات بمداد التأثر مما كتبت جريدة الجوائب الغراء ويغلب على ظننا أن هذه النبذة المردودة ليست من قلم صاحب الجريدة ولا اطلع عليها قبل نشرها لما لنا من حسن الظن بقصده وأدبه فعسى أن نرى فيها بعد ما يحقق حسن ظننا.

عرف قراء المنار أن من منهجه الدعوة إلى الوحدة والنهي عن الفرقة والتسليم لذوي السلطة وقد كتبنا في السنة الأولى مقالات في الخلافة والخلفاء مثلنا فيها تاريخ الإسلام ومناشئ علله وأمراضه من هذه الجهة، كما مثلناها في مقالات أخرى في العلماء والمرشدين وقد قلنا في فاتحة المقالة الأولى ما نصه (كما في العدد ٣٣ ص ٢٥٧):

«ليس من غرضنا في الكلام على الخلافة بيان شرطها وانطباقها على القائم في مقام الخلافة الآن أو عدم انطباقها فإن هذه المباحث إنما يأتيها أرباب الأغراض الدنيوية بل الأمراض الروحية، الذين يشيرون رواكد الأوهام، ويسرون في دياجير الظلام، ونقول قبل الدخول في المبحث إن كل من يحاول إشراب الأفهام وجوب نزع الإمامة من بني عثمان فهو عامل على الإجهاز على السلطة الإسلامية ومحوها من لوح الوجود وما لهؤلاء النوكي تكأة يتكئون عليها إلا قولهم «الخلافة في قريش» وغفلوا أو أغفلوا الشروط المهمة التي لا تكاد توجد اليوم في قرشي كالعدالة على شروطها الجامعة، والعلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، والرأي الصحيح المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح وجمع الكلمة.

«وكل الذين توسوس لهم أمانيتهم بالخلافة وتطريهم جرائدهم باستحقاقهم لها عراة من هذه الصفات التي هي أركان بناء الخلافة. وما جعل النبي صلى الله عليه وسلم، الخلافة في قريش إلا لما كان لهم من

المكانة في النفوس التي من أثرها اجتماع القلوب عليهم والإذعان لسلطانهم عن رضى واختيار، وقد نال هذا المعنى آل عثمان فحصل المقصود الشرعي به»^(١).

هذا ما كتبناه من بضع سنين ولم يكن قد مضى علينا في هذه البلاد الحول فكنا نتوهم صدق بعض أقوال المرجفين ونحاول إقفال هذا الباب وإيثاس الناس منه لما فيه من الضرر.

وكتبنا في تقرير جريدة اللواء^(٢) كما في (ص ٧٠٢) من السنة الثانية ما

نصه :

«وقد انتقدنا عليها، أي جريدة اللواء، أمراً ذا بال وهو الإرجاف بأن بعض الناس في مصر يسعون في إقامة خلافة عربية كأن الخلافة من الهنات الهيئات، تنال بسعي جماعة أو جماعات، ولا يمكن احتقار مقام الخلافة الأعلى بأكثر من هذا الإرجاف. مقام الخلافة أسمى من أن يتطاول إليه أحد، وقد سلم السواد الأعظم من المسلمين زمامه لبني عثمان تسليماً. والرابطة بين الترك والعرب هي، كما قال المرحوم كمال بك الكاتب الشهير، موثقة بالأخوة الإسلامية والخلافة العثمانية، فإن كان أحد يقدر على حلها فهو الله وحده وإن كان أحد يفكر في ذلك فهو الشيطان. ويعلم كل خبير بحال هذا الزمن أنه لا يرجف بالخلافة إلا رجلاً - رجل اتخذ الإرجاف حرفة للتعيش وأكل السحت أو التحلي بالوسامات والألقاب الضخمة، ورجل اتخذ الأجانب آلة لخداع بسطاء المسلمين بإيهامهم أن منصب الخلافة ضعيف متزعزع يمكن لأي أمير أن يناله ولأية جمعية أن تزحزحه عن مكانه ليزيلوا هيئته من القلوب ويقنعوا نفوس العلمة الأغرار بإمكان تحويله في وقت من الأوقات، وبأن المسلمين ليسوا راضين من الخلافة العثمانية جميعاً.

(١) المنارج ١ (١٨٩٨) ص ٣٥٧. أعلاه ص ٣٤.

(٢) صاحب جريدة اللواء مصطفى كامل.

«كان مصطفى كامل أفندي يوم ألف كتاب المسألة الشرقية ينسب هذا الطمع الأشعبي للإنكليز، واليوم نرى مصطفى كامل بك يلقي القول فيه على عواهنه في خطبه وجريدته ويدع نفوس البسطاء تذهب فيه كل مذهب، وإذا سئل الإفصاح وبيان المجلد يجمع ويغمغم، فإن كان على رأيه الأول فليصرح به ليرجع العامة عن أوهامهم والخاصة عن سوء الظن به، وإنه أحد الرجلين اللذين ذكرناهما آنفاً ولا نظنه إلا على مذهبه الأول، وعلى اللواء في البيان المعول»^(١). هـ.

فيرى القارئ أننا في عبارة السنة الأولى كنا مغترين بكلام بعض المرجفين وأنها في السنة الثانية علمنا حق العلم أن مسألة الخلافة لا يلغط بها إلا نفر من أصحاب الأغراض كما قلنا في مقالة «دعوى الخلافة» ويرى أن لهجتنا قوية في الإنكار على من تكلم في هذه المسألة لاعتقادنا بضرر الخوض فيها، فقد عادانا صاحب جريدة اللواء لتشديدنا في الإنكار على ما كتبه بذلك في أول ظهورها وما قاله في خطبة له تلاها في ذلك العهد. وقد كنا في غنى عن إحراج مثله بعدما كان راضياً عنا وعن المنار حتى أنه كان يهتئنا على بعض المقالات ويقول إن هذه الخطبة أنفع ما يكتب للمسلمين. فليعذرنا أصحاب جريدة ترك وصاحب جريدة الجوائب فإننا لا يمكننا السكوت عن الإنكار على كل من يذكر الناس بما يوجب التفرق والخلاف لأجل لقب الخلافة المشؤوم أو اختلاف الجنسية اللغوية، فحسبنا ما منينا به من المصائب والنوائب، واستبداد الحكام وسلطة الأجانب.

(١) المنار ٢ (١٨٩٩) ص ٧٠٢.



رأي في سلب الأمن من الحجاز

[حفظ الحرمين بعزل أمير مكة

وواليتها ومعاقبتهما]

[المغار ج ٧ (١٩٠٤) ص ١٠٥ - ١٠٨]

تواترت الأخبار تواتراً حقيقياً أصولياً باختلال الأمن في بلاد الحجاز وبأن حكومة الحجاز التي القي زمامها بيد أمير مكة ووالي الحجاز قد كانت من عوامل هذا الخلل . ظهر للناس كلهم من سبب ذلك الطمع في مال الحجاج الذي كانت الحكومة تسلبه منهم وتنهبه باسم إعانة سكة الحديد الحجازية واسم زيادة أجرة الجمال وبأسماء أخر سمتها ما أنزل الله بها من سلطان . والسبب الخفي الذي يعتقد به بعض الخواص دون بعض هو أن كل ما قد جرى فإنما جرى بتمهيد وإيعاز من الأستانة ولا نبحت في أدلتهم على ذلك الآن . وإنما نقول إنه لا يبرىء الدولة العثمانية من هذه الجناية الكبرى إلاّ عزل أمير مكة وواليتها ومحاكمتهما ومجازاتهما وعزل وكيليهما أيضاً . فإن فعل السلطان ذلك فقد استبرأ لدينه ومنصبه وإلاّ ثبت لجميع مسلمي الأرض ما يتهمس به بعضهم الآن من أن كل ما جرى موعز به من الأستانة ، وأن الغرض منه منع الحج بالمرّة أو منع خواص المسلمين وعلمائهم من زيارة تلك البلاد لئلا يتأمرؤا هناك وينصبوا لهم خليفة بالانتخاب الشرعي . وذلك إن الخواص وأهل العلم هم الذين يعلمون أن الفريضة تسقط عنهم عند عدم الأمن على الأرواح أو الأموال وهم الذين يحافظون على حياتهم كما يجب وهم الذين تخشى جانبهم سياسة التفريق التي صعب عليها أن يجتمع اثنان أو ثلاثة من أهل العلم والرأي

ولو في بلد غمره الاستبداد، وتغلغلت فيه العيون والجواسيس، فكيف يسهل عليها أن يجتمع العلماء والفضلاء من جميع الأقطار في موقف مقدس ويتمتعون مع ذنب الاجتماع بالأمن على أرواحهم وأموالهم؟ وأكبر أمانينا أن يكذب سلطاننا، وفقه الله، هذه الظنون بما ذكرنا ويعين للحجاز أميراً ووالياً آخرين يجعل عليهما تبعة كل التقصير في حفظ الأموال والأرواح في تلك البلاد التي حرم الله أن يصاد صيدها وإن يختل خلاها، فإن لم يفعل كان إهماله أمر هذه البلاد المقدسة لأجل لقب الخلافة هو الذي ينزع منه هذا اللقب العظيم، وينفر من الدولة قلوب جميع المسلمين.

ليس أمر العبث بالأمن في الحجاز كأمر العبث بالأمن في بلاد مكدونية وأرمينية، ولا الإلحاد في الحرم كالإلحاد في بلاد الروم وإن كانت (بأية أستانبول العلمية) أعلى في قانون الدولة من (بأية الحرمين). فإن ملك هذا الأمر الذي يسمونه الخلافة هو في اعتقاد أكثر المسلمين القائلين به حفظ الحرمين وتسهيل إقامة هذا الركن الديني. فإذا صار مهدداً بالهدم برضاء السلطان أو بعجزه فأبى عمل من أعمال الخلافة يبقى له؟ وظيفة الخليفة إقامة الدين وحفظه فإذا كان المرتد لا يقتل، وإذا كان الألوفاً من المسلمين يكلفون بترك صلاة الجمعة للوقوف أمام الجامع الحميدي عند صلاتها، وإذا كان ركن الزكاة قد هدم والسلطان العثماني لا يبالي بهدمه كما بالي الخليفة الأول إذ حارب مانعي الزكاة بإقرار الصحابة، وإذا كان الصوم سرّاً بين العبد وربّه، فهل بقي من ركن من الخمسة تطلب فيه عناية سلطان المسلمين غير الحج؟ وهل يطلب منه في ذلك شيء أقل من حفظ الأمن ومنع تعدي العمال وأعوانهم من الأعراب على أنفس الحجاج وأموالهم؟ ألم ير السلطان كيف أقبل المسلمون على إعانة سكة الحديد الحجازية بالآلوف والآلوف مع إهمالهم فضيلة التعاون على الأعمال العمومية في هذا الزمان؟ ألم يعلم أن السبب في هذا هو اعتقادهم بأن هذه السكة تسهل لهم طريق الحجاز؟ فإذا رأوها آلة لسلب الأمن على المال

والأنفس في الحال، فكيف يصدقون أن الغرض منها حفظ الأمن في المستقبل؟

ألا يعلم السلطان أن كل مسلم يسائل نفسه اليوم: هل السلطان قادر على تأمين الحرمين الشريفين أم لا؟ وأنهم لا يجدون في أنفسهم إلا أحد جوابين إما انه قادر ولكنه يريد سلب الأمن وإما انه غير قادر. فأبي الجوابين يرضيه إذا لم يبادر إلى معاقبة أمير مكة وواليتها وعزلها مع وكيلها ووضع آخرين مسؤولين عن الأمن في موضعها وإعلام جميع الأقطار بذلك.

أيظن أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ينخدعون بقول جرائد الآستانة وجرائد بيروت أن أمير الحجاز وواليه قد حفظا الأمن أتم حفظ وأن الحجاج كانوا في غاية الرفاهة والراحة لا شغل لهما إلا تكرار الدعاء للخليفة الأعظم والسلطان الأفخم كما جاء في المنشور الرسمي الذي أرسله إلى الآستانة حسب العادة المتبعة في كل عام؟ كيف ينخدع من يرى هذه الجرائد، وقليل ما هم، بقولها وقد انبث في الأقطار مئتا ألف حاج وكلهم يخبرون بكذبها؟ إذا حدث كل حاج عشرة من الناس بما رأى وسمع وقاسى وعانى يكون مجموع العارفين مليونين وكم يخبر كل واحد من هذين المليونين؟ إن هذا الأمر ليس كسائر الأمور فينفع فيه تضليل الجرائد التي ينخدع بها الجاهلون بسلطة السياسة عليها. على أن الجرائد الحرة في مصر وغيرها أكثر من تلك الجرائد انتشاراً، وأصدق أخباراً، وقد أجمعت على تمثيل فقد الأمن في الحجاز لا سيما بعد ما ورد تقرير أمير الحج المصري على الحكومة ونشرته في الجريدة الرسمية وفيه من تمثيل المخاوف والاعتداء على الأموال والأنفس ما يؤكد رسائل الحجاج الكثيرة.

يسند بعض المنافقين من أصحاب الجرائد وغيرهم كل إلحاد في الحرم إلى شريف مكة. وجريدة ترك تملأ ماضغيها بدم العرب والأشراف مستدلة بسوء سيرة الشريف ولكن العاقل والجاهل يعلم أن الشريف أحد

عمال السلطان. ويذهب كثير من الناس إلى صحة ما قالته جريدة الجوائب المصرية (كما في الجزء الماضي) أن السلطان قد أقامه هناك وأقره على الظلم ليكون حجة على العرب والشرفاء أمام المسلمين. ولكن هذا غير معقول فإن الناس يعرفون أن السلطان قادر على عزله وعلى تأديبه في كل آن، ويعرف الكثيرون أن الشريف لم يكن له أمر ولا نهي على عهد عثمان باشا والي الحجاز السابق بل كان ذلك الوالي قد أُلجأ إلى ترك المقام في مكة فأقام في المدينة المنورة حتى عزلت الدولة عثمان باشا عن الحجاز. وكان أول عمل كسر به شرته أن أمر فرقتين من العسكر بحمل مدفعين والإحاطة ببيت الشريف وطلب جانٍ التجأ إليه منه وقال لهم إن أبي تسليمه فضعوا الحديد في يد الشريف نفسه وأحضروه إلى هنا بالقوة. وقد بادر البكباشي إلى إخبار الشريف بذلك فأرسل الجاني حالاً وكان يهزأ قبل ذلك بالحكومة اذ تطلبه منه.

لعل بعض القراء يمتعض من شدة انكارنا لميله مع ربح السياسة أكثر من ميله إلى خدمة الدين، وربما يسبق إلى وهمه أن للنفس هوىً في هذه الكتابة لما تعود عليه من كتابة أهل السياسة. ولي أن أقول لهذا الواهم: إنني ورب الكعبة أتمنى لو أحج وأنني ورب الكعبة لا آمن على نفسي بل أعتقد أن الحج حرام عليّ ما دام هؤلاء الحكام على سيرتهم هذه في الحجاز، وأنني والله أتمنى لو تصلح حكومة الدولة العثمانية فتكون خير حكومة في الأرض. ولكنني أحب صلاح الدولة لأجل الإسلام لا أنني أحب الإسلام لأجل الدولة.

إن الله تعالى امتن علينا بجعل البلد الحرام والبيت الحرام أمناً للناس كما نطق بذلك القرآن الكريم وما نحن من تفسير بعض آياته في ذلك ببعيد ومنها قوله تعالى «فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ٩٧]. وقوله عز وجل «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٢٥]. وقال النبي صلى الله

عليه وآله وسلم في خطبته بعرفة يوم النحر من حجة الوداع «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟ - قالوا: نعم، قال: - اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» رواه أحمد والبخاري فجعل حرمة الدماء والأموال مشبهاً وحرمة البلد الحرام والشهر الحرام مشبهاً به كأنه أبلغ في التحريم فكيف صارت الأموال والدماء تباح في البلد الحرام في الشهر الحرام ولا يوجد من يسأل عنها؟ وكيف يحرم الله في ذلك المكان والزمان قتل القمل والحشرات وقلع النبات وتحلل الحكومة العثمانية قتل النفوس المنيية إلى ربها اللاجئة إلى بيته الداخلة في ضيافته وسلب الأموال المحرمة كذلك ثم ندهن لها ونكون من المؤمنين؟

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم ونحن قادرون على الإنكار بالسنتنا فكيف نسكت؟ والواجب على المسلمين أن يخرجوا عن طاعة هذه الحكومة إذا ثبت أنها تتهاون بأمر الأمن في الحجاز ولا تمنع الظلم منه فإن سكتوا ورضوا كانوا ملعونين في القرآن ويوشك أن يسلط الله عليهم من ينزع منهم ما بقي بأيديهم يعيشون فيه فساداً حتى الحجاز «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [سورة المائدة رقم ٥، الآيتان ٧٨ - ٧٩].

هذا، وإننا إنما نشدد في الإنكار رجاء التأثير ونسأل الله تعالى أن يوفق هذه الدولة إلى المبادرة إلى تلافي هذا الأمر بطريقة تقنع القريب والبعيد، والذكي والبليد، بأن الأمن قد عاد إلى تلك البلاد المقدسة وإلا فإن العاقبة تنذر بخطر عظيم يشعر به المتفكرون، وإن عمي عنه الطامعون، وتغافل

عنه المنافقون، وجهل مشاره الغافلون؛ «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» [سورة الشعراء رقم ٢٦، الآية ٢٢٧].

استقلال الحكومة باستقلال الأمة



[المنار ج ٧ (١٩٠٤) ص ٣٥٨ - ٣٥٩].

إن الأمم الجاهلة المحكومة بالاستبداد، المذللة بالظلم والاضطهاد، لا يخطر على بال أفرادها معنى يعبر عنه باستقلال الأمة. ولا يعقلون أن للرعايا أثراً في سيادة الحكومة، إلا بما يؤدون من الأتاوات والضرائب وما يسخرون به من الأعمال لترقية ساداتهم المستبدين. فإذا عبثت باستقلال حكومتهم حكومة أخرى أجنبية طففوا يشعرون بمعنى الاستقلال بالتدريج ويقوى فيهم هذا الشعور بنسيان ظلم حكامهم السابقين لا سيما إذا كان الأجنبي العايب ظالماً. على أن النفرة من سلطة الأجنبي طبيعة في الأمم فإن هو عدل تمنوا لو يستبدلون بسلطته سلطة من جنسهم عادلة ليكونوا مستقلين، ولكنهم بعد هذا كله لا يفهمون من معنى الاستقلال إلا إعادة السلطة للأسرة الحاكمة فيهم بالاستبداد من قبل. وبلغ فساد التصور من بعض الأفكار أن تتخيل إرشاد الأمة إلى ضرر الاستبداد والمستبدين من عوائق الاستقلال، وهذا من أعجب عجائب عالم الخيال.

يا معشر المتخيلين والواهمين إنكم لن تتنسوا للاستقلال ربحاً، ولن تستنشقوا له عرفاً، إلا بعد الاعتقاد القاطع بأن الاستقلال إنما هو استقلال الأمة وذلك بأن ينفع فيها روح من التربية والتعليم يشعر جميع طبقاتها بمعنى الأمة وحقوقها وأول هذه الحقوق أن تختار هي الحاكم الأعلى لها وأن تقيد حكومته بشريعتها وقوانينها التي ترضاهما وتلزمه بتنفيذها بمشاورتها

وتحت مراقبتها وسيطرتها حتى يكون لها الحق بعزل من يشذ عن ذلك أو إقامته عليه، سواء الحاكم الأكبر وغيره.

يا معشر المتخيلين والواهمين إن أمة محرومة من هذه الروح لن تعرف للحياة الاستقلالية معنى، ولن تذوق للسيادة القومية طعماً، بل تظل طعمة للطامعين، وألعوبة في أيدي المتغلبين، فيوماً يستعبدونها من يشاركها حقيقة أو صورة في وصف من أوصافها في اللغة أو الجنس أو الدين، ويوماً يستذلها من لا يشاركها إلا في الصورة البشرية، فهي تتراوح دائماً بين استعباد واستذلال، لأن طبيعتها قاضية بهذه الحال، بفقدتها تلك الروح التي تبعث بطبيعتها الاستقلال.

يا معشر المتخيلين والواهمين إن حنين الأمة التي عبث الأجانب بسطان حكومتها إلى حكامها السابقين المستبدين ليس حنيناً إلى الاستقلال بل إلى الاستبداد، وإن المحافظة على بقايا رسوم السلطة السابقة، لا يكون آلة لمقاومة السلطة الطارئة، وإنما الذي يمنع الأمة من كل جور، ويصد عنها كل ظلم، هو ما يهبها حقيقة الاستقلال في ذاتها ثم في حكومتها بأن تكون الحكومة مستقلة باستقلال الأمة قوية بقوتها وقد عرفت معنى ذلك الاستقلال ومهب روحه من النداء الأول فاعملوا له إن كنتم عاملين، أو موتوا بضعفكم إن كنتم متواكلين.





[المغار ج ٧ (١٩٠٤) ص ٤٧٥ - ٤٧٨]

كتب إلينا من فاس أن أبا حمارة يكوّن سلطنة في تازة. وأنه ظهر خارج آخر يدعى أبا عمامة (وهو معروف) وأنه ليس لدى الحكومة في فاس أكثر من ألف جندي وأن الخزينة مفلسة فإن الدين الذي أخذه السلطان عبد العزيز من فرنسا قد اشترى به من باريس كثيراً من الأثاث والرياش والماعون وأدوات الزينة والزخرف، وأن فرنسا قد استلمت إدارة المكس (الجمرك) بطنجة في مقابلة المال الذي أخذه السلطان منها وقدره ٦٢ مليون فرنك وابتدأت بالعمل، وأن بعض الوزراء ميال لسياستها كما كان المهدي المنبهي ميالاً إلى إنكلترا حتى أنه دخل في حمايتها رسمياً وهو وزير وإن كان لا حق له في ذلك، وأن جهل هذا الوزير هو الذي ذهب بما كان عند الدولة من السلاح الكثير وأفسد عليها جيشها وأطمع الخارجين فيها، وأن السلطان قد صادره بعد عودته من الحج هو وكاتبه وقد قبض على كاتبه وامتنع هو في طنجة بحماية قنصل إنكلترا. ويظن الكاتب أن في تداخل فرنسا في شؤون البلاد خطراً عظيماً لأن جميع القبائل مستعدة للمقاومة بالقوة وأنهم ما أبغضوا السلطان إلا لميله إلى الأجانب ولولا ذلك لم تمتد دعوة الخارج وتقوى شوكته.

هذا ملخص ما كتبه الكاتب من أخبار البلاد وهو يقول مع هذا ما يعلمه المختبرون من أن أكثر علماء تلك البلاد لا يزالون على ما كانوا لم تحدث لهم موعظة ولا تجدد لهم اعتبار ولا اقتنعوا بالحاجة إلى شيء من العلم والعمل غير فقه المالكية ومقدماته، وعامتهم لا تزال تعتقد مع أكثر خاصتهم أن أعظم واق للبلاد هو وجود قبور الأولياء فيها لا سيما سيد

ادريس الأكبر، رضي الله عنه، ولو عرفوا مع كتب النحو والفقه شيئاً من تاريخ المسلمين لكان لهم فيه عبرة، فإن معظم بلادهم خرجت من أيديهم واستولى عليها الإفرنج على بعد أكثرهم عنها وكان أهلها يقولون بقول أهل مراکش ويعتقدون اعتقادهم. كان أهل بخارى قبل فتح الروسية لبلادهم يرون أن قراءة البخاري وسر سيدي بهاء الدين شاه نقشبند إمام الطريقة المشهورة كافيان لحماية البلاد من كل سوء وقد دخلت الجنود الروسية عاصمتهم وهم مشغولون بقراءة البخاري فلم تغن عنهم قراءة البخاري ولا البخاري نفسه ولا شاه نقشبند شيئاً من عذاب الله الذي تركوا سنته في خلقه وأمره في كتابه «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» [سورة الأنفال رقم ٨، الآية ٦٠].

يتوقف امثال أمر الله في هذه الآية على معرفة الفنون العسكرية ومنها الرياضية والطبيعية التي يحرمها الغفل من الفقهاء باسم الدين فيحرموا ما فرضه الله تعالى على الأمة اعتداء على الله وافتئاتا على دينه، والعامّة تغش بهم لأنها اعتادت على تقليدهم، ومن ينير الله تعالى بصيرته ويؤتیه فهماً في كتابه فيحاول إقناع الناس بما أوجب الله تعالى عليهم من الاستعداد للأعداء بمثل ما يستعدون به لإزالة سلطة الإسلام - وهو العالم حقاً - يهيجون عليه العامة بأنه يدعوهم إلى علوم الكافرين ليفسد عليهم دينهم وأن ما يستدل به على دعاويه من كتاب الله تعالى غير جائز لأمثاله لأنه مخصوص بالذين ماتوا من المجتهدين، ولكن كيف جاز لهم هم أن يجتهدوا بجهلهم فيحلوا ويحرموا بأهوائهم من غير بينة ولا دليل.

هذا ما وصلت إليه الأمة الإسلامية بإرشاد علمائها، واستبداد سلاطينها وأمرائها حتى نزع الله منهم أكثر ممالكهم ولا تزال الأمم الافرنجية تستولي على بلادهم مملكة بعد مملكة ولا يرجع المتأخر عما كان عليه المتقدم فمن نعاب ومن نخاطب.

الخواص والزعماء هم الذين ينهضون بالأمم ولكن طول عهد المسلمين

باستبداد الأمراء قد أفسد النفوس، وطول عهدهم بالجهل والتقليد قد أفسد العقول، فأَيُّ زعامة ترجى مع فساد نفس المرء وعقله.

تنحي جرائد هذه البلاد على السلطان عبد العزيز وتنعي عليه إسراره في اللهو واللعب واللذات الحسية وكل أمراء المسلمين كذلك بل يعرفون من طرق الشهوات واللذات ما لا يخطر له على بال. وإنما يلام هذا السلطان على كونه لا يعرف شيئاً غير اللهو وأنى له أن يعرف شيئاً و«العلم بالتعلم» وهو لم يتعلم من علوم السياسة وإدارة الممالك شيئاً. ثم أنى له أن يعمل بما عساه يعلمه و«الحلم بالتحلم» أي أن الأخلاق والأعمال الحسنة إنما تنشأ عن التربية والتعود عليها وهو لم يترب إلا على اتباع ما يجب ويشتهي، وأننا نرى من تعلم من امرائنا وعرف ما لم يعرفه غيره لا يتبع إلا هواه إلا أن يعجز عنه ويضطر إلى غير ما يهوى اضطراراً.

الواجب على الجاهل بما ينبغي له علمه وتتوقف عليه سعاداته إن كان عاقلاً موقفاً أن يستعين بمن يعلم ذلك ويقدر على العمل به بقدر الإمكان ولكن طبيعة الاستبداد كالخدر في الجسم لا يحس معه المرء بالحاجة إلى الدواء فيسعى بطلبه ولو أحس لوجد للمقتضى مانعاً وهو لذة الاستبداد التي تعلق كل لذة في الكون فهو يختار أن تطوح أمته في هوة الهلاك على أن يعارض استبداده وحكمه المطلق معارض إصلاح.

السلطان عبد العزيز لا يرى أمامه ولا حوله داعياً إلى إصلاح عسكري أو إداري أو علمي ولا يشعر بأن الأمة تطالبه بشيء من ذلك بل ربما كان يعلم أن أمته تكره كل شيء جديد وإن كان السعادة والسيادة، أفلا يكون معذوراً بالنسبة إلى سلطان يعلم أن في رعيته الألوف وعشرات الألوف بل والملايين من العارفين بدرجة ضعف الدولة الشاعرين بخطر الجهل في الأمة والاستبداد في السلطة المطالبين بالإصلاح ثم هو يحاربها كلها ويسعى في إطفاء كل شعلة للعلم وجذوة للغيرة في كل زاوية من زوايا بلادها وقراها حتى أنه ليعد من أكبر الجرائم السياسية الاطلاع على كتاب في فن

التربية والتعليم ويعاقب على ذلك بدون محاكمة عقاباً لا حد له ولا شرع ولا قانون؟

ساح شاه إيران في بلاد أوروبا ورأى فيها من آيات القوة والرقى ما عرفه الفرق بين العلم والجهل والعمران والخراب والترقي والتدلي والقوة والضعف فاشتبهى أن يصلح حال دولته ولكنه لا يجد في بلاده من يقدر على القيام بالأعمال الإدارية ولا المالية ولا الحرية ولا التعليمية.

فهنا شعب إسلامي يجب الإصلاح ولكن سلطانه لا يحبه وهناك شعب إسلامي لا يشعر بالحاجة إلى الإصلاح ولكن سلطانه يشعر به. فلا شعب يقدر على تقييد سلطان ولا سلطان يقدر على إصلاح شعب. وأما بلاد مراكش فلا سلطانها يشعر بما يجب ولا شعبها فحالتها شر الأحوال.

ولكن قد بلغنا أخيراً أن بعض الكبراء في فاس يشعرون بالخطر الذي يندرهم ويتمنون لو يقتنع السلطان بمثل ما هم مقتنعون به ويتفق معهم على العمل لتلافي الخطر ثم لا يجدون لذلك وسيلة ولا يهتدون إليه سبيلاً. المسلمون مساكين، المسلمون فقراء، أما إنهم ليسوا فقراء الأيدي ولكنهم فقراء العقول والقلوب فإنه لا يزال في أيديهم أفضل بقاع الأرض ولكنهم قوم يجهلون.

نعم، قد رشد من المسلمين أفراد قليلون، ولكنهم في شعوبهم القاصرة ضائعون، ومع هذا فهم محل الرجاء في جميع الأرجاء، يعدون للإصلاح الأفراد، ويؤلفون ما استطاعوا بين الأحاد، وإن الإصلاح والإسعاد، على قدر الاستعداد، فنسأل الله أن يسد أمرهم، ويشد أزهرهم، ويكثر عددهم، ويقوي مددهم.





[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٦٧ - ٧١]

إن للإجسام حياة وللنفوس حياة غير حياة الأجسام ولكن بعضهما يرتبط ببعض، وإن للأفراد حياة وللأمم غير حياة الأفراد ولكن إحداهما تتوقف على الأخرى.

يعرف الجسم الحي بطلب الغذاء الذي يحفظ حياته من الخارج ويدفع العوارض الضارة عنه وإفراز المواد الميتة من بنيته. ويستوي في هذه الحياة النبات والحيوان. وتعرف النفس الحية بالحرص على الكرامة وارتفاع المنزلة بالحق وبدفع أسباب المهانة وتوقي طرقها وبالنضال عن الشرف أن تصل إليه أيدي العابثين، أو يصيبه وهم الواهمين، وأما حياة الأمة فهي أثر روح يسري في أفرادها فيشعرهم بأن مكان كل واحد منهم من مجموع الأمة مكان أحد أعضائه من جسده فهو يلاحظ في كل عمل منفعة نفسه ومنفعة أمته معاً، كما أن عمل كل عضو في البدن يكون سبباً في حفظ حياته من حيث هو سبب لحفظ حياة البدن كله.

الجسم الحي أشرف من الجسم الميت وأبقى. بل الأجسام الميتة تكون غذاءً للأجسام الحية ومتاعاً تتناول منه ما تحتاج إليه لتجعله عوضاً عما يندثر منها وينفصل عنها، كذلك الأمم الحية تتغذى من الأمم الميتة وتنتزع منها ما تحتاج إليه في حفظ حياتها وطول بقائها ودوام عزتها وشرفها. فالأمة الحية أشرف من الأمة الميتة وأرقى في مرتبة الوجود.

قد يشته على الجاهلين التفاضل بين الناس في الحياة والموت بهذا المعنى فيذهب الجهل ببعضهم إلى أن زیداً الميت أفضل من عمرو الحي بما هو أكثر مالاً وعشيرة وأحسن أثناً ورثياً. ولورجعوا إلى العلم الصحيح

والاختبار الدقيق لرأوا أنفسهم يفضلون معاملة فلان التاجر الذي يملك ألف دينار على فلان الوارث الذي يملك مئة ألف ويرون من الثقة والرجاء في الأول ما لا يرون في الثاني لأن الأول يجمع ويشيد، والثاني يبید ويبدد، فالألف تنمو في كل عام، ومئة الألف تنقص في كل يوم من الأيام، حتى أن حديد البصر يرى الأول غنياً مثيراً، والثاني فقيراً مستجدياً، ذلك أنه ينظر إلى المستقبل الذي يسيران إليه، فيمثل له في الحاضر الذي يراها فيه.

معرفة شؤون الأمم والشعوب، أخفى على الأكثرين من معرفة حال الأفراد والبيوت، فكم من جاهل يفضل أمة على أخرى لأنها أصح ديناً وأعدل شريعة، أو لأنها أشرف أرومة وأعرق في المجد جرثومة، أو لأن تراثها من سلفها أكثر، ومزاياها الجنسية أشهر، أو لأنها أكثر عدداً ومدداً؛ وأعز عشيرة ونفراً؛ وإذا صح أن يكون هذا كله أو بعضه للأمة الميتة زمناً من الأزمان فإنه لا يبقى إلا ريثما تتصل بها أمة حية، فتري هذه تمتص جميع مزايا تلك ومقوماتها الحيوية، وتلك تتحمل آفات هذه وعللها البشرية، حتى تكون إحدهما في عليين والأخرى في أسفل سافلين.

يسهل على القارئ في الشرق القريب، أن ينظر فيما بين يديه من الشعوب التي تضمها جنسية سياسية أو لغوية، وتفصل بينها روابط نسبية أو ملية، فإنه يرى شعبين يمتاز أحدهما بكثرة العدد وكثرة المال وقوة الحكم وقوة العلم ثم يجد نفسه تفضل قليل المزايا منها على كثيرها لأنه يرى الشعب الكثير المزايا يتمزق ويتفرق فتذهب مزاياه بذهاب الأعوام، والشعب القليل المزايا ينمو ويسمو ويجتمع ويتآلف فيعز ويشف بإقبال الأيام، يرى الشعب الكبير يتخاذل فيتضاءل، والشعب الصغير يتلاءم ويتعاضم، وما ذلك إلا أن في أحدهما نسمة حياة تدفع عنه الأعراض الضارة بالشعوب فيقوى ويزكو، وتغذيه كل يوم بغذاء جديد فينمو

ويسمو، وليس في الآخر شيء من هذه الحياة فهو كجسم العاشق يذوب ويضمحل، ويحقر ويذل.

ويسهل على القارىء في الشرق البعيد، كاهند، أن يرى مثل هذين الشعبين المتقابلين في الحياة والموت ولكنه يرى أكبرهما هو الذي يعز ويترقى، وأصغرهما هو الذي يذل ويتدلى، فلا تغره حينئذ دعوى بعض المتطفلين على علم الاجتماع وسنن الخليفة أن علة الحياة في الشعب الصغير القريب هي صغره وقلة عدده لأن اجتماع العدد القليل للتعاون والتناصر وتوحيد المصلحة العامة أسهل من اجتماع العدد الكثير. ويشبه هذا الوهم تعليل بعضهم لنجاح صاحب الألف ونمو ثروته، وخيبة صاحب المئة الألف والعقار الواسع وتبدد تراثه بأن تثير المال القليل أسهل من تثير الكثير. كذلك يقول من لا يعرف معنى الحياة في الأمم والأفراد ولسنا بصدد بيان علة حياة الحي وموت الميت على الإطلاق ولا بيان علة حياة أمة معينة وموت أخرى فنفيض في كشف وهم الواهمين وجهل الجاهلين، وإنما غرضنا بيان معنى الحياة المعنوية ومميزات واجديها، ومخازي فاقديها.

التمييز بين أمة في أعلى مراقبي الحياة وأوج العزة والقوة، وأمة في الحضيض الأوهـد، والشقاء المؤصد مما يتناوله كل نظر، ويحكم به كل عقل، ولكن التمييز بين أمتين أو شعبين أحدهما يموت بعد حياة وثانيهما يحيا بعد موت هو الذي يخفى على غير علماء الاجتماع المدققين، لأن الذي اعتاد على الحكم بادي الرأي ينخدع بما يرى في الأول من علامات الحياة الموروثة كأثرة من علم، وبقية من حكم؛ لا يجد مثلها عند الثاني فهو كمن يفضل وارث مئة الألف على كاسب الألف جاهلاً بما وراء ذلك من مصير ثروة الوارث إلى الزوال، ومسير ثروة الكاسب إلى الكمال.

لا يغرنك ما ترى من آيات الحياة في أمة تقطعت روابطها، وانفصمت عروة الثقة بين أفرادها، وبغض إليها النظام، وفقدت التلاحم والالتئام، وإن كان ما تراه أخلاقاً كريمة، ومعارف صحيحة، وثروة واسعة، وسلطة

نافذة، مع العلم بأن هذه الأشياء كلها هي آثار الحياة توجد بوجودها وتذهب لذهابها، فقد يكون ذلك من بقايا إرث قديم، يعبث به الفساد الحديث، إلا أن ترى العلم والأخلاق تقرب البعيد، وتجمع الشتيت، وتزيد في الثقة بين الناس، وتدعو إلى التعاون على البر والإحسان، وترى الثروة تجمع مع ملاحظة مصلحة الأمة، وينفق جزء منها على المنافع العامة، وترى السلطة موجهة لدفع الأذى عن البلاد، وإقامة العدل في العباد، وإسعاد الأفراد على الاستقلال، وإعدادهم لمشاركة الحاكمين في الأعمال.

روح الحياة في الأمة تحول الشر إلى خير. وفقدتها يحول الفضائل إلى رذائل، فما يكون فيها من عزة وإباء يصير كبراً وعجباً، وما يبقى من كرم وسماح يصير إسرافاً وتبذيراً، وتكون الشجاعة فيها سبباً للاعتداء والإيذاء، وجودة الرأي وسيلة للمكر والاحتيال، ويتحول فيها حب الشرف والكمال، إلى حب الفخفة بالألقاب، وينقلب التنافس تحاسداً، والإيثار أثره وطمعاً، وقس على هذا سائر الأخلاق التي تفسد. كذلك يكون العلم آلة لأهله يكيّدون بها للناس ويوقعون بينهم ليستفيد الكائد من النزاع والشقاق. أما السلطة فإنها تكون الآلة المحللة لكل الثام، والممزقة لكل شمل، والمفرقة لكل اجتماع، إلا الاجتماع لتأييدها والخنوع لأصحابها حتى أن الملك أو الأمير ليتجر بالأمة تجاراً بل يكون هو الغاصب والناهب ما استطاع حتى إذا لم يبق للأمة قوة حافظة يبيعها للأجانب بالمحافظة على رئاسته الصورية، وتمكينه من شهواته الحيوانية والشرطانية.

تسري الأمراض الاجتماعية في الأمم فتذهب منها بمقومات الحياة من حيث لا تشعر ولا تدري، ولذلك يبقى لها الغرور والدعوى بأنها أشرف الأمم وأفضلها ويعسر على من يكون على علم بأمراض الأمم أن يقنعها بأنها أمة وضيعة مهينة وإن كانت أصوات الإهانة تصيح بها في كل يوم، وأسواط العذاب تقع عليها في كل آن، وإذا كانت متكئة في غرورها على

عصا الدين كان إقناعها أعسر، وإشعارها أبعد، وإن نخرت أرضة البدع تلك المنسأة فانكسرت، وخرت الأمة في مهواة الضلال فهلكت.

إذا أهاب الداعي بالأمة المغرورة بالدين، وحاول إقناعها بالبراهين، وإيقاظ الشعور فيها بما تذوق من العذاب المهين، واثبه حماة البدع الجديد، وحمل عليه أنصار التقليد، واستعانوا عليه بالأمراء المستبدين، وحالوا بينه وبين العامة المساكين. بل العامة هي قوة رؤساء الدنيا والدين، بها يصلون على المصلحين، ولو كانوا يقارعون الدليل بالدليل، ويصارعون البرهان بالبرهان، لظهر للعامة سوء حالهم، وفساد أقوالهم وأفعالهم، ولكان للمصلح على انفراده، وضعف أنصاره وأعوانه، ما يغلبهم به على عزة سلطانهم، وعظم شأنهم، لأن الحق نصيره، والفطرة البشرية عون، لولا أنهم يفسدونها بتقاليدهم، ويحولون بينها وبين نور الإصلاح بغيوم سلطتهم وقالوا «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» [سورة فصلت رقم ٤١، الآية ٢٦].

أظهر دلائل الحياة في الأمة التولد والنمو في أسباب الارتقاء من العلوم والفضائل والأعمال العمومية فلا يموت فيها شيء بموت القائم به. وأظهر دلائل الموت العقم والتحلل في ذلك فلا يكاد يذهب منه شيء من الخير ويخلفه مثله وإنما يموت العلم بموت العلماء والفضل بموت الفضلاء حتى تبقى حثالة بهم تبسل الأمة.

لا تنزع روح الحياة من الأمة بما يعرض عليها من الأمراض إلا إذا فتكت هذه بمزاج الأمة الجامع لأفرادها وإذا كان مزاج الجسم يتألف من أمشاج متعددة كالدم والعصب واللمفا، فمزاج الأمة الاجتماعي يتألف مثله من أصول متعددة كالنسب والجنسية والدين والحكومة، لذلك ترى الباحثين في إصلاح الأمم الفاسدة المزاج يختلفون فيقول بعضهم إن الأمة لا تحيا إلا بتربية النساء التي هي الأصل في صلاح البيوت، ويقول آخرون إنها لا تحيا إلا بتقوية الرابطة الجنسية التي تكون باللغة أو الوطن، ويقول

غيرهما إن الأصل في الحياة هو الإصلاح الديني، على أن الدين عند المسلمين حاكم في كل شيء فأصلاحهم من جهته إصلاح لكل شيء، ويخالفهم مخالفون قائلين بل الإصلاح إنما يكون بصلاح حال الحكومة لأن السياسة هي المدبرة لكل شيء. والصواب أن معالجة كل ما فسد من الأصول التي يتألف منها المزاج مما لا بد منه لشفاء الأمة وجعلها في عداد الأمم الحية. ولكن يقال إن هذه الأصول ترجع إلى أصليين، الأمة والحكومة أيهما صلح يسهل عليه إصلاح الآخر ولكن ما يجيء من جانب الحكومة يكون أسرع، وما يأتي من الأمة يكون أدام وأثبت. وقد بينا ذلك في السنة الأولى من سني المنار، وسننشر في الأجزاء الآتية مقالات في أنواع الحياة النسبية أو الزوجية والمالية والجنسية والسياسية ونبين كيف يكون الإصلاح فيها، والله الملهم للسداد.



تنازع الدول في جزيرة العرب

٤٣

[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٢٧٨ - ٢٧٩]

كثرت أقوال الجرائد المصرية وغيرها في عناية الإنكليز بتقوية نفوذها في بلاد العرب وقد علمنا أنه جاء مصر في هذه الأيام وفد من فرنسا وآخر من المانيا وكل منهما يريد الذهاب من هنا إلى بلاد العرب مستعيناً بالمصريين. فأما الوفد الفرنسي فإن من أعضائه علي أفندي زكي المصري وكتيل المؤيد في باريس وصاحب المقالات الكثيرة التي تؤيد نفوذ فرنسا في بلاد المغرب وقد سعى صاحب المؤيد نفسه هنا في مساعدة هذا الوفد الذي سيذهب إلى الخليج الفارسي ويكون وكيل المؤيد في البصرة مساعداً له. وأما البعث الألماني فقد استأجر من العربان هنا خمسين ذلولاً واتخذ له مترجماً من شبان

المصريين بأجرة كبيرة واشترى كثيراً من المصاحف المذهبة والكتب الدينية ووجهته الأمير ابن رشيد في نجد. والعبرة في هذا ظاهرة لكل عاقل. وسيرة الدولة العلية في بلاد العرب معروفة لا حاجة إلى شرحها، والأمر لله العلي الكبير.



٤٤

انطفاء فتنة نجد واستقرار الأمر في آل سعود

[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٣٠٣]

قد علم القراء مما قصصنا عليهم من قبل أن ابن رشيد الذي كان متغلباً على بلاد نجد جار وظلم معتمداً على أن الدولة تؤيده وتنصره بما كان يوهمها من أن آل سعود الوهابية يريدون محو سلطتها من بلاد العرب وهو الذي يؤيد نفوذها وكان هو وأنصاره يستعينون على ذلك ببعض رجال الحكومة في البصرة والشام والحجاز وبعض الجرائد المصرية التي توصف «بإسلامية»، فقد حاول هؤلاء الأنصار إقناع الآستانة أو يلدز بأن آل سعود متفقون مع الأجانب على تمليكهم بلاد نجد وما كانوا ينطقون ولا يكتبون إلا بأجرة عظيمة يأخذونها من بعض كبار التجار الأغنياء المشايخين لابن رشيد فكانوا يوقعون الفتنة بين المسلمين ويغشون دولتهم وسلطانهم حباً في منفعة أنفسهم. ولما تمكن أهل الغيرة والنجدة من أمراء العرب وغيرهم من إقناع الدولة العلية بخضوع آل سعود لها وبعدهم عن الفتن والاستظهار بالأجانب لشدة تمسكهم بدينهم عمدت الدولة إلى التحقيق فأرسلت المشير أحمد فيضي باشا إلى نجد ليدعو أهل البلاد النجدية ورؤساء القبائل إلى الطاعة ويتبين هل هناك جنود أجنبية كما زعم الواشون

فأجيبته دعوته وعلم أن آل سعود هم المخلصون الصادقون وأن ابن رشيد وأنصاره هم الغاشون المخادعون.

فحصر سلطة ابن رشيد في بلده وعشيرته وجعل عبد الرحمن الفيصل أمير سائر بلاد نجد وقبائلها فاستراحت الدولة بذلك من الدسائس والمفاسد التي كانت تسري إلى بلاد نجد من مصر وغيرها. فالشيخ عبد الرحمن الفيصل وولده عبد العزيز آل سعود لا يعرفان غير بلادهم وسلطانهم ولا علاقة لهم بمصر ولا بغيرها ولا يبالون بعث العابثين ولا بدسائس المفسدين. وإننا ننشر هنا ما جاءنا من بلاد العرب من صور الرسائل التي أرسلها المشير أحمد فيضي باشا إلى أهل نجد المتهمين وإلى الأستانة وولاية البصرة لأن هذه رسائل رسمية قاطعة لألسنة الفسدة من أصحاب الجرائد الكاذبة في مصر وغيرهم.



كتاب المشير أحمد فيضي باشا

إلى عنيزة

[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٣٠٤ - ٣٠٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله الواحد مستوجب الشكر والحمد، مالك الأمر من قبل ومن بعد، والصلاة والسلام على نبينا الذي أرسله بالهدى ودين الحق، وعلى آله وأصحابه أولياء الخلق، وبعد فإن خليفة الله في الآفاق؛ الثابت البيعة في الأعناق؛ مصباح مشكاة الخلافة، مفتاح باب الرحمة والرأفة، ولي الأمر المنصوص على طاعته بلسان الذكر المحكم، سلطان البرين والبحرين عنوان الشرف والإقدام، أمير المؤمنين، حامي حوزة الدين، إمام الإسلام والمسلمين، مظهر العدل والإحسان، مصدر اللطف والامتنان، حضرة

السلطان بن السلطان، والخاقان بن الخاقان، مولانا الغازي عبد الحميد خان، قوى الله شوكته، وفسح كما تهوى الشريعة مملكته، أمرنا بالسير إليكم مع جنوده الشاهانية المنصورة لإصلاح أحوالكم وبلادكم فامثلنا أمره، وعملنا ارادته العالية (كذا) فارتحلنا وجئناكم كما أمر دامت ذاته المقدسة سعيًا نسير فيكم بسيرته الحسنة صوناً لكم ورعيًا ونبث الإنصاف حسبما يريد فيكم، ونغضي عما سلف من وقائعكم ومغازيكم، ونعفو لما من شأنه العفو عن الكثير ونرفع أعلام الإصلاح بين شعوبكم وقبائلكم، ونوصل وسائلكم لباب النجاح على حسب منازلكم؛ ولا تحسبوا عدتنا لإراقة دم، ومؤاخذه بما مضى وتقدم، فارقدوا أماناً، وأطيعوا أولي الأمر منا، وتدبروا «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» [سورة الإسراء رقم ١٧، الآية ٧] وسابقوا لمرضاته، وتقربوا من ألطافه، أيها المسلمون، «السابقون السابقون أولئك المقربون» [سورة الواقعة رقم ٥٦، الآية ١١] إنا لا نقضي فيكم بسوى الكتاب والسنة، ولا نولي أعمالكم من تشب به نار الفتنة، بل نولي عليكم من تحمدون ولايته، وتقبلون بأحكام روايته؛ فادخلوا تحت رواق صفح الملك فعفوه ممدود السرادق، وولوا ركنه الشديد واستظلوا بطود حلمه الشاهق؛ واستقبلوا إنعامه والمنى، واعتصموا بعروته الوثقى «وذروا ظاهر الاثم وباطنه ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون» [سورة الأنعام رقم ٦ الآية ١٢٠] ولا تتبعوا المجرمين ليمكروا فيكم «وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ١٢٣] عجلوا بالجواب الصواب، وأرسلوا من تعمدون عليهم لأجل المواجهة والاستقبال، ولهم منا الرأي وأمان الله فلا يحصل عليهم سوء ولا مكروه، فاعتمدوا وبالله الاعتماد، والسلام على من سبح في كفه الجهاد، والسلام.

في ٣٠ المحرم سنة ١٣٢٣ هـ / ٦ / ٤ / ١٩٠٥ م. (الامضاء)

وكتب المشير مثل هذا الكتاب لبريدة وذلك بعد أن فتش المعاهد التي زعم ابن رشيد أن فيها عسكرياً من الأجانب وكان مقامه حيثذ في

(القواره) على مسافة يوم ونصف من عنيزة ويوم بل بعض يوم من بريدة وكتب امضاءه «مأمور اصلاحات القصيم مشير» وقد جاءه الجواب ناطقاً بأنهم لم يكونوا عاصين للدولة فيطيعوا الآن بل هم طائعون من قبل ومن بعد ولكن الدول ألبستهم ثوب العصيان بتزوير ابن رشيد. وأرسل كل أمير معتمداً من قبله لمواجهة الوالي وكشف الحقائق فأكرمهم وخلع عليهم ولما رأى ما يحملون من خطوط الأمراء شد رحله ونزل بريدة فواجهه أمير البلد صالح بن حسن المهنا فكساه وعاهده وأقره على بلاده وترك عنده خمسين جندياً ولواءً عثمانياً ثم رحل إلى عنيزة فواجهه الأمير عبد العزيز العبد الله السليم فلقي منه ما لقي ابن مهنا من اللطف والإكرام وكان كتب إلى عنيزة الكتاب الآتي جواباً عن كتابهم إليه.

الكتاب الثاني من المشير إلى أهل عنيزة

إلى كافة أكابر وأصاغر أهل عنيزة: الحمد لله ولي الإحسان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للأكوان. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فقد وصل إلينا معتمدكم عبد الله بن محمد القاضي وصحبته المضبطة المحررة من طرفكم وعرض طاعتكم وانقيادكم لأوامر حضرة أمير المؤمنين فصرنا ممنونين لذلك، وحمدنا الله على ما هنالك، ثم نحن بينا له مقصودنا، وعرفناه كما كتبنا لكم سابقاً مطلوبنا، وهو سيصل إليكم، ويكشف الحال لديكم، وطلب منا معتمدكم المشار إليه لكم الأمان والعفو عما سلف وعدم تولية ابن رشيد عليكم فلکم أمان الله وقد عفونا عما سلف ولا نولي ابن رشيد عليكم ولا نحكم بغير أحكام الشريعة ليصير معلومكم والسلام.

٤ صفر سنة ١٣٢٣ [هـ/١٠/٤/١٩٠٥ م] (الامضاء).

وقد أطلع المشير أمراء نجد على ترجمة ما أرسله إلى الأستانة وإلى ولاية البصرة في ذلك وهو كما جاءنا من البلاد العربية.

ترجمة الرسالة البرقية التي أرسلها المشير إلى باشكاتب المايين الهمايوني

بمقتضى تعليمات حضرة خليفة رسول من خصوص أهالي القصيم قد عفا الله عما سلف منهم وقد أطاعوا وانقادوا لأوامر الدولة العلية والجميع لازموا الدعوات بزيادة ودوام عمر وشوكة سلطانتنا المعظم فبناء على هذا فالذين كانوا بالبصرة وأعزموا إلى استانبول محمد الشبيلي ومحمد وعبد الله الشعبي قد استرحم أقرباؤهم الذين ساكنين في عنيزة المستظهرين للعفو العمومي أن يشملهم هذا العفو فاعفوا عن الموصي إليهم وأعيدوهم إلى البصرة وبشروهم بالعفو كي يوجب المسروية وهذا المسترحم منكم.

(الامضاء)

وقد كتب رسائل أخرى إلى والي البصرة وقومندان موقعها العسكري بالعفو عن أهالي القصيم والأمر بإطلاق المحبوسين ومساعدة المتجرين، وهذه ترجمتهم لها:

ترجمة الرسالة الأولى

إلى قومندان البصرة صاحب السعادة حضرة الأفندي

من جملة أهالي القصيم آل الشبيلي وسائرهم حيث استفادوا من العفو العمومي فليداوموا على أمور تجارتهم وقضاء مصالحهم ومن سكنة ولاية البصرة سليمان الشبيلي وأولاده وأعوانه فلا يتعرض لهم أحد بسوء ومن طرفكم أيضاً ابذلوا لهم التأمين ولا تخلون أحداً (أي لا تدعوا أحداً) من أتباع ووكلاء ابن رشيد يتعرضهم بسوء من سبب المادة السابقة ولأجل البيان حرر هذا الأمر.

(التوقيع)

(ترجمة الرسالة الثانية)

الشبيلي محمد السليمان بحسب وصول العساكر الشاهانية إلى القصيم

أبرز من حسن الخدمة في طرفنا والده في البصرة ووكلاؤه في دائرة الأصول أجروا في حقهم رعاية مخصوصة وأشغالهم الذي تقع في الحكومة تأمرون بعنايتكم بترويجها.

(التوقيع)

المنار. هذا ما كتب إلينا من البلاد العربية بنصه وقد سرنا أن الدولة وفقها الله أرسلت إلى نجد هذا الرجل الذي سلك مسلك الحكمة وحفظ كرامة الدولة وحقن دماء المسلمين وأنام الفتنة التي كان أيقظها ابن رشيد وهذا ما كنا أشرنا به وتمنيناه وليتها وفقت لمثل ذلك في اليمن قبل استفحال الفتنة واشتعال نيران الثورة، ولكنها لم ترسل إلى اليمن إلا أهل السلب والنهب والمغرورين بقوة الدولة على رعيتهما وأن الولد الذي يربى بالقسوة والعنف لا ينشأ إلا عاقاً ينتظر الفرصة للانتقام من مربيه فليت عمال الدولة القساة في سوريا وغيرهم يفهمون هذه القاعدة الطبيعية.



٤٦

أنباء سوريا المزعجة - الدولة والرعية

[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٣٤٦ - ٣٤٨]

قد تبين أن حكومة «المابين الهمايوني» في خوف ووجل من سوريا أن تخرج عليها كاليمين أو مع اليمن، وسوريا أبعد بلادها عن هذا العمل وعن التفكير فيه ولكن المابين قد صدق فيها تقارير الجواسيس والمفسدين وأقوال المشاغبين المحتالين الذي يخوفون المابين بما يكتبون من الرسائل والكتب في الدعوة إلى الاستقلال، وزاد الطين بلة ما تكتبه الجرائد الأوروبية في هذه الأيام عن ثورة اليمن مدعية أنها ثورة مدبرة لها أنصار

ودعاة في الحجاز وسوريا وسائر البلاد العربية وكل ذلك أكاذيب ييغون بها الفتنة وإغراء الحكومة العثمانية برعيتهما ليفني المسلمون أنفسهم بأيديهم .

صدق المايين كل ذلك ، فأمر الولاة والمتصرفين بالإغارة على بيوت من يظن أن عندهم كتباً أو جرائد أو رسائل من مصر وأخذ كل ما يوجد في تلك البيوت وقراءته كلمة كلمة ومحاسبة أصحابه على كل ما يشتم منه رائحة الشبهة وقد ذكرنا في الجزء الماضي بعض هذه الحوادث ثم جاءت الجوائب بعده بأنه قد جاء إلى بيروت لجنة عسكرية ملكية أرسلها السلطان من الآستانة لتتولى التحقيق في هذه الأمور المهمة ولا تدع بيتاً من بيوت الكبراء إلا وتفتشه وقد كان من أوائل عملها الإحاطة بدار عباس افندي رئيس ملة البابية في عكا ودار الفريق رمزي باشا وغيرهما وأخذ ما فيها من الأوراق والكتب المشتبه فيها . وقد فعل متصرف طرابلس مثل ذلك ببيت عبد اللطيف افندي الغلاييني وبيوت أخرى . وفتشوا في حمص بيت قائم مقام نقيب الأشراف ولا يزال الهجوم على البيوت مستمراً في كل مكان .

وقد بلغنا أن الكتب التي أخذت في بيروت من المكتبة الأنسية ومن مطبعة الإقبال قد اعتبرت من النوع الذي يسمى غير لائق وأنها حوت إلى العدلية وأنه ورد نبأ برقي من الآستانة إلى بيروت بوجوب العناية والتشديد في شأن ضبط كتب أبي الهدى [الصيادي] افندي التي وجدت في مطبعة الإقبال .

وإن للحكومة في الكتب والأوراق والجرائد تقسيماً غريباً فمنه ما يسمونه الأوراق المضرة والعقوبة عليه شديدة جداً ومنه ما يسمونه الأوراق الممنوعة وهو أعم من المضرة إذا أطلق يراد بالعام ما وراء الخاص والعقوبة عليه أخف ومنه ما يسمونه غير لائق وهو أهون عندهم . ومن البلاء أن الرعية لا تعرف شيئاً من حدود هذه الأقسام ورسومها فقد صار ما لم يكن ممنوعاً من قبل من الممنوع أو الضارّ والناس لا يشعرون . نقوش عبد اللطيف

افندي الغلاييني الحساب أن وجد عنده نسخ من مجلة نور الإسلام الدينية التي كانت تنشر في الزقاريق وكان عبد اللطيف افندي وكيلاً لها في طرابلس لم يتخرج من ذلك لأنها كانت ترد إليه في البريد العثماني وعمال البريد هم العاملون بالمنوع من الكتب لأنهم يؤمرون بإمساكه وعدم إيصاله إلى أربابه.

ولو كانت سوريا مستعدة للخروج على الدولة لا ينقصها إلا الحوادث التي تؤلم الجمهور وتجمع الكلمة لخشى أن تكون هذه الأعمال هي السبب في الثورة والخروج ولكننا نعلم علم اليقين أن سوريا غير مستعدة لذلك وستعلم ذلك الدولة بعد هذا التحقيق والتدقيق فتندم أنها آلت الناس وظلمتهم وذكرتهم بما لم يكن يخطر على بال أحد منهم.

وأما الذين يكتبون في ذلك ما يكتبون من المنشورات والمقالات في جرائد البلاد الحرة فلا غرض لهم إلا ابتزاز المال أو الرتب والأوسمة من الدولة كما بينا ذلك مراراً.

وأنه ليؤلم العثماني الغيور أن يرى الإنكليز آمنين على سلطتهم في مصر لا يبالون بما يقال ولا بما يكتب حتى أنهم يعتقدون أنه لم يبق لهم حاجة بجيش الاحتلال القليل الباقي في البلاد ويرى دولته في وجل شديد من رعيته فتداوي هذا الوجع بالتشديد والقوة وهو دواء غريب في بابه فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أعجب ما يتناقله الناس، مما يوسوس به في هذا الباب الخناس، خوف المابيين من مصر والمصريين عامة، والأستاذ الإمام خاصة [محمد عبده]؛ والمصريون أشد من الترك حباً فيه إلا أفراد تعلموا السعاية والتجسس من الآستانة وكل المصريين يمقتونهم والأستاذ الإمام، مشغول عن هذه السخافات بخدمة مصر والإسلام، وهو يعتقد أن السعي من جهة السياسة، لا يأتي إلا بالخيبة والتعاسة، فهو يرى الكلام في السلطة

والخلافة، من قبيل اللغو والسخافة، ومن المضحكات المبكيات أن حكومة بيروت ظلت ثمانية أيام تفتش في السواحل وتتجسس في البيوت لعلها تعثر على الشيخ محمد عبده لاعتقادها أنه جاء بيروت مستخفياً وأنزلته الباخرة الخديوية في جهة رأس بيروت وأنه سيتولى زعامة قلب السلطة في سوريا بنفسه والرجل مريض لا يقدر على مفارقة سريره الذي ترفرف عليه قلوب العقلاء والفضلاء مشفقة أن يخترمه حكم القضاء، فتحبط أعمال، وتنقطع آمال، ويخشى من سوء المآل، هذه حال الرجل هنا وتلك حال الحكومة العثمانية هناك ولم يشفق عليها رئيس الجواسيس الذين شغلوها فيكاشفها بالحقيقة التي تسكن روعها، وترأب صدعها.

قلنا إن ذلك الخوف من أعجب ما ينقل وما هو بالعجيب ولا بالأعجب فإن الدول في مثل هذا الطور الذي وصلت إليه دولتنا، أصلحها الله تعالى، تبني أكبر من هذا البناء على أساس أوهن من هذا الأساس، بل يفعل الحكم المطلق في طور الحياة والقوة مثل هذه الفعال، ويفتك بحكم الوشاية بأعظم الرجال، ألم يأتك نبأ موسى بن نصير في الأندلس وكيف فتح البلاد وكيف ساسه ابنه عبد العزيز أحسن سياسة ثم كيف كافأه سليمان بن عبد الملك بانتزاعه وولده عبد الله من السلطة، وقتل ولده عبد العزيز غيلة، سمع وشاية المفسدين فيه فأوعز إلى من قتله وهو يصلي بالناس صلاة الفجر، كما قتل الإمام العادل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.





[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٦٧٧ - ٦٧٨]

العلم نور لا ينتشر في بلاد إلا وينجاب عنها من ظلمات الظلم بقدر ما يفيض عليها منه فإذا تمكن في النفوس وملكها وصار صفة من صفات عدد كثير من أهلها فبشر أهلها بالسعادة بعد زمن طويل أو قصير لأن العلم مع الجهل وآثاره من الظلم والاستبداد لا يتجاوزان على وفاق وسلام. بل يفتآن يتنازعان ويتصارعان حتى يصرع أقواهما أضعفهما وينزعه من الأرض.

مقارعة العلم ومنافعه للجهل ومصارعه هي مقارعة طائفة من جند الحق لطائفة من جيوش الباطل والحق هو القوي المنصور، والباطل معه هو الضعيف المخذول، الهام إذا هما وجدا فتجاولا وتصارولا ولكن قد يحول دون ظهور جند الحق مانع فيظهر الباطل ويظن الظانون أنه قد غلب الحق على أمره وكيف يسمى غير الموجود مغلوباً.

فاض شعاع من العلم بمصالح الأمم وسنن العدل في الدول على البلاد الروسية فما زال يزيح من تلك الظلمات المتراكمة في النفوس حتى انزاحت فأشرقت العقول واستنارت القلوب فعرفت حق الراعي على الرعية وحقوق الرعية على الراعي وتمكن هذا العرفان في نفوس كثير من المتعلمين فكان وميضه يلوح لأبصار المستبدين من أفق المدارس الكلية فينذره بالصواعق المحرقة فتلهع قلوبهم ثم لا تلبث أن تعود إلى طمأنيتها اغتراراً برسوخ السلطة المطلقة القائمة على صخرة تقاليد الدين وجهالة الأكثرين حتى إذا ما انكشف للعامل كله ضعف دولة الاستبداد والظلم، وانهمامها من وجه دولة العدل والعلم، في الحرب الروسية اليابانية، إذ نكلت الثانية بالأولى في جميع الوقائع البحرية والبرية، ظهر أهل العلم من الروسيين،

وقاموا بالدعوة إلى الخروج على الحكام المستبدين، فنفخوا في البلاد روح الثورة فاشتعلت نارها، وكثر أنصارها، ولم يثبهم عن عزمهم أن وضعت الحرب أوزارها، وفرغت الحكومة للثورة تلبو أخبارها، وتضرب وجوهها وأدبارها.

بعد كفاح طويل عريض، وأخذ للثائرين أليم شديد، وثبات من طلاب الحرية، أمام أرباب العبودية، وإصرار من طلاب العدل، على مقاومة الظلم والجهل، خضع القيصر العظيم، لأولئك الشراذم من شعبه الحقير، وأمر بتحويل شكل الحكومة الروسية، من إطلاق الاستبداد إلى قيود الشورى القانونية، فقالوا إنه خضع اضطراراً لا اختياراً، فلا تغتروا بما أمر اغتراراً، بل أصروا أيها الثائرون والمتعصبون، يكن لكم كل ما تطلبون، فهم لا يزالون يقترحون، فهل يعتبر بحالهم جيرانهم الأقربون.



دعوة اليابان إلى الاسلام



خواطر وآراء

[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٧٠٥ - ٧١٢]

كان أشيع منذ سنين أن أولي الأمر في اليابان قد عرفوا بارتقائهم في العلم والسياسة أن دينهم الوثني باطل وأنهم يبحثون في غيره من الأديان ليختاروا لهم منها ما يظهر لهم أنه أهداها سبيلاً، وأقومها قيلاً وأقواها دليلاً، وأقربها من صداقة المدنية، وأبعدها عن عداوة العلوم الكونية، وأنهم لاحت لهم بوارق دين الإسلام فأحبوا اكتناه كنهه، والوقوف على حقيقة شأنه، فراجعت حكومتهم في ذلك سلطان العثمانيين، لأنه أكبر سلاطين المسلمين، شاع ذلك أيام أرسل السلطان عبد الحميد تلك

السفينة الحربية (أرطغرل) إلى بلاد اليابان لتزور حكومتها وأرسل معها وفداً دينياً ليبين لها حقيقة الإسلام كما قيل ولكن السفينة غرقت قبل أن تصل إلى حيث تقصد ثم سكّت الناس عن الكلام في إسلام تلك الأمة ونسوه ولم يكن قد ظهر لهم حقيقة أمرها في القوة والمدنية.

ولما ظهر من أمرها في الحرب الأخيرة في هاتين السنتين ما ظهر، وغلب نور فضلها - وهي دولة الشمس - على نور القمر، عاد المسلمون إلى حديثهم الأول في إسلامها فتحدث به المصري والسوري، والهندي والروسي، والجزائري والتونسي والأفغاني والصيني، من غير مواطأة بين مسلمي هذه الأقطار، ولا تقليد أحد منهم للآخر في الأفكار، وإنما هو شعور بعثه في نفوس هذه الشعوب القصية، ما يعلمونه من الخطر على بقايا السلطة الإسلامية، بما جبل عليهم حكامهم من الجهل والاستبداد، مع وقوف دول أوروبا لهم بالمرصاد، وبما اعتادوا عليه، أعني المسلمين، من الاتكال على الحكام في الأعمال، والاستعاذة بهم من خواطر التكافل والاستقلال، والنهوض بجلال الأعمال.

إسلام هذه الأمة العزيزة ذات الدولة القوية قد صار من الأماني التي يتخيلها كثير من المسلمين المتفكرين، الذين يألمون من سلطة المخالف لهم في الدين، فمنهم من يلهو بتخيلها في خلوته، ويتمثل بما قال ذلك الشاعر في معشوقته:

أُماني من سعدى عذاب كأنما سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا
مُنَى أن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

ومنهم من يتحدث بها في الأندية والسمار، ويشرح ما يكون لها من الفوائد والآثار، ويقول إن أسلم الميكادو فأنا أول المبايعين، وأضمن له ذلك في جميع شعوب المسلمين، ومنهم من ارتقى عن الأماني وهم أحلام المستيقظين، وعن لغو الحديث وهو فاكهة الكسالى والعاجزين، إلى حث

من يظن فيهم كمال العلم بحقيقة الإسلام، على تأليف رسالة أو كتاب لدعوة أولئك الأقوام، ومنهم من يقترح أن يجمع شيء من المال، يجهز به دعاة من فضلاء الرجال، ليأتوا البيوت من الأبواب، وينشروا الدعوة بالقول والكتاب، ومنهم من ارتقى إلى الاستعداد للدعوة بالفعل، ويقال إنه قد انتدب إلى ذلك أفراد من الشيعة في الهند.

رأينا بعض أولئك المتمنين، وتحدثنا مع بعض المقترحين، فرأينا أن السياسة هي ولدت في نفوسهم هذه الرغبة وقلما تجد فيهم من يود إسلام تلك الأمة لباعث ديني خالص من شوائب السياسة وإني ليحزنني أن لا أرى في قومي كثيراً ممن يهتم بنشر الإسلام لذاته رغبة في سعادة من يدخل فيه وفوزه برضوان الله تعالى ويعزيني عن حزني أن أرى الاهتمام بحفظ السلطة الإسلامية عظيماً في نفوس كثير من المسلمين فإن للإسلام ركنين أحدهما للآخرة وثانيهما للدنيا وأن ضعف أحدهما أهون من ضعفها كليهما وإن كان القوي لا يغني عن الضعيف إلا أن يستند إليه المصلحون في إقامة الآخر وإرجاعه إلى أصله.

قلت لبعض المتكلمين معي في هذه الأمنية إن اليابانيين مستعدون لقبول دين يتفق مع العلم والمدنية والقوة وإنا نحن وإياكم لعلنا نعتقد بأن الإسلام الذي عليه المسلمون ليس كذلك وإلا لما حرموا من العلم والمدنية والقوة ما اعتز به غيرهم، وأن الإسلام الذي جاء به القرآن الحكيم وبينته السنة السنية وكان عليه أهل الصدر الأول هو كذلك، ثم إن ما تطلبونه بدعوة هذه الأمة إلى الإسلام هو الاعتزاز السياسي بهم والتمتع العاجل بحمايتهم وإنما يرجى هذا إذا وجهت الدعوة أولاً إلى ملكهم ورجال حكومته وهؤلاء قوم سياسيون يوشك أن لا يعتدوا بقول أمثالنا في بيان دين ملوك وأمرأء بدون استفتائهم فيه فإذا نحن كتبنا رسالة الدعوة وبيننا فيها أصول العقائد والأحكام في الإسلام وأهمها عند هؤلاء شكل الحكومة وهو كونها وسطاً بين الديمقراطية والديمقراطية المتطرفتين مشروطاً فيها

مشاورة أولي الأمر في الشؤون السياسية واستنباط الأحكام وهم أهل الحل والعقد وأصحاب المكانة والرأي - فما يشعركم أنهم يراجعون في ذلك السلطان الذي يرون المسلمين يلقبونه بخليفة النبي صلى الله عليه وسلم ويعترفون له بالرياسة الدينية وإذا هم فعلوا فماذا تتوقعون من جواب السلطان، ومن مفتي الدولة الأكبر الملقب بشيخ الإسلام؟ قيل ننتظر أن يكون الجواب تكذيب الرسالة ولكننا نقول إن هؤلاء العقلاء لا يستفتون حكومة شخصية مطلقة، في شأن حكومة شوروية مقيدة، بل يعتمدون على الدليل والبرهان، والاستشهاد على ما يدعون إليه بما مضت به السنة ونطق به القرآن، قلت المسألة فيها نظر، تجب فيه إجابة الفكر.

وهنا خاطر آخر: إذا قلنا هؤلاء القوم إن هذا الدين هو الدين الوحيد الذي حفظ أصله وضبط تاريخه فكتابه المنزل نقل بالتواتر الصحيح فهو يقرأ في مشارق الأرض ومغاربها كما كان يقرؤه النبي وأصحابه، ويكتب في بلاد العرب والعجم كما كتبه حفظة الوحي وكتّابه، وأن ما فسر به وبينه من السنة العملية قد تواتر كذلك تواتراً حقيقياً لم تنقطع سلسلته في يوم من الأيام، وما يؤثر عن النبي وأصحابه من الأقوال، قد ضبط ضبطاً لم يعهد مثله في جيل من الأجيال، ومع هذا كله نفرض عليكم ما رضىه جماهيرنا لأنفسهم وهو أن تتبعوا في الدين رأي عالم من المجتهدين الذين أفتوا وعلموا بعد النبي وأصحابه بعشرات أو مئات من السنين، ولا نبيح لكم أن تأخذوا الدين من كتابه المنزل، وسنة نبيه المرسل، وتردوا الشريعة من ينبوعها الأول، فإن رضيت بذلك عددناكم من المسلمين، وإلا كنتم في نظرنا من الضالين المضلين، إذا فصلنا لهم هذا القول أفتراهم يرضون بأن نكون لهم هداة مرشدين، على رضانا بحرمان أنفسنا من الاستقلال بفهم الدين، أتراهم يتركون لنا ونحن دونهم في العلم ما نجحوا به من الاجتهاد والاستقلال، والاعتماد في قبول أي شيء أو رفضه على قواعد الاستدلال، أتراهم يرون من الخير لدولتهم وأمتهم، ولمسابقة الأوروبيين في ثروتهم

وقوتهم، أن يتعبدوا في أعمالهم السياسية والمالية والمدنية، بأقوال التتارخانية والشرنبلالية والولولاجية، أو أمثالها من كتب المالكية والشافعية، ؟ كلا، إن البدهة لتقضي بأن أمثال هؤلاء المستقلين في كل شيء لا يقبلون إلا ديناً معقولاً مساعداً على مسابقتهم للأمم الراقية في كل شيء فيستحيل أن يقيدوا أنفسهم بفهم رجال غير معصومين وجدوا في زمان كانت سياسته وحروبه ومدنيته ومعاملاته التجارية وغيرها مביنة لما عليه أهل هذا العصر مביنة تقضي باختلاف الأحكام، أو أن يدينوا باعتقاد العصمة لأئمة آل البيت عليهم السلام، ويأخذون ما يرويه عنهم الشيعة بالاستسلام.

نحن نجزم بأن الإسلام دين الارتقاء الذي يناسب كل عصر فليس في كتابه العزيز ولا في سنته الثابتة التي لا خلاف فيها بين المسلمين ما يبطئ بسير أمة مستقلة ومسابقتها لسائر الأمم ولكن في الأحكام الخلافية التي هي محل الاجتهاد بين الفقهاء ما لا يوافق مصالح الناس في كل عصر. فالترام أقوال بعض المجتهدين وأتباعه في أحكام المعاملات والسياسات والأخذ بكتب أي طائفة من الفقهاء هو عائق لأمة تلتزمه عن مجازاة أمم لا تلتزم إلا ما ترى فيه مصلحتها التي تختلف باختلاف ما يستحدث الناس آنأ بعد آن من ضروب التفتن في الكسب واستعمار الأرض. فمن يدعو اليابانيين إلى الإسلام يجب أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما في هذا العصر من طرق مدنية الأمم والدول وأن لا يلتزم الدعوة إلى مذهب معين وإلا كان من الخائبين، والويل لهذه الدعوة إذا جاءت من قبل شيوخ الرسوم المقلدين، وأين نجد هؤلاء الدعاة الهداة المهديين.

ومن المسائل التي يجب إجماله الفكر فيها عند البحث في هذه الدعوة «مسألة الوطنية» التي يدعو إليها بعض الأحداث المتسممين بغواية أوروبا أو إغوائها للمسلمين ومن مقتضاها على ما يعرف القراء أن المسلم الياباني إذا جاء بلاده وأراد الإقامة فيها يجب أن يعد دخيلاً وأن يسعى الوطنيون في مقاومته وعرقلة أعماله لئلا يربح من بلادهم ما هم أحق به في شريعة

الوطنية وإن كانت أعماله خدمة لهم حتى في دينهم أو ترقية بلادهم وإن كان لا يوجد في البلاد من يغني عنه فيها.

إذا سرى سم هذا الضرب من الوطنية في كل قطر من الأقطار الإسلامية ألا يكون مانعاً من استفادة بعضهم بما يفضلهم به الآخرون من علم وعمل؟ إذا كان اليابانيون أنفسهم على هذه الطريقة فهل يهمهم من أمر المصري والسوري والمغربي ما يحملهم على إفادة إخوانهم في هذه البلاد بما أوتوه من عزة وقوة وعلم وصناعة؟ ماذا ينتظر أهل مذهب الوطنية الكاذبة من دخول اليابانيين في الإسلام ومن أصول مذهبهم أن الرابطة الجامعة بين الناس هي عصبية البقعة لا الدين ولا اللغة بل ولا السياسة. فإن أحداث الوطنية في مصر لا يعدون العثماني السوري شريكاً لهم في وطنيتهم، ولكن الشعور بميل المسلمين في مصر إلى إسلام اليابانيين وباستفادتهم منه يدلنا على أن الرابطة الإسلامية لا تزال أقوى من الرابطة التي يدعو إليها الأحداث الجاهلون.

ولا ينسين المتمني لو يسلم اليابانيون والباحث في دعوتهم ليعتز بإسلامهم في بلاده وإن بعدت عنهم أنهم إذا قصدوا إلى الدخول في سياسة بلاد غير بلادهم فإن حكومتهم إذا كانت إسلامية تناهضهم باسم الدين وعلماء الرسوم المقلدون يؤيدون حكوماتهم في أمثال هذه الأمور بل هم عضد الحكام وأنصارهم في كل شيء فهم يفتون لهم بكفر اليابانيين لا سيما إذا كانوا لا يلتزمون في إسلامهم اتباع مذهب من المذاهب الأربعة في الأحكام. واتباع الأشاعرة أو الماتريدية في تقرير العقائد هذا إذا كانت الحكومة التي تقاومهم تنتسب إلى أهل السنة كالدولة العثمانية، أو اتباع مذهب الشيعة إذا أرادوا الدخول في سياسة الدولة الإيرانية، وبذلك يكون دخولهم في الإسلام لأجل السياسة فتنة للمسلمين لا يستهان بها ولا يسهل الحكم بنتيجتها.

وقد يقال لو لم تستفد البلاد الإسلامية البعيدة عن اليابان من إسلامهم

إلا الاستفادة المعنوية لكفى وأدى هذه الفائدة أن تخفف أوروبا وطأتها عن المسلمين في مستعمراتها بل وفي الممالك الإسلامية المستقلة التي يعث الدول باستقلالها كل يوم حتى صار مهدداً بالزوال والعياذ بالله تعالى . ولا يبعد أن يلهم الله ملوك المسلمين رشدهم فيحالفون هذه الدولة العزيزة إذا قضت حكمتها بأن لا تنازعهم على لقب «الخلافة» الذي كان بركان كل بلاء وعلة كل شقاء أصابا هؤلاء المسلمين ماضيهم حاضريهم . أقول وأن أمام هذه المحالفات ووراءها من مقاومة أوروبا ما لا ينكره بصير ولا فائدة لنا في الخوض فيه وإنما نودع هذا المبحث الجديد «تمني إسلام اليابانيين» من المسائل والخواطر ما يذكر الناسي وينبه الغافل إلى المسائل التي يفيد تذكرها والفكر فيها .

لتجدن أجدر المسلمين بالاستفادة من إسلام اليابانيين، لو حصل، مسلمي الصين وان استفادة الدولة اليابانية منهم لأكبر من استفادتهم منها ذلك أن مسلمي الصين لا يقل عددهم عن عدد اليابانيين وهم أشد أهل الصين بأساً وأعز نفراً، وأبرع في الجندية وأحسن أثراً، فيسهل على الدولة اليابانية على قريها منهم، ومعرفة كثير من رجالها بلغتهم، أن تستعين بهم على ما تريد مملكة الصين فتسود في الشرق الأقصى سيادة يمتد شعاعها إلى الشرق الأدنى، فيحييه حياة جديدة تكون مبدأ لدخول العالم كله في المدنية الفضلى، واستقامته منه على الطريقة المثلى، بالجمع بين الدنيا والدين، بين مطالب الجسد والروح، بين سعادة العاجلة والآخرة، وذلك هو الفوز المبين .

تلك الخواطر التي عارضت الفكر وهو يجول في رياض هذه الأمنية هي من أهم مسائل الإصلاح التي تذكرنا بمواضع ضعفنا وناهيك بمسألة فقد العلماء المستعدين للدعوة الصحيحة إلى الإسلام التي يقدر أصحابها على التآسي بالأنبياء عليهم السلام في مخاطبتهم الناس على قدر عقولهم وبما يناسب استعدادهم . إنك لتدل بيوت بعض علمائنا فتجد فيها ألواحاً

معلقة على الجدر مكتوباً عليها بخط يلفت جماله النظر «العلماء ورثة الأنبياء» وألواحاً أخرى مثلها في الجمال والبهاء كتب عليها «علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل»^(*) علقت لتوهم الزائر أن صاحب الدار من هؤلاء الورثة ولكن الخبير الذي لا تخدعه الأزياء ولا تغره الرسوم يعلم أن واحداً من هؤلاء العلماء الرسميين لا يقدر على إقناع أحد من أهل هذا العصر بدعوة الإسلام بل يخشى أن يكون حديث الواحد منهم في الدين مع أهل العلوم الاجتماعية والسياسية حجاباً كثيفاً دونه بل شبهة قوية تصد عنه . وإذا كانوا يعجزون عن كشف شبهة تعرض لتلميذ يتلقى العلوم العصرية، وهو مؤمن بالله ورسوله وكتابه ولكنه جرى في التعلم على أخذ العلم بالدليل، فأنى يقدر على تمثيل الدين لفلسفة العصر وساسته، معقول العقائد، سامي الآداب، منطبق الأحكام على منافع الأمم في ثروتها ومدنيتها، ومصالح الدول في إدارتها وسياستها، ويقنعونهم بأن الإسلام لا يعيد العقل إلى وثاقه، ولا يكبل الفكر بأوهاقه، فيقيد العلم بعد اطلاقه ثم يدحضون بالآيات البينات ما يوردونه عليه من الشبهات، أين يوجد هؤلاء العلماء في المسلمين؟ وإذا عطس الصبح فظهر واحد منهم أيعترف له الرسميون بالعلم والدين؟ وهل الحكام والعوام إلا تبع لهؤلاء الرسميين الضخام؟ وهم مجموع المسلمين ودين الناس مما يقرره علماءهم الرسميون لحكامهم وعامتهم . ناظر مناظر بعض العلماء الغربيين في كثير من مسائل الإسلام التي يشبهون فيها فنهض بالحجة فقال له مرة إن ما تقوله صحيح ومعقول ولكنه فلسفة وعقل لا دين وإنما دين الناس ما هم عليه . وقال مرة أخرى أرأيت إذا سألت علماء الأزهر ما عدا الشيخ محمداً عبده عن هذه المسائل أيحييوني بمثل هذه الأجوبة؟ قال لا أدري بماذا يجيبون وحسبك أن تعلم أن هذا هو الإسلام من اسنادي إياه إلى القرآن والسنة .

(*) العبارتان ترويان في الأحاديث المرفوعة فأما الأول فحديث له أصحله وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان وصححه عن أبي الدرداء ولكن اسناده مضطرب . وأما الثاني فموضوع قال ابن بحر والزركشي لا أصل له .

الدعوة إلى الدين لا يقوم بها في هذا العصر كل من قرأ السنوسية والعقائد النسفية، ولو وقف مع ذلك على المواقف العضدية، وكل ما يقرأ في الأزهر من الكتب الفقهية، للدعوة معارف أخرى منها فمناها فهم الكتاب العزيز، والاطلاع على السنة ومعرفة ما فيها من حكم التشريع، ومنها معرفة السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، والبصيرة في علم الاجتماع والتاريخ العام، والإلمام بسائر العلوم العصرية، والاطلاع على ضروب الأساليب المدنية، ومنها غير ذلك مما يتعلق بالدعاة ومن ترداد دعوتهم وقد فصلنا القول فيها من قبل فليراجعه في المجلد الرابع من شاء وقد كان الأستاذ الإمام [محمد عبده] رحمه الله تعالى يحاول إعداد فريق من طلاب العلم في الأزهر للدعوة ولكن السياسة ما زالت تعارضه في عمله وتغري بذلك أهل الجمود من الشيوخ حتى جاءه الأجل، قبل أن يتحقق له الأمل.

الاستعداد للدعوة يسير على أهل الأزهر إذا سلكوا سبيل الإصلاح التي كان يريدونها الأستاذ الإمام [محمد عبده] ولكن أنى لهم بمثل الزعيم الذي فقدوا. وإن في فضلاء المسلمين من غير أهل هذا المكان من هم أقدر على هذا العمل إذا حاولوه وإنما يحتاجون فيه مع الهمة والعزيمة إلى المال، وأغنياء المسلمين لا يزال أكثرهم حليف الجهل وأسير البخل. وقد يتوهم الكثيرون منهم أن دعاة النصرانية المنتشرين كالجراد في جميع البلاد تنفق عليهم دولهم من خزائنها والصواب أن جميع نفقات جمعياتهم ومدارسهم مما يتبرع به أولو الطول منهم وهي نفقات تبلغ الملايين من الجنيهات. فأين هذا السخاء الذي يؤيد به هؤلاء الناس دينهم من شح قومنا وقبض أيديهم عن كل ما يؤيد الدين، وينفع جمهور المسلمين، وأعجب منهم أننا نفتخر عليهم بأننا أشد غيرة على ديننا منهم على دينهم، فما أجهلنا بحالنا وحالهم.



أوروبا وتركيا - أو الدين والسياسة

[المناخ ج ٨ (١٩٠٥) ص ٧٥٣ - ٧٥٩]

اشتد ضغط دول أوروبا على دولتنا في هذه الأيام يعرضن عليها أن يكون هن مراقبون لمالية الولايات المكدونية ويحملنها على اجابتهن الى ما طلبن بالتهديد والوعيد. وما هذه المراقبة التي يطلبن إلا جعل إدارة تلك البلاد - وهي سياج عاصمة الدولة - أوروبية محضة. وقد كنا حين نجم ناجم الثورة في مكدونية من نحو ثلاث سنين لا نخشى إلا من روسيا لأنها كانت تستعد للحرب فإذا هي تستعد لليابان التي جعلت استعدادها في البر والبحر هباءً مشوراً.

كتبنا في الجزء الأول لسنة المنار السادسة (سنة ١٣٢١) الصادر في ٣٠ مارس سنة ١٩٠٣ م نبذة في ثورة مكدونية قلنا فيها ما نصه: «ولقد كان الإنكليز عون الدولة العثمانية على روسيا فحال لون السياسة الجامعة بينهما وتغير شكلها، وتبدل السلطان عاهل الألمان بالإنكليز وهو ملك يُطْعَم ولا يُطْعَم شديد الجشع قوي الطمع إذا رأى روسيا وقد جد جدها يكتفي منها بلقمة كبيرة يلتهمها ويتركها بعد ذلك وشأنها، ولا يطوف في خاطر عاقل أنه يسمح بجندي ألماني واحد لصديقه السلطان، إذا نزل مع الروس في ميدان الطعان»^(١)، ا. هـ. وإذ ظهر لنا أن اليابان كفتنا الخوف بما نكلت بها وبما أعقبت حربها إياها من الثورة التي كادت تدمر البلاد الروسية وتذهب بسلطانها المطلق وتقبض ظله عن الأرض فلنذكر ما كتبناه في تلك النبذة

(١) المنار ج ٦ (١٩٠٣) ص ٤٣٠ - ٤٣١. انظر اعلاه ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

عما نخشاه من أوروبا على تلك البلاد إذا أمنا روسيا وعن اضطراب المسلمين لذلك ثم نقفي عليه بما حدث في هذه الأيام. قلنا هناك:

«كانت قلوب المسلمين في العيدين (أي عيدي سنة ١٣٢٠) محومة فوق بلاد مراکش تؤلمها فتنة الخارج كما تسؤها سيرة المالك، وقد دخلت عليها السنة الجديدة فاستقبلها هم أكبر من هم مراکش - هم الدولة المسلمة الكبرى، وقاها الله تعالى، ولا خوف عليها إلا من روسيا فإذا كانت لا تريد سوءاً فدع البلقان يضطرم بنيران الثورة اضطراباً ولا تحش مغبته فالدولة قادرة على تأديبه. وأسوأ عاقبة تنتظر حينئذ استقلال مكدونية أو وضعها تحت حماية الدول الكبرى على المذهب الجديد في سير أوروبا بالمسألة الشرقية، مذهب التفكيك وتحليل العناصر، وهذا المذهب خير لدول أوروبا وأسهل طريقاً من حرب الدولة لأجل الفتح والتغلب لأن هذا يعوزه الاتفاق على ما يتعسر الاتفاق عليه ويقتضي بذل أموال غزيرة وسفك دماء عزيزة. وهو خير للشرقيين أو المسلمين وأسهل عليهم أيضاً لأن كل عنصر ينحل من عناصر بلادهم وكل قطعة تنتقص من أرضهم تفيدهم عبرة كبرى وتعلمهم كيف يحفظ الباقي. فإذا لم يتعلموا بتكرار النذر، وأنواع العبر، وكانوا يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، فهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن بيعثون».

«مسألة مكدونية مسألة عشواء والحكم فيها غامض لما تقدم ولأن النصراني فيها وفي جميع ما بقي تحت حكم العثمانيين من بلاد أوروبا وما يدانيها كبلاد الأرمن قد توجهت نفوسهم إلى الاستقلال واعتقدوا أن أوروبا نصيرة لهم وأن الذريعة الوحيدة لإثارة نعرتها عليهم وتصديها لفصلهم من جسم الدولة الثورات التي تضطر الأتراك إلى سفك قطرات من دمائهم تأديباً لهم^(١)» انتهى المراد منه.

(١) المنارج ٦ (١٩٠٣) ص ٣٩.

ثم كتبنا مقالة في الجزء الحادي عشر الصادر في غرة جمادى الثانية من تلك السنة (١٣٢١) رجحنا فيه أن استعداد روسيا الحربي إنما كان لأجل توقع الحرب مع اليابان وأن الخوف على دولتنا يومئذ إنما هو من الجانب الذي كانت ترجوه من قبل وهو انكلترا وأوضحنا بعض الإيضاح ما عليه أوروبا من التحامل علينا ولا بأس بذكر شيء من ذلك هنا. قلنا بعد الكلام في عدوان البلغار وأخذها بمحضاة الثورة في مكدونية تعويلاً على مساعدة بعض الدول:

«أيعقل ان تتحرش بلغاريا الضعيفة بالأسد التركي إلا إذا كانت واثقة بأن وراءها أسداً أو أسوداً؟ إذا لم يكن الأسد الروسي الذي أعطى هذه البلاد استقلالها هو الذي يحميها من قرنه التركي فعلى أي الأسود تعتمد؟ الأقرب عندي أن يكون الخوف اليوم في موضع الرجاء بالأمس فإننا لما كنا نسيء الظن بروسيا أحسنا الظن بالإنكليز حتى توقعنا أن يكون الغرض من زيارة ملكهم لفرنسا الاتفاق معها على عدم الرضى من روسيا بمحاربة تركيا لكيلا تساعد فرنسا على ذلك. ولما ترجع عندنا الآن أن روسيا لا تريد حرباً ولا تضمّر غدراً (أي لنا) انعكس الرأي الأول وظننا السوء بإنكلترا وتوقعنا أنها قد اتفقت مع فرنسا على النفخ في نار الثورة... إلى أن قلنا:

«ان سلوك أوروبا الجديد في حل المسألة التي يسمونها الشرقية ويعنون بها الإسلامية سلوك عجيب وأعجب صوره وأغرب أشكاله ما كان من نتيجة محاربة الدولة العلية لليونان فقد جعلت أوروبا الدولة البادئة بالعدوان المغلوبة في ميدان الطعان، هي الفائزة بالنتيجة إذ جعلت ولي عهدها حاكماً على ولاية عظيمة من ولايات الدولة المنتصرة (وهي جزيرة كريت) على أن تكون هي الحافظة والحامية لتلك الولاية وما يديرنا لعلهم يريدون الآن سلخ ولايات مكدونية من الدولة بمثل تلك الطريقة، وهكذا يقطعون في كل مرة عضواً من جسم الدولة يغذون به من يرونه أولى به

حتى لا يبقى الا الرأس والقلب فيسهل على الرؤوس الاتفاق على الايقاع به .

«إننا نرى دول أوروبا عابثة في كل حين باستقلال الدولة، ففي كل حادثة لهم أوامر تطاع، ومناهي تجتنب، والدولة راضية وكل ما تجنيه في بعض الأحيان لا يخرج عن مراوغة في تنفيذ بعض الأوامر أو إرجائها وكلما تم للدولة ضرب من ضروب هذا الظفر الوهمي هتف المغرورون مع الغاوين. نحن أصحاب السياسة المثلى، والكلمة العليا. فإذا انتهى أجل الإرجاء، وحل اليأس محل الرجاء، سكتوا واجمين، أو خدعوا أنفسهم معتدلين.

«يقول الأوروبيون إن الذي أذل تركيا وذلّلها لهم هو ظلمها لمن ليس على دينها من رعيّتها لا سيما النصارى. ولنا أن نقول إن وجدنا سامعاً: إذا كانت هذه الدولة تظلم المخالفين لها في الدين فلماذا يهرب اليهود من مشرق أوروبا (روسيا) ومغربها (اسبانيا) الى بلادها؟ أمن المعقول أن يهرب الناس من ظل العدل الى هاجرة الظلم واذا زعمتم أنها تظلم النصارى خاصة فكيف يعقل أن تظلم المخالف الذي يجد أنصاراً أقوياء ينتقمون له وتدع من لا ولي له ولا نصير، واذا كانت أوروبا تعبت باستقلال الدولة وتفتت عليها في سياستها الداخلية حباً في العدل بالملظلومين فما بال هذه الرحمة لا تحرك لهم عاطفة على اليهود الذين يستحرق فيهم القتل بأيدي النصارى لأنهم يهود؟؟ ليس موقفنا مع أوروبا موقف جدال وحجاج ولكنه موقف قوة وضعف فالقوة تفعل والضعف ينفعل»^(١) انتهى المراد منه .

هذا شيء مما كتبناه في المسألة والعهد قريب بظهورها وقد كرت السنين فما زادت هذه الآراء إلا بياناً ورجحاناً. وضعت أوروبا ضباطاً من جندها

المراجع ٦ (١٩٠٣) ص ٤٣٠ - ٤٣١

يحفظون الأمن في الولايات المكدونية مع رجال الضبط العثمانيين ليكونوا مطلعين على كل ما يقع في البلاد ثم أرادت القبض على أزمة المالية والإدارة فاقترحت على الدولة تعيين مندوبين ماليين من الدول العظام يضعون الميزانية للبلاد وينظرون في أمر العمال والمستخدمين من تولية وعزل ويتصرفون في الجباية والصرف ويكونون تابعين في أعمالهم لسفراء دولهم. فخلاصة هذا الاقتراح أن تكون مالية تلك الولايات وإدارتها في أيدي دول أوروبا كما أن أمر الأمن في أيديهم وللدولة إسم السلطة والسيادة لا ينازعها فيه منازع الآن لما عليه أمراء الشرق وملوكه من التفاني في عشق الألقاب.

رفض السلطان قبول هذا الاقتراح الجائر الذي يقلص ظل سلطته عن تلك الولايات التي هي حظيرة لعاصمة ملكه فألحت الدول عليه وهددته باحتلال بعض الجزائر العثمانية التي تقرب من باب الاستانة (الدردينيل) فأصر على الإبقاء وله الحق في ذلك ولكنهم قوم يطمعون في ضعفه.

ما ودع المسلمون رمضان واستقبلوا عيد الفطر إلا وقلوبهم تكاد تنفطر أسى وحزناً، وحقدًا وضغناً، الأسف والحزن على ما وصلت إليه الدولة الإسلامية الكبرى من الضعف بإهمال إصلاح بلادها، والحقد والضغن على أوروبا المتعصبة التي تريد محو سلطة المسلمين من أوروبا ثم من الأرض كلها. وقد رأيت من مسلمي هذا القطر المبارك فوق ما كنت أعتقد فيهم من الغيرة والتألم على الدولة العلية أعزها الله بالعدل والعلم والإصلاح، ومن البغض لأعدائها خذلهم الله بالتفرق والتعادي والانقسام.

والرأي عندي وعند كل من تكلمت معهم في هذا الأمر، من ذوي الرأي والفكر، أن إصرار الدولة العلية على رفض ما تطلب الدول منها هو الصواب وأن شر عاقبة تتوقع له هي خير منه أو أضعف شراً وأقل ضرراً. إن استيلاء الدول على تلك الولايات بالقوة بعد مقاومة هن هو خير من تسليمهن إدارة مالياتها بالتهديد والإنذار والوعيد فإن كلا الأمرين خسران

مبين للبلاد وفي الخنوع والاستسلام للوعيد خسران معنوي أعظم وهو خسران الشرف والاستقلال يقابله في المقاومة مع حفظ هذا الشرف فوز معنوي عظيم وهو ايقاظ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وإشعارهم بالخطر الذي يتهدد سلطتهم من حيث هم مسلمون. ولا شيء أنفع لهم في هذا العصر من هذه اليقظة والشعور. وقد كان الأستاذ الإمام [محمد عبده] رحمه الله تعالى يقول إن الحرب العثمانية الروسية الأخيرة قد كانت هي المبدأ لهذه الحركة الفكرية العامة في المسلمين وإن كان البلاء لينزل من قبل هذه الحرب في القطر الإسلامي فلا يهتزله القطر الذي يجاوره دع البعيد عنه الذي انقطعت دونه أخباره وقد صرنا نرى المسلمين في كل قطر يتألمون لما يصيب إخوانهم في سائر الأقطار لا سيما إذا كان المصاب من اعتداء الأجانب عليهم.

إن ساسة أوروبا يقدرّون هذه الحركة التي أشار إليها حكيمنا قدرها، ويحيطون بما لم نخط به من خبرها، لذلك أجمعوا كيدهم على ذبح العفريت بسيفه الخشبي^(١) إذ يتعذر قتله بسواه أعني أن يزيلوا السلطة الإسلامية من الأرض بنفوذ رؤسائها من السلاطين والأمراء - يدخلون في أمر الواحد منهم ويدعونه الى ما يريدون، فينالون به نيلهم والمسلمون وادعون ساكنون، يحسبون أن أولي أمرهم منهم وأنهم لأمرهم يخضعون، فمثل أوروبا في سياستها هذه وفي انتقاصها الممالك الإسلامية من أطرافها كمثل الطبيب يخدر العضو ويقطعه حتى لا يشعر صاحبه بشدة الألم ولكن الطبيب يعمل هذا لمصلحة الجسم وهم يعملونه لمصلحة أنفسهم بإعدامه بل التهامه.

يقول قوم إن الدافع لأوروبا على هذا هو التعصب على الإسلام ولذلك

(١) في الحكايات الخرافية التي يلهمي بها الأمهات أطفالهم أن للعفريت سيفاً خشبياً إذا ذبح به مات وإذا ذبح بسيف آخر من الحديد والفولاذ فإنه لا يصيبه ضرر، ولا يحدث منه في رقبته ولا جسمه أدنى أثر، ولكنه ينتبه لمحاول قتله فيفتك به وكذلك المسلمون لا يسهل إهلاكهم إلا بواسطة رؤسائهم الذين هم سيوفهم ولذلك تحاول أوروبا أن تكون هذه السيوف الخشبية في يدها فاللهم أصلح الراعي والرعية.

لا نرى الدول النصرانية تتفق على العبث باستقلال دولة نصرانية فيجب أن يقابل المسلمون ذلك بالتعصب على النصارى كافة. ويقول آخرون إن أوروبا بريئة من التعصب الديني الذي لا يعرف في غير الشرق وإنما هي المصالح السياسية لا مذهب لها ولا دين ولذلك ينتصر الامبراطور غليوم النصراني للخليفة المسلم العثماني وتطارد حكومة فرنسا الرهبان وتبترأ من الكنيسة. والصواب في المسألة أن أوروبا لا تتعصب على المسلمين من حيث هم مسلمون يقرون الله بالوحدانية ولمحمد، صلى الله عليه وسلم، بالرسالة ويصلون إلى الكعبة ويعبدون الله تعالى على غير الطريقة التي يعبد بها سواهم وإنما تتعصب عليهم لأن لهم سلطة ودولاً فالذين سموها تعصبها سياسياً قد صدقوا، والذين سموه دينياً لم يكذبوا، فإذا كان لا يهمها أمر الدين الإسلامي من حيث هو اعتقاد وعبادة، فأكبرهما أن لا يكون له سلطان ولا سيادة، ألا يجدر بالمسلمين إذاً أن يحرقوا عليها الأرم، ويعتقدوا أن شرف سلطتهم لا يسلم حتى يراق على جوانبه الدم، بلى وإنما موضع الخطأ أن يحاولوا الانتقام من الذميين والمسلمين، والله تعالى يقول «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٩٠]. فايدأؤنا النصارى في بلادنا، عصيان لديننا وخراب لدينانا.

إذا كان المسلمون قد شعروا شعوراً صحيحاً بالخطر الذي ينذر سلطتهم، والبلاء الذي يتهدد ملّتهم، فعليهم أن يعرفوا كيف يقاومون العدوان بمثله لأن الله تعالى يقول «ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٩٤]. أي ولا تبغوا وإنما تعتدي علينا أوروبا بقوة أمتها، وعلمها وصناعتها، ونظامها وثروتها، ودهائها وحكمتها، ولذلك تستفيد مما بقي لنا ما لا نستفيد. فما دما على هذا الجهل والخلل، والتفرق والفسل، فإننا لا يمكن أن نقف أمام أوروبا. فإذا لم يظفروا بمكدونية تمام الظفر في المرة، فإنهم يظفرون بها وبغيرها اذا

أعادوا الكرة، ولنا فيما مضى عبرة وأي عبرة، بماذا نقاومهم؟ رؤساؤنا مستبدون، وحكامنا ظالمون، وعلمائنا جامدون، وأغنيائنا ممسكون، وخواصنا مترفون، وعوامنا جاهلون، فإذا رضينا لأنفسنا بهذا فإننا نكون من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ولا ينطبق علينا قول ربنا «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون» [سورة الأنبياء رقم ٢١، الآية ١٠٥] فعلينا أن نبذل المال، ونجمع شمل الرجال، لنرقي الأمة فتلزم الحكام بإصلاح الحال، فإن العصر عصر الأمم لا عصر الأفراد وعصر النظام والاجتماع لا عصر الاستبداد.



٥٠

روابط الجنسية والحياة المالية

وفلسفة الاجتماع البشري

[المفارج ٨ (١٩٠٥) ص ٧٨٤ - ٧٩١: وص ٨١١ - ٨١٩]

وعدنا في خاتمة المجلد السابع بأن نعود في هذا المجال إلى نشر المقالات الاجتماعية والفلسفية وذكرنا هناك بعض الموضوعات التي سبقت إلى الذهن عند كتابة تلك الخاتمة ومنها الحياة الزوجية والحياة المالية وكذا الوطنية. وقد حالت الحوادث دون الإكثار من المقالات وسبح القلم سبحاً طويلاً في بحث الحياة الزوجية فكانت ست مقالات ورأينا أن نقفي عليه بالكلام في الحياة المالية وكذا الوطنية بعد تمهيد في فلسفة الاجتماع البشري بالإنجاز فنقول:

خلق الإنسان ليعيش مجتمعاً يتعاون أفرادُه على الأعمال التي هي قوام حياتهم الشخصية والنوعية وإظهار استعدادهم الإنساني في استعمال الأرض وإظهار أسرار الكون، فأعني بالاجتماع ما هو أوسع من اجتماع الزوجين

الذي يشاركونهم فيه سائر أنواع الحيوان ومن اجتماع النحل والنمل وتعاون أفرادهما على ما به حفظ حياة نوعيهما. فالحياة الزوجية ليست خاصة بالإنسان ولا الحياة الأهلية (العائلية) فمن كان لا يشعر بفائدة لنفسه إلا أنه يعمل ليأكل ويطعم من يعول من أهل وولد فحياته إن كانت أوسع من حياة الطير فهي لا تصل إلى مرتبة بعض الذباب والحشرات (النحل والنمل) فإن هذين النوعين من التعاون على الأعمال المشتركة ما تقصر عنه همة كثير من الناس. فما أحقر من يرى وجوده أضيق من وجود الذباب والحشرات.

لا تفاوت بين أفراد نوع من أنواع المخلوقات نعلمه كالتفاوت بين أفراد البشر يتسع وجود زيد منهم فيملاً الآفاق، ويضيق وجود عمرو حتى يضيق به قفص جسمه، يشعر ذاك بروحه الكبيرة أنه خلق لينهض بأمة كبيرة أو ليفيد جميع الأمم، ويحار هذا في خدمة جسده، ويرى نفسه عاجزة عن تغذيته وتوفير لذته، فإذا تزوج فصار له بيت كان همه أكبر، لأنه أعجز عن سياسته وأصغر، وبين هذين الطرفين سواد عظيم لكل منهم سهم من سعة الوجود على قدر قوة الإنسانية فيه وضعفها. فإذا كثر أصحاب السهام العظيمة في أمة من الأمم اتسع وجودها ببسط سلطانها على الأمم التي قلّت سهامها وخف بها ميزانها فينقبض وجود هذه بمقدار اتساع وجود تلك. فإما أن تعتبر فيخرج أفرادها من مضيق الحياة الشخصية الجسدية إلى بحبوحة الحياة الاجتماعية حتى يتقلص ظل غيرهم عنهم، وإما أن يكونوا غذاءً للغالب لا بقاء لهم إلا باستبقائه إياهم لحاجته وقد ينكمش وجودهم ويتقلص حتى يضمحل ويفنى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

أين المصريون الأقدمون، أي الكلدانيون والآشوريون والبابليون، أين الرومان والفرس الأولون، أين هنود أمريكا العريقون،؟ منهم من اندغم وجوده في وجود آخر أوسع منه وأقوى، ومنهم من انقرض وجوده فلا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً، سنة الله في التكوين والتمكين، «ان

الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين،» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ١٢٨]. الذين يتقون أسباب الفساد والزوال، ويصلحون في الأرض بالأحكام والأعمال، «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ» [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ١١].

قلنا ان وجود الشخص الواحد يتسع ويضيق بمقدار معنى الانسانية في روحه قوة وضعفاً، وان وجود الأمة ينسبط وينقبض بحسب كثرة أصحاب السهام العظيمة من سعة الوجود فيها، فهذا هو معنى الحياة العزيزة في الأفراد وفي الأمم فكمال الشخص انما هو في كونه يعمل للأمة التي يعتز بعزتها، ويهون بهوانها وضععتها، وكمال الأمة انما هو في حفظ ما به كانت أمة وبسطه بجعل وجود غيرها تابعاً لوجودها.

ما به تكون الأمة أمة معنى يوجد في كل فرد من أفرادها يربط بعضهم ببعض حتى يكون الجمع الكثير به واحداً وقد يعبر عنه بالجنسية وهو النسب والبيئة أو الوطن واللغة والدين والحكومة، وأنت ترى أن بعض هذه المعاني أوسع من بعض فأول اجتماع كان بين البشر يتعاون به أفراد كثيرون على مصلحة الجميع هو اجتماع القبائل البدوية التي تنسب الى أب واحد ثم كانت دائرة الاجتماع تتسع في البشر فتكبر الهمم وتعلو النفوس لشعورها بسعة وجودها وما هي مطالبة به من العمل لحفظ كون كبير واسع. وكلما اتسعت دائرة الاجتماع تتسع منها فائدة البشر فبعد أن كان امتياز القبائل والشعوب لأجل التناكر والتغابن، صار باتساع ذلك المعنى لأجل التعارف والتعاون، كما قال تعالى «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» [سورة الحجرات رقم ٤٩، الآية ١٣].

إذا كانت الجنسية في الأمة هي النسب كانت بسطتها في الوجود بطيئة. كذلك الوطن إذا كان بلاداً محدودة كمصر أو الشام أو العراق. وليس نشر

اللغة وجعلها جنسية بالأمر السهل ومثلها الدين إذا كان خاصاً كاليهودية .
وأما الحكومة فهي أوسع من جميع ما ذكر وبها تكونت الأمم الكبرى
كإمبراطورية الإسكندر والأمبراطورية الرومانية في الزمن الماضي وكالسلطنة
العثمانية والحكومات الاستعمارية في هذا الزمان . ولكن الجنسية في الحكومة
لا تعد جنسية حقيقية إلا إذا كانت الشريعة أو القوانين التي يحكم بها
الرعايا المختلفون في النسب والوطن واللغة والدين مبنية على قواعد العدل
والمساواة بينهم وكان القائمون بها من لفيفهم لا من طائفة معينة منهم .
على أن هذا الشرط الأخير إنما تشترطه الطوائف والشعوب الراقية في
معارض الاجتماع دون سواها ، وإن من الشعوب ما يغلب فيها الشعور بأنها
خلقت لتكون محكومة من الغرباء وأن جنسها لا يصلح للأحكام .

يكون اتساع محيط الجنسية نافعا للبشر ما قصد بها تكثير سواد أهلها
ومشاركة كل من يدخل فيهم لهم في جملة مزاياهم . ومتى قصد الشعب
الاستثمار بالمنافع دون من يمتد وجوده إليهم وينبسط نفوذه فيهم كان آفة
على سائر الشعوب لا يعدل فيهم ولا يمكنهم من الارتقاء في معارج الكمال
الإنساني ، فسنة الله في كمال الشعوب والأمم ونقصها كسنته في الأفراد
نقص كل منها بالأثرة والغلو في حب الذات حتى لا يتحرك حركة إلا
لمنفعة ذاته وكمال كل منها بالقصد إلى نفع غيره وإيصال الخير إليه وجعل
المنفعة الذاتية تابعة للمنفعة العامة .

فالتيجة لما تقدم من القواعد أن أكمل الجنسيات وأنفعها للبشر ما
كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة
والدين والحكومة بأن يقصد بها الخير للجميع والمساواة بينهم في الحقوق
وتمكينهم من الرقي الى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال
الاجتماعي . وإنها لجنسية يتحسر عليها نوابغ الحكماء وهي موجودة في الملة
الإسلامية وإن كان المسلمون من أبعد الناس عنها فهذه الملة هي التي
عرفها كتابها العزيز بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر

الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» [سورة الروم رقم ٣٠، الآية ٣٠].

الملة الإسلامية تساوي بين المختلفين في الأنساب والأوطان والأديان وتسمح لمن يدخل في حكمها وهو على دينه أن ينشئ في بلادها محاكم لأهل ملته وأبناء جلدته فلا تلزمه بأحكامها إلزاماً، فإن هو اختار حكمها بنفسه ساوت بينه وبين أقرب الناس من بنيتها وأعلى أفرادها مكانه فيها. فهي تدعو جميع البشر إلى التعارف والتآلف في ظل حمايتها وأنه لظل ظليل يباح للمستظل به كل شيء إلا محاولة إزالته أو إزالة فائدته للناس وهي دفع الشر والأذى عنهم وتقريب الخير منهم مع حفظ حریتهم في أديانهم وأعمالهم التي لا تضر سواهم. هذا ما تبذله لكل من قبل حمايتها، واستظل برايتها، ثم إنها تختص من قبل هدايتها في الدين بأخوة روحية، أخص من هذه الأخوة الإنسانية، لأنه يشارك أهلها فيما يؤهلهم لسعادة الحياة الأخرى، فهو أقرب إليهم بالروح ممن لا يشاركونهم إلا في سعادة الحياة الدنيا.

هذه الجنسية هي نهاية ما يمكن وضعه لسعادة البشر كلهم في هذه الحياة ولكن الناس لما يستعدوا لها تمام الاستعداد لذلك لم يرعوها حق رعايتها ونعتقد أن سيعودون إليها في يوم من الأيام. نقول يعودون إليها عوداً، دون يقصدون إليها قصداً، لأنها قد وجدت في الجملة مدة قليلة على عهد الخلفاء الراشدين فرقص لها العالم الإنساني وأقبلت عليها شعوبه أيماء إقبال ثم طفق نورها يخجوب بما أفسد فيها الأمويون ومن بعدهم ولكنه كان على ضعفه أفضل عند جميع الأمم من كل ما عداه لذلك كان يخرجهم باختيارهم من جنسياتهم إخراجاً، فيدينون لها شعوباً ويدخلون فيها أفواجاً.

كانت حكومة الخلفاء الراشدين حكومة عسكرية لأن الدعوة لم تكن أمنت، والسلطة لم تكن استقرت، وكانت على ذلك حكومة عادلة رحيمة

فضلها كل من ذاق حلاوتها على ما عهد من قومه . وكانت حكومة الأمويين في الشرق والغرب وحكومة العباسيين في الشرق إسلامية في أكثر الفروع دون الأصول وأعني بالأصول قواعد الحكومة الأساسية كانتخاب الحاكم العام وإلزام الأمة له بالشورى واتباع الشريعة وكانت على ذلك أفضل من جميع الحكومات التي عرفها الناس قبل الراشدين . ولو وجدت الحكومة الإسلامية على حقيقتها في دولة آمنة مطمئنة لاختارها كل من عرفها من الراقين ، حتى تكون ملاذ البشر أجمعين .

سيقول الجاهلون بحقيقة الإسلام إن هذا من غلو المسلم المذعن ويأتون على ذلك ببعض الأعمال والتقاليد التي انتقدت على المسلمين ، وإنني لعل علم بشبهاتهم لكثرة ما بلوت من أمثالهم وما كشف تلك الشبهات عليّ بعسير . ولكن القول قلما يقتنع الجاهل لا سيما إذا كان متعصباً لرأيه ، غير محيط بتفصيل ما عند خصمه .

لست أعجب ممن نشأ في دين يعادي الإسلام إذا هو أنكر مزايا الإسلام الظاهرة ، وأصوله الواضحة ، بله المزايا التي فقدت من المسلمين ، فلا أثر لها إلا في ثنايا آيات الكتاب المبين ، إنما عجبني ممن نشأ في المسلمين وهو منهم ثم هو يجهل مكان الجنسية الإسلامية الواسعة العامة لجميع الشعوب والطوائف ، الشاملة لجميع الخيرات والعوارف ، فيدعو إلى جنسية الوطن كبعض أحداث المصريين أو جنسية اللغة والنسب كبعض جهلة الترك . فمثل هؤلاء كمثل من يهدم مصرأً ويبنّي قصرأً ، بل هم أضيق وجودأً وأضعف فكرأً .

يعذر في مثل هذه الدعوة القبطي في مصر والأرمني في بلاد الترك والإسرائيلي في فلسطين لأن السلطة في أيدي غيرهم فلهم الحق في أن يطلبوا مساواتهم بسائر أبناء بلادهم . على أن وجود هذه الطوائف القليلة العدد أوسع من وجود دعاة الوطنية والجنسية فإنهم يطمعون في الاستقلال

ببلاد أكثرها لغيرهم فهم يطلبون سعة وامتداداً، ودعاة الوطنية والجنسية منا ييغون ضيقاً وتقلصاً.

لولا جنسية النسب لما تمزقت السلطة الإسلامية في ريعان شبابها فكانت عباسية في الشرق، أموية في الغرب، فاطمية في الوسط والشرعة واحدة والملة واحدة ولما كان بين ذلك من ملوك الطوائف ما كان. لولا جنسية اللغة والوطن لما تفرق المسلمون بعد ذلك الى دول وممالك كالتركية والفارسية والأفغانية وما كان قبلهما في الهند من السلطنة التيمورية وغيرها في المشرق، وكالعربية في شمال افريقية الغربي وغير ذلك مما كان في قلب هذه القارة الإسلامية التي استولت عليها أوروبا إلا قليلاً. ولو عقل المسلمون معنى الحياة المليية، لكانوا في هذه الممالك كلها أحسن نظاماً ووحدة من الامبراطورية الإنكليزية.

إن الحياة الوطنية الصحيحة هي جزء من الحياة المليية الإسلامية فإذا حيي المسلمون في قطر ما حياة إسلامية فبشر جميع دعاة الوطنية الصحيحة من أهل الملل التي تعيش معهم بجميع ما يطلبون من عدل وحرية ومساواة وتعاون على درء المضار وجلب المنافع وكل ما به تعمر البلاد وتزيد خيراتها، وبشر المسلمين منهم بأن سيكونون مركزاً لجاذبية العامة لجميع الشعوب المسلمة في الأرض ثم مشرق المدينة الفضلى لجميع العالمين.

يا لله العجب! ثلاث مئة مليون أي ثلاث مئة ألف ألف من المسلمين قد اكتظ بهم قلب الأرض من مراكز الى الصين ولا تجد لهم قوة ولا سلطة عزيزة لا يعبت باستقلالها عابث، ولا يلمس شرفها لأمس، أرأيت لو كان لهم حياة مليية، تشعرهم بحقيقة الأخوة الإسلامية، أما كان يعتر بعضهم ببعض ويمد بعضهم بعضاً ولو إمداداً معنوياً؟ أكان يسهل على الناقم من شعب من شعوبهم أن ينتقم منه بغياً وعدواناً وهو يعلم أن قلب الأرض يخفق للعدوان عليه خفقاناً لا يستهان به؟

ما هو المرض الذي أضعف في المسلمين هذه الحياة المليّة العليا؟ هو عصبية الجنس واللغة والوطن وهي العصبية التي حاول الإسلام القضاء عليها. فلما غير الملوك شكل حكومته الى ضدها تمكنوا من محاربتة بجنسياتهم. فما أفسد علينا ديننا ودينانا إلا الملوك المستبدون وأعوانهم من علماء السوء وتلك سنة قد خلت في كل أمة. قال فيها الشاعر:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها
هل من سبيل إلى اضعاف هذه النزعة الجنسية الخبيثة وإماطة هذه
النزعة الوطنية الحمقاء من طريق الحياة المليّة الإسلامية واشعار المسلمين
في جميع الأقطار بحقيقة الرابطة التي تضم بعضهم إلى بعض اشعاراً يملك
الوجدان وتصدر عنه الأعمال التي توثق هذه الرابطة وتؤكد ما فيها من
حقيقة الأخوة مع بقاء كل قوم منهم في بلادهم وتعاونهم مع سائر أهلها
على عمارتها بالعدل والاحسان والتواؤم والاخلاص؟ السبيل واضحة وهي
حب الله المتين وسراجه المنير ولكن السياسة والجهل عقبتان كؤودان من
دونها يصدان السالك عن المضي فيها ولا يذلل العقبات إلا هم الرجال،
فأين الرجال؟

السياسة المانعة من حياة المسلمين المليّة نوعان: سياسة أجنبية، وسياسة
مسلمية. وإن أهل البصيرة من المسلمين لعلّى خلاف في أيتهما أشد وطأة
فالذين يحكمهم الأجانب يعتقدون أن حكامهم أعداء دينهم فهم وحدهم
العقبة في طريق رقيهم في هذه الحياة. والذين يحكمهم المسلمون يعلمون
أن حكامهم بجهلهم وبما تيمهم وتبّلهم من عشق الاستبداد والسلطة
المطلقة التي لا تكون إلا لله هم العقبة الكبرى في طريق الحياة المليّة
بالاعتصام بحبل الله المتين، والاهتداء بكتابه المبين، والجمع بذلك بين
مصالح الدنيا والدين.

ومن عرف الحكومتين، وعجم عودي السياستين، فهو أعلم بالحق،
وأجدر ببيان الفرق.

الأجانب الحاكمون في بلاد المسلمين منهم القاسي الحائف كهولندا وفرنسا، ومنهم اللين المتساهل كإنكلترا. ولم يبلغ أشدها جوراً ومنعاً للمسلمين من التعليم والتربية أن يحجب عنهم من كتب العلم والتربية ما تحرمه عليهم بعض الحكومات الإسلامية أو المسلمية ولكن محبي الإصلاح من المسلمين يرجون أن يغلبوا حكوماتهم ويلزموها بالعدل والمساواة وترقية العلوم والعقول وحرية الاجتماع للخير ويرون الأجانب عقبة في طريقهم فإن إكراه الحكام على ترك الاستبداد لا تتمكن منه الأمة المستعدة له إلا بثورة داخلية والمسلمون يعتقدون أن الأجانب يتربصون بهم الدوائر فإذا هم ثاروا على حكومة من حكوماتهم المستبدة اغتنم الأجانب هذه الفرصة فأوقعوا بالدولة وقضوا عليها. فالأجانب عقبة في طريق المسلمين أينما ساروا وتوجهوا لا فرق بين بلادهم المستقلة وبلادهم المستعمرة. وهذا هو السبب في مقت عامة المسلمين لكل من يتكلم في عيوب الدولة العثمانية ولو كان صادقاً قاصداً للإصلاح. فإنهم في الغالب يعتقدون أن إظهار عيوبها عون للأجانب عليها وقد يكونون مخطئين في اعتقادهم هذا وأنا لنا بالرجال العارفين الذين يكشفون للعامة عن وجه الصواب فيعرفونه معرفة إذعان؟

المرشدون الرسميون فينا جاهلون بشؤوننا وسياستنا وعون للحكام كيفما كانوا لأن لهم سهماً من سلطتهم. وأصحاب الجرائد منا لا هم لأكثرهم إلاً الازدلاف إلى الحكام، والحظوة عند العوام، على أنهم لا حرية لهم في بلادنا المستقلة تمام الاستقلال، ولو كانت هناك حرية لوجد من يفيد لا سيما في البلاد العثمانية فإن البلاد لم تخل من العقلاء المخلصين.

هذا شأن السياسة في صد محبي الإصلاح الحقيقي عن السعي إليه في طريقه. وأما الجهل فلا حاجة إلى بيان وجهه القبيح فإن ضرره ما لا ينكره أحد في جملته ولا يتسع هذا المقال لتفصيله.

لا نياس من روح الله ولا نقنط من رحمته فإن حوادث الزمان تعمل لنا

ما لا نعمل لأنفسنا ورب عدوان علينا لأجل إماتتنا، يكون سبباً من أسباب حياتنا. بيّنا في الجزء الماضي أن الحرب الروسية العثمانية قد أحدثت في المسلمين هزة حيوية كما قال حكيمنا [الشيخ محمد عبده] رحمه الله. وقد رأينا أثر هذه الهزة في هذا الشهر عند ما علم المسلمون بتهديد أوروبا للدولة العلية واحتلال أسطولها المختلطة لجزيرة (مدلي) لحمل الدولة على تمكينهم من إدارة الولايات المكدونية. حتى ان بعض فضلاء المسلمين في الهند (هو القاضي أمير علي الشهير) كتب إلى التيمس أشهر الجرائد الإنكليزية يبين سوء تأثير عمل أوروبا في نفوس المسلمين كافة وينذر بسوء العاقبة. على أن الشدائد والبلايا إنما تكون محمية إذا عرفت الأمة كيف تستفيد منها فلندع لها أثرها وفعلها الطبيعي ولنبحث فيما يجب علينا أن نعمله لحياتنا المالية، وكيف نجتنب مكافحة السياسة ومنازعة الجهل؟ وهو ما نبينه في مقال آخر.

الحياة المالية بالتربية الاجتماعية

٥١

[المنار ج ٨ (١٩٠٥) ص ٨١١ - ٨١٩]

ذهب كثيرون من نابذة الترك والمصريين مذاهب الخيال الذي انعكس إلى أفكارهم مما شهدوا من ظواهر مدنية أوروبا. فحسبوا أن فلاح كل شعب وكل قطر معلول لعلة واحدة، هي تقليد أوروبا بنشر العلوم الرياضية والطبيعية ونظام الحكومة، والأخذ بعادات أهلها. ويستدلون على رأيهم هذا بما كان من ارتقاء اليابان في نحو ربع قرن بهذا التقليد ويحسبون هذا برهاناً قاطعاً لا سبيل إلى المكابرة فيه إلا من كان أعمى البصيرة جاهلاً بحال هذا العصر مغروراً بحال قومه في حاضرهم أو ماضيهم.

وكأنى بمن تعود منهم قراءة الكلام المعقول في المنار وقد أنكر فاتحة هذا القول وساء ظنه بمن سمى هذه القضية البديهة اليقين عنده تخيلاً وحسباناً.

لا تعجلوا بالإنكار عليّ فلست بمنكر فائدة تلك العلوم ولا أقول أن أمة تعز وتقوى في هذا العصر مع الجهل بها وبطرق الاستفادة منها وارجعوا الى أنفسكم فأنتم أعلم بها منكم بأوروبا واليابان . انكم قد سبقتم اليابانيين الى هذا التقليد فالمصريون منكم قد مرّ على أخذهم بهذا التقليد قرن كامل والترك قد ناهزوا ثلاثة أرباع القرن ولم يدرك أحد من الفريقين غبار اليابانيين الذين لا يزيد سنهم في المدنية على ربع القرن إلا قليلاً . فدولة اليابان قد دوخت في بضع سنين أكبر دولة شرقية وأكبر دولة غربية وطفقت ترث الأرض وتستعمر البلاد، وبلاذكم تنقص من أطرافها، ويفتات عليكم فيما بقيت لكم رسومه منها، فأني أثر لتقليد أوروبا تحمدون، وأني فائدة له في أنفسكم تعرفون؟

هل يستطيع المصري أن يقول إن حكومتنا لم تتشكل بشكل الحكومات الأوروبية فلم يتم لنا التقليد الذي هو علة النجاح؟ أنى وكل ما عرفته هذه البلاد من نظام أوروبا ومدنيتها فهو من حكومتها لا من الأهالي ولا تزال الحكومة أرقى من الرعية تسوقها في كل طريق وتقودها بكل زمام . منح الشعب المصري حرية القول والعمل والاجتماع منذ ربع قرن، ولم توجد له جريدة ذات مذهب ملي نافع ورأي اجتماعي ثابت، ولا مدرسة كلية بل ولا جزئية يعتد بتعليمها وتربيتها تنظر البلاد إلى المتخرجين فيها نظر الرجاء بما ترى من امتيازهم على المتخرجين في مدارس الحكومة . فمدارس الحكومة وهي في أيدي الأجانب ترجح على جميع المدارس الأهلية رجحاناً مبيناً، ولم تؤسس فيها شركات كبيرة للزراعة أو للتجارة أو للصناعة نجحت في عملها، فكانت موضعاً للثقة بها، ولم يوجد فيها للمسلمين وهم السواد الأعظم غير جمعية خيرية واحدة لا تزال فقيرة بالنسبة إلى

الجمعيات الخيرية في أوروبا واليابان على ما قاسى مؤسسوها من العناء والبلاء في سبيلها ولا يزال مجلس ادارتها يحو من دفاترها في كل سنة أسماء كثير من الأغنياء الذين يشتركون فيها، وتقر عليهم السنون ولا يؤدون اليها ما فرضوه على أنفسهم لإعانة فقرائهم، وأكثرهم من المتعلمين علوم أوروبا في بلادهم أو في أوروبا نفسها.

وأما الترك، فقد ملأ طلاب المدنية منهم الآفاق أنيناً وشكوى من حكومتهم وطعناً في سلطانهم وانني على اعترافي لهم بأنهم في مجموعهم أرقى من المصريين علماً وأخلاقاً وأقوى عزيمة واستقلالاً أقول ما قاله كبير من كبرائهم، «إننا بطعنا في السلطان وصراخنا بالشكوى من حكومة «المابين» نعرف للعالم علناً بأننا لسنا أمة إذ لو كنا أمة لما قدر رجل واحد على أن يفعل فينا ما يشاء ويحكم ما يريد ولما عجزنا عن وضع بناء حكومتنا على أساس الشورى الشرعية التي فرضها ديننا ورأينا نجاح الأمم بها، فهؤلاء الخائنون منا في السلطان انما يبصقون على ذقونهم». يريد هذا التركي الكبير أن الشعب لم يرتق الى المستوى الذي يقدر فيه على تغيير شكل الحكومة فهو إذاً لم يستفد من تقليد أوروبا ما اعتزت به أمته وارتقت به دولته بل كان كل خذلان أصيبت به الدولة أثراً من آثار خيانة هؤلاء المقلدين أوروبا المعبر عنهم بالمتفرنجين فهم الذين اقترفوا جريمة الخيانة في حربها الأخيرة مع روسيا وهم هم الذين أفسدوا البلاد بظلمهم وبيعهم الدماء أو الحقوق بالرشوة لأجل إرضاء شهواتهم التي استفادوا التفتن بها من مدنية أوروبا.

لا ريب أن معظم ما أخذناه عن أوروبا كان سبباً في زيادة نفوذها فينا واستيلائها على كثير من بلادنا وامتصاصها لثروتنا وقد ضعفنا وما قوينا وبعدنا عن الاستقلال ولم نقرب منه، فلماذا كان هذا منتهى حظنا منها وكان حظ اليابان ما نعلم من القوة والمنعة والعزة والثروة؟ وكيف السبيل إلى استخراج لبن هذه المدنية من بين فرائثها ودمها؟ أم كيف السبيل الى

نجاح أمتنا؟ فهذه الصين قد أنشأت تقتدي باليابان في إصلاح شأنها وتنظيم حكومتها، وهذه روسيا قد وضعت الثورة حكومتها في البوتقة لتذويبها وتنقيها من أوضارها. فإذا صلحت حال هاتين الحكومتين فإن فساد الأرض ينحصر فينا وحدنا، وإذا جعلنا الكلام في الشعوب والملل، لا في الحكومات والدول، فإننا لا نجهل أننا قد دفعنا من صدرها الى عجزها، وصرنا إلى ساققتها بعد أن كنا في مقدمتها. فماذا يجب علينا من العمل، قبل أن ينقطع منا الأمل؟

أقول في الجواب يجب أن نكون أمة واحدة تربطنا رابطة واحدة تصل بعضنا ببعض حتى يشعر كل صنف وقبيل منا بل كل فرد بأنه عضو من جسم كبير له حياة واحدة عامة منبثة في جميع الأعضاء ما دامت الأعضاء متصلة فإذا ما انفصل عضو منها فارقت الحياة اذ لا حياة له في نفسه. وإننا لا نشعر الآن بهذه الحياة وإنما يشعر كل واحد منا بنفسه وحدها فهو يعمل لها وحدها فالمهندس والطبيب والفقير والقانوني والمدرس وسائر أهل المعارف هم كالحداد والنجار والزارع والصانع والأجير والخفير وغيرهم من أهل الحرف والصنائع كل واحد منهم يتعلم ليتوصل الى رزقه وما يتمتع به نفسه وأهله، لا يلاحظ مصلحة عامة ولا رابطة جامعة، فوجوده لا ينبسط إلى أكثر مما ينبسط له وجود بعض الذباب والحشرات على ما شرحناه في مقالة روابط الجنسية. فالعلوم الرياضية والطبيعية والشرعية وغيرها لاحظ فيها عندنا لما يسمونه الحياة الاجتماعية وهي الأمة في مجموعها لا أجزائها فلو صار كل فرد منا عالماً بفن من الفنون التي ارتقت بها أوروبا ونحن على هذه الحال، لما كان ذلك كافياً لجعلنا أمة عزيزة كاملة الاستقلال، قصارى هذا العلم أن ينقل هؤلاء الأفراد من مرتبة الخزف والودع الى مرتبة الخرز زجاجاً كان أو جوهرأ مع بقاء كل خرزة منفردة عن الأخرى إذ لا سلك هناك تتنظم فيه ولا ناظم يؤلف بينها في السلك فيجعلها عقداً. وأعني بالسلك هنا رابطة الجنسية وبناطم العقد المربي الاجتماعي لا المربي

الصناعي . حدثني محمد توفيق البكري قال سمعت السيد جمال الدين [الأفغاني] في الأستانة يقول: «ان المسلمين لا ينتفعون بشيء من هذه العلوم التي يتعلمونها لأن السلك عندهم منقطع ولا فائدة بدونه». أو ما هذا معناه قال لي البكري وقد فاتني أن أسأله عن مراده بهذا السلك، فما رأيك فيه؟

مثل المعلم الفني والمربي الصناعي كمثل من ينظف قطع المعدن أو الجواهر ليُنتفع بها في الجملة ولا يبالي أكانت حبة في عقد أو فصاً أو كمثال من ينحت الحجارة النحت الأول لتباع لمريدها فهو لا يبني ولا يعنيه أمر الباني أكان يريد مسجد صلاة أم هيكل أو ثان . وأما المربي الملي والمعلم الاجتماعي فهو الذي يقيم بناء الأمة أو ينظم عقدها فيجب أن يكون هو الرئيس على معلمي الفنون والعلوم المدير لمدارسهم لأنهم هم الذين يمهّدون له العمل ويهيئون له الحجارة التي يقيم بها البناء . فإذا خلت مدارس الأمة من هؤلاء المربين والمعلمين فبشرها بأنها تهتئ أفرادها للدخول في بناء غير بنائها . وهكذا نرى الذين تعلموا العلوم والفنون منا هم الذين مكنوا الأجانب منا بنصحهم لهم في خدمتهم ، وإن لم يصلوا في التشرف بهم إلى أن يجعلوا من بنيتهم ، وهكذا تتبدل أحوال الأمم وتتغير أشكالها كما صارت كنائس القسطنطينية مساجد ومساجد قرطبة كنائس .

إلا أن حياتنا المليّة التي هي سلك اجتماعنا ونبوع سعادتنا لا تنفخ روحها فينا إلاّ بالتربية الدينية الدنيوية فيجب أن يكون جل اهتمام طلاب الإصلاح منا في الدعوة الى هذه التربية والسعي لها وإزالة العقبتين اللتين ذكرناهما في مقالة الجزء الماضي من طريقها أعني عقبة السياسة وعقبة الجهل ، وكيف يكون ذلك؟

كتبت ما تقدم فلم يقف القلم دقيقة ولا لحظة انتظاراً لما يليه الفكر حتى إذا انتهى إلى هذه النقطة وقف ساعة من الزمان ، وكان هذا شأنه في المقالة الأولى جرى فلم يقف الا عند نقطة بيان العمل الواجب علينا

فكانت وقفته خاتمة المقالة . وقف القلم لوقوف الفكر، ووقف الفكر لأن تصور العاملين حال بينه وبين تصوير العمل، انتقل من إملاء الواجبات التي يعلمها إلى البحث عن العاملين الذين يجهلهم، كأن صائحاً أهاب به، قف لا تخاطب من لا يسمع، ولا تطالب من لا يعمل . فوقف هنيهة ثم أنشأ يجوب البلاد ويتصفح الوجوه فرأى أن أكثر الذين يعقلون ما يقال، ويقدرّون على الأعمال، أحلاس بيوت، وأحلاف خمول، ومن قد ظهر بما نصح للأمة، قد استفاد بنصحه الظنة، فلا يثق به الجمهور، ولا يكلون إليه تدبير الأمور، ثم عاد إلى قبر الأستاذ الامام [محمد عبده]، فبكاه بالدموع السجّام، وتذكر أن الأمة ما فقدت رأيه ونصيحته، وإنما فقدت زعامته وإمامته، فإنها لم تكد تشعر بأنه رب السلك، وربان الفلك، فتستعد لقبول ما يأتيه من النظام، إلّا وقد اختطفه منها الحمام :

فإن لم يأتنا ندب بسلك فلا عمل هناك ولا نظام
وإن لم يأتنا نوح بفلك على الإسلام والشرق السلام

هذا ما كان من الفكر في سكوته عن الإملاء قد أملاه، ثم عاد إلى ما كان وعد القلم به فوفاه .

يجب على العامل في مصر والهند ما لا يجب على العامل في الآستانة والشام، ويطلب من المصلح في تونس والجزائر، ما لا يطلب من المصلح في فارس أو قزان، ولا أذكر مراكش اذ ليس فيها، على ما أظن، رجال، ولا الصين لأن المسلمين فيها لا يهتمهم غير جمع المال . وجملّة القول إن الشعوب الإسلامية متمزقة، في بلاد متفرقة، وليس لشعب منها من الحرية في العلم والعمل للدنيا والدين مثل ما لمسلمي مصر والهند وهم في مقدمة المسلمين ذكاءً وفطنة ولولا ما يعوزهم من العزيمة والثبات والاستقلال الشخصي الذي تفضلهم به الشعوب العثمانية لكانوا هم الرجاء لسائر المسلمين، ولا أعتد دعوة أحداث الوطنية في مصر مانعاً لانتفاع المسلمين

بالمصريين فإن دعوتهم لا تزال ضعيفة لا يخشى أن تفصل هذا العضو من جسم الأمة.

إنما يكون العاملون لخير الإسلام في مصر والهند بمأمن من غائلة السياسة إذا هم اتقوا الاصطدام بالسياسة والافتتان بها فيجب أن يكون عملهم للإسلام نفسه لا لهوى أمير أو ملك، ولا اتكالا على دولة أو حكومة، ولا لأجل مقاومة السلطة، أو معاندة القوة، ولولا افتتان المصريين بالسياسة وتعلق نفوسهم بمناهضة إنكلترا اتكالا على فرنسا لنجحوا في ظل حرية الاحتلال الإنكليزي نهضة كانوا بها أئمة المسلمين ولكنهم لم يكادوا يشفوا من داء الغرور بفرنسا حتى قام من خطباء الفتنة من يغريهم بألمانيا ويغريهم بمناصبه القوة المحتلة الحقيقية اتكالا على قوة ألمانيا الوهمية.

خدع بعض المصريين أنفسهم ويخادعون قومهم إذ يقولون إن الحياة الوطنية إنما تكون بكثرة الكلام في ذم كل عمل للمحتلين وإظهار الميل عنهم إلى غيرهم، ويتوهم الأكثرون منهم ويوهمون قومهم بأن من يعمل لخير ملته وأمته في مصر فهو على خطر ايقاع الإنكليز به لأن الحرية التي عندهم لا تعدو إباحة القول وعمل المنكر، وإن كلاً لمخطيء فيما يقول ويزعم فإن القول لا يزلزل القوم ولذلك أباحوه فإذا آنسوا أن وراءه عملاً فلا يعجزهم إحباطه وهم هم الذين يلعبون بالأمم والدول كما يشاءون. وأما من يعمل في سلطتهم لخير نفسه بالاهتداء بدينه والارتقاء في دنياه فإنهم لا يصدونه عن السبيل، ولا يقيمون في وجهه العراقيل، وقد ارتقى وثنيو الهند في ظل حريتهم ارتقاءً مبيناً والمسلمون نائمون فلم يقعدوا القائم، ولا أيقظوا النائم، ولما انتبه المسلمون من نومهم، ودعاهم الداعي إلى العمل لقومهم، قال لهم الإنكليز إن تعملوا لأنفسكم فإننا مسعدون، وإن تهملوا شؤونكم فما نحن لكم إلا مهملون.

الإنكليز قوم يحبون الكسب بهدوء وسلام فهم لا يحركون أضغان الناس عليهم ولا يقصرون في تسكين ما تحرك من نفسه أو حركه خصم

آخر يناظرهم، لا يعاندون الطبيعة ولا يساعدونها على أنفسهم، فمن استعدت طبيعته لعلم أو عمل مع مسألتهم اقتنعوا بأن يستفيدوا منه بحسب حاله فهم يرضون من العالم ما لا يرضونه من الجاهل، ويعاملون الشعب المستقل المتحد، بغير ما يعاملون به الشعب المستذل المستبعد، فما أجبن من يقول إنهم لا يمكنوننا من العمل، وما أجهل من يقول لماذا لا يعملون لنا ما لا نعمل لأنفسنا إنهم إذا أعداؤنا. نعم، انهم أعداؤك العقلاء وأنت بجهلك أعدى أعداء نفسك:

إذا ما أهان امرؤ نفسه فلا أكرم الله من يكرمه

هذه ما نفتحم به عقبة السياسة في مصر والهند أعيده مختصراً وهو أن يكون عملنا لإحياء ملتنا وترقية أمتنا بالعلوم النافعة والأعمال المالية المشتركة والجمعيات العلمية الخيرية مع مسألة القوة بالصدق لا بالرياء والمخادعة وما مسألة القوة إلا ترك العبث بمقاومتها لأجل قوة خارجية سواها. أما مطالبتها بترك كذا مما يضر البلاد أو فعل كذا مما يفيدها فلا ينافي المسألة ولا يقتضي المقاومة. وإذا صار في البلاد أمة تطالب بذلك على بصيرة وحق فإن طلبها لا يكاد يرد إذا كان معقولاً فإن العاقل لا يظلم مع العاقل لا سيما إذا كان أمة (الكلمة للسيد جمال الدين رحمه الله) ولن تكون هذه الأمة أمة إلا بالحياة المليّة التي ندعو إليها.

تلك الحقيقة، وقد يتوهم ضعفاء العقول أن فيها مصانعة للمحتلين وما أنا بمحتاج إلى مصانعتهم لدنيا أريدها منهم وهم أغنى بقوتهم وبراعتهم في استثمار البلاد وتدبير أمور الأمم عني. ولو كنت أصانع لكنت أحوج إلى مصانعة العوام بمجاراتهم على أهوائهم لتزداد مجلتي رواجاً فيهم أو بعض الكبراء الذين يبدلون الأموال لمن يؤاتيه على ما يريدون وما كان هذا مني ولا ذاك ولن يكون ان شاء الله تعالى. ان أريد إلا اقناع طائفتين من الناس بما لو اقتنعوا به رجي أن تستفيد الأمة من عملهم. الطائفة الأولى جماعة من أهل المعرفة بما ينفع الأمة يصدهم عن العمل لها اعتقاد أن

الانكليز واقفون بالمرصاد لكل عامل ملته لأنهم أعداؤها ولا قدرة لنا عليهم فعلينا السكون والسكوت وهؤلاء هم الواهمون . والطائفة الثانية مؤلفة من أفراد كثيرين لا يعرفون النافع للأمة والمحیی للملة وإنما يظنون أن الواجب على كل وطني أو مسلم أن يعتقد أن كل ما يعملهُ المحتلون البلاد ضارٌّ فإن كان نافعاً في الظاهر فهو ضار في الباطن وأن يقاوم القوم بالقول فيذمهم ويقبح أعمالهم ويظهر الميل الى دولة أوروبية أخرى نكاية فيهم ، وهؤلاء هم المخدوعون . فأولئك لجنهم لا يعملون بعملهم النافع وهؤلاء لحمقهم يقولون ما لا يفعلون ، والغارون لهم يخادعونهم بما لا يعتقدون .

أريد العمل لما يحیی الملة وينهض بالأمة ولا حرية لنا في غير مصر والهند فأحب أن يقدرها العارفون بالخير والشر قدرها ويستفيدوا منها لينشط أهل الهند ولكيلا يطول على المصريين أمد الوهم وسوء الظن بالانكليز كما طال على مسلمي الهند فحرموا الاستفادة من حريتهم حقبة من الزمن ولم يشعروا بخطأهم إلا بعد أن رأوا الوثنيين قد علوهم بالعلم والعمل والثروة والحكم . فحسب المصريين ربع تلك المدة وليعلموا أن اقتحام العقبة سهل كما ذكرنا ومن بين لنا خطأنا فإننا له شاكرون ، ولرأيه ناشرون . نعم ، إن حكومة فارس (ايران) لا تعادي العلم ، ولا تمنع الاجتماع ، ولكن الشعب نائم ، يحلم بظهور المهدي القائم ، وهي عاجزة عن النهوض بنفسها ، وما أحوجها إلى يقظة شعبها ، قبل أن يفرغ لها الجاران ، فتغتالها الغيلان .

بيننا معنى الحياة المليية وأن رابطة الملة في الإسلام هي أقوى الروابط وأعمقها نفعاً للبشر وأن العاقل إذا فقه سرها لا يرغب عنها ولا يفضل عليها غيرها ، ولو لم يكن من أهلها ، وأنها الآن منحلة وأنها على انحلالها موضع للأمل . وانه يجب على المسلمين توثيقها وتوكيدها وأن أحرى الناس بالعمل والسعي لها مسلمو الهند ومصر - ويليهام مسلمو التتر في روسيا واستعدادهم قوي وستظهره الحرية المنتظرة بعد الثورة - وان ما يمنعهم من

العمل ليس إلّا وهما يقويه الجبن أو جهالة يمدّها الخداع والغرور. هذا
وسنشير إلى اقتحام عقبة الجهل فيما يأتي.

أما العمل الواجب فلا يشرح بالتفصيل إلّا للعاملين ويجب أن يكون
دائراً على أقطاب هذه المسائل الكلية:

١ - كون تعليم الدين مؤيداً للعقائد دافعاً للشبهات الرائجة في هذا
العصر.

٢ - كون تعليم التاريخ وعلم الاجتماع والأخلاق والآداب موثقاً
لرابطّة المليّة بين شعوب المسلمين وعناصرهم المختلفة.

٣ - تعليم العبادات مع بيان حكمها وفوائدها في تزكية النفس وتعليم
أحكام المعاملات مع بيان انطباقها على مصالح البشر ومنافعهم في هذا
الزمان ومن ذلك بيان أن كل محرم ضار وكل حلال نافع.

٤ - تعلم العلوم الرياضية والطبيعية بقصد ترقية النفوس بمعرفة سنن
الله وحكمه في الخلق وترقية مجموع الأمة بالأعمال التي تزيد في ثروتها
وعزتها.

٥ - إحياء اللغة العربية بإلزام المتعلمين التحوار بها استبدالاً لها باللغة
العامة وبتعليمهم البلاغة في القول والكتابة ليكونوا كتاباً بارعين، وخطباء
مؤثرين.

٦ - تعليم الصنائع التي يمكن العمل بها في البلاد وفنون التجارة بقصد
إنماء ثروة الأمة بغنى أفرادها.

٧ - الجمع بين التعليم على النهج الذي شرحناه وبين التربية العملية
في المدارس الإسلامية المفقودة من الأرض.

٨ - جعل مدار التعليم والتربية على استقلال الفكر واستقلال الإرادة
والاستقلال في العمل الذي يعبرون عنه بالاعتماد على النفس، وعلى حب

الأمة وشرف الملة . والكافل لهذه الأركان الثمانية هم المعلمون المربون الذين بيّنا وظيفتهم . وههنا تعترضنا عقبة الجهل جهل رجال الدين - والعامّة من ورائهم - بهذه الطريقة للتعليم الديني وبفائدة العلوم الدنيوية وجهل علماء الدنيا بهذه الطريقة لتعليم علومهم . على أن أمر هؤلاء أهون، وإرشادهم الى المطلوب منهم أيسر، وإذا بعدنا عن علماء الرسوم الدينية ومعاهدهم كالأزهر وما ألحق به في هذه الديار فإننا نأمن من معارضتهم ومناصبتهن لنا في تعليمنا، على أن صوتهن في مصر قد خفت ونفوذهن قد ضعف، ولا نعدم من يعلم الدين على الوجه النافع الذي أشرنا إليه حتى ممن كان تعلم في هذه المعاهد وصادف علوماً وهداية أخرى بشرط أن يوجد المدير العام رب السلك وناظم العقد.

لا يكون هذا إلا في المدارس الكلية فلا حياة بدونها ولو بقي الاستاذ الإمام [محمد عبده] حياً لأسست في مصر مدرسة كلية وشرع فيها قبل مضي هذا العام فقد كان أعد لها عدتها وعزم على جمع المال لها في هذا الشتاء، جزاه الله عن نيته وعمله أفضل الجزاء، وقد كان مضطرباً بهذا الأمر ولعله يوجد في مصر من يستخدم الاستعداد الذي تم لها كما كان يريد رحمه الله . أما إنشاء الجمعيات والشركات فإن البلاد المصرية والهندية شرعت فيه ويرجى لها النجاح بالتدريج، ان شاء الله تعالى .

هذا ما نذكر به أهل العقل والغيرة من مسلمي مصر والهند وقزاق وغيرهم من مسلمي الفرس على نومتهن، ومسلمي العثمانيين والتونسيين على ضيق عطنتهم، وحيف زمنهم، وضعف مُنتهم، على أن استعدادهم الفطري للعمل ربما كان أقوى، واستقلالهم في الإرادة والفكر أقوى، ولكن اقتحام العقبتين أشق عليهم وأعسر، فهم أحق بالاجتهاد وأجدر، ويتوقف ذلك على أعمال تعرف مما تنفثه الأخطار في الصدور، لا مما تبشه الافكار في السطور، وكل ميسر لما خلق له، «ألا الى الله تصير الأمور» [سورة الشورى رقم ٤٢، رقم ٥٣].

[المنازع ٩ (١٩٠٦) ص ٥٢ - ٦٥]

«قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ» [سورة سبأ رقم ٣٤ الآية ٤٩].
«وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» [سورة الاسراء رقم ١٧،
الآية ٨١]. «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ» [سورة الانبياء رقم ٢١، الآية ٨].

مضت السنة في المغلوبين على أمرهم، المقهورين في أرضهم، أن
يعتذروا عن أنفسهم، بدعوى أن القوة هي التي غلبتهم على حقهم،
وأَنهم غير مذنبين ولا مقصرين، ولا مسرفين ولا مضيعين، وجرت عادة
الغالبين على أمرهم، والقاهرين في حكمهم، أن يحتجوا لأنفسهم بأنهم
أصحاب الحق الذي يعلو ولا يعلو، وأن الحق هو الذي جعل كلمتهم
العليا وكلمة أعدائهم السفلى، . وقد يعتور الأمة الواحدة القوة والضعف
والعز والذل فتدعي في طور قوتها وعزها أنها اعتزت بالحق وغلبت،
وفي طور الضعف والذل أنها أخذت بالقوة فقهرت، وأنها حليفة الحق في
الطورين، لم تتعد حدوده في حال من الحالين، وتلك سنة الله تعالى في
الأفراد أيضاً يدعي الرجل الحق لنفسه ما ظفر، ويعتذر عنها بالقوة إذا هو
غلب وقهر، وهذا الغرور من الإنسان قد أضله عن طريق الحق حتى لا
يكاد يفهم معنى كلمة «الحق» ومدلولها الصحيح. وما نقل إلينا قول عن
غالب يتعزز فيه بالقوة على الحق، إلا تلك الكلمة الماثورة عن بسمرك
«القوة تغلب الحق» وقد أرسلها مثلاً، وهي لا تصح إلا تأويلاً وجدلاً،
ولو غلب الحق لما كان حقاً. والحق أن الحق قد يخفى، وقد يترك وينسى،

ولكن ما صارع الباطل إلا صرعه، ، ولا قارعه إلا وقرعه، «وانما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه»، والقوة انما تظفر اذا كانت شعبة منه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الحق عبارة عن الشيء أو الأمر الثابت المتحقق في الواقع، والباطل هو ما لا ثبوت أو لا تحقق له في نفسه وما لا ثبوت له ولا تحقق لا يحق ما كان ثابتاً متحققاً، كما هو الشأن في الوجود والمعدوم والمعلوم والموهوم، وهذا مما لا مجال فيه لاختلاف العقلاء. إن يختلفون إلا في الحقوق العرفية والوضعية، والدينية والشرعية، وما تحكم فيه الشرائع من الأمور الاجتماعية، وفي كل ذلك حق وباطل لا يتنازعان إلا ويكون الحق هو الغالب والباطل هو المغلوب. وإنما نبين ذلك ونذكر مواضع غلط الناس فيه ومناشئ شبهاتهم، فنقول: إن الحق والباطل يتنازعان في خمسة أمور كلية، وهي:

١ - الفلسفة والنظريات العقلية.

٢ - الوجود والسنن الكونية.

٣ - السنن الاجتماعية.

٤ - القوانين والمواضعات العرفية.

٥ - الدين والشرعة الإلهية.

١ - الفلسفة والنظريات العقلية

اختلف الناس في الفلسفة والمسائل النظرية في القديم والحديث ومنهم المحق والمبطل فيقول من يظن أن الباطل يغلب الحق إن كثيراً من الآراء الباطلة في ذلك كانت رائجة لا ينازع فيها أحد، وكثير منها كان موضوع النزاع. وكان أكثر الباحثين فيه على الباطل، ولا يزال يظهر للعلماء في كل زمن وكل جيل خطأ كثيرين من السابقين والمعاصرين فيظهر بذلك أن

الباطل كان الغالب فإن كنت تقول لا عبرة إلا بغلب دائم، فإنك لا تقدر أن تثبت الدوام لحق ولا لباطل، فيكفي في إثبات قوة الباطل وظهوره على الحق أن يظهر عليه زمناً طويلاً. ودفع هذا الظن سهل وإن كنا نعترف بأن الحق والباطل في الآراء النظرية والفلسفية من أخفى الأمور وأوغلها في الإبهام. ذلك أن التنازع بين الحق والباطل لا يتحقق هنا ما دام كل من المتناظرين في المسألة يجادل بالنظريات ولم ينته بدلائله إلى إحدى اليقينيات التي لا نزاع فيها. وبيان ذلك أن المسألة ما دامت نظرية من الجانبين فالتنازع إنما يكون بين الدليلين لا بين المدلولين. والحق في الدليل هو إفادة اليقين فما دام نظرياً فهو غير حق وإنما هو موقوف أو باطل يعارض مثله. فإذا انتهى أحد المتناظرين إلى اليقين البديهي في المسألة فهو صاحب الحق وهو الغالب سواء أذعن له مناظره أو كابره. وما كان الغلب والسلطان لتلك المسائل النظرية الباطلة في الفلسفة العليا وغير العليا ذلك الزمن الطويل إلا لأن الحق فيها كان خفياً أو غير معروف لأهلها. بل نقول إن طرق الاستدلال نفسها حقاً وباطلاً، فالحق هو ما وافق شروط القياس المنطقي وأعني بكونه حقاً أن النفس فطرت على الانتقال من المقدمات المرتبة على ذلك النحو من الترتيب المعروف في أشكال القياس إلى المطالب التي هي النتائج فإذا كانت المقدمات مسلمة فلا مندوحة للنفس عن التسليم بالنتيجة. وقد يكون صاحب الدعوى الحق غير قادر على نظم الدليل الحق مع كون الدعوى نفسها غير بديهة، فإذا غلبه مناظره المبطل في الدعوى حينئذ فلا بد أن يكون أقرب منه إلى الحق من طريق الاستدلال وأن يكون قد أقنعه ببعض المقدمات الباطلة وفي هذه الحال يكون مبطلاً ومن ناحية الباطل قد أخذ، وهو ما سلمه من المقدمات، لا من ناحية الحق وهو أصل الدعوى التي نطق بها على غير بينة وبغير بينة. ولو شئت لجئت في هذا الأصل بالأمثلة والشواهد التي تجليه أكمل التجلي ولكن القصد بهذا المقال إلى غيره مما نرى الناس مصرين على الخطأ فيه وفي خطأهم الضلال البعيد والخسران العظيم.

٢ - الوجود وسنن الكون

كلّ وجود حق والعدم باطل لا حقيقة له، وكل نظام في الطبيعة والخلقة فهو حق والخلل فيها باطل لا تحقق له، والخلل الصوري الذي يعبر عنه علماء الكون بفلتات الطبيعة له سنن خفية أي نواميس لم يطلعوا عليها وهم يتوقعون اكتشافها ويرجونه ٦٧ : ٣ «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» [سورة الملك رقم ٦٧، الآية ٣]. ٣٢ : ٧ «الذي أحسن كل شيء خلقه» [سورة السجدة رقم ٣٢، الآية ٧]. ولا تنازع بين الوجود والعدم ولا بين النظام والخلل وإنما يقع التنازع بين الناس في فهم ذلك والعلم به فمن كان أعلم بالوجود والنظام كان أعلم بالحق وأقرب الى الحق وكانت له الغلبة بالحق. وهذا ظاهر في نفسه وسيادة العالمين بحقائق الوجود وسنن الله في الكائنات على الجاهلين بها مشاهدة لا ينكرها المسودون المغلوبون بجهلهم وباطلهم، وإن كانوا يجهلون أن علم من سادوهم هم الحق وأنه سبب لسيادتهم، وأنهم هم بجهلهم على باطل وبه كانوا مغلوبين على أمرهم، ومقهورين في أرضهم وديارهم، وأن منهم المسلمين الذين يقول كتابهم ١٠ : ٥ «هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» [سورة يونس رقم ١٠ الآية ٥]. ويقول ٤٥ : ٢٢ «وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» [سورة الجاثية رقم ٤٥ الآية ٢٢]. وفي معناهما آيات ولا ترى شعباً إسلامياً يعتقد بأن سعة العلم بالسموات والأرض من الحق الذي تعتر به الأمم، وإن جهلت الأمة وهلكت، فقد جزيت بما كسبت، وظلمت نفسها وما ظلمت.

٣ - السنن الاجتماعية

للكون سنن في تكوّن الأحجار الكريمة وغير الكريمة كالصخور وفي نموّ

النبات وحياة الحيوان وفي اجتماع الأجسام وافتراقها وتحللها وتركيبها وهي ما عنيانه بالأصل الثاني. وللبشر سنن خاصة بهم في حياتهم الاجتماعية عليها يسرون وفيها يتقلبون فقوتهم وضعفهم وغناهم وفقروهم وعزهم وذلمهم وسيادتهم وعبوديتهم وحياتهم وموتهم، كل ذلك غاية لاتباع سنن الله في السير على أحد الطريقين المشار إليهما بقوله تعالى في الإنسان ٩٠: ١٠ «وهديناه النجدين» [سورة البلد رقم ٩٠ الآية ١٠]. فهذه السنن حق وتنكبها خروج عنه الى الباطل. وما زال العارفون بسنن الله تعالى في الأمم، هم الآخذين بأطراف السعادة من أمم، ينتصرون على الجاهلين بها من المبطلين من حيث هم مبطلون وهو ما به الاختلاف وإن كان الغالب القاهر مبطلاً في شيء آخر، والمغلوب محق في مخالفته له فيه.

لم يعرف كتاب قبل القرآن نطق بأن للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتحول كقوله في سورة الأنفال ٨: ٣٨ «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين» [سورة الأنفال رقم ٨، الآية ٣٨]. أي فإنه يحل بهم ما حل بمن قبلهم ممن عاند الحق وقاومه. وقوله في سياق الكلام على الأنبياء وأحوال الأمم في سورة الحجر ١٤: ١٣ «وقد خلت سنة الأولين» [سورة الحجر رقم ١٤، الآية ١٣]. وقوله في سياق الكلام في بذل المال والحرب ٣: ١٣٨ «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٣٨]. وفي الآية الثالثة بعد هذه الآية «إن يمسخم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٤١]. الآيات.

فهذه الآيات البينات حق وما ترشد إليه من سنن الاجتماع حق، فالجهل بسنن الاجتماع باطل وترك الاعتبار بها في شؤون الإمم باطل فهل وجدت أمة على سطح هذه الأرض عرفت هذه السنن وسارت عليها ثم قاومتها أمة أخرى تجهلها أو لا تعتبر ولا تهتدي بما عساها تعرف منها، ثم

كانت الجاهلة الضالة هي الغالبة، فيقال إن الباطل قد يغلب الحق؟ كلا، ما كان ذلك ولن يكون. ومن العجائب والعجائب جمة أن يكون المسلمون في هذا العصر أجهل الأمم كلها بسنن الله تعالى في البشر حتى أن من يدعوهم إلى تعلمها وتعلم مصادرها وهي تواريخ الأمم يعده رجال الدين منهم جانياً على الدين صادراً عنه لا سيما إذا كانت دعوته موجهة إلى طلاب علوم الدين في مثل مدرسة الأزهر! فأين هذا الدين الذي يعد العرفان بسنن الاجتماع صدىً عنه وجناية عليه من القرآن الذي هو أول كتاب أرشد إلى هذه السنن؟ وإذا غلبت كل أمة مهتدية بهذه السنن في كسبها وعملها وسياستها وحروبها على الأمة الجاهلة بها الضالة عنها وسادت عليها فهل يصح أن يقال إن الباطل قد غلب الحق لأن دين المسلمين هو الحق وأديان الغالبين عليهم هي الباطلة؟ كلا، إن كل مغلوب فهو بسنن الباطل قد غلب وكل غالب فهو بسنن الحق قد غلب. أينصرون ويسودون، وهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وحكامهم يظلمون ولا يعدلون، والله تعالى يقول في بيان سننه الحق، ١١: ١١٦ «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوه فيه وكانوا مجرمين * ١١٧ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» [سورة هود رقم ١١ الآية ١١٦ - ١١٧]. فسروا الظلم ههنا بالشرك والمعنى إن الله تعالى لا يهلك الأمم بسبب الشرك إذا كانت مصلحة في الأعمال ولكن يهلك المفسدين الذين لا ينهون عن الفساد لا سيما إذا كان منبعه أمراؤهم وملوكهم. أو المعنى ما كان ليهلكها بظلم منه لأنه منزّه عن الظلم وهي تستحق الإهلاك لأنها مصلحة في العدل وال عمران.

٤ - القوانين والمواضعات العرفية

لكل أمة من أمم الحضارة قوانين تسوس بها بلادها ولكل قبيلة من القبائل البدوية عرف ومواضعات ترجع إليها في شؤونها الاجتماعية.

وللدول قوانين في الحقوق العامة والمصالح الخاصة. فهذه القوانين والمواضعات حقوق عرفية فالأخذ بشيء من هذه الحقوق يكون هو الغالب لتاركها ما دامت الأمة والدولة أو الدول التي جعلت القانون حقاً في عرفها حاقة له فإذا رجعت الأمة عن عرفها أو الدولة عن قانون لها في بلادها أو الدول عن بعض القوانين العامة لم يعد ذلك حقاً لأن حقيقته لم تكن لذاته وإنما كانت للعرف الذي يكفله أهله الواضعون له وقد زال.

مثال ذلك اعتداء دول أوروبا على الممالك المشرقية وافتئاتها على حكومات هذه الممالك تركيا فما دونها وقد علم من القوانين العامة أنه ليس لدولة أن تفتت على أخرى في إدارتها الداخلية ولكن أوروبا تفتت وتغلب. فهنا يظن الجاهل بالفصل بين الحق والباطل أن الباطل قد غلب الحق بالقوة ووجه الخطأ في هذا الحق الذي ندعي أن أوروبا سلبته من تركيا في مصر أو كريت مثلاً إما أن يكون حقاً طبيعياً يملك ويحفظ بمقتضى سنن الله في الاجتماع البشري أو حقاً عرفياً يملك ويحفظ بمقتضى القوانين العامة التي تعترف بها الدول وتكفلها. فإن ادعى المدعي الشق الأول فإننا نمنع دعواه ونقول إن سنن الاجتماع لا تتبدل ولا تتحول كما نطق الكتاب العزيز ودلت التجربة والمشاهدة لأن واضعها وحافظها هو العزيز الحكيم وهي تنيط الغلبة ودوام السيادة بالعدل والعلم بالسنن والإصلاح في الأرض والمنعة والتقوى والاستعداد للحماية بالقوة وأعظم القوة فيها الأمة المستقلة العارفة بحقوقها ثم القوة الآلية ذلك غير متحقق في تركيا كأوروبا فلا حق طبيعي هناك. وأما الحق العرفي فقد قلنا إنه ليس حقاً ذاتياً وإنما هو حق ما كفله واضعوه المعترفون به وقد اتفقت الدول الكافلة للقوانين العامة على أن لا تعامل دول المشرق بما تتعامل هي به وأن تفتت عليها بحكمة حتى لا يفضي الافتئات إلى الحروب، التي يخسر فيها الغالب والمغلوب، فتبين بهذا أن الباطل لم يغلب الحق في المسألة بل الحق هو الغالب كما أخبر الله تعالى. وذلك أن دول أوروبا الغالبة عارفة بسنن الكون وسنن الاجتماع

ومتهدية بها وهي الحق وبها الغلب والسلطان، كما تقدم البيان مؤيداً بالقرآن، فإن قيل إن أوروبا تظلم في البلاد التي تفتت فيها: قلنا: نعم، ولكن ظلمها دون ظلم حكام البلاد المفتات عليهم فباطلها أقل وعدلها أكثر فحقها أكبر وهكذا غلب الحق الباطل ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ومن هذا القبيل غلب ألمانيا وانتصارها على فرنسا فإن سببه العلم بسنن الكون وسنن الاجتماع والعمل به ولذلك قال بسمرك: غلبنا بالمدرسة: وقوله هذا حق وأما قوله: القوة تغلب الحق: فقد لبس فيه الحق بالباطل فالقوة الباطلة لا تغلب الحق ولكن القوة الطبيعية الاجتماعية تغلب الحق العرفي وحينئذ يكون الحق قد غلب حقاً أضعف منه في الظاهر بل هو لم يغلب إلا الباطل.

يقول الظانون في الحق غير الحق إن القضاء بظلمهم ووكلاء الدعاوي بحيلهم وختلهم كثيراً ما يؤيدون المبطّل في دعواه حتى يكون له الفلج والظفر: ونقول إن هذا القول صحيح ولكنه لا يفيد المطلوب فإن تأييد الباطل إذا كان من الحكام فلا قانون ولا شريعة وإنما هو الهوى والظلم يتحكمان وهما من الباطل الذي لا يغلبه إلا حق من جنسه وهو السلطة العادلة. فإذا تنازعت سلطة عدل مع سلطة ظلم وغلبت الثانية الأولى تكون المعارضة صحيحة. وأما الدعوى فليست من جنس السلطة فيقال، إنه يجب أن يغلب حق الأولى على باطل الثانية. وإن كان الحاكم عادلاً والخصم المبطّل أو وكيله المحامي عنه ألحن بحجته وأقدر على البيان من الخصم المحق أو وكيله فالتغالب إذاً بين الحجة والحجة ولم تنس ما قلناه فيها عند الكلام في الفلسفة والنظريات العقلية.

إن الإنسان يظلم والظلم من الباطل حتى قيل إن الظلم طبيعي في البشر ومنه قولهم: الظلم كمين في النفس، القدرة تظهره، والعجز يخفيه، وقال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

والظلم قول بأن الانسان جُبل على الباطل وهو على ظهور شبهته غير صحيح وإنما الصحيح هو ما قاله الخالق الحكيم، في السورة الخامسة والتسعين [سورة التين رقم ٩٥، الآية ١ - ٨]. وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والتين والزيتون ٢ وطور سينين ٣ وهذا البلد الأمين ٤ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ٥ ثم رددناه أسفل سافلين ٦ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ٧ فما يكذبك بعد بالدين ٨ أليس الله بأحكم الحاكمين».

أكد لنا القول عز وجل بأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم إذ أقسم على ذلك بما ذكرنا بعهد الفطرة ومعاهد ظهور الشريعة ذلك أنه خلقه وجعل له من الخواص ما يدرك به ما يحتاج إلى إدراكه في حفظ نفسه وتوفير منافعها ودفع المضار عنها. ومن العقل ما يميز به بين المدركات الحسية فيعرف صوابها وخطأها وما يحكم به على هذه المشاعر المدركة فيوجهها الى الاشتغال بالأنفع والأصلح. فهو مجبول على أن يختار ما هو أنفع وأصلح. ولكنه لما خلق مدنياً مستعداً للكمال الشخصي والنوعي بالعمل التدريجي والتعاون. والعمل لا يكون إلا بعلم والعلم لا يكون إلا بالكسب كان هذا الإنسان عرضة للجهل بوجوه المصالح والمفاسد والمنافع والمضار سواء كانت للأفراد أو للأمم والشعوب، والجهل من الباطل وبه ردّ الانسان بدخوله في طور الحياة الاجتماعية الى أسفل سافلين. فكان أفراد وجماعاته يجنون على أنفسهم ويظلمونها من حيث يظنون أنهم ينفعونها ويؤيدون حقوقها ففطرتهم تطلب الحق الذي فيه المصلحة والمنفعة وعقولهم تخطيء في تحديده فتقع في الباطل فكانوا محتاجين إلى مساعد للفطرة وللعقل يحدد لهما الحقوق النافعة ويميزها من الأباطيل الضارة. وذلك هو الدين الذي نفشه روح الحق في روع كل واحد من أولئك الشارعين الذين ظهوروا في معاهد منبت التين والزيتون وطورسينين وفي ذلك البلد الأمين (مكة المكرمة) وغيرها فصلح به أمر الناس وساد الحق على الباطل ما كانوا

يهتدون بتلك الشرائع إيماناً وعملاً صالحاً كما قال عز وجل . فالباطل ليس من منزع الانسان بطبعه ولكنه من العوارض اللازمة له من حيث هو مرید مختار في علمه وعمله كاسب لهما بالتدريج . ولذلك أجمع الحكماء في العصر على سنة من سنن الاجتماع التي جاء بها القرآن في شأن الحق والباطل وهي ما يعبرون عنه بالانتخاب الطبيعي وقد بينها الله تعالى بقوله «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ٢٥] . وقوله «لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٤٠] . وردت بالنار على انها سورة رقم ٧١ الآية ٣٩] . وقوله «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله، كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال» [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ١٧] . وبالآيات التي افتتحنا بها هذا المقال . وبمثل قوله «ان العاقبة للمتقين» [سورة هود رقم ١١، الآية ٤٩] . وقوله في السحر الذي هو باطل لا حقيقة له . «ان الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الحق بكلماته» [سورة يونس رقم ١٠، الآية ٨١ - ٨٢] . وقوله بعد إرشاد للأمم منه النهي عن الفساد في الأرض بعد إصلاحها «وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ٨٦] . وقوله بعد بيان أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار» [سورة ص رقم ٣٨، الآية ٢٨] . فاتفق الحكماء على مضمون هذه الآيات وأمثالها في هذا العصر هو اعتراف بأن للحق الغلبة والسلطان على الباطل إذ هما وجداً وتنازعا وعلى أن الإنسان مفطور على تغليب الحق على الباطل لولا ما يعرض له من الخطأ في التمييز بينهما وإنما يسود الباطل في غيبة الحق أو غفلته عنه .

ذكرت لصديق لي هذا المبحث قبل أن أتم هذا المقال فأخبرني أنه يحفظ

عن الحكيم السيد جمال الدين الأفغاني تمثيلاً في مصارعة الحق للباطل معناه أن الحق كان يصرع الباطل ويصفعه فرأى الباطل أن لا طاقة له به فاستشار أعوانه فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون على أن يكيدوا للحق كيلاً فجاءوه يلقون إليه السلم ويدعونه إلى مأدبة أعدوها له فلما حضر أجلسوه على بساط جميل تحته حفرة عميقة فوق في الحفرة فطفقوا يهيلون عليه التراب حتى دفنوه ثم جلسوا فوق الحفرة لئلا يخرج منها فيطش بصديقهم الباطل فكان ينتفض بقوة العظيمة يحاول الخروج وهم يتحاملون بأثقالهم عليها خوفاً منه والباطل يسرح ويمرح آمناً من رؤية الحق له لأن أولياءه حالوا بينهما ولكن الحق ما عتَم أن انتفض انتفاضة نسف بها أولئك المتثاقلين وخرج إلى الباطل فأوقع به ودفنه وأراح الناس من شره.

وحاصل التمثيل أن الباطل انما يسود ويثبت حيث لا يوجد من يقوم بالحق ويقاومه به وأن ذلك لا يدوم . فكل دولة أو حكومة ظالمة تخالف قوانين العدالة في الأرض وتهضم حقوق الرعية فهي إنما تسود بباطلها ما دامت الرعية دافنة للحق دائسة له فيكون باطل الحكومة غالباً لباطل الرعية حتى إذا ما انتشر الظلم وتفشى وذاق آلامه الجماهير فاستصرخوا الحق واستغاثوا به لباهم مسرعاً وصال على باطل الحكومة الظالمة فجندله ربما جندلها معه فإذا استماتت الرعية وأنست بالظلم فإن سنة الكون تسلط على الحكومة الظالمة حكومة أجنبية عادلة أو ظالمة تفتك بها وتقلص ظلها ثم يكون بقاء الحكومة الثانية على سنة الله في الحكومة الأولى ٣٥ : ٤٣ «فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً» [سورة فاطر رقم ٣٥ الآية، ٤٣].

٥ - الدين والشريعة الإلهية

ما قلناه آنفاً يثبت أن الدين في جملته حاجة طبيعية للبشر وإن كانت أحكامه التفصيلية مما يجري فيه اختيارهم فهم يحكمون فيها عقولهم

وأفكارهم ويتبعون فيها قاعدة الأصلح والأنفع لهم. فالحق والباطل يجريان في الدين من وجهين أحدهما - كون عقائده صحيحة معقولة في نفسها، وأحكامه في العبادات والآداب موافقة للفطرة في تقويم الملكات وتهذيب الأخلاق وتوثيق الروابط وشد الأواخي بين الناس، وأحكامه في القضاء والسياسة والإدارة موافقة لسنن الاجتماع وقواعد العدل، أو كونها ليست كذلك. وثانيهما - كون عقائده راسخة في عقول الأمة مؤثرة في قلوبها، وآدابه حاكمة في شعورها ووجدانها، وأحكامه محترمة عند أمرائها وجمهورها، أو كونها ليست كذلك. فالدين سنّة من سنن الاجتماع الكبرى وهو حق في الواقع أو باطل مؤيد بحق اجتماعي هو وحدة الأمة في الاعتقاد والعمل ولأهله الغلب والسلطان على من ينازعهم فيه ويحاول إبطاله أو إرجاعهم عنه من المعطلين. لأنه إما أن يجمع نوعي القوة في سنن الاجتماع وفي القوانين والمواضعات العرفية التي تسنها الأمم لأنفسها وتعتقد أن فيه خيرها وحفظ حقوقها، كما تقدم، وإما أن ينفرد بالثانية. وما اجتمع فيه الحقان يسود على ما اتفق له أحدهما فقط كما ساد الإسلام في أول نشأته على سائر الأديان لأنه حق من كل وجه والأمة متحدة فيه. والتاريخ يؤيد ما نطق به الكتاب في ذلك بقوله «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» [سورة النساء رقم ٤، الآية ١٤١]. وقوله «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» [سورة الروم رقم ٣٠، الآية ٤٧]. ولكن هذا النصر خاص بالمؤمنين حقيقة لا ادعاءً أو جنسية كما قال في آية أخرى «يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * ٨ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم» [سورة محمد رقم، الآية ٧ - ٨]. وقال عز وجل «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم» - الى قوله - «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» [سورة النور رقم ٢٤، الآية ٥٥]. وقد فسروا الكفر هنا بكفر النعمة كالظلم والبغي والإفساد في الأرض.

ونقول إن عمل الصالحات الذي قيد الوعد بالنصر يشتمل مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين من سورة الشورى «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * ٣٩ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين * ٤١ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * ٤٢ انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ٤٣ ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور» [سورة الشورى رقم ٤٢، الآيات ٣٨ - ٤٣]. ومثل قوله ٤ : ١٣٥ «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعلمون خبيراً» [سورة النساء رقم ٤، الآية ١٣٥]. وقوله «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خير بما تعملون» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٨]. فهو يأمرهم بالقيام بالقسط دائماً وهو العدل وبالشهادة لله بلا محاباة قريب ولا غني ولا رحمة فقير مبطل ويأمرهم أن لا يحملنهم شنآن قوم أي عداوتهم على ترك العدل فيهم بل يحتم عليهم العدل حتى مع الذين يعادونهم.

وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة بأنه إنما ينصر رسله وعباده المؤمنين الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون على الظالمين كقوله «فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» [سورة ابراهيم رقم ١٤، الآية ١٣ - ١٤]. والآيات في هذا المعنى وهو نصر المصلحين في الأرض وإهلاك الظالمين والمفسدين كثيرة جداً.

لا يوجد في مقابل هذه الآيات آية واحدة على أن الله ينصر الذين ينتسبون إلى الإسلام وان لم يقوموا بالقسط والإصلاح وينهوا عن الظلم

والفساد فهل يجيز هذا الكتاب الحكيم لدعي الانتساء اليه بالقول دون العمل اذا رأى استيلاء الأوروبيين على المسلمين والافتئات على حكامهم في سائر بلادهم التي لم يتم لهم الاستيلاء عليها أن يقول إن هؤلاء الأوروبيين منهم الملحد ومنهم من يقول بالتثليث فكيف سادوا بقوتهم على المسلمين، وأهل التوحيد وهو حق اليقين؟ كلا، إنه لا يجيز لهم هذا القول بعد ما بين لهم أنه لا يهلك الأمم بالشرك إذا كانوا مصلحين في الأرض بالعدل وسائرين على سنن الله في العمران ولكنه يهلك الأمم الظالمة مهما كان اعتقادها كما علمت من الآيات التي أوردناها آنفاً ومثلها كثير. وأعظم عبرة للمسلم انكسار الصحابة مع داعي الحق الأعظم (ص) في وقعة أحد لما خالفوا سنن الاجتماع في الحرب فخالفوا العقائد وتركوا حماية ظهر الجيش وفيها نزل ٣: ١٦٥ «أولاً أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١٦٥]. فكل من خالف سنن الله الحق يغلب على أمره بحق حتى يرجع وما أسرع رجوع المؤمن إلى الحق إذا زل عنه.

لهذا أقول إن الوصول إلى حق اليقين في التوحيد ينافي الإصرار على الظلم، والتهادي في الفساد والبغي، كما نطق القرآن وشهد العقل. فلو لم يجعل الإسلام الأعمال الصالحة بعد ترك المفاصد سياجاً للإيمان وعنواناً له ودليلاً عليه وشرطاً لأجتناء ثمراته في الدنيا والآخرة لكان العقل وحده كافياً في الدلالة على أن الموقن بعقله المذعن بقلبه لعقيدة التوحيد الخالص لا يؤثر هواه ولا هوى الرؤساء والحكام على رضوان هذا الإله العظيم الحكيم القوي العزيز. وإنما رضوانه بالتماس فضله من سننه في خلقه، والوقوف عند ما حدده من الشكر والعدل في شرعه، فهو يمضي في تعرف السنن والأحكام والعمل بها لا يخاف في ذلك وثبات الظالمين لقوله عز وجل ٣: ١٧٥ «فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١٧٥]. وقوله بعد ذكر سنته في الأيام يداولها بين الناس ٣: ٩

«ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ٩]. فهل تنطبق هذه الآيات على قوم يخافون الظالم ان ينهوه عن ظلمه، ولا يخافون الله تعالى أن يخرجوا عن حكمه، وقد جعلوا دينه جنسية، لا هداية حقيقية، فهم يرجون سعادة الدنيا والآخرة بالانتساب إليه، أو بالتوسل والدعاء لأشخاص ماتوا عليه، وهم مختلفون متفرقون، متنازعون متواكلون، جاهلون متكاسلون، لا يبذلون ولا يتعاونون، ولا ينظرون ولا يتفكرون. ١٢ : ١٠٥ «وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» [سورة يوسف رقم ١٢ الآية ١٠٥ - ١٠٦]. ٤٩ : ١٥ «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون» [سورة الحجرات رقم ٤٩، الآية ١٥].

هؤلاء الصادقون هم الموعودون بنصر الله وتأييده «ولن يخلف الله وعده» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٤٧]. فلو صدق المسلمون اليوم ما عاهدوا الله عليه باتخاذ الإسلام ديناً من العمل بكتابه والاهتداء بسننه في خلقه لما غلبهم أحد على أمرهم فلقد صدقهم وعده بصدقهم فيما سلف حتى إذا ما فشلوا وتنازعوا في الأمر وعصوه من بعد ما أرى سلفهم ما يحبون أخذهم بعدله وسلط عليهم من هم أقرب إلى الأخذ بسننه منهم كما توعدهم بقوله ٧ : ٤٦ «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ٤٦].

طال المقال والبحث يطلب زيادة بيان لا يمكن الإتيان عليه إلا في مؤلف خاص به لأن المسألة من أبعاد المسائل التي لم يفترحها أحد من الكتاب فيما نعلم والشبهات فيها كثيرة وإنما اهتمدنا فيها بهداية القرآن وآياته. وخلاصة ما أقول في شأن المسلمين مع غيرهم في هذه الأزمنة أن من يستخرج من القرآن الآيات الناطقة بسنن الله تعالى في أهل السيادة والعزة من صفاتهم وأعمالهم، والآيات المبيّنة لسننه في الأمم المستحقة للإهلاك والإذلال،

ويعرض كل ذلك على الأمم الغالبة السائدة والأمم المغلوبة المقهورة يتجلى له صدق قوله تعالى في سيادة الحق وغلبته وإزهاقه للباطل في كل أمة . وهذا النوع من أنواع علوم القرآن ينهض وحده حجة على أن ذلك النبي الأمي الذي بعث في تلك الجاهلية العمياء كان ينطق بوحى من الله ولم يعلمه بشر بل خفيت هذه المعارف العالية عن أفهام أكثر البشر حتى بعد مجيء القرآن بها وإنما يظهر صدقها آنأ بعد آن برؤية آياته تعالى في الآفاق وفي ترقى البشر في أنفسهم كما قال ٤١ : ٥٣ «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» [سورة فصلت رقم ٤١ ، الآية ٥٣] .

فعلى المسلمين أن يعلموا أنهم أخذوا بذنوبهم ، لا بقوة غلبتهم على حقهم ، ٤٢ : ٣ «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» [سورة الشورى رقم ٤٢ ، الآية ٣٠] . وان معظم هذه الذنوب على عواتق رؤسائهم وكبرائهم ، فلا يعذرون باستبدادهم واستعلائهم ، وعلى العقلاء وأهل البصيرة منهم - وهم محل الرجاء في كل أمة استعدت للحياة - أن يعلموا أن ليس لهم إمام يدعون إليه ، ويجمعون الكلمة عليه ، إلا هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه ، فعليهم أن يجتمعوا لهذه الدعوة وأن يتناصروا في سبيلها وأن لا ينتظروا نصر الحق من المبطلين ، ولا يتوانوا فيها خوفاً من الظالمين ، فإن هذا الأمر إذا خرج من أيديهم ، يوشك أن لا يعود إليهم ، إن الإسلام لا ينصر في الدنيا بالأمانى والأحلام ، ولا ينجي في الآخرة بالخرافات والأوهام ، إن أهل الحق لا يُظلمون ، إن الظالمين لا يسودون ، ٤٠ : ٧٨ «فاذا جاء أمر الله فضي بالحق وخسر هنالك المبطلون» [سورة غافر رقم ٤٠ ، الآية ٧٨] . ٤٦ : ٣٥ «كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغٌ فهل يُهلك الا القوم الفاسقون» [سورة الاحقاف رقم ٤٦ ، الآية ٣٥] . ٦ : ٤٧ «قل إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون» [سورة الأنعام رقم ٦ ، الآية ٤٧] . وهذه نذره تعالى لقوم لا يعدلون ، بل هم بربهم يعدلون ، فبادروا

أيها المؤمنون الصادقون، ٢١:٧ «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ٢١]. ولا تغتروا بدينكم الذي إليه تنتسبون، ولكنكم به لا تعملون، فلقد أنزل الذكر على من قبلكم فسادوا وهم عاملون، ١٩ [٦]: ٤٤ «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ٤٥ فقطع دار القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ٤٤]. وقد أنذركم ما حل بهم لعلكم تعتبرون، ٢١: ١٠ «لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون * ١١ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين * ١٢ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * ١٣ لا ترضكوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون * ١٤ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * ١٥ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين * ١٦ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لaceyين * ١٧ لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين * ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون» [سورة الأنبياء ٢١ الآيات ١٠ - ١٨].



٥٣

تطور الأمم وانتقالها من حال إلى حال

[أطوار الأمة الإسلامية]

[المفارج ٩ (١٩٠٦) ص ١٢٠ - ١٣٠]

إن للإجسام الحية خلايا تتغذى وتزدوج وتلد وتموت فيخلفها نسلها فيكون بها الجسم حافظاً لحياته، فإذا ضعفت الحياة في الجسم قلّ توالد الخلايا وكثر فيها الموت حتى يهلك الجسم فتتصل أجزاؤه بجسم آخر قوي

الحياة فتكون غذاءً له كما ترى في النبات والحيوان .

إن الحياة مصدر النظام فهي بعمل خلايا الجسم الجزئية تكوّن خلقاً كلياً منتظماً وإن كان لا شعور لكل خلية في ازدواجها بمثلها وإنتاجها بأن عملها ينضم إلى عمل أمثالها فيكون خلقاً كبيراً له في الوجود مظهر عظيم وعمل حيوي منتظم .

إن مدار حياة الأحياء الصغرى كالحلايا، والكبرى كالشجر والبقر، على الخليقة وما فيها من سنن النظام وقلما يحتاج شيء منها إلى عناية مدبر مختار من جنسها إلا الإنسان فإنه في أفراده وجمعياته لا يستغني بالطبيعة عن تعاهد بعض أفراده لبعض بالعناية والتربية الشخصية والاجتماعية .

إن لهذه الأحياء الصغرى التي تتكون منها العوالم الكبرى أمراضاً وهذه العوالم نفسها أمراضاً وأن لكل مرض علاجاً ودواءً وأن العلاج إذا صح يحول دون إنهاكه لقوة الحياة أو الذهاب بها ما دام الجسم الحي مستعداً للحياة أي ما بقي من عمره الطبيعي بقية .

إن معالجة مرضٍ ما تتوقف على العلم بحال ما عرض له المرض من حيث هو حيّ له مزاج يصح باعتداله الفطري ويمرض بأعراض تخرجه عن الاعتدال والعلم بما سبق عروضه له قبل المرض الأخير الذي يحاول علاجه وبحقيقة هذا المرض وأسبابه والعلم بالدواء وبالطريقة المثل في المعالجة .

إن الإنسان أغرب الأحياء على هذه الأرض والعوارض التي تعرض لحياة أفرادهم فتمرضهم أو تقتلهم هي أخفى مما يعرض لغيره من الأحياء النباتية والحيوانية على كثرة بحثه عنها وعنايته بمعالجتها ولذلك يقل في الناس من يصل إلى نهاية العمر الطبيعي ويقل فيهم من يعيش سليماً من الأمراض والأسقام كالشجر والحيوان الأعجم .

إن حياة الإنسان الاجتماعية أمراضاً كما أن حياته الشخصية أمراضاً وأن معالجة الأمراض الاجتماعية أعسر، والتحقق بشروطها أندر، ففي كل

جيل من الأجيال، ينبغ في الأمم المشتغلة بالعلوم والفنون كثير من العلماء الأخصائيين، والصناع الماهرين، وقد تمر قرون وتنطوي أجيال، تخلق فيها أحوال وتتجدد أحوال، ولا يبعث طبيب اجتماعي في الأمة، يرفعها من الحضيض إلى القمة.

إن حياة الأمة التي ليس فيها أطباء اجتماعيون، وهداة روحانيون، تكون دون حياة الخلايا في الروح، وحياة النجم والشجر في الروض، لأن حياة النبات قلما يعوزها شيء وراء الطبيعة وسنتها في بلوغها غاية ما أعدتها حكمة التكوين له من النظام والكمال الشخصي والنوعي وحياة الإنسان لا بد فيها من المربي لتصل إلى كمالها، فإذا فقد المربي كان الناس فوضى لا يصلح لهم شأن ولا يستقيم لهم أمر. وأفراده حينئذ يشبهون خلايا الأجسام من حيث جهل كل واحد منهم بنسبة حياته إلى حياة غيره وتأثيرها في الاجتماع وغايتها في الوجود على أن أفراد الإنسان تشعر بعملها الجزئي ولكن يقل فيهم من يشعر بتأثير عمله في الأمة فيتحرى فيه مصلحتها ويعرف اندماج مصلحته فيها.

إذا تمهد هذا فاسمع ما ألقيه عليك بشأن الأمة الإسلامية في حياتها الاجتماعية. إشارة إلى بدايتها وعبارة عما صارت إليه في هذا العصر يكون مثلاً لانتقال الأمم من طور إلى طور من غير تصور ولا شعور.

أطوار الأمة الإسلامية

كانت هذه الأمة في نشأتها الأولى تنفذ الرجل من أبنائها إلى المملكة فاتحاً فيكون خير قائد في إبان الحرب، وخير حاكم في زمان السلم، يقيم العدل، ويعمر الأرض، ويؤمن الرعية، ويستبدل الحرية بالعبودية، فيرى أقل رعيته ولو من غير أهل دينه وجنسه أنه مساوٍ له في الحقوق والحرية بحيث لو نال منه نيلاً فشكاه إلى الخليفة الذي أنفذه لأقاده منه كما حاول

عمر أن يقيد ذلك الصعلوك من جيلة بن الأيهم ملك غسان لولا أنه فر هارباً.

بهذا اتسع ملك الأمة وانبثقت حياتها العالية في أمم كثيرة فأحيتها وجددت للناس مدنية لم يسبق لهم عهد بمثلها بل لم يكتحل ناظر الزمان بنظيرها حتى هذا اليوم الذي نرى فيه من آثار العلم والاجتماع ما لم نر من قبل فإن إنكلترا وهي أعدل دول أوروبا لا تساوي بين آحاد أبنائها وبين أمراء الهند فضلاً عن أن تساوي بين لورداتها وسلاسل ملوكها وبين صعاليك مستعمراتها، وأن الخلفاء الراشدين ما كانوا يجيزون لأبنائهم أن ينفقوا ألوف الألوف من بيت المال في سياحتهم لأجل أن ينفخوا في الرعية روح عظمتهم ويشعروا سكان مستعمراتهم بمكان بأسهم وقهرهم كما أجازت بريطانيا العظمى للبرنس أوف ويلس وليّ عهدها في سياحته الأخيرة. فمثل هذا العمل تقرير لاستعلاء المالكين واستذلال المحكومين فهو جناية على البشر الذين لا يصلون إلى الكمال الاجتماعي إلاً بكمال المساواة التي لا يفضل فيها أحد أحداً إلاً بفضائله وأعماله كما قرر الإسلام.

هذا الروح الذي نفخه الإسلام في المعتصمين به حتى كان الرجل الأمي أو شبه الأمي منهم يعمل في سياسة الممالك ما يعجز عنه الفلاسفة والحكماء قد كان من شأنه أن يستولي على العالم كله فيصلحه لولا أن الملوك الظالمين وأعوانهم من الفقهاء الجامدين قد أفسدوا جسم هذه الأمة فلم يعد مستعداً لحمل هذا الروح والحياة به. فإذا كان عمرو بن العاص قد فتح مصر بجيش صغير فأحياها بالعدل وحسن الإدارة حتى وصل النيل بالبحر الأحمر وأخى بين هذا القطر وبين الحجاز (وهو من لم يدخل المدرسة الحربية ولا مدرسة الحقوق ولا مدرسة المهندسخانه) فقد صار القطر الإسلامي العظيم يستعبده عدد قليل من الأجانب وصار المسلم المتعلم الحامل للشهادات العالية التي يظن أنه يفضل بها عظماء سلفه

كعمرو وعمر ينفذ إلى قطر إسلامي كاليمين اليوم وكالسودان بالأمس فيبغى
في الأرض، ويحني على العرض والعرض، فيترك الأرض موطوبة،
والأموال مسلوبة، والدماء مسفوكة، والأعراض مهتوكة، حتى أنت
الأرض من حكم كل مسلم عليها، واستغاثت السماء من سلطة كل مسلم
تحتها، وسمع رب العزة أنين المظلومين وبكاء الباكين، ١٤ : ١٣ «فأوحى
إليهم ربهم لنهلكن الظالمين» [سورة إبراهيم رقم ١٤، الآية ١٣]. بما جاءهم على
لسان النبيين.

عمّ الظلم فأفسد الأخلاق وأضعف النفوس وطبع على قلوب الأمة
بطابع القهر والعبودية حتى لا أمر بمعروف، ولا نهى عن منكر، ولا تعاون
على البر، ولا ناصر على رفع ضرر، فذهبت ريح الدولة وقوة الأمة واستعد
الفريقان بعملهم لنقمة الله تعالى بدلاً من سابق نعمته فكان تقلص ظلّ
الحاكمين الظالمين عن رؤوس المظلومين الخاضعين بأيدي الأجانب لا بأيد
الأمة وبهذا كان الانتقام عاماً ولو كانت الأمة هي التي هبت لإزالة الظلم
بأيديها وأخذ صولجان الحكم بيدها لكان الانتقام خاصاً بالظالمين ولبقى
للأمة عزها ومجدها.

دبّ الفساد الاجتماعي في جسم الأمة فلم تشعر به فتعالجه فكان
أفرادها يفقدون الشعور بما يحلّ بهم وبما يكون من عاقبته في مجموعهم
كخلايا الشجرة أو الثمرة يعرض الفساد بجانب منها ولا تدري حتى تفسد
جميعها، ذلك أن الظالمين بدأوا بإزهاق التكافل الذي يربط بعض الأفراد
ببعض فيكون سبباً لسريان شعور المجموع بما يطرأ على الأفراد وانفعال
المزاج الكلي بذلك واندفاعه إلى دفع العرض الطارئ قبل سريانه
واستشرائه، فإن من طبيعة الجسم الحي أن ينفع مزاجه بما يعرض لأي
عضو من أعضائه فيوجه قوته لدفع العرض بإعادته ذلك العضو عليه، ألا
ترى أن الدم يكثر وروده على الدماغ عند انهماك في الفكر وإلى المعدة عند
اشتغالها بالهضم وإلى نحو اليد يصيبها برد أو ضرب. والأمة الحية كالجسم

الحي توجه قوتها إلى إعانة كل فرد من أفرادها يصيبه ضرر أو يرهقه ظلم حتى تدفعه أو تعجز فتكون من الهالكين كما إذا عجز المزاج الصحيح في جسم الحيوان عن دفع عوارض الفساد بنفسه أو بمساعدة الطبيب فإن الفساد يغلب حينئذ على الجسم فيفسده .

كيف أزهد الرؤساء المفسدون روح التكافل في جسم هذه الأمة؟ حولوا السلطة من الشورى الشرعية إلى الأثرة الاستبدادية، وفرقوا بين المسلمين في الجنسية، فقالوا عربي وعجمي، وفارسي وتركى، وفي اللغة، فقالوا لغة رسمية ولغة دينية، وفي المذاهب فقالوا سني وشيعي، وحنفي وشافعي، وفي الوطن فقالوا مصري وشامي، ومغربي وحجازي، وإذا كنت تظن أن هذا الضرب الأخير من التفريق أهون ضرره شرًّا فأنا أذكر لك كلمتين لرئيس ديني ورئيس دنيوي تعرف بهما مبلغ تسمم جسم الأمة الإسلامية بسمّ الوطنية. رأى عالم من علماء الدرجة الأولى بل شيخ من مشايخ الأزهر السابقين يلقب بشيخ الإسلام خطيباً شامياً في جامع بمصر فقال إن هذا الجامع حسن وموقعه عظيم «ولكن من الأسف حشوه بالشوام» وقال رئيس كبير من الرؤساء الدنيا في معهد من معاهد العلم الديني - وقد رأى فيه حجرات كثيرة للطلاب من قطر غير قطره - : ماذا فعل لنا هؤلاء . . . حتى نعطيهم كل هذه الحجرات وأهل البلد أحق بها منهم : أو ما هذا معناه . على أنه لم يكن هو الذي أعطاهم وإنما تلك أماكن وقفها عليهم أناس آخرون من غير قوم القائل ومن غير وطنه .

هنالك إفساد آخر هو أشد من كل إفساد وهو الحيلولة بين المسلمين وبين هداية القرآن الذي جعل أمر المسلمين شوري بينهم لا في أيدي أفراد يستبدون فيهم وفرض عليهم مقاومة الظلم والإفساد في الأرض بقوة الأمة وغير ذلك مما يحفظ حياة الأمم بل ينميها حتى تبلغ كماها ولولا هذا الإفساد لما تمّ نظام ولا لمفسد ما أراد .

سرت كل هذه الأمراض في جسم الأمة الإسلامية من حيث لا يدري

الأفراد ولا يشعرون كما علمت من التمثيل السابق وكان من عواقبها أن أكثر الممالك الإسلامية خرجت من أيدي المسلمين وما بقي لهم فهو في طور النزاع ولكن هذا العصر يمتاز على ما قبله بشعور كثير من أفراد الأمة في مرض، ودولها في حرض، فإذا لم تبادر بالعلاج، تم فساد المزاج، وأجهز عليها الظالم، فهلك المحكوم في أثر الحاكم.

بهؤلاء الأفراد على قلتهم وضعفهم أنشأ المسلمون يستعدون لاستعادة ما فقدوا من مزايا الإنسانية ولكن المفسدين لم يغفلوا عن مراقبتهم فهم يجتهدون في إماتة شعورهم بالضغط والاضطهاد تارة وبالرتب والرواتب تارة أخرى، ومن ثبت على نار الفتنتين اضطرب إلى الفرار من ديارهم إلى ديار أخرى يأمن فيها على نفسه أن تغتال، ويجد فيها حرية فكره ولو بعض المجال، وإلاً نفوه إلى بلد قفر، أو جزيرة في البحر، حتى لا ينتشر له فكر، ولا يسمع له ذكر.

وجملة القول، إن المسلمين كانوا أحياء بالإسلام نفسه على بصيرة وبيّنة ولما عرض لهم حلم الفساد اضطرب مزاجهم فتداعوا إلى ازالته فحال دون ذلك تحوّل السلطة الإسلامية عن صراطها ثم ضعف الشعور بفعل هذا الحكم بجسم الأمة لقوة مزاجها وضعف سائر الأمم دونها ثم خدر المرض أعصابها فكان الحلم يفعل فعله وهي لا تشعر حتى عمّ الفساد كل عضو من أعضائها - ونعني بالأعضاء الشعوب والفرق التي انقسمت إليها وحدة الأمة - فلا يوجد شعب إسلامي حي ولا حكومة إسلامية إلا وهي تغفو ما بقي من رسوم الإسلام وتجدّ في إيسال أهله إلا ما يقال عن حكومة الأفغان من عنايتها بحفظ استقلالها بالقوة العسكرية الحديثة وهذا ضروري ولكنه غير كاف كما نرى في تركيا فلا بد من نشر علوم الكون في الأمة وإعدادها للحكومة المقيدة بالشورى وإلاً كانت من الهالكين.

أما ذلك الشعور الذي تجدد لأفراد من المسلمين فهو عمل له في مملكة من ممالكهم إلا إعداداً بطيئاً للانتقال إلى طور آخر مجهول لعامتهم،

ومشكوك فيه عند خاصتهم، لا يدرون أيكون مرضاً مضنياً، أم موتاً
مردياً، أم يكون حياة سعيدة، وسيادة جديدة، أساسها العلم والعدل،
وغايتها العمران والفضل، فمنهم اليائس يزيد في الإفساد، ومنهم الراجي
يدعو إلى سبيل الرشاد، وهكذا شأن الأمم في طور الانتقال، لا تستقر من
الاضطراب على حال.

من أسباب يأس اليائسين أن المسلمين قد خرجوا بتقسيم رؤسائهم
إياهم إلى شعوب وأجناس ومذاهب عن كونهم أمة واحدة فلا فائدة في
كثرتهم، ولا رجاء في وحدتهم، وإنما يجب الحكم عليهم بحسب
حكوماتهم سواء كانت منهم أو من غيرهم فقد أعدهم الظلم والاستبداد
لأن يكونوا عبيداً لمن يحكمهم. وإذا نظرنا في حال حكوماتهم وجدنا
الإسلامية منها أسرع في الإجهاز عليهم من الأجنبية (ونعني بالإسلامية
المنسوبة إلى المسلمين لا ما كانت على قواعد الإسلام فإن هذه لا وجود لها
في الأرض) فإذا كان من الغرور أن نرجو حياة الشعب الجاوي تحت سلطة
هولندا والمغربي تحت سلطة فرنسا مثلاً فمن الجنون أن نرجو حياة الشعوب
العثمانية المتمزقة تحت سلطة تركيا والشعب الفارسي تحت سلطة حكامه
ومجتهديه. ذلك بأن حكومات الأجانب على منعها النور الحقيقي أن ينفذ
إلى عقول المسلمين فيحييهم بحرارته وهدايته لا سلطة لها إلا بقوتها الحسية
على الأجسام، وأما الحكام المسلمون فإن لهم سلطتين: القوة الحسية على
الأجسام والقوة المعنوية في الأرواح. لأن المسلمين توارثوا الاعتقاد بوجوب
الخضوع لهم على أنه من الدين وقلما يوجد فيهم من يعلم أن من أعظم
قواعد الدين أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا حكم إلا لله ومن
استحل الحكم بما يخالف القواعد الشرعية المنصوصة كان مارقاً من
الإسلام ٥: ٢٤ «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» [سورة
المائدة رقم ٥، الآية ٢٤] وهؤلاء العارفون على قلتهم لا يسمح لهم الاستبداد
بنشر علمهم في الأمة لئلا تنبعث لإقامة الشريعة على أساس الشورى

فتبطل سلطتهم الاستبدادية التي تنطوي في باطنها نزعة الألوهية.

ويقول هؤلاء اليائسون أيضاً إن الأوروبيين الذين استولوا على أكثر بلاد المسلمين يتربصون بباقيها الدوائر وحكامها يمهّدون لهم السبل بالظلم والقضاء بالجهل على العلم وباقتراض الأموال منهم ومنحهم «الامتيازات» في بلادهم وهم يجتهدون دائماً في الاتفاق على قسمتها بينهم فلا يمر عقد من السنين إلّا ونراهم قد اكتسبوا حقاً جديداً فيها أو قلعوا ظل نفوذها عن ولاية منها. ثم هم أقدر البشر على سياسة الأمم والتصرف في الشعوب فإذا دخلوا ولاية قبض أفراد منهم على قواها المالية والعسكرية والعلمية والأدبية وذلّوا الأمة لسلطانهم فهم يسخروننا لخدمتهم بقوتنا، حتى لا يدعون لنا سبيلاً إلى استعمالها في منفعتنا، وأعظم مظهر لسياستهم العليا فينا أن سلطتهم تكون أقوى وأرسخ وربحهم يكون أكثر وأسهل في البلاد التي يقون فيها لنا اسم السلطة ويرضون بمعناها لأنفسهم فهم يستعبدوننا بواسطة استعبادهم لحكامنا الذين أنسنا بالعبودية لهم. فأين موضع الرجاء لهذه الشعوب الجاهلة المتفرقة المستعبدة مع الأمم العالة المستقلة المتحدة؟

هذا مجمل احتجاج اليائسين من أهل الشعور بما ينذر المسلمين من الخطر فرأيهم أن طور الانتقال الذي فيه سينتهي بطور دخولهم تحت سلطة الأجانب وزوال استقلالهم من الوجود زوالاً أبدياً كما زال استقلال بني إسرائيل إلّا أن يحدث في العمران انقلاب كبير لا دليل عليه الآن.

وأما أهل الرجاء، ونحن منهم، فإنهم يعرفون ما يحتاج به أهل اليأس ولا ينكرونه وهم نظر آخر أبعد، ورأي أسدّ، ان شاء الله، وأرشد، يؤيدونه بآيات الوحي، ويستدلون عليه بطبيعة العمران وشؤون الاجتماع، ولا يتسع هذا المقال لشرح ما يجوز نشره منه، وإننا نوجز القول فيما لا مندوحة عنه.

ان المسلمين، وان اختلفوا في اللغات والمذاهب والأوطان والحكومات، يتفقون في أمر واحد تتبعه أمور جوهرية من ناحيتها يدعون إلى ما يحییهم ويجعلهم أمة عزيزة تشعرها وحدة الاعتقاد بأن لها مصلحة واحدة يجب على شعوبها الاتحاد والتكافل في سبيلها وإن ظلوا على اختلافها في تلك الأمور العظيمة حتى إذا ما انتشرت الدعوة إلى الأمر المتفق عليه، وهو القرآن، استتبعت الوحدة في اللغة والوحدة في المذهب أو انتفى الافتراق في المذاهب وصار كل شعب من شعوب المسلمين قوة للآخر وعوناً له وظهيراً على بعد الدار وقربها واختلاف الحكومات والأجناس، ولا تسألني عما يكون بعد ذلك وأنت لما تعلم ما يكون قبله.

الدعوة إلى القرآن تستتبع الدعوة به الى جميع العلوم الكونية من طبيعية واجتماعية لأجل تكمیل النفس بعرفان حكم الله في صنعه وإبداعه ولأجل تعزيز دينه بآثار تلك العلوم، وتستتبع طلب المزيد من نعم الله ومساهمة الأغنياء والأقوياء للفقراء والضعفاء في هذه النعم بأداء الزكاة وغيرها من الصدقات التي تقوم بها المصالح العامة والخاصة، وتستتبع حكم الشورى وإقامة العدل وغير ذلك من أركان السعادة. فإذا وفق الدعوة لإقناعهم بهذا وحملوهم عليه فقل قد نفخت فيهم روح الحياة التي لا موت بعدها. نعم، إن هذا الإجمال لا يقنع القارىء بهذه الدعوى وإن التفصيل مع البيان الدليل لا محلّ له هنا على أن شرح ذلك انما يفيد أهله الذين استعدوا للقيام به دون من يقرأ لأجل التسلي أو الانتقاد كما هو شأن أكثر الناس.

بينا في مقالة الحياة المليّة من المجلد الثامن شيئاً من حقيقة هذه الحياة التي هي محل رجائنا وذكرنا هناك العلوم التي نحتاج إليها وكيفية تمهيد العقبات التي تعترض في سبيلها ونحن الآن في حاجة إلى بيان أن المسلمين في طور انتقال من حال إلى حال وأن هذا الطور شبيه بطور النّقه من مرض تخشى عاقبته، ولا تؤمن نكسته، وأنهم محتاجون فيه إلى الأطباء

الروحانيين العالمين بأدواء الاجتماع وطرق معالجتها وإلا سيقهمل الأجانبا
لنحول الأمة في هذا الطور إلى حياة مذبذبة ينقطع كل رجاء للإسلام
فيها.

ثبت بالتجربة والاختبار أن المتعلمين للعلوم الكونية هم الذين يسودون
أمتهم كما أن الأمم السابقة في مضمار هذه العلوم تسود المتخلفة فيه فالناس
تبع لهؤلاء المتعلمين صلحوا أو فسدوا فهم التيار الجديد الذي يحول الأمة
من حال إلى حال وعقول هؤلاء المتعلمين وقلوبهم بين أيدي الأجانبا فهم
الذين يودعون فيها وينقشون في ألواحها المستعدة ما يريدون على علم منهم
بغايتة وأثره. وما نشاهد من أثره أن أكثر المتعلمين لا قيمة للدين الذي هو
الرابطة العامة للمسلمين في نفوس أكثرهم فهم لا يصلون ولا يصومون
ولا يحلون ولا يحرمون وإنما هم أكثرهم التمتع باللذات الحسية ولو بذلوا
في سبيلها جميع المصالح العامة. ثم هم مع هذا مغرورون بأنفسهم
يحسبون أنهم أرقى على سلفهم الصالح عقولاً وأرجح أحلاماً وأوسع علوماً
وأفضل آداباً وأقدر على الأعمال الاجتماعية، فلا الدين عرفوا، ولا حب
الأمة أشربوا، وكيف وهم على جهلهم بشريعتها يجهلون تاريخها الذي لم
يتفضل عليهم ساداتهم الأجانبا بشيء حقيقي منه إلا بعض المسائل
المتقدمة التي صوروها بغير صورتها وألبسوها غير لباسها واستنبطوا منها ما
لا تدل عليه من العيوب والمساوىء. وغفل متعلمونا الأذكى عما اعترف به
المنصفون من الفلاسفة أساتذتهم المتصرفين في عقولهم وقلوبهم من حيث
لا يشعرون من تعظيم شأن مدينة المسلمين الأولين الذي أقاموا ميزان
العدل بعد ميله وأحيوا موات العلم بعد موته كما غفلوا عن أنفسهم التي لم
يوجد لها في الأرض أثر يحمد فلا رفعوا أمة من سقطتها ولا أحيوا دولة بعد
موتها، وما لي لا أذكرهم بتعصب أساتذتهم لدينهم والسعي في نشره بما
يبدلون من الملايين، لجمعيات الرهبان والقسيسين.

كلا، إن القصد إلى بيان حال المتعلمين في مثل مصر والأستانة وأنهم

كالعامة في جهلهم بعاقبة عملهم في الأمة فكل واحد منهم يفكر في خويصة نفسه فهو يتعلم لغاية يجعلها نصب عينيه وهي رزق مضمون يتمتع به كما يتمتع خواص قومه . يعذر التلميذ في هذا ولا يعاب لأنه لا يتوجه إلا حيث يوجهه معلمه ومربيه ، فمن لم يكن له أم ولا أب ولا معلم ينفخ فيه روح حب الأمة والملة لا يرجى أن يهتم بجعل حياته الشخصية ركناً من أركان حياة أمته المليئة ببذل شيء من وقته وشيء من فضل ماله في خدمتها وإعلاء شأنها .

إذا كان الكمال الشخصي يتوقف على حسن تربية الشخص البدنية والنفسية ، فهل يمكن أن يكون الكمال الاجتماعي بالمصادفة والاتفاق أو بترك معظم نشء الأمة فوضى والقذف بمن يراد تعليمهم من الذكران والإناث إلى الأجانب حتى الجزويت والفريز ينقشون ألواح نفوسهم بما يشاءون؟

هذه الحال التي نرى عليها أكثر الذين تعلموا العلوم العصرية والتي يظن أن سيكون عليها أو على ما هو دونها من يتعلمون الآن تصلح أن تكون حججاً لليائسين من إصلاح حال المسلمين ولكن أهل الرجاء يرون في أثناء هذه الظلمات المتكاثفة بصيصاً من النور يوشك أن يتألق فيقشع كل ظلمة ويظهر صراط الحق للسايرين . يرى البصير في مصر والهند نابتة على شيء من استقلال الفكر ويرى في روسيا نابتة لم يعمل في أرواحها سم الأجانب عمله في غيرها ، وهي مع ذلك تطلب العلوم والتربية لأجل الحياة ، ويرى في الآستانة نفسها على شدة الهيمنة فيها على الأفكار والمراقبة على العلم نابتة تلهب غيرة وتشعر من معنى الاستقلال بما لا يشعر به سائر المسلمين ، ويرى في إيران هزة جديدة ، وحركة يرجى ان تكون مفيدة ، ويرى في تونس حركة أخرى حيوية ، تعوزها نفحة من نفحات الحرية ، وليس استقلال الفكر هو كل ما استفادت نابتتنا من الأجانب بل أصابهم نفحة من نفحات الحياة الاجتماعية . فهذا الخير يتنازع مع تلك

الشرور في هذه النفوس الضعيفة ولا يعوز الأمة الآن إلا الأطباء الروحانيون والزعماء الاجتماعيون الذين يشرفون على الأودية والترع والسواقي التي تجري فيها سيول الحوادث الجديدة بالأمة ويقدرّون على تحويلها إلى حيث تكون محيية لأرض الأمة.

ما رأيت لكاتب في هذه البلاد كتابة ولا علمت لعامل عملاً ينبىء بمراقبته للتغيير الاجتماعي الذي ينتقل بالأمة المصرية من حال إلى حال (وحاشا من فَقَدْنَا بالأمس [محمد عبده]) الا ما يكتبه اللورد كرومر في تقاريره السنوية، وما يدبر به أمور الحكومة الكلية، هو الذي ينظر في عاقبة الأعمال المالية الكبرى ويسيرها كما يرى، هو الذي قال في المحاكم الشرعية إنها ستمد إليها يد لا تعرف للقديم حرمة، هو الذي توقع من زيادة الإقبال على تعليم البنات ما توقع وأشار بالنظر في مغيبته، هو الذي فهم ما يرمي إليه اعتصاب تلاميذ المدارس فاهتم به اهتماماً لم يفهم سره إلا الأقلون فمن لنا بمرشدين ينظرون في أمورنا الكلية بتلك العين، ويرجحون لسير نابتتنا خير النجدين؟ هذا ما نحن في أشد الحاجة إليه لإصلاح شؤوننا في هذا الطور الذي نحن فيه، فالزعماء المصلحون هم الذين يحولون مجاري الحوادث التي تعمل في استعداد الأمة وتغييرها الى ما فيه خيرها، وسنفرد لهم مقالاً خاصاً بهم.





[المناج ج ٩ (١٩٠٦) ص ٢٨١ - ٢٨٨]

من تأمل كلام اللورد في هذا الفصل وتلك الشذرة استفاد منه ضرباً من العبرة والحكم تدل على أن هذا الرجل الاجتماعي الكبير قد علم من شؤون المسلمين، وهو أجنبي، ما لم يعلمه الرؤساء من علمائهم وأمرائهم، فضلاً عن أوساطهم ودهمائهم، فرأينا أن نبين ذلك مع شيء من الشرح والرأي.

العبرة الأولى: بيانه لحال المسلمين

ذلك إنه قسم المسلمين الى ثلاثة أقسام: الاول - المتنتعون المحافظون على كل قديم جروا عليه، وهم السواد الأعظم ونقول إنه قد بلغ من تنطعهم في جمودهم على ما ألفوا ان كان من أشد الصعوبات التي لاقتها الدولة العلية في سبيل التعليم العسكري في طرابلس الغرب محافظة الأهالي على زيهم المعروف وحسبانه من أمور الدين وإن أهل مراکش لأشد تنطعاً وجموداً على ذلك ولا يخفى على من شاهدوا حركات العساكر في الحرب أو في التعليم أن لبس البرنس والرداء المعروف بالحرام من عوائق خفة الحركة وموانع اتفاق كثير من الأعمال العسكرية. ولا يختلف عاقلان في كون البراعة في الأعمال العسكرية ومن أهمها خفة الحركات والنظام في النقل والانتقال هي أعظم أسباب الفوز والظفر. فهذه عادة ليست مما توجبها عقائد الدين ولا عباداته ولا فضائله وآدابه قد صارت عقبة كؤودا في طريق رقي المسلمين، وعزة الإسلام وحماية الدين، فما بالك بغيرها من

العادات، التي تقوم على إلحاقها بالدين بعض الشبهات، وهذا القسم من المسلمين تابع في صلاحه وفساده لشيوخ العلم الديني وشيوخ الطريق الذين ينتمون إلى الصوفية فهو لا يصلح إلا إذا صلحوا وأصلحوا وزال اعتقاده بزعامتهم الدينية وقبض له بعد ذلك مصلحون آخرون.

القسم الثاني - المتفرنجون الذين ليس لهم من الإسلام إلا إسمه ولله درّه ما أدق فكره إذ عرف أنهم مارقون من الدين ساقطون من نظر الاعتبار لا قيمة لهم في أنفسهم، ولا صوت لهم في أمتهم، وسنعود الى ذكر ذلك.

القسم الثالث - المصلحون الذين يريدون إصلاح حال المسلمين الاجتماعية مع المحافظة على الدين لعلمهم أن كل فساد طرأ عليهم فمنعهم عن مجارة الأمم في أسباب العزة والقوة إنما هو من العادات والبدع لا من جوهر الدين.

وقد أدرك اللورد بصائب فكره أن هذا القسم هو الوسط الذي يرجى خيره بين المتنطعين في جمودهم والمتهتكين في تفرنجهم. قال إن هذا الحزب معروف في الهند أكثر مما هو معروف في مصر وإن منه السيد أحمد خان مؤسس مدرسة عليكره الكلية منذ ثلاثين عاماً. ونقول إن الزمن الذي قام فيه أحمد خان بعمله هذا هو الزمن الذي كان السيد جمال الدين الأفغاني يبذر فيه بذور الإصلاح في مصر بمساعدة الشيخ محمد عبده الذي تلقى عنه وتخرج على يديه (وترى في هذا الجزء مقاليتين من المقالات الإصلاحية التي تلقاها عنه ونشرها في جريدة مصر التي كانت أنشئت بإرشاده) وكان السيد جمال الدين فيما نظن أقدر من السيد أحمد خان على الإصلاح لولا أنه فتن بالسياسة فحالت دون إتمام عمله في مصر ولم تمكنه من عمل يذكر في غيرها سوى ما كان يكتبه في أوروبا من المقالات الموقظة. لذلك كان الاستاذ الإمام جازماً بأن مسألة السياسة واتقاءها شرط للتمكن من الإصلاح كما بينا في ترجمته. وغرضنا من هذه الكلمات بيان أن مسلمي الهند لم يسبقوا مسلمي مصر إلى الاشتغال بالإصلاح وإنما فاقوهم بمدرسة

العلوم الكلية التي أسسها أحمد خان وقد عزم الاستاذ الامام [محمد عبده] أن يؤسس في مصر مدرسة خيراً منها لكن المنية عاجلته قبل ذلك فقد مات قبل وقته كما قال اللورد وقال كل عاقل عرفه .

وليعلم مسلمو مصر أن مدرسة العلوم في عليكره لم تنجح إلا لأن مؤسسيها كانوا من عهد زعيمهم السيد أحمد خان إلى الآن على وفاق مع السلطة الإنكليزية وتحسين للظن بها فكانوا خيراً للثمة ممن جعلهم سوء الظن والكره بين معاد لعلوم الإفرنج النافعة وبين خائف من كل عمل نافع للثمة ، وأن الاستاذ الإمام [محمد عبده] كان على هذا الرأي أي أنه لا بد لنا من العمل النافع للإسلام والمسلمين مع تحسين الظن بأن الإنكليز لا يعارضوننا في ذلك ولا يمنعوننا مما ينفعنا إلا إذا أدخلنا فيه السياسة وقصدنا مضارّتهم ومقاومتهم وحيث نكون أضرباً على أنفسنا وأنفع لهم كما هي سنة الله تعالى في كل جاهل ضعيف يقاوم عالماً قوياً . وسأوضح هذه المسألة في موضع آخر .

أما ما أشار إليه اللورد من معارضة المسلمين للسيد أحمد خان وحزبه فلا يتوقع نظيره من مسلمي مصر فإن أولئك كانوا يعادون جميع العلوم التي يصفونها بالجديدة أو بالأوروبية ويعدونها آفة الدين ، والمصريون ليسوا كذلك وإنما كان المتنطعون من أهل الجمود يخافون الأستاذ الإمام [محمد عبده] على الدين من جهة تعليمه للدين إذ كانوا يظنون أنه ينصر مذهب الفلاسفة أو المعتزلة على مذهب أهل السنة . فلما قرأ العقائد والتفسير في الأزهر زال ذلك الظن بتهاذي السنين وعلم أهل الأزهر كافة أنه ينصر مذهب السلف على كل مذهب يخالفه ولا يقدم على ما نطق به الكتاب ومضت به السنة النبوية قولاً لقائل . فانحصرت بعد ذلك معارضة الإصلاح الذي كان يحاوله فيمن يعرف اللورد وغيره من أهل البصيرة أنهم إنما يعارضونه لأسباب شخصية بل صرح اللورد بذلك . لهذا كان كل شيء يخترعونه للطعن فيه يكون سبباً لزيادة عرفان الناس بفضله حتى أن

السواد الأعظم من الأمة المصرية صار معه في أواخر مدته . ولا ينافي هذا قول اللورد أن مريدي الشيخ وأتباعه الصادقين قليلون ، فإنه يعني بهذا الصادقين في طلب الإصلاح والعارفين بطرقه وهم قليلون بالطبع ولكن الذين يوافقونهم ويحسنون الظن في طريقتهم كثيرون جداً بل هم الأكثرون . فعسى أن يوفقهم الله للمضي في العمل الذي كان إمامهم متوجهاً إليه وعند ذلك يظهر صدق قولنا لا سيما إذا علم الناس أن الحكومة وما وراءها من القوة راضية أو غير ساخطة على عملهم .

بلغ من مقاومة السيد أحمد خان أن كان يطعن فيه على المنابر واستفتى بعض علماء الحرمين في أمره فأفتوه بكفره ولم تبلغ مناهضة الأستاذ الإمام [محمد عبده] في شدتها هذا المبلغ . ذلك بأنه كان أقدر على الاحتجاج بالدين لما يدعو إليه وأبعد من السيد أحمد خان عن الشذوذ وأن مناهضيه أقل غباوة وأضعف إرادة والأمة أئبه منهم وأقرب إلى الإصلاح من أهل الهند .

العبرة الثانية : ثناؤه على الإمام

صفوة العبرة الأولى ان اللورد [كرومر] عارف من أحوال المسلمين ما لا يعرفه أمراؤهم وعلماءهم فيعتد بقوله فيهم . وأما العبرة الثانية فنريد بها ما في ثنائه على الرجل وحزبه من الإنصاف وعرفان الفضل لأهله وما في تنشيطه لهذا الحزب من قصد الخير وقد زاد هذا الثناء قيمة صدوره بعد نشر كتاب (مصر الحديثة) الذي وضعه كاتب افرنجي اسمه (غورفيل) وطبعه باللغتين الانكليزية والفرنسية وقد اشتهر الكتاب بفصل فيه معزو الى فقيدنا المرحوم [محمد عبده] فيه انتقاد شديد على الحكومة المصرية والمحتملين الذين يدبرون أمرها ويديرون دفتها وقد ترجمته أكثر الجرائد العربية اليومية ولكن الرجال العظام تبني أحكامها على الصفات والأعمال ، لا يصدها عن مقاصدها قيل وقال ، واللورد ونظار الحكومة ومستشاروها

قد تعودوا من فقيدنا المرحوم قول الحق الذي يعتقده في كل ما يخاطبهم به خطاباً رسمياً أو غير رسمي وناهيك بتقريره عن المحاكم الشرعية وبمناقشته لناظر المعارف في مجلس الشورى في انتقاد التعليم بمدارس الحكومة . وقد كان اللورد العظيم يضع آراءه غير الرسمية موضع الاعتبار كرايه في ضرر إلغاء النيابة العمومية وكانت الحكومة قد عازمت على ذلك وكادت تنفذه فرجعت عنه .

فهل يعتبر بهذا رجالنا الذين يمنعهم الجبن ان يقولوا لكبراء المحتلين ما يعتقدون في المصالح والأعمال؟ ألا يكفيهم ثناء اللورد والمستشار القضائي على الأستاذ الإمام [محمد عبده] بما أثنيا به بعد موته واحترامهما وسائر كبراء المحتلين له في حياته برهاناً على أن القوم رجال جدّ يجلّون من يقول الحق في السر والجهر ويعمل بالإخلاص في الخفية والعلن سواء وافق رأيهم أو خالفه ما لم يكن حرباً لهم ، وأنه لا قيمة لأهل الدهان والرياء في أنفسهم وحسبنا هذا الإيجاز في هذا المقام .

هذا وليعلم الذين يقولون ان اللورد [كرومر] لم يكتب في الرجل [محمد عبده] أكثر مما يجب أو ينتظر أو لم يوفه حقه ، إن تقرير اللورد ليس تاريخاً لمصر ولا كتاباً في مناقب العلماء والحكماء وإنما هو تقرير رسمي عن مالية مصر والسودان وإدارتهما وحالتهما العمومية فالذي ينتظر أن يقال فيه عن مفتي الديار المصرية [محمد عبده] أنه رجل جليل مصلح قد قام بأعماله في الحكومة خير قيام ، أو ما في معنى هذا الكلام ، ولكن اللورد قد زاد على ذلك ما رأيت في الكلام عن حزب الرجل وتفضيله على سائر المسلمين وتنشيطه وحثه على ترقية المقاصد التي كان يرمي إليها إمامه .

وإنني رأيت مريدي الأستاذ الإمام شاكرين للورد ما كتبه قادرين إياه قدره راجين ان يصدق عليهم ظنه الحسن .

العبرة الثالثة: حثه الأوروبيين على تنشيط هذا الحزب

اني لأعلم أن من الناس من يعجب لقول اللورد [كرومر] «فأتباع الشيخ [محمد عبده] حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين» وبعضهم يضعه موضع الظنة لاعتقاد المسلمين أن الأوروبيين أعداء لهم لا يريدون لهم إصلاحاً ولا خيراً ما وإنما يريدون الخير لقومهم خاصة فكيف يحث اللورد أهل أوروبا كافة على تنشيط حزب مصلح ينفع المسلمين بل لا ينفعهم غيره كما قال؟ والجواب عن هذا الإشكال لا يفهمه إلا من عرف كنه الفتح أو الاستعمار الأوروبي وقد سبق لنا فيه قول ونقل هنا كلمة وجيزة فيه.

إن غرض الأوروبيين من كل بلاد يدخلونها بالفتح أو باسم الحماية أو الاحتلال المؤقت أو غير ذلك من الأسماء هو الكسب ولا ينمو الكسب إلا بال عمران فهم يحبون عمران البلاد التي يتبوأونها ومن ثم سموا ذلك استعماراً. وعمران كل بلاد إنما ينمو ويعظم على قدر اتفاق أهلها مع المستعمرين عليه، وهذا الاتفاق يتوقف على أمور أولها في المرتبة معرفة كل من الفريقين للآخر ليكون في وفاقه وخلافه على بصيرة، ومن كان أعلم بالآخر كان أجدر بالفوز عند التنازع مع تساوي القوة، فكيف اذا كان الأعم هو الأقوى؟ ولكن الأوروبيين لا يحبون أن ينازعوا ويقاوموا وإن كانوا واثقين بالظفر لأن ذلك يقلل من كسبهم. ومتى قبضوا على ناصية السلطة في بلاد أمنوا من مقاومتها بالقوة وانحصر حذرهم في مقاومة الأمة لهم بالفتن فإن كل عمل يراد في البلاد يعسر تنفيذه إذا كان سواد العامة مقاوماً له فإذا كان هذا السواد بحيث يخشى خروجه على السلطة كانت موارد الكسب على خطر.

ثم إن الأوروبيين يرون أن أعظم مثار للفتن التي ربما تفضي إلى الخطر على موارد كسبهم الذي يطلبونه بنشر مدنياتهم وباستعمارهم للأرض هو ما عليه عوام المسلمين من الاستعداد للتهيج باسم الدين، ورب هيجة

شؤمى يقوم بها بعض الدجالين الذين تعتقد العامة صلاحهم أو بعض زعماء السياسة تذهب بعمل سنين طويلة، لهذا كله كان من مصلحة الأوروبيين في بلاد المشرق أن يوجد حزب نير الفكر محب للإصلاح الذي يعرف العامة بقدر أنفسهم وينسبتهم إلى الأجانب الذين يعيشون معهم ويزلزل التعصب الأعمى في نفوسهم حتى لا يغرهم الغارون ويدعوهم إلى أعمال إن أضرت بالأجانب قليلاً فهي تضر بهم كثيراً. فالأجانب العقلاء العارفون بكنه الشرق كاللورد كرومر وأضرابه من ساسة الإنكليز يحبون هذا النوع من الإصلاح الذي ينفع المسلمين لأنه ينفعهم هم أيضاً لأنهم يحبون أن يكسبوا بهدوء وطمأنينة، كما قال المنار غير مرة، ولكن قلما يذهب بهم الميل إلى السعي في إيجاده أو الحث عليه لأن مصلحتهم قائمة بدونه، قائمة بقوة العلم والحكمة، وقوة السلاح والوحدة، فإذا وجد فيهم من يحث عليه كانت السياسة منه تابعة للفضيلة الشخصية وما أجدر اللورد كرومر بذلك.

مثل هذا الإصلاح لا يأتي من جانب المتفرنجين لأنهم لا قيمة لهم في نفوس السواد الأعظم لبعدهم عن الدين فلا بد من حزب وسط بين العامة وبين المتفرنجين يكون له جانب إلى النظام والمدنية وجانب إلى الدين النقي السالم من الخرافات التي هي مثار الفتن والآفات. ولا شك أن الحزب الذي كان يرأسه الأستاذ الإمام [محمد عبده] لا غرض له إلا إزالة البدع والأوهام التي ألصقت بالدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا. ومن أركان الإصلاح الذي يرمي إليه أخذ كل ما ينفعنا ولا يعارض ديننا من علوم أوروبا ومدنيتها. أما العلوم الحقيقية فلا شيء منها يخالف الدين الحق، وأما أعمال المدنية فمنها النافع لنا كالجمعيات الخيرية والعلمية والدينية والأدبية والشركات المشروعة، ومنها الضار كالخمر والميسر والفجور. ويعتقد هذا الحزب أنه لا يمكن لنا القيام بهذا الإصلاح إلا باتقاء السياسة فيه واجتناب مقاومة السلطة به ويجعل مداره على تربية

النفوس بالدين وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لأهلها. ذلك أن سياسة هذه البلاد هي عبارة عن مسألة الاحتلال وقد سألت الأستاذ الإمام [محمد عبده] عن رأيه فيه عند ما زار طرابلس منذ بضع عشرة سنة فقال «انها مسألة أوروبية لا شأن لنا فيها وإنما الشأن فيها لدول أوروبا ذات المصالح في مصر مع السلطان فإذا اتفقت هذه الدول على الجلاء كان، وهو ما لا دليل عليه الآن». هذا رأي إمامنا رحمه الله في المسألة المصرية وقد قالت أوروبا كلمتها فيها بلسان اتفاق إبريل سنة ١٩٠٤ فلماذا لا نشتغل بما يعنيننا وهو في استطاعتنا من ترقية أمتنا بالتربية والتعليم ونترك ما لا طاقة لنا به ولا يأتي منه إلا الضرر وأقل هذا الضرر تحويل قلوب الأمة عما فيه خيرها وفلاحها في دينها ودنياها وضغط أوروبا عليها.

ههنا يقول المعارض سلّمنا أن طريقة هذا الحزب هي المثلى في إصلاح حال المسلمين، وأن منتهى الحكمة فيها مسألة الأوروبيين، لكن مثل اللورد كرومر في بعد نظره وثاقب رأيه لا يغرب عنه أن المسلمين إذا ساروا على هذه الطريقة ارتقوا ارتقاءً حقيقياً يحول دون دوام السلطة الإنكليزية فيهم، فكيف يركب هذا الصعب، أو يكون حادياً لهذا لركب هذا الحزب؟ والجواب عن هذا سهل وهو أن طريقة هذا الحزب الجامعة بين الفئادتين في الحال قد تكون جامعة بينهما في المستقبل، فإن الأمة إذا سارت في طريق الترقى مع المسألة وحسن التفاهم بينها وبين هؤلاء القوم ولقيت منهم التنشيط والمساعدة على رقيها في أبان ضعفها وعجزها فهي لا تترك صداقتهم في طور قوتها وهم لا يتركون صداقتها ويمكنهم أن يربحوا منها في طور القوة والاستقلال، أكثر مما يربحون في طور الضعف والاختلال.

والإنكليز هم القوم الذين لا يعاندون الطبيعة وإنما يسايرونها ويستفيدون من كل طور من أطوارها بحسبه. ولعلي لا أكون واهماً إذا

قلت أن فرنسا لو وجدت في الجزائر حزباً يعمل لترقية شأن المسلمين، مع التوفيق بين مصالحهم ومصالح الفرنسيين، لأباح له العمل إن لم تنشطه وتساعد. على أن الإنكليز لم يساعدوا طلاب الإصلاح في مصر كما أنهم لم يقاوموهم. وما كتبه اللورد [كرومر] في تقريره الأخير هو أول قول رسمي سمعناه منه يدلنا على ميله إلى هذا الإصلاح فأحببنا أن نزيل ارتياب المرتابين فيه لأن سوء ظننا بالقوم يضرنا ولا يضرهم ومن الغباوة أن يظن أن القوي يصانع الضعيف وأن مثل اللورد كرومر يكتب مثل هذه الكتابة لدولته، ويرمي فيها عن غير قوس عقيدته، وهو يعلم أن أوروبا كلها تحل آراءه محل الاعتبار، لا سيما ما كان منها أثر التجربة والاختبار، وقد سمعنا عنه منذ سنين أنه قال لبعض الكبراء وقد رغب إليه في عمل ينفع المسلمين ويرقيهم «إن من لا يعمل لنفسه لا يعمل له أحد فاعملوا ونحن نساعدكم» أو قال «وحسبكم أن لا نعارضكم». فقال الراغب انه ليس عنده رجال يهتمون بالخدمة العامة فقال اللورد: «بل عندكم رجالان الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدهما بالمال وهما يعملان للمسلمين ما يرقىهم ويرفع شأنهم».

العبرة الرابعة: رأيه في المتفرنجين

يظن هؤلاء المتفرنجون أن لهم مكانة عالية في نفوس الأوروبيين لتشبههم بهم في عاداتهم وتزلفهم إليهم وإفراغ أموال البلاد في أكياسهم وقد علم مما ذكرنا عن اللورد [كرومر] أنه لا يقيم لهم وزناً وقد علمنا مثل هذا بل ما هو شر منه عن كثير من كبراء الأوروبيين. علمنا انهم يحتقرون هؤلاء المتفرنجين، وفي ذلك من العبارة ما لا محل لشرحه في هذا المقام، واللبيب من تكفيه الإشارة وأين اللبيب فيهم؟ وقد أفسدت الخمور ألبابهم، وأضاع القمار صوابهم، فمعرهم في حسرة على المال الذي يمتع شهوته، وموسرهم في حيرة لا يدري كيف يفني ثروته، ومتهى الفخر عندهم كلب غريب يساير في الطرقات، ونوع جديد من المركبات، وفتاة

أوروبية تخاصر في المنتزهات، وتقبيح ما عليه قومهم من الآداب
والعادات، وصرف العمر في التفنن في اللذات، وإن أذاقت الأمة ضعف
الحياة وضعف المهات.



حال المسلمين في العالمين

٥٥

ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين

[المنار ج ٩ (١٩٠٦) ص ٣٥٧ - ٣٦٥]

الشمس مشرقة تطوق بأشعتها الأرض كل يوم، والأبصار محدقة تحيط
بما ينزل فيها من كل أمر، يكاد كل إنسان يعرف اليوم من أخبار الأرض
ما تعرفه الشمس إن كانت ترى الأشياء كما تريها للناس لأنه جعلها
بتصرفه في قوى الطبيعة كالمدينة الواحدة يسهل على من يشاهد أمراً في
رجاء منها أن يفضي به إلى من في سائر الأرجاء. فالبرق الخافق ما بين
الخافقين، يفضي إلى المغربين بأخبار المشرقين، وينبئ المشرقين بأعمال
المغربين، فطرق العبرة معبدة، ورواحل الهجرة مذلة، وجنى العلوم
والعرفان دان، تتناوله الأيدي من كل مكان.

هذا التواصل في المكان، والتقارب في الزمان، لم يدعأ عذراً لشعب أو
جنس من الناس، إذا لم يجار وبار سائر الشعوب والأجناس، فقد عهدنا
من طبيعة أطفال هذا النوع أن يقلدوا كبارهم الذين ينشئون بينهم في كل
ما يرونهم عليه حتى يكونوا رجالاً مثلهم في أعوام معدودة، وعهدنا من
طبيعة رجاله أن يستلقوا دون من تربوا معهم بأمور تكون لهم مزايا
مشهودة، فالتقليد والاستقلال في الأعمال الكسبية، كالتوارث والتباين في

النواميس الطبيعية، بهما يحفظ الإنسان أحسن ما يوجد، وبهما يتدع ما لم يجد، فهما الجناحان اللذان يطير بهما البشر في جواء العلوم والأعمال، حتى يصلوا إلى ما استعدوا له من الكمال.

أرجع الطرف إلى ما رأيت من أحوال شعوب هذا العصر، وأصخ الأذن إلى ما تسمع من أخبارهم في كل يوم، تعلم أن جميع الشعوب والأجناس قد سارت على طريق الفطرة البشرية التي أومأنا إليها آنفاً ما عدا المسلمين فإنهم كادوا يكونون في هذا العصر من طبيعة غير طبيعة البشر لكنها دونها بعد أن كانوا قد فاقوا سائر البشر وسادوهم فكانوا فوقهم أجمعين .

إن أرقى المسلمين في هذا العصر مسلمو تركيا ومصر والهند فهل تستطيع أن تقول إن أحداً منهم ساوى شعباً من شعوب الملل المجاورة لهم؟

قد انقذ من جسم الدولة العثمانية عدة شعوب نصرانية ما منهم شعب إلا وهو الآن أرقى من مسلمي هذه الدولة تركها وعربها وكردها - أرقى منهم في الحكومة والمدنية، أرقى منهم في العلوم والفنون، أرقى منهم في الصنائع والأعمال، أرقى منهم في الآداب والاجتماع، ولك أن تستغني عن ذلك كله بأن تقول إنهم أرقى منهم في جميع شؤون الحياة، وإن تعجب فأعجب من هذا أن يكون النصارى الذين لا يزالون تحت سلطة هذه الدولة أرقى من مسلميها في جميع شؤون الحياة على أنهم أقل منهم عدداً ومالاً وحقوقاً في مناصب الدولة. فماذا تقول إذا قابلت بين مسلمي تركيا ونصارى فرنسا وألمانيا وإنكلترا وسائر دول أوروبا اللواتي أصبحن مسيطرات على تركيا حتى في كثير من شؤونها الداخلية وقد كن منذ قرنين أو ثلاثة قرون يرتعدن من مهابتها والخوف منها؟

ماذا فعل مسلمو مصر بعد الاشتغال بالتربية والتعليم على الطريقة الأوروبية قرناً كاملاً؟ انه لم يوجد فيهم فلاسفة ولا مخترعون ولا مكتشفون

ولا محررون لشيء من العلوم بل لم تسم همهم إلى إنشاء مدرسة كلية بل لا يكاد يوجد في عشرة آلاف ألف منهم عشرة رجال مستقلين في الرأي والإرادة لا يهابون في الحق حاكماً. ولا يخافون فيه لائماً، قد خرج حكم بلادهم من أيديهم وهذه رقبتها تكاد تخرج أيضاً بما يمتلك أفراد الأجانب وشركائهم من أطيانها في كل عام وما يبتزون من أموالها في كل يوم. ولا نطيل في وصف حالهم فجرائدهم اليومية تغنينا عن ذلك بما تسهب فيه أنا بعد آن، فكيف يكون حكمنا عليهم إذا قسناهم بنصارى أوروبا أو وثني اليابان.

وهؤلاء مسلمو الهند يعيشون بين أمم من الوثنيين البوذيين والبراهمة ومن المجوس والإفرنج وكانت لهم في تلك البلاد السيادة العليا في العلم والحكم قد أسوا وراء هذا الشعوب كلها في العلم والعمل والتربية والثروة فلم تسم همهم لمسابقة من هم أكثر منهم عدداً كالهندوس، ولم ينجلوا أن يسبقهم من هم أقل منهم كالمجوس.

حدثني سائح مسلم جال في بلاد الهند جولان مختبر قال رأيت المجوس أرقى شعوب الهند علماً وعملاً وأخلاقاً وآداباً وأكثرهم برّاً وإحساناً لأنفسهم ولجميع من يعيش معهم. رأيتهم في بعض البلاد قد زادت مدارسهم عن حاجتهم فكانوا يبنون المدارس لتعليم سائر الطوائف من المسلمين والوثنيين، سمعت خطيباً منهم يخطب في محفل حافل فأدهشني بسمو أفكاره، وسعة عرفانه، فقارنت بينه وبين شيخ مسلم سمعته يخطب الناس في مجتمع عام في بومباي يشبه ميدان الأزبكية في مصر وقد أهدق به الناس، من جميع الملل والأجناس، فرأيت الفرق بين المسلم والمجوسي عظيماً. سمعت المسلم يذكر في خطابه من مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني عند الله تعالى أنه إذا اختطف غراب عظماً من عظام الذبائح التي تذبح في مولد الشيخ عبد القادر فوقعت منه في مقبرة للكفار فإن الله تعالى يغفر لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ. وسمعته يذكر تلك الكرامة التي

ذكرت في بعض كتب مناقبه وملخصها أن مريداً له مات فحمل أهله الشيخ على أحيائه فطار في الجو ليدرك ملك الموت فيستعيد منه روح المريد فامتنع عليه ملك الموت قائلاً لا يمكن أن أعيد روحاً قبضتها بإذن الله إلا بإذن من الله فغضب الشيخ واجتذب الوعاء الذي أودع ملك الموت فيه الأرواح التي قبضها في ذلك اليوم فوقعت وانكبت الأرواح منها فطارت كل روح إلى جسدها فحيي جميع من مات في ذلك اليوم كرامة للشيخ ولا نجرأ على ذكر ما قيل في شكوى ملك لربه وما أجيب به .

السواد الأعظم من مسلمي الهند يسلمون بمثل هذه الأقوال ومن ينكرها منهم في نفسه لا ينكرها بلسانه وإنما ينكر الأكثرون كل دعوة إلى الإصلاح بالعلم الصحيح والتربية القويمة كما هاج أرباب العمام في بومباي على خطيب المسجد ذي المنارات أن قال في خطبته «إخواننا الشيعة» وكادت تكون فتنة لولا عناية بعض العقلاء . وإنهم ليبذلون في مولد الشيخ من النفقات ما بذلوه في تعميم التعليم لوفى به .

في الهند حركة إسلامية جديدة يرجى خيرها ولكنها ضعيفة المنة بطيئة السير لا يقارب أصحابها أحداً من أهل الملل الأخرى في سعيهم وجدّهم فماذا جرى للمسلمين، وما الذي دفع بهم من عليين إلى أسفل سافلين؟

بيناً غير مرة أن بلاء المسلمين قد جاءهم من ناحية دينهم فمشاره غرورهم بدينهم أو ابتداعهم في دينهم أو جهلهم بدينهم أو لبسهم لدينهم كما يلبس الفرو مقلوباً قبلوا كل داهية عرضها عليهم رؤساءهم المفسدون بشكل ديني وإن كانت ناكبة له على رأسه، أو ناسفة له من أساسه، واعرضوا عن كل علم وعمل وخير ونعمة وفائدة لم يلونها لهم رؤساءهم الجاهلون بلون ديني وإن كانت من لباب الدين وصميم الدين أو من سياج الدين الذي يتوقف عليه حفظ الدين أو بقاء الدين .

ولكن هؤلاء الذين قبلوا كل شر باسم الدين، وقد يرفضون كل خير

بشيئة الدين قد خويت قلوبهم من الدين حتى لا تجد في الألوف منهم واحداً يحكم ما يعتقد من الدين في أهوائه وعاداته فالعادات والتقاليد المتبعة هي المحكمة دون ما يعتقد البرهان، أو يعترف به لأنه منصوص في القرآن.

لا نطيل في شرح هذه المسألة ولا ندع التمثيل لها بما فعل المسلمون بأساسيها الديني والدنيوي أو الروحاني والجهنمي. أساس الإسلام الروحاني توحيد الله تعالى وإسلام الوجه اليه وحده فجميع العبادات إنما شرعت للتذكير بهذا الأصل والإمداد له والمحافظة عليه ومن معناه أن لا يلتبس الإنسان شيئاً ما إلا من الله تعالى أي من السنن العامة التي ربط بها الأسباب بالمسببات ومن الشرك بالله أن يطلب الإنسان شيئاً ما من غير سببه العام، المبذول من مقام الرحمة والإحسان لجميع الأنعام، فإن جهل السبب أو تعذر عليه توجهه إلى الله وحده لعله يهديه إلى سبب آخر أو يسهل له الحزن ويذل له الصعب. ولكنك ترى جماهير المسلمين قد صاروا أبعد الأمم عن استعراف سنن الله تعالى في خلقه والاعتماد عليها دون الأسباب الوهمية، وما نحلوه لبعض الناس من السلطة الإلهية الغيبية، وبهذا صار غيرهم أقرب من جماهيرهم إلى حقيقة التوحيد الخالص في الاعتقاد والعمل، وإن كانوا هم أصحاب القول والدعوى.

وأساس الإسلام الدنيوي جعل أمر المسلمين في حكومتهم شورى بينهم لا يستبد بها الأحاد منهم كما يستبد الملوك والأمراء في الحكم عادة. ومن ثم أجمع الصحابة على أن الإسلام لا ملك فيه ولا سلطان لغير الله تعالى على أهله، وأن أحكامه شورى بين أولي الأمر وهم أهل العلم بالمصلحة العامة والرأي الذين تحترمهم الأمة وثق بهم، وكان النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، يرجع إلى رأيهم في زمنه في الشؤون الدنيوية تربية للمسلمين بالعمل على ما أرشد إليه الكتاب العزيز وكان خلفاؤه من بعده يعملون برأيهم أيضاً. فهذا الأساس في القسم الدنيوي من الإسلام

كالتوحيد في القسم الديني الروحاني منه فكما شرعت العبادات لتدعم التوحيد وتحفظه شرعت الأحكام المدنية والقضائية وفوض غير المنصوص منها إلى جماعة أولي الأمر لتدعم الشورى التي هي أساس الحكم الإسلامي . ولكن المسلمين قد فعلوا بهذا الأساس شراً مما فعلوا بالأساس الأول لأن نزعات الوثنية التي زلزلت التوحيد لم تكن عامة لجميع المسلمين ولكن الرضى بحكم الأفراد الاستبدادي وهدم ما بناه القرآن وأجمع عليه الصحابة من حكم الشورى قد رضى به جميع المسلمين في بلاد لهم فيها سلطة إلا ما لا يخلو عنه الزمان من أفراد ينكرون هذه السلطة بألستهم دون أن يؤلفوا جمعيات تقوّضها . على أن الإنكار باللسان، لم يتيسر لهم في كل زمان، ولذلك اكتفوا بإنكار القلب الذي سماه الرسول أضعف الإيمان .

للإسلام أصول وفروع فمن حفظ الأصول وقصر في بعض الفروع لا يقطع رجاؤه من مغفرة الله تعالى ، ومن ترك الأصول كان تاركاً للدين بالمرة غير معدود من أهله ولا رجاء له مع تركها . وأهم أصول الإسلام ما ذكرنا من التوحيد في القسم الروحاني وحكم الشورى في القسم الجسماني فمتى يرجو النجاة في دينه من ترك الأصل الأول فجهل سنن الله تعالى وعلق قلبه ببعض عباده الذين «لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً» [سورة الفرقان رقم ٢٥، الآية ٣ . وردت «نفعاً ولا ضراً» خطأ] . كما قال القرآن في شأن خير الخلق من النبيين والمرسلين . وكيف يرجو النجاة في دنياه من رضى بحكم الأفراد الاستبدادي وجعل لنفسه رئيساً من البشر مقدساً غير مسؤول أي أن له في ملكه ما أثبت الله تعالى لنفسه خاصة بقوله «لا يستل عما يفعل وهم يسئلون» [سورة الأنبياء رقم ٢١، الآية ٢٣] . بل كيف ينجو في آخرته من خالف نص القرآن وإجماع المسلمين في الصدر الأول وهو يسلم بقول الفقهاء عامة إن من ترك أو رضى بترك نص القرآن ومخالفة الإجماع المعلوم من الدين بالضرورة فهو كافر خالد في النار كعباد الأصنام .

طال الزمان على إهمال القرآن وترك الإجماع حتى صار أكثر المسلمين يجهلون حقيقة السلطة في الإسلام بل صار الكثيرون من عامتهم يعتقدون أن للسلطان أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بتفويض من الشرع كأن الشرع جعل له سلطاناً على الشرع ينسخ منه ما يشاء ويحكم ما يشاء وينفذ من أحكامه ما يشاء ويلغي منها ما يشاء فله من التصرف فيه ما لم يكن لمن جاء به إذ قال صلى الله عليه وسلم «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» رواه البخاري . بل منهم من يعتقد أنه غير مساوٍ لسائر المسلمين في الأحكام الشرعية ومما امتاز به عند بعضهم أنه إذا نظر إلى امرأة متزوجة وأشتهها فإنها تحرم على زوجها وتحل له !! وهذا كفر صريح .

وحدثني محمود باشا داماد أن الفلاحين في الأناضول يعتقدون أن السلطان مخالف للبشر في صورته ومن ذلك أن شعر لحيته أخضر .

أما أهل العلم والفهم فهم يدعون أنهم أخذوا بالقهر وغلبوا على أمرهم فإذا نطقوا بالحق عمل سيف الباطل عمله في رقابهم فلم يبق لهم إلا الرضى بأضعف الإيمان وهو الإنكار بقلوبهم . هل يصدق بهذه الدعوى، دعوى أضعف الإيمان، من يمدح المستبدين ويدهن لهم ويدافع عنهم؟ هل يصدق بها من يعمل لهم ويقبل وظائفهم ورتبهم وشارات الشرف التي ابتدعوها لأعوانهم؟

هل يصدق بها من يبذل جهده في دعوة أمثاله الى الاجتماع سراً، لتأليف جمعية تطالبهم بحكم الشورى جهراً، وتقسرهم عليه بقوة الأمة قسراً؟ فإن الله تعالى ما فرض القيام بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أمة أي جمعية تكون من الأمة الا لتكون بمأمن من المستبدين، مسيطرة عليهم باسم الدين، فماذا فعل هؤلاء العلماء بقوله تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٤] . وبقوله عليه الصلاة

والسلام «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطيع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان»؟

إذا ادعى هؤلاء العجز عن ذلك فماذا يقول العلماء الذين لا يمنعهم مانع من الاستبداد ولا من غيره عن دعوة الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للحكام في غير بلادهم؟ إذا كان علماء كل بلاد يخافون بأس حكاهم فماذا يمنعهم ان يطالبوا حكام سائر المسلمين بإقامة العدل على أساسه الذي وضعه القرآن «وأمرهم شورى بينهم»؟ [سورة الشورى رقم ٤٢، الآية ٣٨]. إذا كتب علماء الأزهر أو علماء الهند بذلك إلى سلاطاني الترك والفرس وسلاطان المغرب وأعلنوا نصيحتهم في الجرائد فهل يخشون أن يقتلوا أو يصلبوا أو ينفوا من الأرض؟ يحسبون ان كتابتهم لا تفيد ولا تنفع؟ كيف وهم يعلمون أن بعض السلاطين يهتم لكلمة يقولها في ذلك أحد أصحاب الطرابيش الذين لا قيمة لأقوالهم عند السواد الأعظم من المسلمين؟ أدعوه فأرضوه، أو «خذوه فغلّوه» [سورة الحاقة رقم ٦٩ الآية ٣٠].

لا شك عندنا أن كتابة علماء مصر وعلماء الهند إلى السلطان العثماني بطلب الإصلاح تفعل في هذه الدولة التي يتمنى الجميع صلاح حالها ما لا تفعله الثورات التي تجري فيها أنهار الدماء طلباً للإصلاح وإزالة الاستبداد في سائر الممالك.

علماء مصر أبعد عن فهم السياسة والوقوف على المسائل العامة من علماء الهند ولم يتعودوا من الاجتماع للمشاورة في مصالح المسلمين ما تعودوا علماء الهند الذين أسسوا جمعية «ندوة العلماء» وغيرهم، فعلماء الهند أولى بأن يبدؤوا بهذه النصيحة وعليهم أن يعجلوا بها فإن نذر الدول الأوروبية تنذر الدولة العثمانية بجعل سائر ولاياتها تحت مراقبة دول أوروبا الكبرى على الطريقة التي جرّين عليها في كريت ومكدونية. وإذا تحقق ذلك، والعياذ بالله، فقد زالت سلطة المسلمين إذ لا يعقل أن يقضين على تركيا

ويبقين على إيران، ومراكش كادت تكون مذ الآن في خبر كان.

إذا كانت آفة المسلمين من جهة دينهم قد جاءت من رؤسائهم، وكان إفساد رؤساء الدنيا لم يتم إلا بمساعدة بعض رؤساء الدين وسكوت الآخرين، وكان طول الأمد على هذا الإفساد قد أضعف في نفوس المسلمين الاستعداد للاستقلال الذاتي، وكانت عزة الأمم في هذا العصر رهينة بهذا الاستقلال، وكانت الملوك لا تترك استبدادها مختارة، وكانت الشعوب الإسلامية لم تسم للنهوض بإكراه حكاهم على العدل والشورى كما نهضت الشعوب المسيحية واحداً بعد آخر كما أنبأنا تاريخ من فازوا في الماضي وكما نشاهد اليوم فيمن يستقبلون الفوز في روسيا، وكان الذي مكّن لحكام المسلمين سلطان الاستبداد هو اعتقاد رعاياهم أن الدين يوجب طاعتهم على الإطلاق، وكان الحق المجمع عليه أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. إذا كان ما ذكر كما ذكر فالواجب على العلماء الأحرار في مثل الهند ومصر أن يبينوا للملوك المسلمين ولعامتهم الحق في ذلك ما دام في القوس منزع، أن يطالبوا الملوك بالعدل والإصلاح في الأرض بحكم الشورى فإن لم يستجيبوا لهم فليستعينوا عليهم بالعامّة والجرائد بعد أن يبينوا للعامّة في الجرائد حكم الله في حكومة الإسلام والفرق بين الخليفة أو السلطان أو الأمير المقيد بالشريعة والشورى المسئول لدى الأمة في الدنيا وعند الله في الآخرة وبين الإله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد «الذي لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون» [سورة الأنبياء رقم ٢١، الآية ٢٣].

لعل علماء الهند لا يعرفون كنه الخطر القريب الذي تنهافت عليه الدولة العثمانية لأن أكثر جرائدهم كجرائد مسلمي مصر تكتم عنهم ما تعرف من مساوئها، على أنها لا تعرف إلا النزر اليسير، وتحيلها بالفضائل والفواضل المنتحلة التي ترى أنها تشد أواخي الآمال بها وتمثل عدوان أوروبا عليها بأقبح المثل وأشنع الصور فتخلق لها من ذلك كهيئة الأعذار عن إصلاح

أمورها الداخلية، وتجذب به إليها قلوب الشعوب الإسلامية، وهي تظن أنها لا تفعل بذلك إلا خيراً.

والحق الذي عرفناه بعد البحث الدقيق والنظر الطويل أن ضرر هذه الخطة يرجع بجميع حسنات الجرائد وإذا كان أكثر الناس يجهل هذا الضرر فإن بعض أصحاب الجرائد المصرية يعرفه ولا يتسع هذا المقال لبيانها ولكننا نلفت الأفكار إلى البحث في مسألتين منه: إحداهما خارجية - وهي أن دعوة المسلمين في البلاد التي وقعت تحت نفوذ أوروبا إلى الاعتصام بعروة الدولة العلية هي التي كادت تجمع كلمة الدول العظمى على الإيقاع بها والقضاء عليها من غير فائدة لها ولا لهم. وهذا ما أعني بالخطر القريب وقد رأينا بوادره ونعوذ بالله من أواخره. والثانية داخلية - وهي مناصبة الدولة للعلم والتعليم والكتب والاجتماع والتعاون لا سيما في سورية وفلسطين وكثرة المكوس والضرائب والمظالم مع قلة وسائل العمران. فلينظر المحب المنصف في عاقبة أمة تعد حكومتها اقتناء أحسن كتب العلم الدينية والدنيوية من أكبر الجرائم والجنايات وتشدد في العقوبة عليها ما لا تشدد على إزهاق الأرواح وسلب الأموال حتى صار الناس يحرقون كتبهم الموروثة!

إذا سلمنا ما يقوله بعض أصحاب الجرائد وما يعتقده بعض المخلصين من مسلمي مصر وغيرهم أن انتقاد جرائد المسلمين لإدارة الدولة ومطالبتها بالإصلاح تشهير ضار فهل يمكن أن يسلم عاقل لجاهل يقول بلا فهم إن نصيحة يكتب بها علماء المسلمين للسلطان قياماً بما أوجبه الله تعالى تعد تشهيراً ضاراً؟ ما أظن أن الجاهل الغبي الذي يخطر له مثل هذا قد خلق ولئن كان مثله مخلوقاً فهو من الديدان التي لا صوت لها.

أيها العلماء الأعلام إذا كان الدين عندكم كل شيء فلن تقيموه حتى تعملوا بقول من جاءكم به، عليه الصلاة والسلام، «الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم» (رواه مسلم). فإلى لجنة «ندوة

العلماء» نوجه هذا التذكير ثم ندعو من يقرأه من سائر العلماء أن يذكر به إخوانه. ومن أحب منهم أن يراجعنا في موضوع النصيحة بالتفصيل وفي كيفية الاجتماع لها وطريق أدائها فاننا مستعدون لبيان ما نُسأل عنه ونضرع إلى الله تعالى أن يجعل إنقاذ هذه الأمة على أيدي علمائها وأن يصلح الراعي والرعية بإرشادهم والسلام على من أجاب داعي الله في كل مكان وزمان.



هدي السلف الصالحين في نصيحة السلاطين



[المنازع ٩ (١٩٠٦) ص ٤٢١ - ٤٢٧:

وص ٤٩٧ - ٥٠٤: وص ٦٧٣ - ٦٧٨]

- ١ -

دعونا العلماء في الجزء الماضي إلى نصيحة السلاطين وإننا نذكرهم في هذا الجزء ببعض ما يروى عن علماء السلف في ذلك.

جعل الإمام الغزالي الباب الرابع من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصاً بأمر الأمراء والسلاطين ونهيهم وقال في أوله ما نصه: «قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وإن أوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة. والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ وأما المنع والقهر فليس لأحد الرعية مع السلاطين، وأما ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر. وأما التخشين في القول كقوله «يا ظالم يا من لا يخاف الله» وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يحجز، وإن كان لا يخاف

إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه فقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذاك شهادة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام الى امام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك»^(١) وقال صلى الله عليه وسلم «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢) ووصف النبي صلى الله عليه عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال «قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم وتركه قوله الحق ما له من صديق».

ولما علم المتصلبون في الدين ان أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وان صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك محتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسين لما يبذلونه من مهجهم عند الله. وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل عن علماء السلف وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين من كتاب «الحلال والحرام» أهم ما كتبه الغزالي في مقدمة الباب.

أقول قوله إنه ليس لأحد الرعية التصدي لمنع السلطان عن المنكر بالقهر صحيح لا لما يترتب عليه من الفتنة فقط بل هناك علة أخرى هي أظهر وأولى بالتقديم وهي أن إكراه الآحاد من الرعية للسلاطين محال وطلبه عبث لا يأتي من عاقل ولهذا المعنى فرض الله تعالى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أمة تتألف وتستعد لذلك كما بينا في الجزء الماضي. والأمة تستعد لكل شيء بقدره وقوة الأمة أشد بالاتحاد والاجتماع من قوة السلطان لأن قوته منها وقوتها من ذاتها ويد الله مع

(١) الحديث. قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وذكر له شارح الأحياء روايات أخرى.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد وله ألفاظ وطرق ذكرها الشارح.

الجماعة. وسنعود في فرصة أخرى الى التفصيل في هذه المسألة. فإننا إنما نقصد الآن إلى بيان شيء من هدي السلف في نصيحة الأمراء والسلاطين تذكيراً للعلماء وكشفاً للقراء عن الفرق بين حالنا اليوم وحال سلفنا أيام كانت الأمة عزيزة قوية والدين راسخاً معمولاً به.

ندع مما أورده الغزالي من هدي السلف في هذا الباب آثار الصحابة لكثلا يقال إنهم لا يقاس عليهم في بذل أرواحهم في سبيل الحق وأن من كان يغلظ على عمر بن الخطاب في الحق كان آمناً عقوبته ليقينه بعدله ودينه ونذكر شيئاً مما أورده عمن بعدهم، قال: «وعن الاصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك ابن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن وذلك بمكة وقت حجه في خلافته فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمار، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فانك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم. فقال له: أجل. ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي الى مخلوق حاجة ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف».

أقول هذا نصح علماء الدين لمثل عبد الملك الذي كان أول معلن للاستبداد في الإسلام حتى قال على المنبر: «من قال لي اتق الله ضربت عنقه». وابن ملوك زماننا من عبد الملك في سياسته وفتوحاته إلا أنهم أحق بالنصيحة منه ولكن أين الناصحون؟ قال الغزالي:

«وقد روي أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوماً: قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله عليّ ليحدثني فوقف الحاجب على الباب مدة فمر

به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه، فقال: يا شيخ ادخل الى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك. فدخل عطاء على عبد الملك [الوليد] وعنده عمر بن عبد العزيز، فلما دنا عطاء من الوليد قال: السلام عليك يا وليد. قال: فغضب الوليد على حاجبه، وقال له: وملك أمرتك أن تدخل إليّ رجلاً يحدثني ويسامرنى فأدخلت إليّ رجلاً لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي (يعني أمير المؤمنين). فقال له حاجبه: ما مربى أحد غيره. ثم قال لعطاء: إجلس. ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له: بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له ههب أعده الله لكل إمام جائر في حكمه. فصعق الوليد من قوله وكان جالساً بين يدي عتبة المجلس فوقع على قفاه الى جوف المجلس مغشياً عليه. فقال عمر لعطاء قتلت أمير المؤمنين. فقبض عطاء على ذراع عمر بن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال له: يا عمر، إن الأمر جدٌ فجدٌ. ثم قام عطاء وانصرف فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: مكثت سنة أجد ألم غمزته في ذراعي.

«ويروى عن ابن أبي عائشة، أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري، رحمه الله، آخر من دخل فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد: إليّ ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعده عليه فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذا ذكر علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فنال منه ونلنا منه مقاربة له وفرقا (أي خوفاً) من شره والحسن ساكت عاضاً على إبهامه فقال: يا أبا سعيد، ما لي أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب؟ قال: سمعت الله جل ذكره يقول: «وما جعلنا القبلة التي كنت عليها لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذي هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم» [سورة البقرة رقم، الآية ١٤٣]. فعليّ ممن هدى الله من أهل الإيمان فأقول ابن عم رسول

الله وختته على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا أن يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعل هناة فالله حسيبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرجنا.

«قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد، أغضبت الأمير وأوغرت صدره. فقال: إليك عني، يا عامر، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك، يا عامر، هلا اتقيت أن سئلت فصدقت أو سكّت فسلمت. قال عامر: يا أبا سعيد، قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك وأشدّ في التبعة.

«قال وبعث الحجاج الى الحسن فلما دخل عليه، قال: انت الذي تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم؟ قال: نعم. قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من المواثيق «لتبينه للناس ولا تكتُمونه». [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٨٧. وردت «ليبينه». . يكتُمونه» خطأ]. قال: يا حسن، أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك». [الغزالي. أحياء علوم الدين].

أقول وقد ساق المصنف هذه الحكاية في كتاب ذم الجاه والرياء مطولة بما هو أبلغ في العبرة والفرق بين علماء الدين الذين لا يخافون في الله لومة لائم وعلماء الدنيا الذين يتقربون إلى الأمراء والسلاطين بما يرضيهم من سخط الله تعالى قال: «روي عن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالساً الى جنب الحسن اذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على بردون أصفر فدخل المسجد على بردونه^(١) فجعل

(١) لعل المسجد كان لا يزال مفروشاً بالرمل على طريقة الصدر الأول أو لعل الحجاج دخل بالبردون إلى صحنه دون موضع الصلاة.

يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها ثم ثنى وركه فتزل ومشي نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجهاً اليه تجافى له عن ناحية مجلسه. قال سعيد وتجايفت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم^(١) فما قطع الحسن كلامه. قال سعيد فقلت في نفسي: لأبلون الحسن اليوم ولأنظرون هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه أو يحمل الحسن هيئة الحجاج أن ينقص من كلامه. فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى الى آخر كلامه. فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبرّ فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها خلقاً وعادة فإنه بلغني عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن مجالس الذكر رياض الجنة ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها. قال ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق فقام. فجاء رجل من أهل الشام الى مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال: عباد الله المسلمين، ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير وأنّي أغزو فأكلف فرساً وبغلاً وأكلف فسطاطاً وأن لي ثلاث مئة درهم من العطاء وأن لي سبع بنات من العيال. فشكا من حاله حتى رق له الحسن وأصحابه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فاذا غزا عدوّ الله غزا في الفساطيط الهبابية (أي العالية المشرعة) وعلى البغال السباقا واذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلاً. فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدّه فقام رجل من أهل الشام كان جالساً الى الحسن فسعى به

(١) يريد بقوله يتكلم به كل يوم أنه يتكلم بمثله في الوعظ وبيان الحق كما يعلم من لاحق الكلام.

إلى الحجاج وحكى له كلامه الذي تكلم به^(١) فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج، فقالوا أجب الأمير، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع الى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغراً فاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال إنما تجالسون بالأمانة^(٢) كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم. إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن الى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا الى شرارة من نار، إني أتيت هذا الرجل فقال أقصر عليك لسانك وقولك إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزا أخاه أغزاه كذا لا أبا لك تحرض علينا الناس أما أنا على ذلك لانتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عني. وركب الحسن حماراً يريد المنزل فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوماً يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء والا فارجعوا فما يبغي من قلب العبد؟

قال الغزالي بعد ايراد هذا الأثر: فهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون ألهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

أقول، وإن حاجتهم إلى التعاون في هذا العصر أشد منها في عصر الحجاج فإن المسلمين اليوم على خطر وأمراؤهم وملوكهم لا يذكرون مع ملوك بني أمية وأمراؤهم حتى الحجاج فأولئك قد فتحوا الممالك وهؤلاء أضاعوها وأولئك حفظوا من الشريعة ما عدا جعل أمر المسلمين شوري بينهم فإنهم جعلوه ملكاً قوامه العصبية وهؤلاء أضاعوا الشريعة إلا قليلاً

(١) يوشك أن يكون الحجاج هو الذي أوعز إلى الشاميين بمثل ما فعلا ليعلم هل تدفع مجاملته للحسن شيئاً من كلامه فيه وفي حكومته.

(٢) الجملة حديث رواه العسكري وابن المبارك والخرائطي بهذا اللفظ عن ابن عباس ورواه غيرهم بألفاظ أخرى.

هو على خطر من جهلهم وسؤ إدارتهم ، وأولئك كانوا يعدلون في الأحكام ويساوون الناس في الحقوق فلا يظلمون إلا من نازعهم في أصل سلطتهم وهؤلاء يظلمون في كل شيء ويبيعون الحقوق بالرشوة . وقد رأيت أن علماء السلف من كان يغلظ لهم وينفر الناس من أصل سلطتهم ويغيط أشدهم سفكاً للدماء كالحجاج ، أفلسنا أحوج الآن إلى ذلك؟

الخلاصة أنه لا بد من اجتماع العلماء وتعاونهم على فريضة النصيحة ما دام في القوس منزع وفي السلطة الإسلامية رmq .

سيرة السلف الصالحين

في نصيحة السلاطين

[المنارج ٩ (١٩٠٦) ص ٤٩٧ - ٥٠٤]

- ٢ -

«وحكي أن حطيظاً الزيات جيء به الى الحجاج فلما دخل عليه قال : أنت حطيظ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك؟ فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال ان سئلت لأصدقن ، وان ابتليت لأصبرن وان عوقبت لأشكرن . قال : فما تقول في؟ قال : أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان؟ قال : أقول إنه أعظم جرماً منك وإنما أنت خطيئة من خطاياہ . قال فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب . قال فانتهى به العذاب الى أن شق له القصب ثم جعلوه على لحم وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً . قال فقيل للحجاج انه في آخر رmq فقال : أخرجوه فارموا به في السوق . قال جعفر (أي راوي الحكاية) فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له : حطيظ ، ألك حاجة؟ فقال شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرة رحمه الله تعالى .

وروي أن عمر بن هبيرة (والي العراق لبني أمية) دعا بفقهائ أهل

البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرأتها فجعل يسألهم وجعل يكلم عامراً الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده علماً ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ثم قال هما هذان - هذا رجل أهل الكوفة يعني الشعبي وهذا رجل أهل البصرة يعني الحسن فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي والحسن فأقبل على الشعبي فقال يا أبا عمرو إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم وقد يبلغني عن العصاة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المال ومن نيتي أن أردّه عليهم فيبلغ أمير المؤمنين إني قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إليّ أن لا ترده فلا أستطيع أمره ولا إنفاذ كتابه وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة فهل عليّ في هذا تبعة وفي أشباهه من الأمور والنية فيها على ما ذكرت، قال الشعبي فقلت: أصلح الله الأمير إنما السلطان والد يخطيء ويصيب. قال فسرّ بقولي وأعجبه ورأيت البشر في وجهه وقال: فله الحمد. ثم أقبل على الحسن فقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ قال: قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمون على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وأني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، «من استرعي رعية لم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة»^(١) ويقول: إني ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن يرجعوا إلى طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضتها على ذلك النحو فيكتب إليّ أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع

(١) رواه البغوي بإسناد لين والشيخان وغيرهما بالمعنى.

ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فاعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه يا ابن هبيرة، اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك يا ابن هبيرة، إن الله ليمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله، وإن الله فوق كل أمر وإنه لا طاعة في معصية الله واني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين. فقال ابن هبيرة: اربع على ظلمك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإغما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به وما يعلمه مما فضله ونيته. فقال الحسن: يا ابن هبيرة، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد. يا ابن هبيرة، إنك تلق من ينصح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرّك ويميّك. فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه. قال الشعبي: إليك عني يا عامر. قال فخرجت الى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلاً لما أدي اليه وكنا أهلاً أن يفعل ذلك بنا فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف^(١) وما شهدنا مشهداً إلا برز علينا وقال: الله عز وجل. وقلنا: مقاربة لهم، قال عامر الشعبي: وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطاناً بعد هذا المجلس فأحابه.

وعن الشافعي رضي الله عنه قال حدثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال فأق الغفاريون وشكوا الى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي

(١) وفي نسخة المقاريف وكلامهما جمع مقرف كمحسن وهو ما كان أبوه غير عربي ويقابله المهجين.

ذؤيب؟ قال فسأله فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيراً والأذى لهم. فقال أبو جعفر: قد سمعتم. فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، سله عن الحسن بن زيد؟ فقال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه. فقال: قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح؟ فقال: يا أمير المؤمنين، اسأله عن نفسك؟ فقال: ما تقول في؟ قال تعفيني يا أمير المؤمنين. قال: أسألك بالله ألا أخبرتني؟ قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك؟ قال: والله لتخبرني؟ قال: إنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله وأشهد أن الظلم ببابك فاش. قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له: أما والله لولا أنني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. قال فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسموا بالسوية وأخذوا بأقفاء فارس والروم وأصغروا آنا فهم. قال فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال: والله لولا أنني أعلم أنك صادق لقتلتك. فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي. قال فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف في مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحرث، لقد سرنى ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي. فقال: يغفر الله لك يا أبا عبد الله، كلنا مهدي كلنا كان في المهدي.

وعن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال بعث إليّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد عليّ واستجلسني ثم قال لي ما الذي ابطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال: قلت وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم. قال، فقلت: فانظر يا أمير المؤمنين أنك لا تجهل شيئاً مما أقول لك. قال: وكيف لا أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمتك له؟ قال،

قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به. قال فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة. فطابت نفسي وانبسطت في الكلام فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً ويزداد الله بها سخطاً عليه» يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، «إيما والٍ مات غاشياً رعيته حرم الله عليه الجنة»^(١) يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولّاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً لهم بنفسه في ذات يده محموداً عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائماً ولعوراتهم ساتراً لا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء، يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكوبلية أدخلتها عليه، أو ظلامه سقتها إليه، يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال: كانت بيد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جريدة يستاك بها ويروع بها فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً فكيف بمن شقق أبشارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه يا أمير المؤمنين، حدثني

(١) رواه وما قبله وكذا حديث الجريدة الآتي ابن أبي الدنيا في مواضع الخلفاء وأبو نعيم وابن عساكر والبيهقي في الشعب.

مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً. فدعا النبي، صلى الله عليه وسلم، الأعرابي فقال: اقتص مني، فقال الأعرابي قد أحللتك بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك ابداً ولو على نفسي. فدعاه بخير^(١) يا أمير المؤمنين قد سألت جدك العباس النبي، صلى الله عليه وسلم، إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي، عليه الصلاة والسلام، «يا عباس، يا عم النبي، نفس تحييها خير من إمارة لا تحييها»^(٢) نصيحة لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه «وأنذر عشيرتك الأقربين» [سورة الشعراء رقم ٢٦، الآية ٢١٤]. فقال يا عباس ويا صفية عمي النبي ويا فاطمة بنت محمد اني لست أغني عنكم من الله شيئاً ان لي عملي ولكم عملكم»^(٣) وقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم، وقال: الأمراء أربعة: فأمير قوي ظلف (أي منع) نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، «شر الرعاة الحطمة» فهو الهالك وحده^(٤) «وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً».

وبعد أن أطل في وعظه بما حذفنا بعضه اختصاراً قال:

«يا أمير المؤمنين، من أشد الشدة القيام لله بحقه، وأن أكرم الكرم عند

(١) رواه من ذكر وأبو داود والنسائي.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم وابن عساکر.

(٣) رواه البخاري وغيره على خلاف في اللفظ.

(٤) رواه مخرجو الأحاديث السابقة ومسلم وغيرهم.

الله التقوى، وأنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه، فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك. ثم نهضت، فقال لي: الى اين؟ فقلت: الى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين ان شاء الله. فقال: قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تحلني من مطالعتك إياي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة. فقلت: أفعل إن شاء الله تعالى. قال محمد ابن معصب فأمر له بجال يستعين به على خروجه فلم يقبله. وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا. وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك.

«وعن ابن المهاجر قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة، شرفها الله، حاجاً فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة ليصلي بالناس، فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينما هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: ألهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله والظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيته حتى ملأ مسامعه من قوله ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له: أجب أمير المؤمنين. فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمتي على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلاً اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل. فقال: أنت آمن على نفسك فقال: الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت. فقال: ويحك وكيف

يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي؟ قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين، إن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجة معهم السلاح ثم سجنك نفسك فيها عنهم وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء واعواناً ظلمة، إن نسيت لم يذكروك، وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكرار والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيته وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبى إليك الأموال ولا تقسمها. قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا فأتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمر إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيته ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيته لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلات بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن يرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا؟ ولقد كانت بنو أمية

وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف .
ولقد كان الرجل يأتي إلى أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا
أهل الإسلام فيتدرونه : ما لك ما لك ؟ فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم
فينتصف . ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك
فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه : ما لك
تبكي ، لا بكت عيناك ؟ فقال : أما إني لا أبكي على المصيبة التي نزلت بي
ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته . ثم قال : إما إن كان
قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوباً
أحمر الا مظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرقي النهار هل يرى مظلوماً
فينصفه . هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركون ورقته
على شح نفسه في ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رافة
بالمسلمين ورقتك على شح نفسك»

وبعد ان أطل في موعظته وخوفه من الله وعذاب الآخرة بما حذفنا
بعضه للاختصار بكى المنصور بكاءً شديداً حتى نحب وارتفع صوته ثم
قال : يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً . ثم قال : كيف احتيالي فيما خولت ولم
أر من الناس الا خائناً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، عليك بالأئمة الأعلام
المرشدين . قال : ومن هم ؟ قال : العلماء . قال : قد فروا مني . قال : هربوا
منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن
افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم ، وامنع المظالم
وخذ هذا الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن على أن
من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على إصلاح أمرك ورعيتك . فقال
المنصور : ألهم ، وفقني ان أعمل بما قال هذا الرجل .

المنار . أليس ملوكنا الآن أحوج إلى مثل هذه النصيحة من المنصور ،
وهم غير منصورين ، أليس حالهم شراً من حاله وملكهم دون ملكه

وهروب الخيار منهم أكثر من هروبهم منه والخطر عليهم من الظلم أشد من خطره عليه في زمنه؟ بلى، ولكن أين العلماء الناصحون؟

سيرة السلف الصالحين،

في نصيحة السلاطين

[المفارج ٩ (١٩٠٦) ص ٦٧٣ - ٦٧٨]

- ٣ -

قال في الإحياء وعن أبي عمران الجوني. قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنؤوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال، وأقبل يميزهم بالجوائز السنية. وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد، وكان يظهر النسك والتقشف، وكان مواخياً لسفيان بن سعيد ابن المنذر الثوري قديماً، فهجره سفيان ولم يزره فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه، فاشتد ذلك على هارون فكتب إليه كتاباً يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم - من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر، أما بعد يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبك ولم أقطع منها ودك وأنني منطو لك على أفضل المحبة والإرادة ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً لما أجد لك في قلبي من المحبة واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهنؤوني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني، وإنني استبطأتك فلم تأتني وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً وقد علمت، يا أبا عبد الله، ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فإذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل».

فلما كتب الكتاب إلتفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري

وخشونته فقال: عليّ برجل من الباب. فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني فقال: يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ثم سل عن سفیان الثوري فإذا رأيته فألق كتابي هذا إليه وعِ بسمعك وقلبك جميع ما يقول، فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به. فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفیان فقبل له هو في المسجد. قال: فأقبلت إلى المسجد، فلما رأني قام قائماً. وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير. قال عباد فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت فلما رأني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته فسلمت فما رفع أحد اليّ رأسه وردوا السلام عليّ برؤوس الأصابع فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني إليهم فقلت إن المصلي هو سفیان فرميت بالكتاب إليه فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كفه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرأه فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده. قال عباد: فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من فم حية تنهشه ثم فضه وقرأه، وأقبل سفیان يبتسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه. فقبل له: يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقي. فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا. فقبل له: ما تكتب؟ فقال: اكتبوا:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفیان بن سعيد بن المنذر

الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان، أما بعد فلإني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمت جملك وقطعت ودك وقليت موضعك فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفدته في غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك. أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى، يا هارون، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله، وابن السبيل، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام، أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك فشد، يا هارون، مشرك وأعد للمسئلة جواباً، وللبلاء جلباباً، وإعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً، يا هارون، قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون يشربون الخمر ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليهم قبل ان تحكم بها على الناس، فكيف بك، يا هارون، غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» [سورة الصافات رقم ٣٧، الآية ٢٢]. أين الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان الى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وانصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار، كأني بك، يا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المشاق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيأت غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك بلاءً على بلاء، وظلمة

فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية، فاتق الله، يا هارون، واحفظ محمداً، صلى الله عليه وسلم، في أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك، وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زاداً نفعه ومنهم من خسر ديناه وآخرته وأني أحسبك، يا هارون، ممن خسر ديناه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام»

قال عباد: فألقى إليّ الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت: يا أهل الكوفة، فأجابوني. قلت لهم: يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله. فأقبلوا إليّ بالدينانير والدراهم. فقلت: لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية. قال: فأتيت بذلك ونزعت ما كان عليّ من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً فهزأ بي من كان على باب الخليفة ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل، ما لي وللدنيا مالي ولملك يزول عني سريعاً. ثم ألقى الكتاب إليه منشوراً كما دفع إليّ فأقبل هارون يقرأه ودموعه تتحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقته عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره. فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررقموه، والشقي من أهلكتموه، وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه. ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرأه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله فرحم الله عبداً نظر لنفسه واتقى

الله في ما يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ، إذ أقبلت هوداج هارون فكف الصبيان عن الولوع به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته يا أمير المؤمنين فكشف هارون السجاف بيده عن وجهه ، فقال : لبيك يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين ، حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، منصرفاً عن عرفة على ناقه له صهباء ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك ، وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين ، خير لك من تكبرك وتجبرك . قال : فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض ثم قال : يا بهلول ، زدنا رحمك الله . قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله ، وعف في جماله ، كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار . قال : أحسنت يا بهلول ، ودفع له جائزة . فقال : اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها . قال : يا بهلول ، فإن كان عليك دين قضيناه . قال : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز . قال : يا بهلول ، فنجري عليك ما يقوتك أو يقيمك ، قال فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أنا وأنت من عيال الله فمحال أن يذكرك وينساني . قال : فأسبل هارون السجاف ومضى . (ثم قال في الاحياء بعد نصيحة للمأمون)

وعن أحمد بن ابراهيم المقرئ قال : كان أبو الحسن النوري رجلاً قليل الفضول لا يسأل عما لا يعنيه ، ولا يفتش عما لا يحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه فنزل ذات يوم إلى مشرعة^(١) تعرف بمشرعة

(١) مورد ماء .

الفحامين يتطهر للصلاة إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دنأً مكتوب عليها بالقار «لطف» فقراه وأنكره ولأنه لم يعرف في التجارات ولا البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف فقال للملاح: أيش في هذه الدنان؟ قال: وأيش عليك امض في شغلك؟ فلما سمع النوري من الملاح هذا القول ازداد تعطشاً الى معرفته فقال له: أحب أن تجربني أيش في هذه الدنان؟ قال: وأيش عليك، أنت والله صوفي فضولي هذا خمر للمعتضد يريد ان يتم به مجلسه. فقال النوري: وهذا خمر؟ قال: نعم، قال: أحب أن تعطيني ذلك المدري. فاغتاظ الملاح عليه وقال لغلامه: أعطه حتى أنظر ما يصنع. فلما صارت المدري في يده صعد الى الزورق ولم يزل يكسرها دنأً دنأً حتى أتى على آخرها الا دنأً واحداً والملاح يستغيث الى أن ركب صاحب الجسر^(١) وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس في أنه سيقتله. قال أبو الحسين: فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد وبيده عمود يقبله فلما رآني قال: من أنت؟ قلت: محتسب^(٢). قال: ومن ولاك الحسبة. قلت: الذي ولاك الإمامة ولاني الحسبة يا أمير المؤمنين. قال: فأطرق الى الأرض ساعة ثم رفع رأسه اليّ وقال: ما الذي حملك على ما صنعت؟ فقلت: شفقة مني عليك إذ بسطت يدي الى صرف مكروه عنك قد قصرت عنه. قال: فأطرق مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه اليّ وقال: كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان؟ فقلت: في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن. فقال: هات أخبرني. فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أقدمت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني فأقدمت عليها بهذه الحالة إلى أن صرت الى هذا الدن فاستشعرت نفسي كبراً على أني أقدمت

(١) أي الحاكم المولى من الخليفة وهو كالمحافظ في مصر.

(٢) المحتسب هو من يزيل المنكرات كالبوليس.

على مثلك فمكنت ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال. فقال المعتضد: إذهب فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر. قال أبو الحسن فقلت: يا أمير المؤمنين، بغض اليّ التغيير لأنني كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطي. فقال المعتضد: ما حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، تؤمر بإخراجي سالماً. فأمر له بذلك وخرج الى البصرة فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد فأقام بالبصرة الى أن توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد.

فهذه كانت حالة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطو السلاطين لكنهم اتكّلوا على فضل الله تعالى أن يجرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليّنها وأزال قساوتها. وأما الآن فقيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا. ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر، والله المستعان على كل حال!

المنار. هذا كلام الإمام الغزالي في ملوك عصره وعلمائه وهم الذين يفتخر أهل هذا العصر بهم فكيف حال ملوك عصرنا وعلمائه الذين أضاعوا الدنيا والدين وجعلوا المسلمين بظلمهم وفسادهم في أسفل سافلين. ولا نطيل هنا في وصفهم ولكننا نقول: إن الزمان لا يخلو من العلماء المخلصين وهؤلاء هم الذين ندعوهم الى نصيحة ملوكنا وأمرائنا قبل أن يضيعوا هذه البقية القليلة التي بقيت لنا. فالخطر قريب، إن لم يتداركوه نزل والعياذ بالله تعالى.

[المنار ج ٩ (١٩٠٦) ص ٤٢٧ - ٤٢٨].

للكلام دول تحالف الحقائق تارة وتحالفها تارة، ورب خلاف يجر إلى خلاف وحلاف ينتهي بخلاف. قد يتهم الخليّ بالعشق حتى تجعله التهمة عاشقاً، وقد ينكر الكذوب الكذب حتى يكون صادقاً، مرت على الشرق الأحقاب والقرون، ودرجت فيه الأجيال والقرون، وهو كما تعلم مشرق الأديان، ومنبت جميع أصناف الإنسان. ولم يقع فيه بين المختلفين في الدين المتجاورين في البيئة من الغلو في التعصب عشر معشار ما وقع من أهل أوروبا الذين اتحدوا باسم الصليب على إبادة المسلمين، أو ما وقع من تعصب نصارى هذه القارة على الوثنيين فيها بل ولا عشر معشار ما وقع من أهل المذاهب النصرانية بعضهم مع بعض، فأوروبا مشارب بركان التعصب الديني في الأرض كما بينا ذلك في مقالات نشرت في أعداد السنة الأولى.

لما رجعت دول أوروبا المتحدة من حرب الصليب في الشرق مغلوبة على أمرها عاجزة عن بلوغ منتهى ما حدده لها تعصبها عالمية أنها دون المسلمين في القوة الحربية والقوة العلمية والأدبية أخذت تستعد في العلم والعمل فكان خذلانها في تلك الحرب مبدأ حياة جديدة لها، على حين كانت حياة المسلمين السابقة أخذت بالضعف والتحول فاستفادت من الانكسار، ما لم تستفد من الانتصار، وما زالوا يرتقون فيما تركناه لهم من علم وصناعة واجتماع واعتصام، ونحن نتدلى بالجهل والكسل والتفرق والانفصام، حتى دالت لهم الدولة، وعادت لهم الكرة، فسادوا علينا واستولوا على أكثر بلادنا وقد عاملنا أكثرهم بالشدة والقسوة حتى ضببط

بعض دولهم أوقفنا وهدمت أكثر مساجدنا ومنعتنا من التعليم الديني والديني وسلطت علينا قسوسها يحرقون ديننا في بلادنا. وإن انكلترا وهي أحسنهنّ استعماراً وأقربهنّ إلى اللين والعدل لم تبلغ بعض شأو الخلفاء الراشدين في العدل والمساواة بل ولا غير الراشدين من أكثر ملوك الأمويين والعباسيين كما بينا ذلك غير مرة.

تحتج أوروبا على هذه القسوة بأن الشرقيين أو المسلمين متعصبون لا يؤمن شرمهم أن يقع على المخالف لهم إلا بغلّ أيديهم وتقييد أرجلهم ووضع الوقر في أسماعهم والغشاوة على أبصارهم ولكن إنزالها الشر المحقق عليهم خوفاً من الشر المتهوم منهم لا يعد تعصباً! لماذا؟ لأنها تقول: إنهم متعصبون للدين وإننا غير متعصبين له، الشرقيون متعصبون لأن الشرق لا يعرف جامعة غير الدين، الغربيون غير متعصبين لأن الغرب لا يعرف غير الجامعة الجنسية أو الوطنية، المسلمون متعصبون، النصاري غير متعصبين، التعصب الإسلامي خطر على المدنية المسيحية، ما دام هذا القرآن معتقداً أو محترماً فالإنسانية على خطر، ما يأخذه الصليب من الهلال لا يعود إليه وما يأخذه الهلال من الصليب يجب أن يسترد منه.

أمثال هذا الكلام الذي يرددونه قد فتق آذان المطلعين من المسلمين على كتب أوروبا وجرائدها وفتح أعينهم ونبه أفكارهم فاعتقدوا أن أوروبا متعصبة عليهم تحاول محو ملكهم ووجودهم المالي من الأرض وأنها تحاربهم بهذا التعصب وربما كانت نجاتهم بالتعصب فكادوا يحققون التهمة ويدعون إلى تحقيقها ولكن روح الإسلام لا يزال غالباً على مجموع الأمة الإسلامية وهو ما سنبينه في هذا المقال.

يخفت صوت القوم في اتهام المسلمين بالتعصب حيناً من الدهر ثم لا تلبث السياسة أن ترفع به عقيرتها وقد قال في هذا الأيام وزير خارجية إنكلترا في مجلس العموم كلمة فيه سارت بها الركبان قال، والعهددة على ترجمة

الجرائد، ان روح التعصب قد زادت في القطر المصري هذه الأيام زيادة
يخشى معها على مستقبل البلاد. قال كلمته في مقام الدفاع والاعتذار عن
عمل أتنه السياسة الانكليزية في مصر فأنكره عليها بعض النواب في
المجلس وطلب من الوزير أن يبين عذر الحكومة في ارتكاب ذلك المنكر
وهو القسوة في معاقبة طائفة من ^{ال}الذين في حادثة دنشواي التي سارت
بخبرها الركبان وترى مجمل خبري باب الأخبار من هذا الجزء.

عهدي بصوت المعتذر في مقام الدفاع أن يكون خافتاً ليس له صدى
ولكن صوت هذا المدافع، قد كان أشد من دوي المدافع، خشعت له في
المجلس الأبصار، وخفتت له الأصوات، ولم يلبث أن حمله البرق إلى
الأرجاء، فكان مع البرق رعداً قاصفاً في جميع الجواء، رددت صده
الأقطار، وكان الشغل الشاغل لصحف الأخبار، فأما الجرائد الأوروبية
فقد صدقت الوزير في قوله، ووافقت على ما يريد به، جارية في ذلك على
نهجها، وتقاليدها المتبعة، وتبعها من الجرائد الافرنجية والمتفرنجة في مصر
من يرى أصحابها لهم فائدة من تغيظ إنكلترا من المسلمين. وأما جرائد
المسلمين في مصر ومن أنصف المسلمين في المسألة من أصحاب الجرائد
الافرنجية والسورية فقد أنكروا القول على الوزير وما كل منكر يعرف
كيف ينكر.

وجل مسلمو مصر وأصحاب الجرائد منهم خاصة من قول الوزير
وحسبوا لعاقبته ألف حساب وهبّ الكتاب منهم لدفع تهمة التعصب عن
أنفسهم فجاءوا بمتتهى ما يتولد بين الغيرة والوجل، من فنون الحجاج
والجدل، وربما كان في دفاعهم، ما يعده المتهمون لهم مثبتاً للتهمة عليهم،
ولم أر منهم من شرح ما يريده الوزير من التعصب كما اعتقد ثم احتج على
بطلانه بما يرجى أن يكون مقنعاً للمنصف، بل رأيت كثيراً من الناس
يعتقدون أن الوزير قال ما لا يعتقد كما قال له اللورد كرومر وهو أيضاً لا
يعتقد ما قال. أما أنا فإنني أقول إنها يعنيان بالتعصب غير ما فسر به

هؤلاء المدافعون من الوجوه التي يقيمون الدلائل على ردها.

هل يعني الإفرنج بالتعصب الإسلامي تحاب المسلمين وتعاونهم على مسابقة غيرهم في طرق الكمال الصوري والمعنوي فنقول لهم إنكم تشاهدون أننا أصبحنا أضعف الأمم اتحاداً وتناصراً. وأشدها تفرقاً وتنافراً، ! هل يعنون به بغضنا وكرهتنا المخالف لنا في ديننا وعدم ثقتنا به بحيث يصعب عليه ان يعيش بيننا؟ بل لهم إذاً كيف أصابت هذه الثروة الواسعة منا جالية اليهود والنصارى منكم ومن السوريين والأرمن وسائر الملل؟ وكيف صار منكم رئيس الخاصة الخديوية وكثير من مستخدميها ورؤساء دوائر كثير من أمرائنا وأغنيائنا؟ بل كيف عاش بيننا المبشرون بالنصرانية آمنين وهم يطعنون بديننا وكتابنا ونبينا؟ هل يعنون به محافظتنا على شريعتنا من جهة الأحكام القضائية؟ فنقول لهم هذه المحاكم الأهلية والمختلطة ومدرسة الحقوق ونظارة الحقانية نفسها حجة عليكم فإننا تركنا معظم شريعتنا الإلهية إلى قوانينكم الوضعية ولم يعارض حكامنا الذين فعلوا ذلك أحد من علمائنا ولا من وجهائنا؟ هل يريدون به اعتصامنا بعروة الدين في أعمالنا الشخصية فنقول لهم ولماذا راجت خمركم حتى عمت المدن والقرى وربحت تجارة بورصكم وبغاياكم حتى أهلكتم الحرث والنسل؟ ولماذا كان عدد أغنيائنا الذين يزورون بيوت الفسق في بلادكم كل عام، أضعاف الذين يزورون بيت الله الحرام؟ ولماذا، ولماذا؟ هل يعنون به أن مصر تريد أن تتبع سائر الأقطار الإسلامية، بالاتحاد على الأمنية التي يعبر عنها بالجامعة الدينية؟ فنقول أخبرونا عن قطرين إسلاميين اتحدت حكومتاهما وتحالفت على دولة غير إسلامية كما تفعل دولكم في تعاطفها وتحالفها.

ما كانت حكومتان لنا متحلفتين لإعلاء كلمة الله لا سيما في هذه الأزمان، إن هم إلا متحالفون لوجه الشيطان، بالأمس قامت دولكم على دولة مراكش الإسلامية فاتحدت على ما شاءت من السيطرة عليها ولم

تطلب دولة الترك ولا دولة الفرس أن يكون لهما معكم سهم ولا قالت واحدة منها كلمة تشعر بالغيرة عليها أو المساعدة لها بل هما الآن متناوئتان كل منهما تحشد الجيوش على الحدود كأنهما متحدثتان على إفناء ما بقي للمسلمين من قوة واستقلال بفتك كل منهما بالأخرى. على أن الحكومات هي التي تعقد المحالفات وزمام الحكومة المصرية في أيديكم وليس للأمة في أعمالها رأي، بل ليس للحكومة نفسها من دونكم أمر ولا نهي، بل نقول لهم لو كان للمصريين الذين تشكون من تعصبهم رأي لما اتفقوا على الإعتصام بالجامعة الإسلامية وإنما يعملون بما أرشدتموهم إليه من العصبية الوطنية، فإنه وجد فيهم كثيرون يعدون المسلم غير المصري فيهم دخيلاً ويأبون الاشتراك معه في عمل ويفتخرون بمعاملة الأجنبي غير المسلم.

إذا ما يريدون بهذا التعصب المصمئل، المتحفز لمواثبة الدول، المخربق لينباع، المجرمزم ليمد الباع، المتربص ليغتال الثروة الأوروبية، المتوثب ليمحو آية المدنية؟

ألا إنهم يعنون أن المسلمين حريصون على أن يكون حكامهم منهم وأشد ما ينكرون من ذلك أن الإسلام قد جعل من حقوق الخليفة على المسلمين، أن يستجيبيوا له إذا دعاهم إلى استئصال المخالفين لهم في الدين، ويعتقدون أن السلطان عبد الحميد ما أحيا لقب الخلافة لنفسه وعني بإقناع الشعوب الإسلامية بالاعتراف به باستخدام الجرائد وغير ذلك من الوسائل إلا ليمتع نفسه بهذه القوة المعنوية الهائلة التي يستطيع أن يهدد بها أوروبا في مستعمراتهم متى شاء بل هو يهددها بالقوة والفعل، ولولا ما تحدث له من الشواغل والعراقيل في كل وقت وما تنطوي عليه جوانحه من الخوف والحذر لما أمنت دهائه وقد أعطي هذه السلطة الدينية المخيفة. هذا ما يعتقد الأوروبيون في التعصب الإسلامي وهذا ما يخافون منه. ولما كانت مسألة العقبة ورأى اللورد كرومر أن السلطان قد ظهر فيها بمظهر الشدة والحزم أولاً ورأى ثرثرة بعض جرائد المسلمين فيها بحقوق الخليفة

والخضوع للخليفة واستنادها في بعض ما تكتب على مختار باشا الذي أنيطت به هذه المسألة خلافاً للعادة. وقرأ ما كتب إليه في ذلك اعتقد أن السلطان قد تجرأ بإيعاز امبراطور ألمانيا المتهوّر على استعمال تلك السلطة الدينية في هذه المسألة فكتب الى دولته بذلك فهو قد كتب عن التعصب في مصر ما يعتقد وتبعه وزير الخارجية في ذلك إذ لا مصدر له في المسائل المصرية سواه. فهل يفتأ الكثيرون يقولون ان اللورد [كرومر] قال ما لا يعتقد وكذلك الوزير؟ وهل تظن الجرائد بما أكثرت من الكتابة في التعصب أنها قتلت في الذروة والغارب، وأقامت الحجة على اللورد والوزير وسائر الأجانب؟

الحجة الناهضة على تبرئة الإسلام نفسه من هذا التعصب المزعوم هي آي القرآن، الناطقة بتحريم العدوان، وبأن القتال الديني خاص بمن يقاتلوننا في الدين أي يقاتلوننا لأجل منعنا من الدعوة الى ديننا أو من إقامته واحياء شعائره.

وهذه الآيات كثيرة جداً وقد تقدم تفسير أكثرها في المنار. وحسب المنصف منها قوله تعالى (٢ : ١٩) «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» [سور البقرة رقم ٢، الآية ١٩٠]. وقوله عز وجل (٦٠ : ٨) «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» [سورة الممتحنة رقم ٦٠، الآية ٨ - ٩].

لوفقه الأوروبيون هذه الآيات الثلاث لأذعن المنصفون منهم بأنه لو لم يفضل الإسلام جميع الملل إلا بها لكانت كافية في تفضيله عليها ولودّوا لو أقام المسلمون هذه القرآن واهتدوا به - الآية الأولى تأذن للمسلمين بقتال

من يقاتلهم خاصة وتحرم عليهم أن يكونوا هم المعتدين ومن فروع هذه التحريم ما جرى عليه المسلمون في حروبهم من عدم التعرض للرهبان والعباد والنساء في الحرب لأنهم ليسوا بمن يحارب. وأما الذمي والمعاهد والمستأمن فيجب على المسلمين حمايتهم ممن يحاول الاعتداء عليهم فهل يجوز الفتك بمن تجب حمايته من عدوه؟ أما الآيتان الأخريان فقد نزلتا في التمييز بين المحاربين لنا في الدين الذين نهانا عن موالاتهم في أول السورة وفي سور أخرى وبين غيرهم. قال في أول هذه السورة (٦٠: ١) «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم» [سورة المتحنة رقم ٦٠، الآية ١]. الآيات وفيها بعد وصف هؤلاء الأعداء بأنهم أخرجوا الرسول والمؤمنين من وطنهم (مكة) لأنهم يؤمنون بالله أنهم إن ظفروا بهم بعد هذا النفي والإخراج يكونوا لهم أعداء ويودوا لو يكفرون مثلهم ويسطوا إليهم أيديهم وألستهم بالسوء أي إنهم لم يكفوا بعد الإخراج والنفي عن عداوتهم. بعد هذا قال سبحانه: «٦ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * ٧ لا ينهاكم الله» [سورة المتحنة رقم الآية ٦ - ٧]. إلى آخر الآيتين. فهو بعد إطماع المؤمنين في تحويل العداوة بينهم وبين أولئك الأعداء إلى مودة قال إن النهي عن اتخاذهم أولياء لا يعم كل مشرك منهم حتى الذين لم يقاتلوا المسلمين لأجل الدين ولم يخرجوهم من ديارهم فهؤلاء وإن كانوا كفاراً لا ينهي عن برهم والإحسان إليهم وعن معاملتهم بالعدل وإنما النهي خاص بالذين قاتلوهم في الدين لتحويلهم عنه ومنعهم من الدعوة إليه وأخرجوهم من ديارهم أو ساعدوا المخرجين لهم على نفيهم وليس نهياً عن معاملتهم بالعدل بل هو نهي عن ولايتهم ومحالفتهم ومناصرتهم لأن هذا ظلم بين المسلمين.

هذا ملخص معنى الآيات، فهل وجد في العالم نبي أو حكيم أو أديب

أمر بمعاملة اعدائه وأعداء قومه بمثل هذه المعاملة التي جمعت بين العدل والرحمة على أكمل وجه؟ أليس من أقبح الظلم وأشنع الكذب والزور أو من أشد فضائح الجهل أن يقال في دين جاء بهذا الكمال الأعلى أنه خطر على البشر لأنه [لا] يأمر بإبادة المخالفين له وإن كانوا مسلمين لأهله ونافعين لهم كما يقول بعض الإفرنج؟ ولكن بعض الإفرنج يحكمون على الإسلام بما يحكيه عنه أفراد من غلاتهم في التعصب أو من بعض جهال المسلمين وغوغائهم أو الذين يتتحلون السياسة ويجعلون الدين آلة لها وهم به جاهلون.

إذا كان الإسلام نفسه بريئاً من التهمة ألتى يلصقها به الأوروبيون ويسمونها تعصباً فإنني لا أبرئ كثيراً من عوام المسلمين الجاهلين من اعتقاد وجوب طاعة السلطان إذا أمر بقتل المخالفين في الدين، وإن كانت الأمة الإسلامية قد أجمعت على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن أكبر المعاصي الاعتداء على غير المعتدي. وما جاء هذا الاعتقاد من الدين بل جاء من السياسة ولا نعرف تاريخ حدوثه ولعله كان في أيام حرب الصليب وقد اشتهر أن السلطان سليمان استفتى شيخ الإسلام أبا السعود في إلزام نصارى الروملي بالإسلام أو إبادتهم لأن بقاءهم متمتعين بحريتهم في الدين واللغة وجميع الشؤون الاجتماعية خطر على الدولة، لأنهم لتعصبهم لا بد أن ينتهزوا فرصة ضعف في الدولة أو تورط في حرب شاغلة فيخرجوا عليها، فلم يفته أبو السعود بذلك، ولعله لو وجد دليلاً في الكتاب أو السنة أو أقوال المجتهدين أو الفقهاء المرجحين يسمح له بإسعاف سياسة السلطان في ذلك لأخذ به وأفتى وكانت القضية.

إذا صدق ظننا في كون حرب الصليب هي مبدأ هذه الفكرة، فكرة وجوب طاعة السلطان، إذا أمر بقتل المخالفين فهي غرس الأوروبيين الذين اثاروا تلك الحرب بتعصبهم وهم الذين يسقون هذا الغرس وينمونونه بزعمهم أنه من أصول الإسلام ثم بدعوة بعض دولهم بعضاً الى الاتحاد

على المسلمين ومعاملتهم بالقسوة ليؤمن شر تعصبهم هذا.

لا أدري أي الرأيين أضل، وأية السياستين شر، أراي مسلم يظن أن اعتقاد الأوروبيين بأن السلطان العثماني قادر على تهيج المسلمين على النصارى متى شاء من عوامل القوة التي ترهبهم فمن السياسة أن نغدهم في اعتقادهم هذا وإن كان خطأ عسى أن يخفف ضغطهم عن تحت سلطتهم من المسلمين ويقل تحاملهم على الدولة العثمانية، أم رأي أوروبي أو نصراني شرقي يتهم المسلمين بالتعصب وانتهاز الفرص للإيقاع بالمخالفين عامة أو بالنصارى خاصة ويظن أن هذا من السياسة المثلث التي تعود على أصحابها بالفائدة الكبرى وتمكن لهم في الأرض، فيبلغوا ما أرادوا من سيادة وكسب، ألا يجوز أن تأتي كل من السياستين بنقيض ما يراد بها فيكون إيهام المسلمين للأوروبيين بأنهم مستعدون للفتك بهم عند ما تحركهم إرادة السلطان جامعاً لكلمة أوروبا على ابتسار الثمرة قبل إرطابها. أو اجتثاث الشجرة قبل أن تستوي على ساقها، أو يكون اتهام الأوروبيين للمسلمين بالتعصب هو الذي يجمع كلمة المغربي منهم بالشرقي، والعربي بالعجمي، ويؤلف منهم عصية تجعل الظن يقيناً، والأمانى متوناً، ولو بعد حين؟

أليس مما يذعن له كل منصف محب لخير البشر أن إنامة الفتن خير من إيقاظها، وأن إزالة الإحن خير من إثارتها، فمن أظلم ممن علم هذا فأعرض واستبدل التفريق بالتأليف، وأغرى القوي بالضعيف، أو شغل الضعيف عن قوته الذاتية، وحمله على معاداة حكومته الحقيقية، أولئك المفرقون فريقان: هذا يقول لأوروبا أن المسلمين متعصبون فخذهم بالعذاب لعلهم يرجعون، وهذا يشغل من تسوسهم أو تسودهم أوروبا عن قوتهم الذاتية، ويعلق أمانيتهم بالدولة العثمانية، ونحمد الله أنه لم يوجد في جرائدنا من ينفر النصارى كافة كما يوجد في الجرائد الإفرنجية والمتفرنجة من ينفر النصارى من المسلمين كافة بدعوى أن المسلمين

متعصبون عليهم، إذاً لوقعت الواقعة، فكانت «خافضة رافعة» [سورة الواقعة رقم ٥٦، الآية ٣].

أما ميل المصريين الى الدولة العثمانية في مسألة العقبة وفي غيرها من المسائل فليس من العدل أن يجعل بمجرد من التعصب الديني الذي يخشى منه على غير المسلمين عامة وعلى الأوروبيين خاصة لأن الدولة دولتهم باعتراف إنكلترا وسائر دول أوروبا على أنهم لا يرضون ترك استقلالهم لها ولا هي تطمع بذلك، ثم إن موضع العقبة من جزيرة العرب وكونه سيكون باباً للحرمين الشريفين يجعله محطة لسكة الحديد الحجازية واعتقادهم الديني في الحرمين معروف فإذا كانوا لا يرضون بأن يكون الحرمان وما هو حرم لهما من الجزيرة تحت سلطة أجنبية فهم معذورون لأن هذه الأرض المقدسة بمنزلة المساجد عندهم وأي متدين في العالم يرضى بأن تكون معابده ومعاهده المقدسة تحت سلطة المخالف له في دينه؟ أو ليس القائل بأن هذا من التعصب هو أشد الناس غلواً في التعصب وأجدرهم بمثل «رمتني بدائها وانسلت»؟

إن أكثر الذين يرمون المسلمين بالتعصب بلسان السياسة، وللسياسة سريرة لا تعلم، ولغة لا تكاد تفهم، فهي ككتب الجفر لا يعلم ما تطبق أو تنطبق عليه إلا بعد وقوعه فإذا كانت السياسة تريد عملاً يتوقف على رمي المسلمين بالتعصب فهي ترميهم به تمهيداً لذلك العمل فلا كلام لنا مع أهلها في ذلك لأننا لسنا من أهل الشورى في سياستهم فنقول هذا ضار بنا أو بكم وهذا نافع لنا أو لكم أو نحن فيه سواء. إذ ربما كانوا في هذه الحال يشكون من التعصب ظاهراً ويبغون في الباطن إيجاده إن لم يكن موجوداً وحينئذ ندع للمستقبل خطابهم فهو أقدر على اقناعهم. وإن كانوا يقولون ذلك معتقدين له ومتبرمين منه فإننا نقول لهم بلسان الصدق كلمة ربما كانت مزيداً في عملهم الواسع لا يستغنى عنه.

إننا لا ننكر أننا نحب أن يكون حكامنا منا فإن هذا من خصائص

البشر مهما انحطوا ولا نراكم تعيونا وتعاقبونا على كوننا من البشر، إن تريدون بتسمية هذا تعصباً إلا أننا نترصد الدوائر بمن يحكمنا من غيرنا لنشور عليه وهؤلاء مسلمو روسيا حجة عليكم تشاهدونها الآن فهم لم يفعلوا بحكومتهم المستبدة عند الفرصة ما فعل غيرهم ولا تنسون ما فعل بعض نصارى البلقان من قبل وما يفعلون الآن في مكدونية، إن نحن إلا بشر مثلكم نحب مصلحتنا ونغار على حقيقتنا على أننا أصفى أهل الملل قلوباً وأسلم عاقبة.

إن كنتم تودون الوفاق والجمع بين مصلحتنا ومصلحتكم فإن ذلك ممكن لا يحول دونه تعصب ديني ولا غيره ونحن مستعدون لبيان أقرب الطرق إليه إن شئتم. وإن كنتم تبغون الأثرة فينا والافتئات علينا وتعدون عدم الرضى بذلك سراً وجهراً من التعصب فاعلموا أننا متعصبون لأن طبيعة البشر قد جبلت على النفرة من المتسلط الذي يستأثر بالمصالح والمنافع فلا يسمح مختاراً بشيء منها للمتسلط عليهم إلا إذا كان انتفاعه يتوقف على ذلك السماح وإن كان متفقاً معهم في الجنس واللغة والدين والوطن، فكيف إذا كان مخالفاً لهم في كل شيء؟ إذاً لا علاج لهذه النفرة إلا العدل والمساواة والتوفيق بين المصالح، وبهذه المزايا ساد الإسلام أكثر شعوب الأرض في أقل من قرن واحد ونراكم لا ترضون بمساواتنا في بلادنا التي نحكمها، بله بلادنا التي وقعت في حكمكم، ثم تقولون إن ديننا جاء بالتعصب على أنه كان يساوي أحسن رجل من المخالفين بأعظم سيد في المسلمين كعلي بن أبي طالب، وإننا متعصبون لأننا لا نرقص طرباً لا امتيازكم علينا وترفعكم عن مساوتنا!

(ذلك شأن القوة تقول ما تشاء ولا تخشى معارضاً، فجازى الله رؤساءنا الذين أذلونا بظلمهم وجهلهم واستبدادهم وأضعفوا حجتنا كما أضعفوا سلطتنا، حتى صار بعض الأجانب أرحم لنا منهم فهو يدلّ علينا بعدله الإضافي ولولا ذلك الإذلال لما كان هذا الإذلال).

وجملة القول، إن الإسلام أعدل الأديان وأرحمها بالمخالف فوصف الإفرنج ومقلديهم إياه بالتعصب المذموم ظلم منهم المعتقد له سياسة ومنهم المقلد للقسوس وللسياسيين فيه، وإن المسلمين إذا كانوا لا يسلمون من التعصب فهم أقل تعصباً لا سيما في هذه البلاد من جميع أهل الملل العائشين معهم، وإن الإفرنج والمتفرنجين هم الذين أيقظوا شعور التعصب فيهم بأقوالهم وأفعالهم، ولذلك ترى العارفين بلغة من لغات أوروبا والمتعلمين في مدارسها أقرب إلى التعصب من المتعلمين في الأزهر، وإن هذا التعصب لا يخشي منه على أحد من غير المسلمين في مصر ولا في غيرها إلا إذا اتحد النصارى كلهم على محاربة المسلمين وإزالة ملكهم، وإن السلطان نفسه لا يقدر على الأمر بالنفير العام في غير هذه الحالة إذ لا يفتيه شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء بجواز اعتداء المسلم على من لم يعتد عليه لأن هذا مخالف لنص القرآن، وإن وزير الإنكليز قد عنى بالتعصب ما ذكرنا تبعاً للورد كرومر وهما يعتقدان أنه قد تهبج في مصر أيام حادثة العقبة وأنه كان يخشى من الفتن لو اشتد النزاع وطال أمده فاحتياط إنكلترا كان من العقل والسياسة، وهنا نعتقد أنه لم يكن هناك خطر على الأوروبيين، وإن حادثة دنشواي لا علاقة لها بتعصب الفلاحين ولا بمسألة العقبة وإنما كانت جرأتهم على الضباط إحتماً مجرداً من كل شائبة ما عدا خشونة القوم المعهودة في دفاعهم عن حقيقتهم، وإن إنكلترا قست في عقوبتهم لكيلا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم، وإنها خسرت بهذه القسوة معظم ما ربحته في السنين الطويلة من الميل إليها والأنس بحكمها إلا أنها خسارة تزول وقسوة تنسى إذا حسنت الحال بعدها، وإن المصريين أشد المسلمين تساهلاً وأقربهم للمخالف في الدين مودة.

هذا وإن المسلمين ثلاثة أصناف: المشتغلون بعلم الدين كأهل الأزهر، والمشتغلون بعلوم أوروبا، والعوام. فأما الصنف الأول فيعتقدون أن الذمي والمعاهد وهو من بيننا وبين دولته عهد سلمي كأهل أوروبا الآن،

والمستأمن وهو من دخل من الحربين بلادنا بتأمين منا، وإن شئت قلت يعتقدون أن جميع المخالفين لنا في الدين غير المحاربين، يحرم الاعتداء عليهم وايداؤهم بل تجب علينا حمايتهم ممن يريد الاعتداء عليهم ولو بمقاتلته والنفقة عليهم عند الاضطرار وتستحب النفقة عليهم إذا كانوا فقراء، ومنتهى ما عند هؤلاء مما ربما يؤخذ عليهم في هذا العصر هو عدم الائتلاف والانبساط مع المخالف لعدم العادة. وأما العوام وهم الصنف الثالث فإنهم كما قلنا يعتقدون أن السلطان إذا أمر بالاعتداء على كل مخالف وجبت طاعته لا سيما إذا حمل راية الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهم فيما عدا هذا الاعتقاد أقرب إلى سلامة القلب وأبعد عن عداوة المخالف من عوام سائر الملل. وهذا الاعتقاد لا يخشى ضرره وجعله مشاركاً للفتن إلا في الحالة التي أشرنا إليها وهي قيام النصارى كافة على المسلمين ولن يكون ذلك فإن كان فالتعصب هو المعتدي. والعوام يتبعون علماء الدين فإذا حدثت أمور يخشى معها اعتداء العوام على غيرهم فإن علماء الدين يقدرون على دفع كل مخشي بالخطب في الجوامع وفي الجرائد مثل هذه البلاد. فإذا كتب كبار علماء الإزهر في الصحف المنتشرة أن العدوان حرام امتنع العدوان وكان أفعل من كثرة الشرط والجنود.

وأما الصنف الثاني في الذكر أعني المتعلمين للعلوم الأوروبية فأكثرهم لا يمتازون عن العوام في عملهم وشعورهم بالدين ومنهم المارق منه، ولكنهم أشد حرصاً على السلطة من غيرهم، ولا شيء ينفخ فيهم روح التعصب لها مثل وقوفهم على مطامع الأوروبيين، وسماهم لأقوالهم في المسلمين، فهم يميلون إلى التعصب سياسة لا تديناً، ولكن روح تساهل الإسلام غالب عليهم حتى لا يسلم منه المارق منهم، وإني سمعت غير واحد من كبار رجال الحكومة ومتوسطيهم يقولون: إنهم يتهموننا بالتعصب يا ليتنا كان صحيحاً. فليعلم الأوروبيون أن أبعدنا عن التعصب أقربنا من الدين، وأداننا منه أجهلنا بالدين وأعرفنا بأهل أوروبا في علومهم

ومدنيته لا سيما من ذاق حفظها منا فمثار التعصب أوروبا لا الإسلام نفسه وإذا ظلت أوروبا على اتهامها والافتئات علينا في شؤوننا فيوشك أن يحىء يوم يكون فيه الشك يقيناً وهو ما نسأل الله أن يقي البشر شره، وإلاً فإن في استطاعتها أن تجمع بين مصلحتها ومصلحتنا، ولكن بعد استشارة أهل الرأي منا وعدنا من البشر الذين يشعرون ويعقلون، ويسرون ويألمون، والله في خلقه شؤون، وهو يعلم ما لا نعلم ولا يعلمون.



٥٨

سنن الاجتماع

في الحاكمين والمحكومين لهم جزائهم

[المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ١٠٧ - ١١١]

طبيعة الاجتماع تقضي بوجود الحكام، ما قضت بوجود النزاع والخصام، فإذا لم يتغلب على الناس من يحكم فيهم كما يشاء اختاروا هم لأنفسهم من يحكم بينهم كما يشاؤون، لأن ما قضت به سنن الوجود واقع ما له من دافع.

الحكم حاجة من حاجات الناس يقوم به بعضهم بالنيابة عن الباقيين فهو كسائر الحاجات من العلوم والمهن والحرف كالزراعة والصناعة والتجارة التي يقوم بكل فرع من فروعها من يكفي المجتمع همها كما يقوم هو بسائر حاجاتهم ويكفيهم ما أهمهم. فالحاكمون كغيرهم من العاملين كل صنف يخدم مجموع الأصناف التي يعبر عنها بالشعب أو الأمة من حيث يخدمونه و«كل ميسر لما خلق له» ومسير إلى حيث يسوقه استعداداه، فمن

سابق ومتخلف، ومن محسن ومسيء، والكل جزاء، والجزاء إما مال يكفي أو يغني، وإما مال وجاه يعلي.

جزاء الأعمال التي تطلبها طبيعة الاجتماع الطبيعي مثلها ولولا ذلك لما اندفع كل فريق إلى العمل الذي يزين له استعداده جزاءه والغبطة به فمن يطلب من الجزاء الطبيعي على العمل أكثر مما تفرضه سنة الاجتماع من الجزاء عليه فهو باغٍ متكب صراط الحق غير مقيم لميزان العدل إذ يطفف لنفسه ويخسر للأمة.

البغي في اقتضاء الجزاء يكون من الأفراد ومن الجمعيات والأصناف فالأول لا تأثير له في إفساد الأمة وتلافيه سهل، وأما الثاني فهو البلاء المبين لأن قوة الاجتماع هي أعظم القوى. وإنما يتحقق البغي بتحديد قيم الأعمال والأشياء تحديداً طبيعياً إن أمكن، أو قانونياً ليكون متجاوز الحد هو الباغي الذي يجب إرجاعه عن بغيه.

ينجح زيد في بغيه على عمرو إذا كان أقوى منه علماً أو جسماً والحاكم يفصل بينهما إذا رفع الأمر إليه وإلا كان الراضي بالهزيمة مستحقاً لها جزاءً على جهله، ومن ذلك ما يقع كثيراً من الخوذية يطلبون فوق ما حدد لهم في «التعريف» فالعارف يهددهم، والجاهل قد ينقدهم، والخطب في الأمرين سهل. وإنما الخطب الجلل أن يتفق صنف من القائمين بأعمال المجتمع فيبغون في طلب الجزاء. ومنه ما يعرف في هذا العصر باعتصاب العمال ولكن هذا الاعتصاب يجري في أعمال لم تحدد أجورها تحديداً طبيعياً ولا شرعياً ومسلك العدل في تحديد القانون له دقيق ولا أرى له وجهاً ترضي به طبيعة الاجتماع إلا أن يكون النسبة بين كسب المالكين وأجور العاملين، ويأبى علينا هذا المقال أن نخوض فيه ويرضى لنا أن نرده إلى الحاكمين.

لا نقول إن اعتصاب العمال من البغي، ولا نقول إن فيه خطراً على

الشعب، وإنما الخطر العظيم فيبغي الحاكمين، الذين يوكل إليهم تلافي
ببغي الأفراد والجمعيات من المحكومين لهم.

ما هو نوع عمل الحكام في الأمة وما هو نوع جزائهم عليه؟ جاء في
فاتحة الكلام أن الحاكم إما متغلب بالقوة يحكم كما يشاء، وإما مختار من
المحكومين له فيحكم بينهم بما يشاؤون من الشرائع والقوانين، فالحاكم
الأول يرى أن عمله من قبيل إدارة صاحب المزرعة والماشية والعبيد لما
يملك وإن ما يأخذه هو من قبيل الغلة والريع وإنه يجب على المحكومين له
أن يقوموا له في مزرعته الكبيرة «المملكة» بما يطلب وأن يرضوا بما يفرضه
لهم وعليهم، والمحكومون له يرونه سلطاناً باغياً يترصون به الدوائر على
حسب حالهم في العلم والقوة أو الجهل والضعف. والحاكم الثاني يعلم كما
يعلم المحكومون له أن عمله من قبيل عمل الفعلة والأجراء وأن ما يأخذه
من الجزاء المالي عليه أجرة مفروضة وأن الجزاء المعنوي وهو الجاه أثر
طبيعي لإحسانه في عمله كما يكون لغيره من المحسنين إلى الأمة في ترقية
العلوم والفنون والأعمال.

على حسب حال الأمة يكون حكامها في نفس الأمر الذي تقضي به
طبيعة الاجتماع «كما تكونون يولّى عليكم» وأما حكم الشرع والعقل فهو
يقضي بوجوب جعل الحكام أجراء للأمة، قال أبو العلاء، فيلسوف
الشعراء:

مل المقام فكم أعاشر أمة حكمت بغير كتابها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراءؤها

كذلك شأن أكثر الأجراء والوكلاء مع المالكين الجاهلين بما يجب أن
يكون عليه ملكهم، العاجزين عن تحديد الأعمال وتحديد أجور العمال
وإلزام كل عامل أن يلزم حده، لذلك أنحى الفيلسوف في شعره باللائمة
على الأمة التي مكنت أجراءها من الاستبداد في السيادة عليها حتى تجاوزوا

مصلحتها، ينبها بذلك إلى إقامة الشريعة فيهم وإرجاعهم إلى الكتاب العزيز الذي جعل أمر المؤمنين شورى بينهم.

ذلك حكم الشريعة والعقل ولن تقدر الأمة على القيام به إلا بتغيير الأفكار والأخلاق التي كان من أثرها الطبيعي أن صار الأجراء سادة مالكين وتحصيل الأفكار والعلوم والأخلاق التي تمكنها بالاتحاد من جعل المتغلب بقوته، مختاراً لعدله وفضيلته.

إذا أحسن الحاكم المتغلب في عمله واقتصد فيما يتناول من مال الأمة جزاءً عليه كان جديراً بالجاه الصحيح وهو ملك القلوب وقيادتها بالمحبة والتعظيم وبما يتبعه من الحمد والثناء، وإذا أساء عملاً وأسرف فيما يأخذ يفوته الجاه الصحيح ويستبدل به الجاه الباطل وهو قهر الرعية على أن تعامله معاملة الحاكم العادل من الثناء والتعظيم الصوري مكابرة للنفس وعصياناً للقلب في سبيل طاعته الإلزامية. أما الحاكم المختار للأمة فهي التي تفرض له برضاها أجره، وتملكه قلوبها طاعة مختارة.

روى ابن سعد في الطبقات عن حميد بن هلال قال: لما ولي أبو بكر قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افرضوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعينه. قالوا، نعم: برداه (ثوباه) إن أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما، وظهره (أي ما يركبه) إذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق على أهله قبل أن يستخلف: قال أبو بكر: رضيت. وفي رواية أو روايات أنه أراد أن يعمل في التجارة طرماً من النهار لأجل عياله وينظر في أمور الناس في سائر الأوقات فمنعوه. وقال عمر نفرض لك، فأراد أن يتمنع فأقنعوه وفرضوا له كواحد من المهاجرين لا أرقاهم ولا أدناهم. وكذلك كان ينفق قبل الخلافة.

هكذا كانت حكومة المسلمين في أول عهدها كانت من القسم الثاني من التقسيم المتقدم فعرض عليها من عوارض الاجتماع ما حوّلها عن وضعها

وجعلها من القسم الآخر. وكم من حكومة كانت ظالمة بالتغلب فزحزحتها طبيعة الاجتماع عن مكانها ووضعتها تحت سيطرة الأمة كحكومات الفرنجة في بلادها.

لم تكن حكومة الشورى في المسلمين أثراً لارتقاء اجتماعي فيهم ولذلك لم يطل عليها العهد وإنما كانت ائثاراً بأمر الدين وعملاً بهدايته. وقد تغلبت العصبية في الأمة قبل أن يستقر هذا النوع من الحكومة ويلقي بوانيه (أي يثبت ويقيم) بهدي الدين ويصير طبيعياً في الأمة.

للحكومات آجال مقدرة بقدر أحوال المحكومين لها الاجتماعية ولمدبر الكون فيها سنن لا تبدل ولا تتحول، فما قصر أجل حكومة الشورى في المسلمين إلا لأن ذلك المجموع المؤلف من جميع الشعوب والأجناس لم يكن مستعداً لأن يكون مسيطراً على حاكميه لقلّة معارفه الاجتماعية ولانقضاء الوحدة التي تجعل الأمة كرجل واحد. وإنما يستفيد الناس من الدين والدنيا في كل زمان بقدر استعدادهم. ولو كانوا شعباً واحداً في قطر واحد لرجي لهم طول هذا الأجل كما طال أجل حكومة الرومان ثم قضي عليها بالتوسع في العمران ودخول الشعوب الكثيرة تحت سلطانها.

إذا أراد الله بأمة أن تنهض إلى جعل حكومتها تحت سيطرتها كما يجب أن تكون سهّل لها من أسباب العلم الصحيح والتربية القويمة ما ينير أذهانها ويجمع كلمتها حتى تكون أمة عاقلة حكيمة «والعاقل لا يظلم لا سيما إذا كان أمة» كما قال الحكيم السيد جمال الدين الأفغاني.

يسرنا أن نرى بواد العلم والتربية في أفراد من أمتنا الإسلامية في كل شعب وكل قطر وأن نرى بعض مرشديها يحثونها على الاستزادة منهما، ويسوئنا أن بعض الجاهلين المرائين يفتاتون على المرشدين المخلصين فيعلقون آمال الأمة بغير هذا الطريق المعبد، والصراط السوي في تقويم الحكومة وما يجب أن تعاملها به الأمة. ولكن قضت سنة الله بأن يغلب الحق الباطل ويرجح النافع على الضار ولو بعد حين.

يسهل على من أوتي الخلافة في القول، والعرفان بأهواء الجماهير، أن يغش أمة هي في طور الطفولة في الحياة الاجتماعية وليس لها زعماء وحكام ترجع في الأمور العامة إليهم. ويسهل على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب إن ينصح لها ويهديها سبل الرشاد، فإذا هي رزئت بالمختلين وحدهم شقيت، وإذا هي رزقت الناصحين سعدت، وإذا تنازعها الصنفان وجد صاحب الحق من نصر العقلاء وإن قلوا، ما يفلّ جموع أنصار الباطل وإن كثروا، وبذلك ترتقي الأمة ارتقاءً يجعلها أهلاً لأن تختار حكامها وتحدد لهم الجزاء المالي على أعمالهم وتمنحهم الجاه والشرف باختيارها لأنهم يحكمونها بمشيئتها المبنية على الحكمة والعرفان، وهي تجزيهم بمشيئتها الناشئة عن الرضى والإذعان.



منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق



٥٩

[استقلال الفكر - الخروج من الاستبداد -

تأسيس الجمعيات]

[المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ١٩٢ - ١٩٩]

[وص ٢٧٩ - ٢٨٤؛ وص ٣٤٠ - ٣٤٤]

- ١ -

سأل سائل بترعة السويس هل كانت نافعة للمسلمين أو الشرقيين أم ضارة بهم؟ فأجاب غير واحد بأنها كانت مثار المضار، وبركان الأخطار، لولاها لما جاس الأوروبيون خلال هذه الديار، ولما تمكنت سلطتهم في كثير من الأقطار، وأجاب واحد ممن حضر بأنها كانت نافعة أكثر مما كانت ضارة إذ لولاها لكان أهل الهند وأفغان كأهل مراکش في جهلهم وغفلتهم

وجفوتهم للمدنية وفنونها التي وصلت إليها في هذا العصر. بل وكانت مصر التي تزدهو بعمرائها الآن خراباً يؤدي ذكران اليوم العشرات من قراها مهوراً لإنائها على الطريقة التي كانت متبعة عند اليوم في الزواج على عهد اسماعيل باشا^(١). ناهيك باليابان وما صارت إليه، وبالصين وما تشرف عليه.

يسهل على غير الخبير المحقق في طبيعة الاجتماع، العارف حقيقة حال الهند والأفغان ومراكش ومصر، أن يماري في القول مرأً ظاهراً أو غير ظاهر، وأن يستفتي أمثاله: أليس الفرق عظيماً بين الهند التي كانت زاهية على عهد السلطنة التيمورية، بالمعارف والصنائع الوطنية، مستغنية بنفسها عن أوروبا وسائر العالم وبين مراكش التي كانت ولا تزال تغلب عليها البداوة بجهالتها وغباوتها وعصيانها لكل نظام؟ أليس كل ما ينسب إلى الأفغانيين من الفضل هو تحافهم عن المدنية الأوروبية ومنع الأوروبيين أن يسكنوهم في بلادهم أو يتجروا فيها آمنين ولولا ذلك لضاع استقلالها وكانت ولاية من ولايات الهند؟ ألم تأخذ مصر بأسباب المدنية الأوروبية من عهد محمد علي باشا وهي على استقلالها؟ ألم تدخل في أول ولاية محمد توفيق باشا في طور جديد من إصلاح خابت به آمال طلاب الزواج من اليوم بالقرى والمزارع التي آلت إلى الخراب؟ كل هذا يقال في الاستفتاء ويقال أكثر منه ويكون نص الفتوى عن كل سؤال: بلى: وهي كلمة يكتفي بمثلها مشايخ الإسلام في الآستانة إذ يجيبون بكلمة «أولور» في مقام الإيجاب وبكلمة «أولماز» في مقام السلب، وبعد ذلك يأتي الحكم على الأوروبيين كافة بأنهم ما جاءوا الشرق بخير ما ولا منفعة بل جاءوه بشرور ومضار أعظمها إزالة استقلاله وأي خير أو نفع يوزن بسلب الاستقلال حتى تصح المقابلة بين منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق؟

(١) راجع ملحة «الوزير والملك ولغة اليوم». المناهل. بيروت: دار الحمراء، ١٩٩٠. رقم ١٦٠ ص ١٣٢.

هذا هو الحكم الذي يرمي قاضيه عن قوس عقيدة الجماهير. والجماهير في الشرق جاهلون بالسياسة راغبون عنها ويقل في المشتغلين منهم بها والباحثين عنها من يحيط بأطراف مسائلها. ويعرف المطالب ببراهينها ودلائلها، ولولا أن هؤلاء العارفين قليلون فينا لما كنا نشكوا مرض الأمة الذي يعبرون عنه بلفظ التأخر والانحطاط. وهؤلاء العارفون القليلون لا يرضون بهذا الحكم وأنهم لأعلم من غيرهم بقيمة الاستقلال الذي عبث به الأوروبيون وبأنه لا يوزن به شيء ولكنهم يعطون كل شيء حقه ثم يوازنون بين الأشياء لا يمنعهم من ذلك أن يكون في إحدى كفتي الميزان ما يرجح بكل ما يوضع في الأخرى. على هذه الطريقة القويمة نسير في بيان منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق بعد تمهيد مقدمات تعين على فهم مرادنا من المقابلة وهي :

١ - إننا نريد بالمنافع كل ما يزيل شيئاً من شقاء الأمة أو يزيد في سعادتها فيدخل فيها أمور الصحة ولا سيما مطاردة الأوبئة، وأمور المعاش والكسب ولا سيما ترقية الزراعة وتأسيس الشركات المالية، ويدخل فيها العلم والتربية والآداب وأمور الاجتماع وتدبير المنزل والعلم بالإدارة والسياسة وأصول النظام، وغير ذلك مما ينقل الأمة من طور أدنى إلى طور أرقى .

٢ - إننا نريد بالمضار ما يقابل المنافع بجميع وجوهها التي أومأنا إليها آنفاً وهو كل ما تصير به الأمة إلى حال شر مما كانت عليه في أفرادها وبيوتها وهيئتها العامة سواء كان ذلك من جهة البدن كالمعاش والصحة أو من جهة النفس كالعلوم والأخلاق والآداب، وإن شئت فقل كما يقول كُتَّاب العصر من الجهة المادية والجهة الأدبية ويدخل في الجهة الأدبية الدين .

٣ - إننا نريد بالأوروبيين كل ما يتناوله اللفظ لا الحاكمون منهم خاصة .

٤ - إن المقابلة التي نوازن بها بين المنافع والمضار إضافية أي إننا ننسب حال الأمة بعد اختلاطها بالقوم إلى حالها قبله لا إلى ما ينبغي أن تكون عليه من الكمال ولا إلى ما عليه الأمم الأوروبية في أنفسها ولا إلى ما تهوى عامتنا أو خاصتنا أن نكون عليه .

٥ - إن الكلام في المقابلة لا يتناول نيات القوم ومقاصدهم فينا وإنما هو خاص بالأثر الطبيعي لدخولهم في البلاد سواء جاء على وفق ما يقصدون أو على ضده .

٦ - إن الغرض من بيان المنافع التنويه بها والتنبيه إلى الاستزادة منها، ومن بيان المضار تقبيحها والتنفير عنها، ووراء ذلك تلبية نداء التاريخ بتخليد هذه الحقيقة في ألواح الصحف سالمة من نزعات تعصب الجاهلية، محفوظة من نزغات الأهواء السياسية، لأن مدونها يجبها لذاتها ولا يخاف في تقريرها لومة لائم ويجب أن يكون المسلمون وسائر أهل الشرق على هدى وبصيرة فيما يأخذون وفيما يتركون .

٧ - إنه لا يفقه هذا الموضوع حق الفقه إلا من كان عارفاً بتاريخ الشرق حق المعرفة خبيراً بأخلاق الناس فيه وعاداتهم وطبائع الأمم وأحوال الاجتماع وشؤون السياسة ونحن لا نكتب هذه المقارنة والموازنة لمثل هذا العالم الاجتماعي التحرير وإنما نكتبها للجمهور الذي لا يعرف من حال نفسه وحال من يعيش معهم إلا ظواهر غرارة لا تنفذ بصيرته إلى شيء مما وراءها، وإن كان يوجد في أفراد من يظن أنه أحاط بما هنالك علماً، وقتله فقهاً وفهماً .

من مسائل علم الاجتماع أن الأفراد والأمم المؤلفة منها تقتبس ممن يخالطها ويجاورها ما يناسب استعدادها . فالأفغانيون لما كانوا أهل حرب وأولي قوة وبأس اقتبسوا من الأوروبيين النظام العسكري وما يتبعه من الاستعداد للحرب والكفاح، والسوريون لما عرف من استعدادهم القديم للتجارة كان أول شيء استفادوه من الأوروبيين فنون التجارة وطرقها

الجديدة حتى بذوهم في ذلك فقد كان معظم تجارة سوريا الكلية بيروت في أيدي الأجانب فغلبهم عليها من كانوا يخدمونهم من الأهالي حتى لم يبق لهم منها إلا أقلها، والمصريون وهم أهل حرث وزرع قد استفادوا منهم في ترقية زراعتهم ما سبقوا به جميع الزراع في المشرق. وكذلك يكون اقتباس المضار على حسب الاستعداد فلا بد من تدبير هذه القاعدة الاجتماعية فيما نذكر من المقابلة والموازنة في الفصول الآتية.

٢

نبتدىء بذكر المنافع والفوائد التي استفدناها بمخالطة الأوروبيين والاتصال بهم وفي اقتباس علومهم ومعرفة أحوالهم وشؤونهم فنعد منها ما يسبق إلى الذهن إنه الأهم ونختار في سردها معدودة لفظ الفوائد فنقول:

الفائدة الأولى: استقلال الفكر. رأيت في يد أحد طلاب العلم جريدة جديدة وكنت تلميذاً في فرقته ورأيت يغمطها ويدعي أنه يقدر على إنشاء جريدة خير منها فقلت له: إنني لا أدعي مثل هذه الدعوى، فإن كنت واثقاً مما تقول فاكتب لي مقالة في موضوع اجتماعي أو سياسي مما تبحث في مثله الجرائد. قال اقترح: قلت: اكتب لي مقالة في الاستقلال. فسكت ولم يرجع إليّ قولاً ولا كتب شيئاً.

عزمت على أن أكتب شيئاً في استقلال الفكر ولم أفرغ له إلا بعد ثمان ساعات، لم تخطر في بالي فيها تلك الواقعة ولكن كانت أول ما سبق من الذهن إلى القلم عند الكتابة وما أثبتتها عبثاً ولا فكاهة بل أردت أن أنبه القارئ إلى جلال الموضوع الذي لا أزال أجله من ذلك اليوم، عسى أن يهبه من انتباهه ما يليق به لا سيما إذا كان يحب الاستقلال لنفسه ولأمته.

يكثُر في الجرائد ذكر استقلال الأمم والشعوب وقلما تذكر شيئاً في استقلال الأفراد الذي هو أصل استقلال الجماعات الكبيرة التي تسمى أمماً وشعوباً.

استقلال الأحاد نوعان: استقلال الفكر، واستقلال الإرادة. وهذان

النوعان هما الجناحان للإنسان يطير بهما إلى الكمال في العلم والعمل، ويكون حظه من النجاح على قدر حظه من قوتها وحسن استعمالها.

استقلال الفكر يكون ببلوغ العقل أشده وارتقائه إلى مستوى رشد، فإن العقل القاصر هو الذي يتبع مذهب التقليد في كل ما يلقي إليه كما نرى من الأطفال ومن هم في حكم الأطفال من الرجال. فالمستقل في فكره هو الذي يستعمل عقله في البحث عن الحق والصواب في معارفه والتمييز بين النافع والضار من مصالحه أو مصالح أمته عندما يبحث فيها فلا يقبل من هذا ولا ذاك قول من هو مثله إلا إذا ظهر له أنه الحق والصواب.

إن الذي لا يعرف الحق والصواب بالنظر والاستدلال لا يعد عالماً ولا سياسياً بل لا يعد عاقلاً لأن ما يحفظه من أقوال الناس في الكتب والجرائد أو في البيوت والمحافل لا يرفعه إلى مرتبة العقلاء الذين يميزون بين الأقوال بالدليل العقلي. فإن الأولاد المميزين يحفظون الأقوال مثله ولا يعدون من العقلاء إلا إذا أريد بالعقل من ليس مجنوناً يجب أن يساق إلى البيمارستان أو مستشفى المجاذيب فإن هذا الاصطلاح يسمح لنا أن نطلق لقب العاقل على الإمعة الذي لا رأي له وإنما يتابع كل واحد على رأيه لا سيما إذا لم يكن متهماً عنده بعداوته له لسبب من أسباب التهم.

استقلال الفكر الطبيعي في البشر كما أن ضده وهو التقليد طبعي فيهم. فأما التقليد فهو طبيعي في الراشدين ولولا ذلك لما ارتقوا في علم ولا عمل ولسار جميعهم على ما كان عليه أول واحد منهم، فكانوا كالبهائم متساوين في علمهم وعملهم «هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون» [سورة الزمر رقم ٣٩، الآية ٩].

لو ترك الناس وفطرتهم لأعطوا طور القصور حقه وطور الرشد حقه. ولكان معظم الأفراد الذين بلغوا أشدهم مستقلين في أفكارهم مستقلين على آرائهم ولكانت أعمالهم على حسب أفكارهم لاستقلال إرادتهم المعبر عنه بالحرية الشخصية في عرف هذا العصر ولكن الرؤساء المسيطرين قد

تصرفوا في الفطرة تصرفاً ذهب بالاستقلال الذي لا يتفق مع الاستبداد. ولذلك ترى أهل البداوة أقرب إلى الاستقلال من أهل الحضارة المحكومين بسلطة استبدادية.

الحضارة كمال بشري وآفته الاستبداد، الذي يحول دون ما تقتضيه الحضارة من كمال الأفراد، لعبته باستقلالهم وسيطرته عليهم في علومهم وأعمالهم.

التعليم في البلاد التي تساس بالاستبداد يكون مبنياً على التقليد بطبع الحكومة لأن الذين يعرفون الحقائق لا يرضون أن يتحكم في مجموعهم واحد منهم، إرادته حكم وهواه شريعة وقانون، فاستقلال الأفكار حرب لحكم الاستبداد وكثيراً ما كانت هذه الحرب سجلاً والعاقبة للمستقلين. الشرق أعرق في التقليد من الغرب فهو أعرق في الاستبداد أيضاً.

وقد ظهر الإسلام في الشرق وهو يرسف كالغرب في قيود التقليد ويئط من وزر الاستبداد الثقيل فكسر القيود ووضع الأوزار ولكن عاد الاستبداد إلى المسلمين بعد أقل من نصف قرن فكان كلما قوي يقوى التقليد ويضعف الاستقلال حتى زال من مجموع الأمة وصار الأفراد المستقلون فيها كالغرباء لا ولي لهم ولا نصير.

قاست أوروبا من بلاء الاستبداد أكثر مما قاست ممالك الشرق وحلكت ظلمات التقليد فيها أكثر مما حلكت في غيرها ولكن ما عتمت أن ضاء لها قبس من علوم عرب الأندلس وغيرهم فوجد فيها من عرف قيمته، وأنضى في استعماله عزيمته، حتى صار ضياءً ساطعاً، ونوراً في تلك الآفاق لامعاً، وجاءت ساعة المشرق، بطلوع الشمس من المغرب.

جاهدت أوروبا أفضل الجهاد في سبيل استقلال الفكر والإرادة حتى ظفرت بأعدائهما من رجال الدين، والملوك المستبدين، وجعلت كلمة الدليل هي العليا، وكلمة التقليد هي السفلى، فجمعت بين عزة البداوة، ومحاسن الحضارة، فارتقت فيها العلوم والأعمال، إلى درجة لم تعهد في

جيل من الأجيال، من حيث رجع الشرق القهقري «وغداً يقدمه الزمان إلى ورا».

ما كان العلم ليدع الجهل على ما هو عليه حتى يحكم فيه حكمه، ويوقع على أهله عدله أو ظلمه، اندفعت أوروبا إلى الشرق مستعمرة للأرض، أو داعية إلى الدين، أو طالبة للكسب، فامتزج أهلها بأهله، ووصلوا جبلها بجبله، بما أنشأوا من المدارس، وما تقلدوا من الأعمال والوظائف، فطفق أهل الشرق يتعلمون على الطريقة الأوروبية طريقة البحث والاستدلال، والاستنباط والاستنتاج، وأنشأوا يستنشقون نسيم الاستقلال، ويتوجهون إلى طلب الكمال.

فهذه فائدة كبرى قد استفدناها من الأوروبيين ينبغي أن نشكرها لهم ونحمد لأجلها معرفتهم. وليس للمسلم أن ينكر ذلك محتجاً بأن القرآن الحكيم قد أرشد إلى هدم التقليد وقام على أساس الاستقلال في الاستدلال. فإن هذا وإن كان حقاً يعترف به المنصف من علماء أوروبا لم يكن هو المنبه في هذا العصر للشرق عامة وللمسلمين خاصة. ودليلنا على هذا أن رجال الدين منا لا يزالون في الأكثر أسرى التقليد وأعداء الاستقلال، فيجب أن ننصف من أنفسنا، ونشكر لمن نبهنا إلى مصلحتنا.

منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق

الاستبداد

(٣)

[المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٢٧٩ - ٢٨٤]

الفائدة الثانية: الخروج من الاستبداد. أتى على الشرق حين من الدهر كان يعبد فيه الملوك عبادة حقيقية ويسميهم آلهة ويدعوهم أرباباً وهو لم يسلم من هذا الاعتقاد سلامة تامة عامة إلى اليوم. ثم ارتقى بعض شعوبه

إلى الاعتقاد بأن الملوك ليسوا آلهة خالقين ولكنهم أصحاب سلطة إلهية وسيادة ربانية تجب طاعتهم عدلوا أو ظلموا، وتقديسهم أساءوا أو أحسنوا، ثم جاء الإسلام بإصلاح جديد، فجعل أمر المؤمنين شورى بينهم وأمر أصحاب الرأي السديد، والمعرفة بالمصالح العامة واجب الامتثال في سياسة الأمة وإدارتها حتى لا يطمع فرد من الأفراد بالاستئثار بالسلطة والاستبداد بالأمر. وجرى النبي صلى الله عليه وسلم، في سياستهم على هذه القاعدة فكان يقدم رأي أصحاب الرأي المعبر عنهم بأولي الأمر على رأيه، كما فعل يوم أحد إذ كان صرح بأنه لا يرى الخروج إلى حرب قريش حتى تصل إلى المدينة ورأى أصحابه الخروج فعمل برأيهم، وكما فعل يوم بدر. والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة. ولكن الشرق لم يكن تم استعداده لهذا الإصلاح الأعلى لما بيناه في مقال «طبيعة الاجتماع في الحاكمين والمحكومين»^(١) لذلك تسنى لبني أمية أن يعبثوا به ويزيلوه في زمن قريب.

ولي أبو بكر، رضي الله عنه، أمر المسلمين بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخطب الناس وقال: وليت عليكم ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني. وولي عمر، رضي الله عنه، فقال نحو ذلك في خطبته. ومن المشهور المستفيض على الألسنة أنه لما قال على المنبر: من رأى منكم في عوجاً فليقومه. قام رجل فقال: لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا. فقال: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه. وما روي عن عثمان رضي الله عنه، إنه قال على المنبر: أمري لأمركم تبع. وقال في أول خطبة خطبها بعد أن ولي الخلافة: ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ثلاثاً: إتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسنتكم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم.

(١) المنارج ١٠ (١٩٠٧) ص ١٠٧ - ١١١. انظر أعلاه ص ٤٠٨.

فانظر كيف قيد اتباع من كان قبله بكونه فيما اجتمعوا عليه وسنّوه فهو دليل وراء الأدلة العملية على أن أبا بكر وعمر كانا يأخذان برأي الأمة، فيما لم يرد به الكتاب ولم تمض به السنّة وتأمل قوله «فيما لم تسنّوا عن ملأ» والملأ الجماعة من أهل الرأي والمكانة في الأمة وهم بمعنى النواب.

أما سيرة علي، كرم الله وجهه ورضي عنه، فهي على تلك السنة ما غير ولا بدّل ولا رغب في الدنيا ولا جنح إلى زخرفها ولكن نزا عليه بنو أمية أعداء بني هاشم في الجاهلية والإسلام وكان من أمرهم ما كان، ولا محل لشرحه في هذا التمهيد. وإنما غرضنا أن نقول إنهم استبدوا عملاً وما عتموا أن جهروا بالخروج عن سنن الإسلام في حكمه قولاً إذ قال خطيبهم عبد الملك ابن مروان على المنبر: «من قال لي اتق الله ضربت عنقه». فتحولت الحكومة إلى استبدادية كانت على حسب سيرة الحاكم إلّا على الملقب بالخليفة أو الملك فتارة يكون عادلاً كعمر بن عبد العزيز وتارة يكون جائراً وتارة متوسطاً وكان معظم ظلمهم وظلم من بعدهم لمن يأنسون منه سخطاً من سلطتهم أو مقاومة لها وسائر الناس في راحة وأمان، يتقدم به العلم ويزهو العمران، حتى استدار الزمان، ورجع الشرق إلى نحو ما عليه كان.

أخبار المماليك يقلّ في القارئ من لا يعرفها، وسيرة إسماعيل باشا لم يمت جميع من ذاقوا مرارتها، ومفاسد بايات تونس مأثورة، ومنكرات دايات الجزائر غير منكورة، كان من هؤلاء من يعاقب الناس الذين يحل عليهم غضبه ولو لحفظ عرضهم من فسقه بأحدى ثلاث: الخازوق، أو ترديته من أعلى جبل قسنطينة، أو إغراء كلاب عاقرة به تنشه وتمزق لحمه حتى يموت شرمية. كان هذا قبيل إغارة فرنسا على الجزائر. ولا يجهل أحد من قراء الصحف حال بقية الممالك التي لما تؤثر فيها حالة الأوروبيين ولم تحملها على تغيير سلطتها الاستبدادية إما لجهلها بها لعدم الاختلاط بهم واقتباس علومهم والوقوف على حال حكوماتهم كمراكش، وإما لأن

السلطة الاستبدادية فيها لا تزال أقوى وأقدر على منع العلم عن الجاهلين، مع مطاردة طلاب الإصلاح من العارفين، كما هو شأن الحكومة العثمانية .

إن محاربة الأستانة للعلم والدين، ومطاردتها للعقلاء والعارفين، لفوق ما يتخيل المتخيلون، لأنها أضعاف ما يروي الراوون، إن أكثر المطبوعات العربية الجديدة التي تعد في مصر من آيات الارتقاء التي استعدت أو تستعد بها الأمة لأن تحكم نفسها بنفسها هي في الولايات العثمانية من أشد الجنايات وأعظم الجرائم تضطرب لذكرها القلوب وترتعد الفرائص حتى من أولئك الذين يسفكون الدماء بالأسواق في وقت الضحى لأن سافك الدم كثيراً ما يسلم بالرشوة أو المحاباة، وإذا حوكم لا تتبرأ منه المحاماة، وإذا حكم عليه يدركه العفو في أحد الأعياد بعد عشر سنين أو أقل، أما من يتهم باقتناء كتاب مما يعد منبها للأفكار أو يطلبه من مصر فلا يتجرأ أحد على الدفاع عنه، ولا على الارتشاء منه، ولا يؤخذ منه عدل ولا تنفعه شفاعاة .

كم من عادل عامل، ومن غيور فاضل، يثن في ظلمات السجن لا يتجرأ أحد على ذكره ولا السؤال عنه، وكم من عالم وغيور أخرج من داره ونفي إلى حيث لا يسمع أهله وولده بذكره . وما كنت عازماً على الإشارة إلى مثل هذا لولا أن ألقى إليّ قبل هذه الكتابة رقيم من الحجاز فيه أن أمير مكة جلد بعض أهل العلم مئة جلدة على مشهد من الناس ثم كبه في السلاسل والأغلال لأنه كتب كتاباً في التوحيد قال فيه : إن الأمر كله لله لا ينبغي أن يطلب الخير ودفع الضر من غيره عز وجل بعد العجز عن الأسباب التي سنّها واستعمال القوى التي وهبها . فصار إظهار التوحيد الخالص ممنوعاً بهذه الحكومة في حرم الله، وقد كان أعظم مظهر له في أرض الله .

هذا، واليابان تفاخر أوروبا بالحرية والعدل وحكم الشورى، وإيران

تحاول مجاراتها في ذلك، ومصر لا حديث لها إلا المجلس النيابي فمن أبنائها من يلح بطلبه الآن ومنهم من يقول يجب أن نعد له أولاً عدته ونكتفي الآن بتوسيع اختصاص مجلس الشورى ومجلس المديریات. وقد سبقهم العثمانيون إلى المطالبة بإعادة القانون الأساسي ومجلس المبعوثان (أي النواب) وترى أهم حديث للجرائد التونسية في هذه الأيام مجلس الشورى عندهم والمطالبة بإنصاف التونسيين من الأوروبيين.

لكن الفرق بين المصري وأخيه العثماني أن الأول يجهر بطلبه في بلده ويناقش حكومته جهراً في المجالس الرسمية وفي الجرائد وفي المحافل العامة والخاصة وقد يطعن عليها وعلى القوة المشرفة عليها وهي تبيح له ذلك، والعثماني لا يتجرأ على الحديث بذلك في بلاده وإن كان في كسر بيته قد أغلقت دونه الأبواب، وأرخت عليها السجوف والأستار، لأنه أعلم الناس بالمثل القائل «للحيطان آذان» وهو لا يأمن على نفسه الأهل والجيران، لأن الاستبداد، قد أفسد الناس أي إفساد، حتى صار الرجل الحرّ يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وفصيلته التي تؤويه، وإنما يجهر بذلك في أوروبا ومصر وكل بلاد ليس فيها لأبناء جنسه سلطان ولا حكم.

فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوروبيين معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة واصطباغ نفوسهم بها حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشرعية بالحكم المطلق الموكول إلى إدارة الأفراد. فمنهم من نال أمله على وجه الكمال كاليابان، ومنهم من بدأ بذلك كإيران، ومنهم من يجاهد في سبيل ذلك بالقلم واللسان، كمصر وتركيا.

ليست هذه الفائدة بالشيء النافعة ولا بالأمر اليسير ولا هي بالمنفعة التي تقرن بالنظائر بل هذه مرتبة البشرية العليا، في هذه الحياة الدنيا، فإن القوم الذين يرضون أن يستبد بهم حاكم يفعل فيهم ما يشاء ويحكم بما يريد ينبغي أن يعدوا في الدواب الراعية، والأنعام السائمة، إذن هذه

الفائدة هي عبارة عن الارتقاء من حضيض البهيمية، إلى أفق الإنسانية، فحسب الشرق أن استفاد هذه الفائدة وعرف قيمتها.

لا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم أصل من أصول ديننا فنحن قد استفدناه من الكتاب المبين، ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشر الأوروبيين، والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك بأن هذا من الإسلام ولكان أسبق الناس إلى الدعوة إلى إقامة هذا الركن علماء الدين في الآستانة وفي مصر ومراكش وهم هم الذين لا يزال أكثرهم يؤيد حكومة الأفراد الاستبدادية ويعد من أكبر أعوانها، ولما كان أكثر طلاب حكم الشورى المقيد هم الذين عرفوا أوروبا والأوروبيين، وقد سبقهم الوثنيون إلى ذلك. ألم ترى إلى بلاد مراكش الجاهلة بحال الأوروبيين كيف تتخطب في ظلمات استبدادها ولا تسمع من أحد كلمة «شورى» مع أن أهلها من أكثر الناس تلاوة لسورة الشورى ولغيرها من السور التي شرع فيها الأمر بالمشاورة وفوض حكم السياسة إلى جماعة أولي الأمر والرأي.

فإن قلت إن أول من نبه المصريين إلى حقوق الأمة على الحاكم وإلى فضل حكومة الجمهورية والملكية المقيدة على الحكومة الاستبدادية شيخان من شيوخ الدين وإمامان من أئمة الإسلام وهما السيد جمال الدين [الأفغاني] والشيخ محمد عبده وإنك أنت قد نشرت في المنار مقالات للسيد مقالات في «الحكومة الاستبدادية» كانت مما نشره هو في بعض الجرائد على عهد اسماعيل باشا وهي تحرك الجماهير وصرحت في ترجمة الشيخ بأنه كان يدعو إلى ذلك وإنه قال بل كتب عن نفسه هذه الكلمة الجليلة «دعونا إلى هذا والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد» وقد كان مضى على المصريين أكثر من نصف قرن وهم يتدارسون علوم أوروبا ويشتركون مع الأوروبيين في كثير من الأعمال ويتزاحمون معهم بالمناكب ويتبادلون

بالأموال، ولم يخطر في بالهم أن يقلدوهم بإصلاح الحكومة والسيطرة عليها.

إن قلت هذا محتجاً على أننا نحن المسلمين، قد اقتبسنا فائدة مقاومة الاستبداد من الدين، فإن لي أن أجيبك عن ذلك بأنني لا أنكر أن ديننا يفيدنا ذلك كما رأيت في مقدمة هذا المقال. كيف وإنني لم أطلع على كتابة لأحد في ذلك أوسع مما كتبه في «المنار» وإنني مطلع على سيرة هذين الإمامين الحكيمين وعالم بإنهما كانا قد عاهدا توفيق باشا قبل أن يصير الأمر إليه على نصره وعاهدهما هو على إنشاء مجلس نيابي وعلى تعميم التعليم في القطر المصري، ومع هذا كله أقول إننا لولا اختلاطنا بالأوروبيين لما تنبها من حيث نحن أمة أو أمم إلى هذا الأمر العظيم، وإن كان صريحاً جلياً في القرآن الحكيم، نعم، إن أستاذينا الحكيمين، رحمهما الله تعالى، أهل لأن يفهما ذلك من القرآن لأنهما أول من دعا في هذا العصر إلى جعله أساساً للإصلاح وبيئنا من حكمه وفضله، ما عجزت الأوائل عن الإتيان بمثله، ولكن كلامنا في تنبه الشعوب الشرقية على اختلاف مللها ونحلها، لا تنبه فيلسوفين من أهل ملة منها، على أن هذين الحكيمين قد استفادا من الاعتبار بحال أوروبا وعرفا حال أهلها قبل دعوتها إلى هذا الإصلاح.

لا ينبه الأمة إلى مثل هذا التغيير العظيم إلا الإحساس بالخطر والخوف من سوء العاقبة ورؤية العبر بأعينها، وسماع أخبار الذين صرعوا الاستبداد من قبلها، ولذلك نقول إننا ما عرفنا قيمة هذه الفائدة إلا بعد أن أحسنا بالغائلة التي تقابلها وهي مواربة استقلالنا والاعتداء عليه. وهي ما سنبينه في قسم المضار، إن شاء الله تعالى

منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق

[المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٣٤٠ - ٣٤٤]

- ٤ -

الجمعيات: يرى كثير من العقلاء أن العلة الأولى لارتقاء الأمم هي القوة وبها سعد الإفرنج في بلادهم، وبها سادوا على معظم أمم المشرق، فالقوة أساس مدنياتهم، والسلاح مصدر عزتهم وعظمتهم، وإلا فهم لا يمتازون على غيرهم بالقوى العقلية، ولا بشيء من المواهب الغريزية، وهذه اليابان قد اقتفت آثارهم في العناية بالجندية، وتشيد الأساطيل الحربية، فقهرت أكبر دولة من دولهم حتى صارت الدول العزيزة منهم تعز بمحالفتها، وتخطب مودتها لمكان قوتها، بعد أن كانوا يرونها أنقص منهم في الخلقة، وأقل في استعداد الفطرة. فعلى سائر الممالك الشرقية أن تتلو في ذلك تلوها، وتقفو في أمر القوة أثرها. ويعارض أصحاب هذا الرأي العالم الاجتماعي مبنياً أن القوة في هذا الزمان تتوقف على أسباب كثيرة مرتب بعضها على بعض فلا بد من الأخذ بمبادئها لأجل الوصول إلى غاياتها. فما هو السبب الأول الذي يجب الابتداء به لترقية الأمة ورفع شأنها؟

يقول المشتغلون بالسياسة إن سبب ارتقاء أوروبا وعزتها وسيادتها هو انتظام حكوماتها وتقيدها بالشورى، التي هي ناموس العدل وينبوع السعادة، فكل أمة تحب الارتقاء يجب أن توجه عنايتها قبل كل شيء إلى إصلاح حال حكومتها بجعلها مقيدة بالشورى والقوانين العادلة، ويقول لهم العالم الاجتماعي وما هو السبب المؤدي إلى إصلاح الأمة لحكومتها وهل يتسنى لأمة غير مرتقية أن تفعل ذلك؟ فكيف يجعل إصلاح الحكومة علة لكل ارتقاء وهو معلول لنوع من ارتقاء الأمة لا بد أن يتقدمه فما هذا النوع الذي هو السبب الأول للارتقاء أو علة العلة له؟

يقول علماء التربية إن العلة الأولى لارتقاء الأمم هي التربية والتعليم

فكلما انتشرت المدارس ينتشر فيها وبها ومنها شعاع الارتقاء، وكلما كان التعليم أعم وأكمل، كان الارتقاء أتم وأشمل، ألم يهد إليك أن بسمرك قال عن قومه الالمانيين إنهم انتصروا على فرنسا بالمدرسة؟ والأقوال في إثبات هذا الرأي لا تحصى وكم كتبنا وكتب الكاتبون في بيانها، وإظهار برهانه، ولنا في ذلك مقال مطول بأسلوب المحاورة نشرناه في العدد الثاني من سنة المنار الأولى بيّنا فيه أن سبب جميع أنواع الترقى الصورية والمعنوية إنما هو التربية والتعليم وفي هذا المقال قال أحد أصحاب الصحف: ماذا أبقى صاحب المنار لسائر الأعداد التي تصدر في المستقبل بعدما جمع في هذا العدد كل شيء؟ بل قد أعجب الأستاذ الإمام [محمد عبده] بذلك المقال وأجاز كل ما ورد فيه. ولكن العالم الاجتماعي يقول لنا مع ذلك إن الأمة لا تتوجه إلى العناية بالتربية النافعة والتعليم الرافع لها من أفق إلى أفق أعلى منه إلا بعد نوع من الارتقاء يتقدم ذلك فيهدي الأمة إليه، ويقدرها عليه، فما هو هذا النوع الذي نسميه السبب الأول وعلة العلة؟

ويقول علماء الاقتصاد وأرباب الأموال إن الثروة مبدأ كل ارتقاء، ومصدر كل إصلاح، فلا مدارس ولا تعليم، ولا تربية ولا تنظيم، إلاّ والمال أساسه الذي عليه يبنى، وقواعده التي عليها يرفع، فعلى الأمة الشرقية التي تطلب رفعة الشأن، والعزة والسلطان، أن تبدأ بجمع الثروة التي تمكنها من نشر التربية والتعليم في الأمة، ومن تنظيم الحكومة وتعزيز الدولة، ويرد عليهم العالم الاجتماعي أننا لا ننكر أن المال هو الوسيلة لجميع الأعمال، ولكن جمع المال يتوقف على العدل والعلم لا سيما في البلاد التي دخلها الإفرنج العالمون من طرق الكسب ما لا يعلم الشرقيون. وقد أخذ بهذا السبب اليهود فكانوا فيه أبرع البشر، وهم يحاولون منذ قرون أن يؤسسوا به ملكاً ولما يساعدهم القدر، فعلينا أن نبحث عن السبب الأول للارتقاء فنطلب الأمر في إبانها، ونأخذ بربانه، فإنه:

من طلب الغاية في المبدأ لا يؤوب إلا بالقنوط والشقا

ومن يسر سيراً طبيعياً لها يدرك بالتوفيق منها المنتهى
يرى العالم الاجتماعي أن العلة الأولى لارتقاء الأمم هي الجمعيات فلا
ترتقي أمة إلا بعد أن تنبه حوادث الزمان أفراداً من أولي الأبواب فيها إلى
وجوب السعي لترقيتها ورفع شأنها. وأول ما يجب عليهم هو تأليف
الجمعيات للتعاون على ما يجب القيام به من الأعمال، فالجمعيات هي
السبب الأول والعلة الأولى لكل ارتقاء بها صلحت العقائد والأخلاق في
أوروبا، وبها صلحت الحكومات، وبها ارتقت علومها وفنونها، وبها عزت
وعظمت قوتها، وبها فاضت ينابيع ثروتها، وبها انتشر دينها في الخافقين،
وبها سادت على المشرقين والمغربين.

أليست الجمعيات السياسية السرية هي التي طهرت أوروبا من استبداد
الملوك والبابوات وأزالت منها حكومات الأشراف واستبدلت بها الحكومات
الجمهورية والملكية المقيدة بالقوانين وسيطرة أهل الشورى من الأمة؟

أليست الجمعيات الدينية والخيرية هي التي أنشأت المدارس لتعميم
التربية والتعليم، وأنشأت الملاجىء والمستشفيات للمرضى والبائسين؟

أليست الجمعيات العلمية والفنية هي التي هذبت اللغات ووسعت
دائرة العلوم والفنون بما خصصت لكل فرع من فروعها رجالاً يصبرون
نفوسهم على التحرير والتحميص لمسائله وتأييدها بالتجارب وترقيتها
بالاكتشافات والاختراعات؟

أليست الجمعيات المالية المعبر عنها بالشركات هي التي أنشأت المعامل
لجميع الصناعات، ومدت سكك الحديد في جميع الجهات، وسيرت في
البحار تلك الجوارى المنشآت، وابتدعت البيوت المالية (البنوك) لتيسير
المعاملات؟

بلى إنه ما من عمل ارتقى إلا وكانت الجمعيات هي رفته، إن لم تكن
هي التي أوجدته واخترعته، فالجمعيات هي التي تظهر منتهى استعداد

الإنسان للارتقاء. بل هي التي تحقق معنى الإنسانية في هذا النوع إذ لا معنى للإنسانية إلا حياة الاجتماع والتعاون فمهما قل الاجتماع في أمة ضعف معنى الإنسانية فيها، ومهما كثر الاجتماع واعتز كانت الإنسانية أقوى وأكمل.

سبق الشرق الغرب إلى كل نوع من أنواع الارتقاء المدني، ولكن المدنية لم تكمل في الشرق ولم تبني على قواعد يؤمن [عدم] سقوطها، ولذلك سقطت وما ذاك إلا أن قيامها كان بعمل الأفراد لا الجمعيات، فلولا هذه الجمعيات لما كانت مدنية الغرب الحديثة أرقى وأكمل، وأجدر بأن تكون أثبت وأدوم.

وجدت الجمعيات السرية والجهرية في الشرق ولكن انفصمت عراها، قبل أن بلغت مداها، وجاء الإسلام بالتحاليم الاجتماعية فجعل أمر المؤمنين شوري بينهم أي تقوم بها الجماعة لا يستقل به الأفراد وأمر بتأليف الجمعيات للأعمال النافعة بمثل قول الله عز وجل «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٤] وبمثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم «يد الله على الجماعة» ومع هذا لم يكن حظ المسلمين من الجمعيات أحسن من حظ سائر أهل المشرق. بل كان من سوء حظهم أن استحالت الجمعيات السياسية كجمعية الشيعة التي ألفت لجعل الحكم في أهل البيت، عليهم السلام، وجمعية الخوارج المعروفة، إلى مذاهب دينية زادت المسلمين تفرقاً وخذلاناً. وفست جمعية الصوفية الإصلاحية بعد أن ربت كثيراً من المصلحين. وصارت جمعية الباطنية التي أسست لإفساد الدين الإسلامي جمعيات ومذاهب متعددة لم يأت منها إلا الشر والوبال على الشرق. فترى أن جمعيات المسلمين السياسية ما أفسدها إلا اضطباغها بصبغة الدين يجعل تعاليمها مذهباً يدعى إليه باسم التقرب إلى الله وستر موضوعها وإخفاء مقصدها في ذلك. وقد قصرُوا في تأليف الجمعيات الخيرية

والعلمية والفنية والشركات المالية . ولولا ذلك لما ماتت مدنيّتهم قبل بلوغها سن الرشد .

والآن نرى الشرق قد أنشأ يتعلم من الغرب كيفية تأليف الجمعيات والشركات فنجح أهل اليابان في ذلك ورشدوا ولا يزال العثمانيون والمصريون في سن الطفولية من هذه الحياة الاشتراكية الاجتماعية التي لا وسيلة لبلوغ هذا النوع رشده بدونها .

أسسنا غير مرة جمعيات علمية وأدبية وخيرية وسياسية فكانت تسقط الجمعية منها بعد الخطوة والخطوتين أو الخطوات القليلة وقد نجحت في مصر الجمعية الخيرية الإسلامية نجاحاً يوثق بدوامه واستمراره وهي أفضل ما عمل المسلمون بمصر في هذا الطور الجديد من الحياة، وتليها جمعية العروة الوثقى، وجمعية المساعي المشكورة الخاصتين بالتعليم . وأسسنا شركات مالية كثيرة للعمل في الزراعة والتجارة حبط عملنا في بعضها وثبت بعضها، والرجاء في المستقبل عظيم .

ارجع البصر إلى البلاد التي لم تأخذ عن الأوروبيين شيئاً من العلم ولم تشارك معهم في شيء من الأعمال كبلاد مراكش، هل ترى فيها جمعية خيرية أو دينية أو علمية أو سياسية أو تشاهد فيها شركة تجارية أو زراعية أو صناعية؟ تأمل واعرف الخير وينابيعه وكيف تستزيد منه واعلم أن الجمعيات والشركات هي المعيار الذي يعرف به تقدم الأمم وتأخرها وحياتها وموتها فلا يغرنك القيل والقال، ولا نبوغ بعض الأفراد في بعض العلوم أو الأعمال، فإن هؤلاء النابغين إذا لم يجدوا في أمّتهم جميعات تعرف قيمتهم، وتسعدهم على إبراز ثمرات نبوغهم، يذهب استعدادهم سدى، ويجزر مده قبل أن يبلغ المدى، وإذا وجدوا ذلك زكا استعدادهم، وامتد إمدادهم، وكانوا كجثة «بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ٢٦٥]، كما أنهم يؤتون أجرهم مرتين .

[المنارج ١٠ (١٩٠٧) ص ٢٠٠ - ٢١٤]

تكلم اللورد كرومر في تقريره الأخير عن الجامعة الإسلامية كلاماً يؤيد الذين أظهروا يقظة المسلمين في غير شكلها. فرأينا أن ننشر ما كتبه الأستاذ الإمام [محمد عبده] عن ذلك في رده الثاني على موسيو هانوتو وهو لم ينشر في الرسائل المتداولة ناقلين ذلك عن الجزء الثاني من تاريخه، قال رحمه الله: [تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده. القاهرة: مطبعة المنار، ١٩٢٥ ج ٢ ص ٤٥٣ - ٤٦٨].

المقالة الخامسة: هانوتو الاسلام

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم إلى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الإسلامية.

أؤكد لمسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر إلى اليوم في بلد من بلاد المسلمين، ولو خطأ خطوة إلى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله أن يشير إلى هذه الدعوة فضلاً عن أن يبيّن عليها حكماً وأن ما علق بالأوهام منها قائماً منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ثم انعكاس ذلك في أذهان سياسيي المغرب وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها.

وإني أعرض الحقيقة كما هي لا يغشاها ستار من تمويه، ولا غطاء من تلبيس، وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي

نشرت حديثه^(١) إلى رشدهم حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حرباً ولا من السكون شغباً.

لا أنكر أن طائفاً من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض وأن نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم، وأثارت همهم، إلى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين، وفيما صاروا إليه، وأن منهم من يتكلم بما يرى إذا وجد سبيلاً إلى الكلام ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة إذا تهيأت له الوسائل لذلك. ثم يوجد مقلدون هؤلاء يقولون ما لا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون، ولا كلام لنا في هذر المقلدين، وإنما كلامنا فيما يرمي إليه غرض أولئك الناظرين.

ظهر الإسلام لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك أخذ من كل من القبيلين بنصيب فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية. ثم لم يكن من أصوله «أن يدع ما لقيصر لقيصر» بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده في عمله. جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا فهدى ضالاً، وألان قاسياً، وهذب خشنأً، وعلم جاهلاً ونبه خاملاً، وأثار إلى العمل كسلاً، وأقدر عليه وكلاً، وأصلح من الخلق فاسداً، وروج من الفضيلة كاسداً، ثم جمع متفرقاً، ورأب متصدعاً، وأصلح مختلاً، ومحا ظلماً، وأقام عدلاً، وجدد شرعاً، ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاماً، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه، فكان الدين بذلك عند أهله كملاً للشخص والفئة في البيت ونظاماً للملك. وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ولم يفت العلم

(١) يعني بالجريدة الاهرام وكان صاحبها نشر حديثاً دار بينه وبين هانوتو بعد الرد الأول عليه. وما نشره هنا هو الرد على هذا الحديث.

حظ من عنايته بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فإن شاء قائل أن يقول : إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت ، لم يسعه أن ينكر أنه أوجب عليهم السعي إلى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم أن يحسنوا الملكة . وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب «لو أن سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر» ويقول خليفته الرابع «أفنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟» أي خشونته يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الإحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر.

وهكذا كان الإسلام مهماً للمسلمين يحثهم إلى جلائل الأعمال، ومصباحاً لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الأحوال، وتقويم الأفكار وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم .

أبعد هذا يعجب عاقل إذا رأى المسلم يرضى ما رضىه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل ما لم يعتقده سائغاً في دينه وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات بعد ما شهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ما شهد؟ لا عجب في ذلك فإنه نتيجة ضرورية ينساق إليها الأمر نفسه بحكم سنة الله في خلقه .

وأسفاً!! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه . أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانظمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه «ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوباً» .

لا أبحث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم إلى ما ذكرت ولكن أقول ولا أخشى منكرًا لما أقول: قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر ما لا يتصل بأصلها بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها. عرضت البدع في العقائد والأعمال، حلت محل الاعتقاد الصحيح، وأخذت مكان الشرع القويم، وظهرت آثارها في أعماله، وعم شؤمها جميع أحواله.

إن صح لفظ الحديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» أو لم يصح فالقرآن يؤيد معناه، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي، وكنا سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الإسلام، خصال الإيمان، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده. حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان. ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة أدائها. أما ما يتعلق بسر الإخلاص فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما لا يخطر له ببال إلا القليل النادر. أما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الإسلام غاية العبادات وثمرات الأعمال الصالحات فهو مع أنه أهم علوم الدين مما لا تتوجه إليه عزيمة، ولا تنصرف نحوه إرادة، أللهم إلا من أشخاص قلائل منشورين في أطراف الأرض لا ترقى بهم أمة، ولا تسمو بهم كلمة، أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها، فقد انقسموا إلى فريقين:

الأول، من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل أفراده في معظم البلاد الإسلامية. ولم يبق منه إلا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر، والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والآستانة فإنما حظ الذكي

منهم وقليل ما هو أن ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف
العرفان ويفهمها بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ومتى تم
له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم
يسلم. فكان مثلهم مثل من ورث سلاحاً فكان همه أن ينظر إليه ويملاً
عينه منه ولا يمد يده إليه يستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث أن يأكله
الصدأ ويفسده الخبث. ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من
العلوم النافعة. ومن رأى هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم
أن يأمرؤا بمعروف ولا أن ينهؤا عن منكر. وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم
دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ وللكثير منهم بل لأغلب من سوء
الفهم في الدين ما لا حاجة إلى عده. ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق
في العلم لا يظهر له أدنى أثر في صلاح الأمة كما هو مشهود.

والفريق الثاني، من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال
أو سافل. وأفراد هذا الفريق إن كثروا أو قلوا يحصلون مبادئ العلوم
المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي
يعده له والده على أن ما يحصل إما لفظ يحفظ أو خيال يخزن. والمدار على
الوصول إلى ورقة الشهادة ومن هؤلاء من يذهبون إلى أوروبا لاستعمال
التربية فيها ولا غاية لهم سوى هذه الغاية. فمن أصاب منهم بعد ذلك
وظيفة قنع بها وحصر همه على العمل فيها. ومن لم يجد وقف على الأبواب
ينتظرها، فإذا ملّ الانتظار أو تقضي زمن العمل وجدته في قهوة أو ملهى
يسرف في أوقاته ويفسد في أدواته. والصالحون منهم وقليل ما هم لا
يهمهم شأن العامة شقيت أو سعدت، هلكت أو قامت. فأى أثر لما تعلمه
هؤلاء يظهر في الأمة وأستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم يرجى أن
ينمو عددهم وتجنّي الأمم ثمار أعمالهم. هذا شأن الرجال مع العلم.

أما النساء، فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أو
دنياهن بستار لا يدري متى يرفع. ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو

يؤدين فريضة سوى الصوم وما يحافظن عليه من الفقه فإنما هو بحكم العادة وحارس الحياء وقليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام وحشو أذهانهم الخرافات وملاك أحاديثهن الترهات، اللهم إلا قليلاً منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلماً يعدها الجنة ويمنيها السعادة.

أخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل وقعد عن العمل ووكل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن أنه بذلك يرضي . . ربه ويوافي رغائب دينه.

أخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه، وإن لم يتحقق شيء من معناه فإن أصابته مصيبة أو حلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر ما يأتي به الغيب بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارئ أو ينهض إلى عمل لتلافي ما عرض من خلل، أو مدافعة الحادث الجلل، مخالفاً في ذلك كتاب الله وسنة نبيه.

أخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم فألقى مقاليدته إلى الحاكم ووكل إليه التصرف في شؤونه ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من إدارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه. ومن رأى حزن الآباء إذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت إلى حد التأليه من حيث ظنوه قادراً على كل شيء بدون عون من أحد. وانقلبت تلك الثقة إلى الإدبار والتخلي عنه من حيث أنهم تركوه وشأنه لا يساعده في حادث، ولا يعينونه في أمر مهم، اللهم إلا إذا أرغموا على ذلك ومن ذا الذي يحسن عملاً إذا ألجئ إليه بالرغم عنه. ومن هنا انصرف المسلم

عن النظر في الأمور العامة جملة، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها، ألههم
إلاً ما يمس شخصه منها.

أما الحكام وقد كانوا أقدر الناس على انتياش الأمة مما سقطت فيه
فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم في أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور
الأعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم
وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لانفاقها في إرضاء
شهواتهم لا يراعون في ذلك عدلاً، ولا يستشيرون كتاباً، ولا يتبعون سنة،
حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش
والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا
حل بها العذاب.

هذا كله إلى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد،
وطرق متخالفة في السلوك، وآراء متناقضة في الشرائع، وتقليد أعمى في
جميع ذلك، فتفرقت المشارب، وتوزعت المنازع، وعظم سلطان الهوى على
أرباب النزعات المختلفة، كل يجذب إلى نفسه، لا ينظر إلى حق، ولا
يفزع من باطل، وإنما هم أن يظفر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه
أخاً له في الإسلام في معرض التشديق بالكلام.

وزد على ذلك وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في
اعتقادهم وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم، وظنهم أن فساد العامة لا
دواء له وأن ما نزل بهم من الضر لا كاشف له وأنه لا يمر عليهم يوم إلا
والثاني شر منه. مرض سرى في نفوسهم، وعلة تمكنت من قلوبهم،
لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم، وتعلقهم بما لم يصح من
الأخبار أو خطأهم في فهم ما صح منها وتلك علة من أشد العلل فتكاً
بالأرواح والعقول وكفى في شاعتها قوله جل شأنه «انه لا ييأس من روح
الله إلا القوم الكافرون» [سورة يوسف رقم ١٢، الآية ٨٧]—

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال في الهمم، وضعضة

في العزائم، وفساد في الأعمال، يبتدىء من البيت وينتهي إلى الأمة ويمر في كل طبقة ويجول في كل دائرة خصوصاً من دوائر الحكومات. ما يرمي به المسلمون من التعصب الديني الأعمى فإنما عرض على أقوام في بعض البلاد الإسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة على أنني لا أسلم أنهم بلغوا فيه أدنى درجاته في الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لا يكذب.

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطأهم في فهم أصوله، وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه إلا إذا تداركهم الله بلطفه وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه إذا ذكره بما يتبرأ منه، ويعدده حجاباً بين الأمم والمدنية، بل يعدده منبع شقائهم وسبب فنائهم.

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم في مصر. وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ولعلمهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية إن شاء الله.

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه. ويمكن أن يقال إن الغرض الذي يرمي إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الأفراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية، دينية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الإصلاح منهم إلى الأمة فإذا سمعت داعياً يدعو إلى العلم بالدين فهذا مقصده، أو منادياً يحث على التربية الدينية فهذا غرضه، أو صائحاً ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته، وهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا

مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به فلم العدول عنه إلى غيره!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء في مصر أو غيرها أن يثير فتنة على الأوروبيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين غير أن بعض المسيحيين إذا سمع قولاً في الدين أعرض عن فهمه، وأنشأ لنفسه غولاً من خياله، يخاف منه ويخشى غائلته، يسميه باسم الدين. وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون إلى شؤونهم، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فإنه بظنه هذا يعتقد أنه غاش مغرر، وسالب متلصص، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فإن أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الأعمال وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال إلا بحق. والأجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المئة يرجع إلى الاعتدال في الكسب، ويحتاج إلى شيء من التعب في استيراد الربح، وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الإسلامية وهي في عنفوان قوتها، والأجانب يطلبون الكسب في أرجائها وهي في أرفع مقام من عزتها.

نعم يعرض في طريق الدعوة إلى الدين على هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم آخر بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان أو بغير هذه الأقطار لأن مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين. فإذا

نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر. أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم ير بعقل أحد منهم ولو دعا إليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين.

يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم فعليهم أن يستفيدوا منه، وهو كلام حق لكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم أو أضلّ من أعمالهم وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء وهو أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد خصوصاً عند الأوروبيين.

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته، وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له وهذا أمر لا ينبغي أن يدهش أحداً فإن هذه الدولة هي أكبر دول الإسلام اليوم وسلطانها أفخم سلاطينهم ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حل بهم وهو أقدر الناس على إصلاح شؤونهم وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية، فأى شيء في هذا يزعج أوروبا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين إذا حدثت مثل الحوادث الماضية كما يقول موسيو هانوتو.

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه موسيو هانوتو أن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية وهو كلام صحيح ولكنه لم يدر ما معنى جمع السلطين في شخص عند المسلمين. لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا على الأمم المسيحية عندما كان يعزل الملوك

ويحرم الأمراء ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الإلهية، وقد قررت الشريعة الإسلامية حقوقاً للحاكم الأعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية وإنما السلطان مدير البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب والسياسة الخارجية، وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم إلا التولية والعزل ولا لهم عليه إلا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم إن أمكن، وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاماً لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشيء من ذلك في الدين، فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى، كما يطلب مسيو هانوتو ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين بل كان الأمر معكوساً فإن أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم والمغالة في وضع المغارم والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال.

إن فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت وأمباطور روسيا ملك ورئيس كنيسة معاً فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين.

لا أظن أن مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها في البلاد الإسلامية الفرنسية إذا وجد فيها من يقوم بها وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين، فإن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين سابقوا الأوروبيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم إن شاء الله.

«سوء ظن المسلمين بسياسة أوروبا كلها وعدم ثقة سياسيينهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الإسلامية وعدم اطمئنانهم إلى سياسية الدول المسيحية حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين إلى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم». سمع بذلك كله موسيو هانتوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين في الأستانة وباريس ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوروبا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية.

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانتوتو ومن أبلغه أخبارهم أهم الجنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقة.

هل هم مسلمو روسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد حتى أن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الأرثوذكسي.

هل هم الأفغانيون وإخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ولا ينفي إخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها.

هل هم الفرس واستنامتهم إلى السياسة الروسية لا يجهلها أحد؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعاً شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه.

هل هم التونسيون وقد أثنى عليهم موسيو هانتوتو بما هم أهله وثبت له ارتياحهم إلى السلطة الفرنسية لمجرد ما أطلقت لهم الحرية في دينهم.

لعله لم يقصد إلا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيدته قوله أن لا يأتبنوا مسيحياً عثمانياً والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم، فأما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالأوروبيين وبالمسيحيين العثمانيين فإنهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ما عدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصاً أهل الإخلاص وسلامة النية منهم ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية إلا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين وآذاهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهم لا شيء سوى التعصب الأعمى ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية وبعد أن أتى عقب الحوادث العربية شهد له المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم كما افتخر بذلك مراراً في جريدته وإن كانت له إليهم هنات لا تزال تبدو من فيه إلى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لأنه مسيحي عثماني؟؟ هل حرم أحد حق الحمامة أو إنشاء الجرائد أو المطابع أو إقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسيحي عثماني؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد.

أما حالهم مع الأوروبيين فإننا نراهم إذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه، أو وصل إليهم معروف من أي عامل أوروبي شكروه، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزي كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمي، فأني دليل على الثقة أكبر من هذا.

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم أصدقاء يركن

إليهم ويعتد بولائهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان ذلك .

كثيراً ما أغرى الأوروبيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شباناً من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية وفروا ببعضهم من القطر المصري إلى البلاد الأجنبية وأحرقوا كبد والديه ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم إلى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون في مدارس الجزويت وكثير من أبناء الأعيان في مدارس الفرير فأَي اِثْتِمان يفوق هذا الاِثْتِمان .

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالأوروبيين خصوصاً في المعاملات حتى أساء أولئك الأوروبيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلبوا كثيراً من أهل الثروة ما كان بأيديهم ومع ذلك فهم لا يزالوا يأمنونهم ويغالون في الاستئمان إليهم ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم فماذا يطلب من الثقة فوق هذا !!

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص أو غش من صدق أو كذب من أمانة أو خيانة من قناعة أو طمع حتى آل الأمر بالناس إلى ما آلوا إليه من خسارة المال وسوء الحال فهل هذا هو فقد الثقة بالأوروبيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فإذا ارتقيننا إلى الدولة وسلطانها أيده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أو فوق ذلك، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

إقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وإنعامه عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثل في حضرته والإحسان إليه برقيق المخاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك فقد جاهر زمناً ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحي أن يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين أثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ثم وإلى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها، فما هي الثقة إن كان هذا فقدها؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية وكانت الدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الانكليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم أنا نراها اليوم تتراجع وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت إليها سياسة الدولة وهم مسلمون.

والذي أحب أن يعرفه مسيو هانوتو أن سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها إلى اليوم وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوروبية.

إمبراطور ألمانيا جاء إلى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان في الاحتفال به إلى الحد الذي اشتهر وبهر. يجيء الأمراء المسيحيون من الأوروبيين إلى الآستانة فيلاقون من الاحتفال ما لا يلاقونه في بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة إليه أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة؟ كان

يمكن للسلطان أن يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها وليكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات، فإن سلمنا أن سياسة أوروبا ليست بدنية من جميع وجوها فسياسة الدولة العثمانية مع أوروبا هي كذلك ومسلموها تبع لها.

فإن قال قائل: إن حوادث الأرمن لم تزل في ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها إلى التعصب الديني بل يقولون إن أسبابها مظالم جر إليها ذلك التعصب: أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها، ومع ذلك فإن كثيراً من الأرمن في خدمة الدولة إلى اليوم وهم بذلك موضع ثقته وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الديني فإن المسيحيين وسواهم في الممالك العثمانية أنعم حالاً من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ولو أنصف الأوروبيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمناً بعد زمن في تلك الأقطار ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه في أوروبا لا في آسيا.

لا يغث عليّ أن أقول أن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة أن يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه فإن ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً. وإني أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم.

ليعلم موسيو هانوتو أن جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له إلا في ذهن القائل أو الكاتب، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه وعليه أن يحقق الأمر بنفسه إن كان يهمه أن يتكلم فيه.

وأما أن المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الإسلام مع أنه خدمهم وقوله فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم فبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق إلى فهمه: لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصليين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد إلا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح، ولكنه لم يكتف وطعن في عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها في المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ما جرت إليه فيهم وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين وهو ما لا يرضاه أحد منهم.

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على إهمالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء في حديثه الذي نحن بصدد، لما وجد من المسلمين إلا معتبراً بقوله متعظاً بنصيحته، والسلام.



رسالة صاحب المنار إلى اللورد كرومر



٦١

[المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٢٣١ - ٢٣٤]

القاهرة في ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٢٥ هـ [٣ أيار ١٩٠٧ م].

جناب اللورد العظيم

أحييك بما يليق بمكانتك وإن لم يسبق لي شرف المعرفة لحضرتك وأرجو أن تمن عليّ ببضع دقائق من وقتك الثمين تجيبني فيها عن السؤال الآتي الذي يهمني من حيث أنا صاحب مجلة إسلامية تدافع عن الدين وتبحث في فلسفته، وهو: هل عنيت في تقريرك الأخير عن الحكم بالشرعية

الإسلامية التي وضعت منذ أكثر من ألف سنة، الدين الإسلامي نفسه الذي هو عبارة عن القرآن الحكيم والسنة النبوية، أم عنت بذلك الفقه الإسلامي الذي وضعه الفقهاء؟ فإن كنت تعني الثاني فهو من وضع البشر وقد مزجت فيه آراؤهم بما يأخذونه عن الأول وخطأ فيه بعضهم بعضاً وقد ترك حكام المسلمين أنفسهم العمل بكثير منه، ولطلاب الإصلاح من المسلمين انتقاد على كثير من تلك الآراء في كل مذهب. وإن كنت تعني الأول فهذا العاجز مستعد لأن يبين لجنابكم أن معظم ما جاء في الدين نفسه من الأحكام القضائية والسياسية هو من القواعد العامة، وهي توافق مصلحة البشر في كل زمان ومكان لأن أساسها درء المفاسد وجلب المصالح بحكم الشورى، وما فيه من الأحكام الجزئية (وهو مقابل المعظم) راجع إلى ذلك، وأختم رقيمي مودعاً لجنابكم بالتحية والاحترام.

منشئ المنار بمصر

محمد رشيد رضا

كتبنا إليه هذا ونحن نتمنى لو يبيننا بأنه يبرئ أصل الدين من معارضة المدنية ونخشى أن لا يفعل، ذلك بأننا نعتقد أن كلامه في الإسلام يؤثر في جميع الشعوب الأوروبية ما لا يؤثر كلام غيرهم فإذا هم اعتقدوا بشهادته أن الإسلام نفسه يتفق مع المدنية ويسير مع العدل وأن السبب فيما يرى من سوء حال أهله هو ما ألصقوا به من التقاليد والآراء وجعلوه بهذا الإلصاق ديناً، فإن هذا الاعتقاد يكون أكبر عون لنا على خدمة الإسلام والدفاع عن أهله الذين أصبح معظمهم تحت سلطة الأوروبيين وإذا هم اعتقدوا العكس كان ذلك أشد منفر لهم عن الإسلام وحامل لهم على إلزام حكوماتهم بالضغط على رعاياهم. وكنا عازمين على أن نكتب إليه رسالة في بيان أن ما جاء في الإسلام من الأصول الأساسية للأحكام الدنيوية يوافق مصالح البشر في كل زمان ونقدمها إليه مترجمة بالإنكليزية ونسأله باسم العدل والإنصاف أن يبدي رأيه فيها، كنا عازمين على هذا لو

أجابنا بأنه يعني بما كتب الإسلام نفسه أو مجموع ما عليه المسلمون من كتاب وسنة وفقه لأنه يعتقد ذلك ولا يخاف في إظهار اعتقاده أحداً ولكنه تفضل بالجواب الآتي بنصه العربي موقعاً ومؤرخاً بخطه الافرنجي وهو:

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الشيخ رشيد رضا صاحب جريدة

المنار

جواباً على خطابكم أقول إني عانيت بما كتبت مجموع القوانين الإسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجري عليها الأحكام ولم أعن الدين الإسلامي نفسه ولذلك قلت في هذا التقرير الأخير وفي غيره بوجوب مساعدة الحزب الإسلامي الذي يطلب الإصلاح ويسير مع المدنية من غير أن يمس أصول الدين. ولعل العبارة التي كتبتها بتقريرتي كانت موجزة فلم تؤد المراد تماماً واقبلوا يا حضرة الأستاذ احتراماتي الفائق.

في ٤ مايو سنة ١٩٠٧

والقارئ المنصف يرى أن ما استدل به على كونه لا يريد بما كتب الدين الإسلامي نفسه معقول لا يمكن دفعه بعد تصريحه بأن عبارة التقرير لم تؤد مراده تمام الأداء والإنسان أعلم بمراد نفسه. غاية ما كان يقال إن مراد القائل يعرف من قوله وقول اللورد في التقرير يشمل الفقه وينابعه من الكتاب والسنة. ويقال الآن إنه استثنى تلك النبايع بقول آخر مبين لمراده من القول الأول فليعتبر هذا القول تصحيحاً أو تخصيصاً لسابقه أو استدراكاً عليه. ولعل أهل الغيرة الصحيحة على الإسلام ينشرونه في الجرائد الأوروبية ليطلع عليه الأوروبيون الذين قرأوا التقرير فإنه خير لنا من شهادة بعض المستشرقين بفضل الإسلام لأن المستشرقين يتهمون في أوروبا بالتعصب للشرق وأهله. ولا يعذر من يعدون اللورد كرومر عدواً إذا هم قصرُوا في نشره إذ يقال لهم إن شهادة العدو لك أقوى من شهادة الصديق، على أنه بلغنا من مصدر يوثق به أن شيخ الأزهر قال للورد عندما زاره مودعاً له: إننا قرأنا العبارة التي ترجمت عن تقرير جنابكم في

الإسلام فلم نجد فيها طعنًا فيه ولا مساً لكرامته، أو ما هذا معناه. ولعل مراد الشيخ أن ما ذكر من إجازة الرق ومناقضة أحكام الزوجية لآراء أهل العصر وكون الأحكام المدنية الجنائية لا تتغير كل ذلك صحيح وحسن عند المسلمين، فإن لم يستحسنه المخالفون فذلك لا يعيبه، فإذا كان مناقضاً لآرائهم فهو موافق لآراء أهله. ونحن معاصر طلاب الإصلاح لا نقول بهذا ونعده طعنًا نبريء منه الإسلام دون الفقه ووافقنا اللورد على ذلك.

أما ما يجب أن يعتبر به المسلم العاقل في هذا المقام فهو أننا نعلم علم اليقين أنه لو تيسر للمسلمين إنشاء حكومة إسلامية لما رضي جمهور علمائهم ومن ورائهم العامة أن يحكم فيها بغير هذه الكتب الفقهية بما فيها من أحكام الرق والزوجية وغير ذلك على علّاته. ومن أكبر علّاته الخلاف الكثير في المسألة الواحدة واختلاف التصحيح والترجيح فيها حتى ورد في بعضها بعد ذكر تصحيح قولين متناقضين في مسألة من مسائل الطلاق «نحن مع الدراهم قلة وكثرة» أي أن المرجح لأحد القولين المصححين في المذهب هو الدراهم التي يأخذها المفتي من أحد المستفتين.

بلغ من جمود فقهاءنا على هذه الكتب التي يوجد فيها مثل هذه الفضيحة أنهم يعدون العدول عنها إلى كتاب يوضع حالياً من مسائل الخلاف موافقاً لحال الزمان جناية على الدين نفسه. ومن عجائب هذا الجمود أن شيخ الإسلام العثماني لا يفتي بمجلة الأحكام العدلية ولا يأذن لأحد من المفتين الذين يعينهم بالفتوى منها وإذا ذكر شيء منها في فتوى فإنما يذكر بعد النص الفقهي من الكتب المعتمدة عندهم. على أن الدولة لم تعمل عملاً شرعياً أفضل من وضع هذه المجلة، فمن لنا بجمعية من العلماء العقلاء تدرس بعد التمكن من علم الكتاب والسنة والفقه قوانين الأمم ثم تستخرج من هذه الشريعة كتاباً يفوقها عدلاً وسهولة وموافقة لمصالح البشر في هذا العصر يكون حجة ناطقة على كل من ينسب القصور إلى الشريعة أو الدين. وينبغي أن تعزل فيه الأمور الدينية عن القضائية أو

يذكر في أول كل باب من أبواب المعاملات أو كتبها ما هو ديني منها كأن يقال في كتاب المعاملات المالية إن الله حرم أكل أموال الناس بالباطل والغش والخيانة وأكل الربا أضعافاً مضاعفة وأوجب الوفاء بالعقود وأداء الأمانات إلى أربابها. ويذكر في أول باب القضاء تحريم الظلم والرشوة وكون حكم القاضي بالشيء لا يحله للمحكوم له إذا كان يعلم أنه ليس له. أما هذا الفقه فهو على ما فيه من محاسن حجة علينا لا لنا بما فيه من المساوىء وإلى الله المشتكى.

إننا نحن المسلمين قد أمسينا ولا مثل أصدق علينا من قول ابن دريد:
نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى فارتعى
إذا أحس نبأة ريع وإن تطامنت عنه تمادى ولها
فنحن نرتع في غفلات الزمان ما وجدنا مرعى، فإذا صاح بنا نذير
تقلبات الزمان نراع ونجفل وقد نصرخ من الذعر، أو ننتفخ انتفاخ الهر،
فإذا سكنت نبأة النذير، عدنا إلى سابق التقصير، نرتع ونلعب، ونلهو
ونطرب، بل نتمادى بالنذر، ولا نستفيد من العبر، بل نقول ولا نعمل،
وإذا وجد العامل لإحياء الدين، وإقامة حجته على المخالفين، فإننا نخذله
مع المخدولين، أفنرضى أن نكون في حكم القرآن من الممقوتين الذين
يقولون ما لا يفعلون، أو المنافقين الذين يفتنون في كل عام مرة أو مرتين
ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون!





[المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٦٣٧ - ٦٣٨]

دولة إيطاليا تحاول مجارة الدول الاستعمارية ولكنها تجهل الاستعمار فتسلك إليه غير طريقه وتأتيه من غير أبوابه. ومن المعروف المشهور أن لها طمعاً قديماً في ولاية طرابلس الغرب العثمانية وقد علمنا في هذه السنة أن أطماعها قد تعلق بولاية اليمن وأنها منذ زمن غير قريب تدس الدسائس إلى إمام الزيدية فيها لتقوى عزمته على محاربة الدولة العلية وتتهم أنها تدخل اليمن في ظلمات هذه الفتنة فلا يفطن لها أحد. وإن طمعها في اليمن لأدل على جهلها بطرق الاستعمار من طمعها في طرابلس الغرب، لا لأن عرب اليمن أشجع وأمرن على الحرب من عرب طرابلس، ولا لأن الزعيم الديني الذي في اليمن سياسي حري، وبالفعل الزعيم الديني، وهو السنوسي، الذي في صحاري طرابلس ليس كذلك، بل لأن اليمن والحجاز صنوان، فالدولة التي يستقر سلطانها وقوتها في اليمن تكون خطراً متصلاً بالحجاز فأول من يتألب عليها إذا كانت غير مسلمة عرب الجزيرة ويجب على جميع المسلمين في جميع أقطار الأرض أن يكونوا عوناً لهم بكل ما يستطيعون فكأن دولة إيطاليا بطمعها في اليمن تهدد المسلمين بهدم الكعبة والقضاء على الإسلام في حرم الله تعالى وحرم رسوله، صلى الله عليه وسلم.

ومع هذا نرى لبعض خدمة هذه الدولة وسائل سياسية تضحك الثكلى يراد فيها غش المسلمين وإقناعهم بأن إيطاليا محبة للإسلام والمسلمين منها تلك الهدية التي أرسلتها إلى السنوسي وما أمكن أن ترسل إليه إلا باسم رجل مسلم من مستخدميها ثم كتب إليه بعد ذلك بأن ملك إيطاليا دفع

ثمناً لحبه الشديد في الإسلام نفسه وفي المسلمين عامة والسنوسي والسنوسية خاصة! ومنها ما ذكرناه في بعض أجزاء منار هذه السنة من استخدام الشيخ عبد الرحمن عlish في بناء مسجد وإيقافه ليصلى فيه على روح أمبرتو الأول ملك إيطاليا السابق ليشيعوا ذلك بين جهلة مسلمي طرابلس واليمن والصومال والشيخ عlish يصفه بالإيمان ليوهم الناس أنه كان مسلماً!

ومنها إنشاء مجلة بمصر نصفها عربي ونصفها طلياني كتب عليها «عربية تليانية إسلامية» ويدير أعمالها وسياستها رجل طلياني ويكتب فيها من الخطب والخلط في الدين والتصوف ما يبكي المسلم الصادق، ويضحك المارق والمنافق. وأما الحب الذي يضعه مدير سياسة هذا الفخ حوله ليجذب به إليه من يراه من أغرار المسلمين الذين يشبهون الطير في غرارها فهو مدح الإسلام ودعوى إقناع الأوروبيين بفضله وأي فضيحة على المسلمين أشنع من ثقتهم بأن بعض الأجانب الذين يخدمون دولة طامعة في بلادهم هو الذي يبين إلا لأوروبا والمسلمين جميعاً حقيقة الإسلام وفضله وهو لا يعرف أحكامه ولا يستخدم إلا الجاهلين بها؟ ولماذا لم يجعل هذه الخدمة للإسلام بلغات الدول التي يقول إنها أعدى أعدائه كإنكلترا وفرنسا دون لغة أهله العربية ولغة محبيه بزعمه وهم الإيطاليون؟

وقد وقع لبعض جرائد المسلمين تقريظ لهذه الصحيفة الخادعة ولعله كان قبل التأمل فيها، والتفطن لما في أحشائها ومطاويعها فعسى أن لا تعود هي ولا غيرها إلى ذلك.



رأي المنار فيما كتبه موسيو ميلي
ونشرناه في الجزء الماضي

[المنار ج ١٠ (١٩٠٨) ص ٨٦٧ - ٨٦٩]

كتب ذلك الوزير في الإسلام والمسلمين كتابة خبير بصير. وقد صدق في قوله إن جرائيم الحياة كامنة في الإسلام وإن الرجوع الى القرآن بعد تفسيره واستخراج ثماره بطرق العلوم العصرية هو الذي يعيد الحياة إلى المسلمين «وإن أمة أوروبية تتجرد عن أوهامها القديمة وتفهم هذه الخطأ العالية يمكنها أن تتقدم على غيرها تقدماً عجبياً» وقد نصح لأمتة إذ نبهها إلى ذلك بقوله بعدما تقدم وذلك في آخر مقاله : «فاليوم الذي تشمر فيه فرنسا عن ساعد الجد وتسعى في تعليم وتربية الأهالي، ولا نقصد بذلك أن تلزمهم بنظاماتنا بل أن تسير بهم في مناهج التقدم الملائمة لطباعهم، هو اليوم الجميل حسب قول موسيو جوناو الذي تحصل به على أكثر من فتح الممالك إذ به تتحقق لها السلطة على الأرواح». ولكن هل تقبل فرنسا هذه النصيحة وتقدرها قدرها؟

قرأنا لكثير من علماء فرنسا وساستها كلاماً حسناً في الإسلام وأمانى حسنة في شأن المسلمين ولكن ما رأينا لذلك تأثيراً حقيقياً فصار أكثرنا يحمل ذلك الكلام وأمثاله على الخلابه والتمويه ومخادعات السياسة. ولكن الكلام المعقول في نفسه إذا سمعه العاقل عن العاقل لا يمكن له أن يسميه تمويهاً وخداعاً. فأنا أعتقد أن جرائيم الحياة كامنة في الإسلام وأن رؤساء

(١) «أوروبا والاسلام لوزارة فرنسي»، المنار ج ١٠ (١٩٠٧) ص ٧٧٤ - ٧٨٠.

المسلمين هم المانعون لها من النمو، وأعتقد أن دولة أوروبية تتمكن من إحياء مملكة إسلامية يعرف لها فضلها جميع المسلمين ويكون لها منهم قوة تجعل لها مكانة عليا في الأرض حتى في أوروبا نفسها وقد سبق لي كتابة في ذلك. وأعتقد أن فرنسا من أقدر الدول الكبرى على ذلك وأحوجهن إليه. فكيف يمكن أن أعتقد مع هذا كله أن قول موسيو ميلي مخادعة أو خلاصة؟ أنا موقن بصحة كلامه وصدقه وربما كان اعتقادي هذا أقوى من اعتقاده هو ولكنني أشك في فقه أمته حقيقة ما يقول وقدرتها على الانسلاخ من الوهم القديم الذي أشار إليه.

يعدون الشعوب الإسلامية من الشعوب الميتة أو الضعيفة ولكن منهم من يقول إن جراثيم الحياة كامنة فيها، ويعدون فرنسا من أعظم الأمم الحية ولكن منا ومنهم من يعتقد أن مكروبات الضعف والانحطاط كامنة فيها. فنقول على هذا وذاك إن المسلمين محتاجون إلى دولة كفرنسا تساعد على الحياة الجديدة في شمال أفريقية وإن فرنسا محتاجة إلى حفظ حياتها القديمة وإمدادها بشعوب قابلة للحياة والقوة كالمسلمين. وإن هذا المطلب ممكن في نفسه ولكن فرنسا غافلة عنه لأن القوي العزيز قلما يفكر في حقيقة حال من يراه دونة فهذه عقبة دون المطلب ومن ورائها عقبة أخرى وهي أن الضعيف قلما يؤمن بإخلاص القوي له فالمسلمون إلى اليوم لا يظنون أن فرنسا تريد بهم خيراً وهم معذورون بهذا، وإنني أصرح به نصحاً لفرنسا ورغبة في حسن التفاهم بيننا وبينها لعل في ذلك فائدة لنا ولها. فما قلته هو الحقيقة وإن وجد في المسلمين من أحسن القول في فرنسا كما وجد في الفرنسيين من أحسن القول في المسلمين فتلك الأقوال لم تغير الحقيقة ولا يغيرها مثلها وإنما تغيرها الأعمال. والمسلمون الذين تسوسهم فرنسا لا يستطيعون أن يستميلوها بعمل أكثر مما هم عليه من الطاعة لها، ولكنها هي تستطيع أن تستميلهم وأن تملك قلوبهم وأرواحهم كما هي مالكة لأبدانهم وأوطانهم فهي التي يجب عليها الابتداء بالعمل.

ربما يظن بعض المغرورين بقوتهم أن حال الجزائر خفية لا يعرف حقيقتها مسلمو مصر والشام والحجاز وسائر المشرق. الحق أقول لهؤلاء إن تلك الحال ليست بخفية فإننا نعرفها ونشعر بشعور أهلها، ولكن ما كل ما يعلم يكتب، وإنما كتبنا الآن هذه الكلمات لما رأينا من بارقة الأمل في حسن التفاهم والسعي إليه بالعمل.

لا نطلب من فرنسا للمسلمين أكثر مما أشار إليه مسيو ميل وهو السعي في تعليمهم وتربيتهم بالقيد الذي ذكره والشرط الذي اشترطه وهو أن يكون القصد تقدمهم بما يلائم طباعهم لا إلزامهم بنظمات فرنسا وعاداتها فضلاً عن شرائعها ودينها. فالمطلوب مساعدتهم على إحياء لغتهم ودينهم وإنماء ثروتهم مع تعليمهم العلوم والفنون العصرية بالتدريج الملائم لحالهم.

يسهل هذا على فرنسا إذا قنعت من الاستعمار والامتلاك بما دون تحويل المسلمين عن لغتهم ودينهم ورقبة بلادهم ولها بعد ذلك من موارد الثروة ومصادر القوة ما شاءت مع الرضى والحب.

يعلم كل الملمين بأحوال السياسة من المسلمين أن فرنسا طامعة في الاستيلاء على المغرب الأقصى وتأليف امبراطورية أفريقية إسلامية، وأهل الرأي منهم يعلمون أن شجاعة أهل المغرب واستبسالهم لا يدفعان عنهم ما تريده فرنسا بهم مع جهلهم وتفرقهم وكون بأسهم بينهم شديداً ولكن سياستها إياهم بمثل ما ساست به الجزائر في الماضي قد يراها المغرورون أمراً يسيراً وهي في الحقيقة من أعسر الأمور وأشدّها تعقيداً وخطراً على فرنسا في المستقبل. ويظن المغرورون أن تغيير السياسة في الجزائر تغييراً صورياً كاف في إرضاء المسلمين في تلك البلاد وإقناعهم في سائر البلاد بأن فرنسا تريد ترقيةهم مع المحافظة على دينهم ولغتهم. والحق أنه لا يفيد في الأمر إلا الإخلاص في العمل وهو لا يخفى على أحد.

أقول هذا لفرنسا وأنا ناصح أمين، وإنما أنصح لها لاعتقادي أن في مصلحتها هذه خيراً للمسلمين بل أعتقد أن فرنسا لو جعلت لأهل الجزائر والياً منهم لكانت فائدتها من ذلك أكبر من فائدتهم. فهل تلومني أمة الحرية إذا صرحت لها باعتقادي هذا وتعاقبني عليه بمنع هذا الجزء من المنار أن يصل إلى الجزائر؟ كلا، بل أظن أنها تقدر كلامي قدره فإن لم تقدره اليوم فلا بد أن تقدره في يوم آخر.

بل نحن نعلم أن فرنسا ما رضيت بأن يكون سلطانها على تونس سلطان حماية لا سلطان امتلاك رسمي إلا لما استفادته من العبرة بحال الجزائر التي نعرفها نحن وهي أعرف بها منا. ولكن ما عملته في تونس منتقد من وجوه كثيرة والمنة بما فيه من إصلاح أكبر منه. وقد شكرنا لها في هذه الأيام ما كان من التنفيس عن حملة الأقلام، وإنشاء مجلس الشورى وإن كان دون المرام، فعسى أن يكون هذا بدء سياسة مثلى يشكرها لها الإسلام.



فاتحة السنة الحادية عشرة



[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ١ - ٦]

الحمد لله الذي أنزل الكتاب، تبصرة وذكرى لأولى الألباب، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، الذي بعث في الأميين ليعلمهم الكتاب والحكمة، محمد النبي الأمي، العربي الحجازي، وعلى آله وأصحابه خير الآل والأصحاب، ومن تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم المآب، ١٣ : ٢٩ «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ» [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ٢٩].

أما بعد، فإن المنار بحمد الله وعنايته، وتوفيقه وهدايته، قد أتم عشر سنين كاملة، وتجاوز الأعداد المفردة إلى الأعداد المركبة، وهو في نمو طبيعي، وارتقاء تدريجي، لم تظفر به مساعدة الكبراء، كما ظفرت بكثير من العاملين، ولم تظفر به مكيدة الرؤساء، كما ظفرت ببعض المصلحين، بل سار لطيته على استقلاله، في جميع أحواله وأحواله، سلاحه تحرّي الحق، وعدته التزام الصدق، وجنته الإخلاص لله، وحصنه تقوى الله باتباع سنن الله، «هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ، جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ» [سورة ص رقم ٣٨، الآية ٥٠].

جاهد في سبيل الإصلاح بقدر الإمكان، وما تقتضيه حال الزمان والمكان، فهاجمته السياسة بدسائسها فنالت من قريبه وصديقه، ولكنها لم ترحزحه عن طريقه، وواثبته الخرافات بوساوسها، فحالت دون سرعة انتشاره، ولكنها لم تقو على صد تياره، وصادمته التقاليد بهواجسها، فصدت الكثيرين من متقليديها عنه، ولكنها لم تنل منه، بل عزّ هؤلاء وأولئك في الخطاب، ٣٨: ١١ «جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ» [سورة ص رقم ٣٨، الآية ١١].

نعم قد انهزم من أمامه الدجالون فلا يجدون قوة ولا حولاً، وانهزم كذلك المقلدون فلا يرجعون إليه قولاً، وأنى للمتوكيء على عكاز القال والقال، أن ينافح منتضي سيف الدليل، تحت لواء السنّة والتنزيل؟ إلا أنهم لا يصدونه بل يصدون عنه، ولا يقولون له ولكن يقولون فيه، وكذلك كان يقول المقلدون، إذ دعوا إلى غير ما كانوا يعتقدون، ٣٨: ٥ «أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٧ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِي» [سورة ص رقم ٣٨ الآية ٥ - ٧].

الحق أبلج، لا يخيل سبيله، ولا تخفى على الناظر البصير غرته

وحجوله، فلا يضره ضعف الداعي وغربته، إذا قويت عارضته وعرفت حقيقته، والباطل لجلج، وإن كثر قبيله، ودعمت فروعه وأصوله، فلا تنفعه قوة الداعي وعصبته، إذا ضعفت مريرته ودحضت حجته، وإنما يثبت المقلدون، حيث لا يوجد المستدلون، ويسود المتواكلون، ما سكت عن معارضتهم المستقلون ٣٩: ٩ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» [سورة الزمر رقم ٣٩، الآية ٩].

لا خوف على الحق إلا من الاستبداد، بمنع حرية العلم والإرشاد، فالحق لا يوجد إلا حيث توجد الحرية والاستقلال، وتظهر آثار مواهب الناس في الأقوال والأعمال، لهذا لا نخاف على دعوة الإصلاح في هذه البلاد، أو تعود إليها سلطة الاستبداد، نعم إن سيره قد يسرع وقد يبطيء، وإن الداعي إليه يصيب في رمية ويخطيء، ولكنه يستفيد من الخطأ كما يستفيد من الإصابة، وقد يزداد مضاءً في الرفض والإجابة، حتى يعمل الاستعداد للإصلاح عمله، ويبلغ الكتاب أجله، ٣٨: ١٣ «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٣٩ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ٤٠ وَإِنْ مَا نَرِيكَ بِغَضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ٣٨ - ٤٠].

إن للإسلام ثلاث مظاهر أو مراتب: التقليد وعليه أكثر المسلمين المعتقدين، والبصيرة وعليها نفر من العلماء المحققين، والجنسية وهي تشمل حتى المارقين من المتفرنجين. وقد هوجم أولاً في تقاليده لتحويل العامة عنه، وهوجم في كتابه وسنته لزلزال الخاصة فيه، وهوجم في جنسيته لحل رابطة المعتصمين به، على أنه لا يخشى عليه من مهاجمة الأجانب عنه، وإنما يخشى عليه من مهاجمة الذين يعدون منه، فالمتفرنجون منهم يفتنون العامة عن تقاليدهم باسم المدنية، وشبه العلوم والفنون العصرية، ويحلون جنسيتهم الإسلامية، بدعوتهم إلى الجنسية الوطنية، وهم لا يهتمون في ذلك بالإيقاع بالدين، لأنهم يأتون العامة عن اليمين،

ويدعون إلى ما يدعون، معتقدين أنهم مصلحون، فتعين على أهل البصيرة والعرفان، أن ينافحوا عن هذا الدين بالبرهان، واقفين عند حدود السنة والقرآن، فإن كلاً من مسلمي التقليد والجنسية، يعترفون بأن مرتبة البصيرة هي المرتبة العلية ١٣ : ١٨ «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ١٩].

ألا وإن من المحال حفظ تقاليد المقلدين، من غارة إخوانهم المتفرنجين، فإنها من قبيل العادات، التي يعرفوها، كما نشاهد، المحو والإثبات، ألا وإن مصارعة الجنسية الوطنية، للجنسية الإسلامية، مجهولة العواقب، إلا حيث يساعدها الحكام من الأجانب، فهناك يرجح أن تكون آية الوطنية هي المرفوعة، والراية الإسلامية هي الموضوعة، ويتبع ذلك سرعة تسلل العوام، من هذه التقاليد المعزوة إلى الإسلام، ويعود الإسلام في مثل هذه البلاد غريباً كما بدأ، لأن أهل البصيرة هم الأقلون عدداً، والأضعفون ساعداً عضداً، إذا غلبوا بالبرهان، يُغلبون بالسلطان، فهم إما مضطهدون جهراً، وإما مهددون سراً، على أنهم لا يقنطون من رحمة الله، ولا ييأسون من روح الله ٣٩ : ١٠ «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [سورة الزمر رقم ٣٩، الآية ١٠].

ها أنذا أقول على رؤوس الأشهاد، إن طالب الإصلاح الديني مهدد حتى في هذه البلاد، ورب مقاومة خفية، شر من صدمة علنية، ورب اضطدام أحدث ظهوراً، خير من إهمال أوجب فتوراً، ٢ : ٢١٦ «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ٢١٦] فما ظهر حق إلا بعد اضطهاد، ولا خذل باطل إلا بعد عناد، فلا يغرك تقلب الظالمين في البلاد، ٣٩ : ٢١ «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ، ثُمَّ

يَبِيعُ فِتْرَاهُ مُضَفَّرًا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ»
[سورة الزمر رقم ٣٩، الآية ٢١].

فيا أيها الكائدون الظالمون، إنما كيدكم على ملتكم إن كنتم تعقلون،
ويا أيها المقلدون الجامدون، إن تقاليدكم تتحول عنكم تحول الظل وأنتم
لا تشعرون، ويا أيها العابثون بالجنسية إنكم لبنائكم تهدمون، وتبنون
لغيركم من حيث لا تعلمون، ويا أيها المصلحون المستبصرون، إصبروا
وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ٣: ١٠٢ «يا أيها الذين آمنوا اتقوا
الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ١٠٣ واعتصموا بحبل الله
جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألفَ بين
قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم
منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ١٠٤ ولتكن منكم أمة
يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم
المفلحون» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٢ - ١٠٤] لا تفرقنكم عوامل المدنية
فإن دينكم عون لكم عليها إن كنتم تفقهون، ولا تفتننكم سلطة الأمم
الأوروبية فتقلدوها فيما لا تعلمون، فإن روح المدنية والسلطة هو الدين
والآداب، وقد أنعم الله عليكم من ذلك بأكمل مما أنعم به على أهل
الكتاب، ٢: ٢٠٠ «فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ٢٠١ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ٢٠٢ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله
سرّيع الحساب» [سورة البقرة رقم ٢ الآية ٢٠٠ - ٢٠٢].

إن الفساد قد طرأ على جسم هذه الأمة من زمن بعيد، فهو يحتاج إلى
تكوين جديد، ومن المبشرات أن نرى المسلمين، قد تنبهوا إلى الحاجة إلى
هذا التكوين، ولكن اختلفت فيه الآراء، وعبثت به الأهواء، ولا زعيم
يرجع إليه، ولا إمام يقتدى به، وما على طلاب الإصلاح الآن، إلا إقامة
الحجة والبرهان، وتربية استعداد الأمة، إلى أن ينهض زعيم من الأئمة،

ولا بد من مسأمة الفرق والأحزاب، وإحاطة استقلال الرأي بسياج الآداب، ٣٩: ٨ «فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ» [سورة الزمر رقم ٣٩، الآية ١٧ - ١٨].

منشء المنار ومحمره
محمد رشيد رضا الحسيني



اليمن

٦٥

سبب فتنتها وإمام الزيدية فيها

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ١٧٦ - ١٨١]

إن العرب في اليمن وحضرموت ونجد وسائر جزيرة العرب يحبون الدولة العثمانية محبة صادقة وزادهم حباً فيها وحرصاً على بقائها في هذا الزمن اعتقادهم أن دول أوروبا تتربص بها الدوائر وتحاول إزالة سلطتها لإزالة سلطة الإسلام من الوجود. وهم على بقاء مميزات الجنسية والوطنية على نحو ما كانوا في القرون الماضية والأجيال الغابرة، لم يطرأ عليهم من التغير ما طرأ على أهل الآستانة ومصر والشام والأناضول وغيرها من الأقطار الإسلامية؛ لا تزال الرابطة الدينية عندهم فوق رابطة الجنس واللغة والوطن. لم تعلمهم المدنية الأوروبية التعصب للجنس كما علمت الأتراك ولا للبقعة كما علمت المصريين، فهم يتمنون لو يجدون من الترك حكاماً يقيمون العدل ويحكمون بالشرع لا يجدون في صدورهم حرجاً من ذلك.

ولكن الذى لا يطيقون احتماله ولا يصبرون عليه هو الظلم والجور والخيانة والغدر لأنهم ورثوا الاستقلال الشخصي والقومي وعزة النفس وإباء الضيم منذ آلاف من السنين.

وقد بينت في المنار من قبل أن فئة قليلة من العمال «الحكام» المسلمين العدول العارفين بالشرع المهتدين به يكفون الدولة في اليمن أمر هذه الحروب التي طالت عليها السنين فخربت البلاد وأضعفت على الدولة من الأموال والرجال ما هي في أشد الحاجة إليه لصيانة استقلالها من عبث أوروبا التي توابها المرة بعد المرة، وأضررت بها أنواعاً أخرى من المضرات لا حاجة إلى شرحها الآن.

الزيدية طائفة من عرب اليمن تدين بوجوب إقامة إمام لها من العترة النبوية. فهم بذلك أجدر العرب بعدم الخضوع للدولة العثمانية ولكنهم مع ذلك يتمنون لو تقيم الدولة في بلادهم العدل وتحكم بالشرع ويكون لها منهم ما يريدون، فما بالك بغيرهم؟

حاولت الدولة غير مرة أن تقيم الحجة الشرعية على هؤلاء بوجوب طاعة السلطان، وتحريم الخروج والعصيان، فأرسلت من خاطب إمامهم بذلك غير مرة فكانت حجة الإمام أنهض، وحجة رسول السلطان أدحض، لأن الظلم والبغي بغير الحق حجج عملية، لا تبطلها الحجج القولية، ولا تفيد معها شيئاً.

وقد عثرنا في هذه الأيام على نص ما أجاب به إمام الزيدية عما وجهه إليه الشيخ محمد الحريري مفتي حماه المندوب الذي أرسله إليه السلطان منذ سنين ومنه يعلم صحة رأينا في هؤلاء القوم وهذا نصه:

المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين

«عصمتي بالله وما توفيقى إلا بالله»

بسم الله الرحمن الرحيم

أللهمّ أيد دينك القويم بالعلماء العاملين، واكشف ببركتهم جهل الجاهلين، وارفع بحميد سعيهم غفلة الغافلين، فهم بحور العلم الزاخرة، ونجوم الهدى الزاهرة، وزينة الدنيا والدين والآخرة، وأهل الفضائل المتكاثرة، منهم ذو المجد الشامخ المنيف، والحسب الباذخ الشريف، والأدب المثمر روضه الوريث، السيد محمد الحريري الرفاعي الحسني الحموي، ألبسه الله جلباب التقوى، وقاده إلى التمسك بالحبل الأقوى، وأعاد على محياه السلام الأسنى، والإكرام الأهنى، وصلى الله على محمد خاتم أنبيائه، وعلى آله سفينة النجاة، وتراجمة الكتاب وقرنائه، وعلى صحابته الذين اتبعوه بعد مماته وفي محياه.

أما بعد، فإننا نحمد الله الذي لا يرجى ويخشى سواه، ولا نعبد إلا إياه، وإنه وافانا منك أيها السيد كتاب كريم، ومسطور رائق فخيم، أفاد معرفة بحقوق العترة النبوية، والسلالة العلوية، بما ورد فيهم من الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة المروية، «وان دواعي المحبة اقتضت المراسلة، وبواعث المودة جذبت إلى المكاتبة والمواصلة» وإن من لوازم المحبة والإيمان، بذل النصيحة للإخوان، لا سيما ولاية الأمور، الذين ناط الله بهم صلاح الجمهور، وأفاد أسعده الله أنه مستنكر لما جرى بيننا وبين الولاة المرسلين من حضرة الدولة العثمانية، والسدة الخاقانية، ومن الحرب والاختلاف، وعدم التوافق والاتلاف، وأنه يرى الخير في إصلاح ذات البين، ورفع الفتنة التي تؤدي إلى التهلكة والحين، وأنه ورد الحث عليه في السنّة والكتاب، وأنه مناط الرضا لرب الأرباب، وأن السلطان الأعظم من أقام الله به الدين، وانتظمت به أحوال المسلمين، وتشرف بخدمة

الحرمين الشريفين، وأقام بجهد الكفار، ومنابذة الأشرار، وأن رغبته في صلاح الدنيا والدين، وقمع الفجار المعتدين، وأن القطر اليساني المحروس بالله محل الإيمان، كما ورد عن سيد ولد عدنان، وأن سعيه في ذلك نصيحة دينية، ومحبة إيمانية.

ف نقول: نعم الأمر كما ذكرتم مما وقع بيننا وبين من تعلق بالسلطة القاهرة أعز الله بها الإسلام، وقمع بها ذوي الإلحاد الطغام، ولم يكن لنا من الرئاسة الدنيوية طلب، ولا في الراحة البدنية أرب، ولا نعول على جمع المال ووفرة المكسب، ولا مزيد على ما نحن فيه من الحسب والنسب، لكننا رأينا المأمورين لم يؤدوا حقوق الله، ولا رعوا حرمة ما حرمه الله، ولا غضبوا يوماً على معاصي الله، ولم يعملوا بشيء من كتاب الله، ولا سنة رسول الله، و«شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله» [سورة الشورى رقم ٤٢، الآية ٢١]، وارتكبوا المعاصي، ورموا إليها الناس بأطراف النواصي، وجاهروا الله بشرب الخمر، وارتكاب الفجور، وظلموا كل ضعيف، وأهانوا كل شريف، حتى فسدت الذرية، وارتفعت كلمة اليهودية والنصرانية، وصارت الأكراد والمجوس تحكم في البرية. «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة» [التوبة رقم ٩، الآية ١٠]. ولا تأخذهم في المسلمين رافة ولا رحمة، ولما لم نجد عن أمر الله بداً، استعنا وتوكلنا عليه وبذلنا في الجهاد جهداً، امثالاً لقول الله عز وجل «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٩٣] وقوله عز وجل «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٤] وقوله «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١١٠] وخوفاً مما خوفنا الله به من نحو قوله تعالى «لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» [سورة

المائدة رقم ٥ الآية ٧٨] ونحو قوله صلى الله عليه وسلم «لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم» حتى إذا بلغ الكتاب أجله كان هو الله المنتصر لنفسه.

ولم نزل نتوخي أن السلطة القاهرة، أعز الله بها الإسلام، إذا رفعت إليها تلك القبائح التي لا يختلف في وقوعها اثنان، أن تأخذها حمية الدين والإيمان، على تلافي ما فرط من الإضاعة، وتستدرك ما فات من حق عترة رسول الله الذين لا تستحق بدون اتباعهم الشفاعة، فلم يزدادوا مع طول المدة إلا انسلاخاً من الدين، وتوسعاً من تأمر الفجرة المعتدين.

فإن قلت أيها السيد: إن تلك القبائح مباحة في الإسلام، وإن فعلها مستحل من أتباع شريعة سيد الأنام، فهات الدليل، ولا يقول بذلك إلا ضليل، وإن أنكرت أيها السيد أن ذرية الرسول، هم الحجة في الفروع والأصول، صاح بك قوله تعالى «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير» [سورة فاطر رقم ٣٥، الآية ٣٢] وقوله تعالى «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» [سورة الشورى رقم ٤٢، الآية ٢٣] ونحو قوله صلى الله عليه وسلم «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعتري أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنها لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض» وقوله صلى الله عليه وسلم «إن عند كل بدعة يكون من بعدي ولياً من ذريتي» وقوله صلى الله عليه وسلم «أهل بيتي أمان لأهل الأرض» وقوله صلى الله عليه وسلم «أهل بيتي كسفينة نوح» وغير ذلك مما لا يتحمله المقام فالظهور أبين للحجة، وأوضح للمحجة، لا ما خوفنا به من القتل والنكال، فإننا أهل بيت لا تزعزعنا كواذب الآمال، ولا نعد بذل نفوسنا في سبيل الله إلا من أشرف الخصال، ولا نفزع إلى غير ذي الجلال، ولا ندعوا سواه في البكور والأصال.

على أن قومي تحسب الموت مغنماً وان فرار الزحف عار ومغرم

«أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور» [سورة الملك رقم ٦٧، الآية ٢٠]، «ان ينصركم الله فلا غالب لكم وأن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١٦٠]، «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» [سورة محمد رقم ٤٧ الآية ٧]، «ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم الوارثين» [سورة القصص رقم ٢٨ الآية ٥]، «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» [سورة الحج رقم ٢٢ الآية ٤١] فنحن من وعد ربنا على يقين، «والعاقبة للمتقين» وإنك لا تجد في خطتنا المنصورة إلا قائماً لعبادة ربه إذا أسدل الليل جناحه، أو تالياً كتاب الله وذاكراً إذا أطلع الفجر صباحه، ومساجدنا معمورة بالعلم والعمل، وقلوبنا ضالة عن الجبن والفشل، ولا نفتخر كغيرنا بآلات الحرب الفاخرة، ولا بالسيوف المتكاثرة، التي تحت أمرنا عاثرة، بل نتبرأ من الحول والقوة، ونتمسك بأذيال سيرة الإمامة والنبوة.

مغارس طابت في ربا الفضل فالتقت على أنبياء الله والخلفاء
إذا حمل الناس اللواء علامة كفاهم مشار النقع كل لواء

فقد أوضحنا لك أيها السيد طريقتنا، وأبلغنا إليك أفعال أعادينا «فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ٨١] ولو يعلم السلطان الأعظم حقيقة الحال، لسارع إلى إعانتنا في الحال والمآل، ورفع جميع المأمورين من الخطة اليمانية، وأمرهم بحرب الفرقة الكفرية، ومنعهم عن محاربة العترة النبوية، التي هي بضعة من الذات الشريفة المحمدية، ولأوفى جدنا الأعظم أجر تبليغ الأنباء المشار إليه «بل لا أسألكم عليه»

الآية. ولتباعد عن مشابهة من قال فيهم خاتم النبيين «من قاتلنا آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال» وعن الدعوة النبوية في قوله لأهل بيته «أنا حرب لمن حاربتم سلم لمن سالتهم» وقد أمر الله تعالى بالكون مع الصادقين بقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» [سورة التوبة رقم ٩، الآية ١١٩] وثبتهم بقوله «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وأولئك هم الصادقون» [سورة الحجرات رقم ٤٩ الآية ١٥]، «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين» [سورة يوسف رقم ١٢ الآية ١٠٨]، «يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجزئكم من عذاب أليم» [سورة الأحقاف رقم ٤٦ الآية ٣١]، «ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء» [سورة الأحقاف رقم ٤٦ الآية ٣٢]، «ويا قوم ما لي ادعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار» [سورة غافر رقم ٤٠، الآية ٤١] فإذا وجدت أيها السيد خلاصاً من أوامر الله أفدنا من كتاب الله ومن سنة رسول الله ودع عنك التخويف بالملوكين كما قد قيل:

جاء شقيق عارضاً رحمه ان بني عمك فيهم رماح
وأما اجتماع الكلمة على الحق فمن أين لنا ذلك، وإلا فهو عندنا من أعظم المسالك، حقناً للدماء، ورفعاً للدهماء، ونسأل الله أن يرفع عن الأمة المحمدية سوء والمحن، ويجعلها على اتباع الكتاب وقرنائه أهل بيت النبي المؤمن، وأن يعيذنا من نزغات الشيطان الرجيم، ومضلات الفتن وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان اللائق بحال أركان السلطان الأعظم أن يجعل القطعة اليمانية من جملة الممالك التي بأيدي الكفار وقد أضربوا عنها صفحاً، وطووا عنها كشحاً، وما سارعوا لغير مملكة اليمن التي بأيدي أولاد رسول الله، يحكمون فيها بما أنزل الله، ويمنعون محارم الله، فهلا جعلوا آل الرسول

كالكفار الذين تركوا لهم ممالكهم؟ اللهم، اشهد وكفى بك شهيداً اه.

المنار: تسمع الدولة هذه الأخبار وتقرأ مثل هذا الجواب ثم هي توالي إرسال الجيوش إلى اليمن فإذا توالى انكسارهم أرسلت من الرسل المسلمين من يقيم الحجة على إمام الزيدية! لم تعتبر بإخفاق محمد الحريري وحسن خالد الصيادي فأرسلت في العام الماضي وفداً من علماء مكة فكانت حجتهم كحجة من سبقهم. ولو سعت كلامنا نحن الناصحين المخلصين لأرسلت والياً عادلاً حكيماً وعمالاً من أهل الدين والاستقامة فبذلك لا بسواه تنطفئ نار الفتنة، وتخضع اليمن للدولة، فإذا أعوز الدولة هذا العلاج، فلتعلم أن جميع بلاد العرب ستبغ اليمن في الخروج عليها، أو الخروج من سلطتها.



المسلمون والقبط

٦٦

[حقيقة الوطنية وطبيعة الحكومة المصرية]

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٣٣٨ - ٣٤٧]

سبق لنا قول في هاتين الطائفتين بمصر بيننا فيه أن المسلمين من حيث هم أفراد أرقى من القبط في كل علم، وأن القبط من حيث الاجتماع والتعاقد المالي أرقى من المسلمين فلهم مجلس ملي وجمعيات وجرائد دينية تبحث دائماً في مصالحهم العامة من حيث هم قبط وهم يتعاونون ويتحدون في المصالح. وهذا ما حمدتهم وأحمدهم عليه وأتمنى لو يوفق المسلمون لمثله وإن كنت أعلم أنه لو أنشأ المسلمون جمعية للرابطة الإسلامية كجمعية الرابطة المسيحية لما وجدوا في القبط مثل أحمد بك زكي يقوم فيها خطيباً

ويجعل عنوان خطابه «مصريون قبل كل شيء» بل يخشى أن يقوموا كما تقوم أوروبا ويقول الجميع إن المسلمين في مصر يحبون التعصب الإسلامي والجامعة الإسلامية ويدعون إلى ارتباط بعضهم ببعض لمقاومة النصارى في مصر بل في جميع الأرض.

لم تكذ تقرر شقشقة أحمد زكي بك من دعوة المسلمين في جمعية الرابطة المسيحية إلى توثيق عقد الأخوة بينهم وبين القبط ويقنعهم بالأدلة الدينية والتاريخية أن الإسلام في هديه وسيرة سلفه يوجب عليهم المودة للقبط حتى قام بعض الكتاب من القبط يكتبون في بعض الجرائد القبطية وغيرها أن حقوقهم مهضومة بين المسلمين وأنهم يطلبون المساواة بتعيين المديرين ومأموري المراكز منهم. فوافقتهم جرائد المسلمين الكبرى في مطالبهم فلم يقنعهم ذلك بل تمادوا في الكتابة حتى جعلوا أنفسهم أصحاب البلاد وجعلوا المسلمين من قبيل المحتلين بغير حق وأغلظوا القول للواء والحزب الوطني فكتب الشيخ عبد العزيز شاويش رئيس تحرير جريدة اللواء قولاً ثقيلاً في الرد على بعض كتابهم سخر فيه منهم وهزى بهم وافتخر عليهم فكان ذلك جل ما يبغون من حركتهم الجديدة^(١).

(١) مما كتبه من التحرش باللواء والحزب الوطني قبل مقالة الشيخ عبد العزيز [شاويش] التي جعلوها تكأتمهم في إثبات ذلك الخطر المزعوم من تعصب المسلمين على النصارى ما جاء في العدد ٣٦٩٨ من جريدة مصر الصادر في ٩ يونيو الماضي وهذا نصه:

اللواء والأقباط

«إننا بالنيابة عن جميع الأقباط في كافة أنحاء القطر نقابل ما جاء بصحيفة اللواء أمس من الوقاحة والسفاهة بالازدراء والاحتقار. فإنه إذا بلغ المرء مبلغ اللواء من قلة الأدب والحياء نحو شعور أمة برمتها لم يجد من الناس من يصغي إلى قوله أو يلتفت إلى وقاحته بل ينبذ نبذ النواة ويترك ينبج الكلاب وليس من يسمع له قولاً».

ثم استشهدت جريدة مصر على أن القبط كلهم على هذا الرأي بالتلغرافات الكثيرة لما تكتبه وعبرت عنه بقولها «في خدمة الوطنية والحق اللذين خلق (أي اللواء) لهما عدواً ليخزي هو واتباعه (أي الحزب الوطني وسائر محبي اللواء) إذا كان من القوم المدركين» ولم يكن اللواء كتب شيئاً بلسان الحزب الوطني ولا بلسانه.

قامت قيامتهم ولم يكتفوا بما يكيلون كل يوم للشيخ عبد العزيز [شاويش] من الصيعان الكثيرة في مقابلة صاعه بل أنشأوا يكتبون في جرائدهم أن المسلمين يريدون بتعصبهم الديني استئصال القبط وجميع النصارى من مصر وأنه يجب عليهم أن يوفدوا الوفود إلى أوروبا للاستغاثة بدولها وأممها المسيحية قبل أن يبيدهم المسلمون المتعصبون أو يضطروهم إلى الجلاء عن بلادهم والهجرة إلى بلاد أخرى يأمنون فيها على أنفسهم من المسلمين. ثم هم يطلبون أيضاً معاقبة الشيخ عبد العزيز شاويش الذي أهانوه أضعاف ما أهانهم وأن يرد عليه ويتبرأ منه كبراء المسلمين، ويعقدون الأندية والسهار للبحث في هذه النازلة ويكتبون بالأموال لها.

من علم أن القبط في القطر نحو نصف مليون في نحو أحد عشر مليوناً من المسلمين، وأن العمال والمستخدمين منهم في الحكومة أكثر من المسلمين، وأن المسلمين قاموا منذ سنين يدعون إلى الرابطة الوطنية فكان لهذه الدعوة من التأثير في نفوس القارئ والسماعين، والأساتذة والمعلمين، أن صار يفضل كثير منهم القبطي، على المسلم الشامي والحجازي... ، بل سمعت غير واحد من المعلمين والمتعلمين يقول لا فرق عندي بين أن يكون أمير البلاد مسلماً أو قبطياً، وأن المسلمين جعلوا أحزابهم وأنديتهم شرعاً بينهم وبين القبط، وأن القبط يتعصب بعضهم لبعض في كل مصلحة وكل عمل حتى في القضاء، وأن المسلمين على شدتهم في انتقاد حكامهم قلما ينتقدون القبط فهم ينتقدون وزير المعارف المسلم على إحسانه في عمله بحجة أنه لم يكن فيه مرغماً للإنكليز، ولا معانداً لهم أو أنه يجب عليه أن يعمل أكثر مما عمل ولا ينتقدون وزير الخارجية القبطي الذي هو ألصق بالمحتلين والاتفاق معه سلخ لورد كرومر السودان من ملك الدولة العلية وملكه للإنكليز وكان رئيس محكمة دنشواي التي ظلت الجرائد الإسلامية تعير وتسب العضو المسلم فيها ولم تذكر رئيسها بسوء. من علم هذا وأمثاله يتعجب أشد التعجب لهذه الثورة المعنوية التي أثارها القبط في

الوقت الذي يبالي فيه المسلمون في موادتهم وتوثيق عرى الإخاء بينهم وبينهم. حقاً إن في الأمر مثاراً للعجب، وقلما رأينا من بحث في حقيقة السبب.

يقول بعض الناس تبعاً لبعض الجرائد إن قطبي الرحا لهذه الحركة أخنوخ أفندي فانوس رئيس جمعية الرابطة المسيحية ومجمع الإصلاح القبطي وصاحب جريدة مصر اللذان يسعى كل منهما لجعل ولده مديراً، فهما اللذان أيقظا هذه الفتنة لحظ شخصي فكانت فتنة جنسية أو طائفية باتباع الجمهور لهما. ومن رأيي أنهما بريئان من هذه التهمة ولو كان ذلك هفوة لهما، لما خفي على جمهور طائفتها الحازمة اليقظة، بل يغلب على ظني أن هذه الطائفة تجلّ عن أن تتوسل إلى تقرير جعل المديرين منها بهذه الوسيلة لأن ربح مدير لا يوازي خسارة مودة المسلمين لهم، ودعوتهم إلى مساواتهم ومؤاخاتهم، هذه الخسارة التي تعرضوا لها الآن، بمنتهى ما عندهم من الجرأة والإقدام.

والراجح عندي أن القوم شعروا بالتغير الجديد في السياسة وعلم بعض كبرائهم بالنبل الذي نشرناه في الجزء الماضي قبل أن نعلم به، وهو عزم الإنكليز على السماح لأمر البلاد بإنشاء مجلس نيابي، ومن البديهي أن جمهور القبط لا يرغبون في أن يكون في مصر مجلس نيابي ولا أن يقلل المحتلون من سيطرتهم على البلاد. فلما علموا بذلك رأوا أنه لا سبيل إلى تحويل الإنكليز عن هذه السياسة الجديدة إلا بإقناع أمتهم بانفجار بركان تعصب المسلمين على القبط وسائر المسيحيين ليقولوا إن هؤلاء إذا جعل لهم رأي نافذ في سلطة بلادهم يهضمون وهم الأكثرون حقوق الأقلين. وإنني لمعظم لقدرة هذا الظن ومعتقد فيهم الحزم والتكاتف وإن ترجح عندي أنهم ربما أخطأوا في اجتهادهم، وجاء الأمر على خلاف مرادهم، حينئذ يكون شر هذه الحركة أكثر من خيرها، وإثمها أكبر من نفعها.

سمعا غير واحد من أهل الفهم والرأي يقولون إن تعصب القبط

بعضهم لبعض وتعاونهم على مصالحهم الملية يعدّ من الأمور الطبيعية في الاجتماع. فإن الفئة القليلة إذا لم تعتصم بعروة التعصب فإنها تذوب وتفتى في الأمة الكبيرة التي تعيش معها. فالقبط معذورون في سيرتهم التي هم عليها لأنها طبيعية لا بد منها.

ونقول: نعم، إن ذلك طبيعي وبديهي ولكن ما كان كذلك يجب الاعتراف به ويستنكر جحوده، فما بالك بادعاء ضده؟ ثم إنه ليس من الطبيعي البديهي أن تكون الفئة القليلة في الأمة الكبيرة مهاجمة في جهادها الاجتماعي فتطلب ما تبغي بالطريقة التي جرت عليها القبط في هذه الأيام إلا إذا كان لها حدث جديد، أو أوت إلى ركن شديد.

يعبرون عن أنفسهم في مقام مطالبة المسلمين بما يطلبون بالأمة القبطية ويدلون بأنهم أصحاب البلاد، لأنهم سلالة فرعون ذي الأوتاد، ويجهرون بأن المسلم فيها أجنبي محتل، وأتاوي معتد، وينكرون على المسلمين أن يكون لهم فيها حق من حيث هم مسلمون فاتحون، ولا ينكرون على أنفسهم أن يدعوا الحقوق فيها من حيث هم قبط مسيحيون، وهم في الحقيقة رعايا ذميّون، فما هو الحدث الجديد الذي أنطقهم بهذا اللسان، وما هو الركن الشديد الذي يأوون إليه الآن؟

لا يظهر لنا حدث غير ما بيّناه من تغير السياسة الإنكليزية في البلاد وعزمها على السماح للأمير بتأليف مجلس نيابي فيها يشترك معه فيما يسمونه مسؤولية إدارتها. ولا نعرف لهم ركناً فيما صمدوا إليه إلا رغبة السياسة الأوروبية عامة والإنكليزية خاصة في نبز نهضة المسلمين بالتعصب الديني. فهذا ما رأوه من موقع الضعف في المسلمين والقوة لهم، لهذا جعلوا قول الشيخ عبد العزيز شاويش وهو على رأيهم دخیل في مسلمي مصر برهاناً على أن في مصر تعصباً إسلامياً لا يلبث أن ينفجر بركانه فيدفن القبط وسائر النصارى معهم تحت مقذوفاته النارية. وقد طلبوا من الحزب الوطني أن يتبرأ من هذا القول ففعل ومن العجب أنهم لم يرضوا. ويقال إنه قد

تجددت لهم صلة ودية برئيس أساقفة الكنيسة الإنكليزية، وأنه رغب إليهم في الرجوع إليه، والتعويل في رغائبهم عليه.

ولكن فاتهم على حذقهم أن السياسة، ولا سيما الإنكليزية منها، إذا قررت أمراً أنفذته لا محالة لا يصدها عنه مراعاة فئة صغيرة ولا كبيرة، ولا مسألة اختراعية كمسألة التعصب الإسلامي، أو حقيقة كإزالة السلطة الشخصية وحماية الحرية القومية، فنشرهم بأن السياسة الجديدة التي بينها المنار في الجزء الماضي واقعة ما لها من دافع. وأمر مجلس النواب في هذه البلاد صار موكولاً إلى إرادة أميرها باختيار المحتلين ورضاهم أو كاد. فإن نجحت الحركة القبطية فقصارى نجاحها أن تكون سبباً في تأخيرها عاماً أو أكثر وما ذلك بالريح الكثير في جنب ما يخسرون من مودة المسلمين بما اشتملت عليه مقالاتهم من التهكم بمجد الإسلام الأول والشماتة بزواله كالتعبير عنه «بالعظمة البالية» ورمي المسلمين السابقين بظلمهم وظلم غيرهم، واللاحقين بالتعصب عليهم وعلى أهل دينهم، وبمطالبة جميع كبراء المسلمين وكتّابهم بأن يعتذروا لهم عن مقال الشيخ عبد العزيز شاوئش وإن كانوا هم البادئين بالعدوان وقد أصرّوا عليه بجعل ذنب الشيخ عبد العزيز ذنباً لجمهور المسلمين، وبالسعي في جمع كلمة نصارى السوريين والروم والأرمن إليهم لمقاومة المسلمين كما روي لنا ويؤيده ما يكتبون في الجرائد، وبترجمة الأقوال السيئة التي يكتبونها ويكتبها الآخرون باللغات الأوروبية، لإيهام أوروبا أن في البلاد تعصباً ربما يفضي إلى ثورة دينية.

أول خسارة خسروها بهذه المغاضبة هي اعتقاد المسلمين أن دعوة الوطنية التي قاموا بها في هذه السنين قد كانت خساراً عليهم ربحاً للقبط وحدهم. فإن دعاة هذه الوطنية من المسلمين كانوا ييغون بها أن يتحدوا بالقبط ويتعاونوا معهم على مقاومة السلطة الأجنبية ولذلك رضوا بأن يساووهم ويؤاخوهم مع العلم بأن الحكومة في صفتها الرسمية إسلامية تابعة لخليفة المسلمين باتفاق الدول، بل غضوا النظر في الغالب عن

رجحانهم عليهم لهذا الغرض . فتبين لهم أن القبط لا يرضون بهذا الاتحاد من كل وجه بل يستفيدون منه ويحولون دون استفادة المسلمين شيئاً منهم ، حتى نفي التعصب عنهم ، ثم يبنون أعمالهم كلها على أنهم أمة ممتازة لا عضو في جسم الأمة المصرية أو الشعب المصري ، وأنهم لا يرضون بمقاومة الأجنبي ولا يودون استقلال البلاد دونه ، وأنهم إذا وجدوا فرصة لمواثبة المسلمين واثبوهم من أضعف جانب فيهم كنزهم بلقب التعصب ومعاداة النصارى في هذه الأيام . فإذا كانت نتيجة دعوة المسلمين إلى الوطنية المصرية بلسان جرائدهم وخطبائهم وأحزابهم وعدّ القبطي أخاً لهم ، والمسلم غير المصري «دخيلاً» فيهم ، أن تقوم عليهم جرائد القبط وجمعياتهم الدينية ، وأنديتها القومية ، ترميهم بالغلو في التعصب والتواطؤ على إبادة النصارى فأى فائدة لهم في هذه الوطنية؟ بل أي غائلة شر عليهم منها؟

أقول إن في هذا خساراً للقبط لأنه ربما يغري المسلمين بمناظرتهم والتشبه بهم في جمعياتهم الدينية وترجيحهم لأبناء ملتهم في جميع الأعمال والمصالح . وإذا دب في المسلمين الشعور بوجوب ترجيح المسلم على القبطي كما تفعل القبط . فإن ذلك يثمر حرمان ألوف من القبط من موارد الرزق السائغة في دوائر المسلمين الخاصة بل ربما يعوزهم معه ، إذا تبادى وعظم ، القيام باستغلال أرضهم كما يستغلونها الآن بمساعدة المسلمين . دع عنك مصالح الحكومة التي أكثر عماها من القبط ولولا تساهل المسلمين وعدم عنايتهم بالمسابقة والمناظرة لكان الأمر على غير ما هو عليه الآن .

وناهيك بالخسارة المعنوية التي هي عند أهل الآداب العالية شر من خسارة المال وهي ما يخشى أن يكون من التقاطع والتدابير بين العشاء والخلطاء والجيران والأصدقاء .

فالرأي عندي للقبط أن لا يغتروا بترجيح بعض الجرائد الإفرنجية لأصواتهم في الشكوى من المسلمين والقول بتعصبهم ولا من سرور بعض

الإنكليز به، إن كان ما قيل من ذلك حقاً، فإنهم مهما أصابوا من تعضيد في مشاقّة المسلمين فهو لا يكون خلفاً صالحاً لمودتهم فيما أرى. فأنصح لهم أن يتوبوا مما فعلوا ويعتذروا عنه ويعودوا إلى سابق شأنهم أو إلى خير منه إن استطاعوا والمسلمون تغلب عليهم سلامة القلب فلا يلبثون أن يغفروا لهم، وينسوا ما كان منهم، ففي حديث أبي هريرة عند أبي داود والترمذي «المؤمن غرّ كريم» أي ليس بذي نكر ولا مكر ولا خداع. ولولا أنني أحب الوفاق لما نصحت لهم بهذا فإنني أعلم أن هذه المشاقّة لا تزيد المسلمين إلاّ قوة في رابطتهم الإسلامية التي أدعو إليها، وحفظاً لحقوقهم التي أغار عليها، ولكنني أفضل أن يكون تنبيههم لذلك بغير هذا، أحب أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا ينفقوا وأن يكونوا مع ذلك على وفاق ووئام مع من يعيش معهم. وأنصح للمسلمين أن لا يكتبوا شيئاً في الرد على القبط، ولو لم يكتبوا في الماضي ما كتبوا لكان خيراً لهم وأحسن إطفاءً لتلك الفتنة وخذلاناً لموظيها، ولكن لا بأس ببيان عدد الموظفين منهم في كل مديرية وذكر الوقائع في تعصب بعضهم لبعض، وتعاونهم المالي المحض، من باب بيان الحقيقة والاعتبار بها، بشرط أن يتحرى الصحيح، ولا تمزج الرواية بشيء من التأنيب والتجريح، فضلاً عن الهجر والتقييح.

ومما يحسن البحث فيه أيضاً بيان أن القبط لا يمتازون بحق رسمي على غيرهم من النصارى المتجنسين بالجنسية المصرية من السوريين والأرمن والروم ومن اليهود أيضاً، وإنما ميزهم المسلمون في مقالاتهم وخطبهم التي يجعلون فيها المصريين عنصريين فقط ويعدون القبط إخوانهم دون غيرهم من الذين جعلوا مصر وطناً لهم، ويعددهم القانون المصري مصريين لولادتهم بمصر أو لإقامتهم فيها ١٥ سنة أو أكثر فالنسب القديم ليس شرطاً للوطنية ولا للجنسية عند أحد من الأمم ولا في شيء من قوانينها. فإذا كان من الحق مطالبة القبطي بأن يكون مديراً كان من الحق أن يكون السوري الذي تجنس بالجنسية المصرية مديراً ووزيراً، فالحق إنه لا فرق

بين ابن اخنوخ أفندي فانوس، وابن يعقوب أفندي صروف، فالوطنية الحقيقية هي المساواة بين جميع العناصر التي تقيم في البلاد وتحكم بقوانينها. إلا أن يكون للطائفة الحاكمة بعض المزايا في القوانين العامة وطبيعة الحكومة.

فما يبحث فيه هنا طبيعة الحكومة المصرية ودينها الرسمي فإذا كانت لا تزال حكومة إسلامية خلافاً لما يقول بعض القبط علم أن طلب هذه الطائفة مساواة المسلمين في كل شيء في غير محله. وإذا كانت قد خرجت عن كونها إسلامية وعن كون أميرها وكيلاً لخليفة المسلمين فيجب البحث في تعيينه للقضاة الشرعيين، ولإدارته لأوقاف المسلمين، ولتعيينه للخطباء وأئمة المساجد ونحو ذلك من المسائل الشرعية. هل هي مع ذلك حقوق شرعية له أم هو لا يملكها الآن إلا بالتغلب والقوة المستمدة من القبط وغيرهم دون ولاية الشرع لأن البلاد خرجت عن كونها دار إسلام؟ يهم المسلمين جداً أن يعرفوا ذلك لأنه يترتب عليه أحكام شرعية كثيرة منها ما هو ديني محض وما هو مدني شرعي.

تسمي القبط ما تطلبه الآن مساواة بالمسلمين وهو مساواة من وجه وامتنياز عليهم من وجه آخر. فإذا كانت حكومة مصر غير إسلامية وكان المسلمون فيها لا يمتازون بشيء قط فلماذا تكون أمورهم المالية الخاصة كالمحاكم الشرعية والأوقاف والمدارس الدينية تحت سلطة الحكومة المشتركة وتكون أمور القبط المالية وأوقافها في أيديها؟ أليس يكون هذا من امتياز القبط على المسلمين؟

يغلب على ظني أن زعماء الحركة القبطية إذا فكروا في الأمر من جميع وجوهه فإنهم يفضلون السكون والسكوت على التهادي في هذا العدو والصياح إلا أن يكون الركن الشديد الذي يأوون إليه قد ضمن لهم أن يكونوا هم الرابحين بمشاققتهم للمسلمين وإثارتهم لسخطهم وتعرضهم لمقاومتهم.

لولا أنني أظن صدق الخبر الذي أوردته في الجزء الذي قبل هذا عن السياسة الإنكليزية الجديدة بمصر لغلب على ظني أن الركن الذي تأوي إليه القبط في هجمتهم هذه هي السر ألدن غورست نفسه والوزارة الإنكليزية من ورائه، أما وأنا مصدق لذلك الخبر فلا يبعد عندي أن يكون ركنهم بعض المحافظين من الإنكليز ورئيس أساقفة كنيستهم (كنتريري) وإلا كانت القبط طائفة حمقاء وما عهدتها إلا طائفة كياسة وروية، وحزم وتدبر، وستزِيل لنا الأيام، بين الحقائق والأوهام.

فإذا فازت القبط في سعيها فامتنع الإنكليز عن السماح للأمير بإنشاء المجلس النيابي وتقرر بالفعل أنه لا فرق بينهم وبين المسلمين في الحكومة، وما ذلك بمحال، فإنني أشهد للقبط بأنها أرقى طوائف الشرق الأدنى في السياسة والاجتماع وجميع مقومات الحياة الملية، لا أقرن بها تركيا ولا عربياً سورياً ولا غير سوري ولا أرمنياً بل ولا يهودياً. ويتبع هذه الشهادة أنها تكون أحق في الواقع ونفس الأمر بالحكم في البلاد، وتُعذر في التشوّف إلى الاستقلال، وتكون مصيبة في تسمية نفسها «أمة»، وحقيقة بأن تكون في المستقبل ذات دولة، ويقال إنها تطمع في ذلك فإن صح ما قيل كان برهاناً على علو همتها، وثقتها بنفسها في وحدتها.

وخلاصة القول إن طائفة القبط قامت تطلب مطالب لنفسها من حيث هي أمة ومن حيث هي صاحبة الحق في حكم البلاد، وظهر أنها فيه متكافلة متضامنة متحدة فناقشها أفراد من المسلمين بصفته الشخصية لا باسم حزب من الأحزاب ولا جمعية من الجمعيات ووافقها بعض آخر كما وافقتها الأحزاب وهي مع ذلك تنسب مناقشة الفرد إلى الحزب أو إلى الأمة. وقد استعمل بعض الكاتبين من الفريقين الهجر والسباب، والتنازع بالألقاب، فكانوا فيه سواء، إلا ما هو من صناعة البلغاء، ولكن القبط تطلب أن يعتذر لها الجميع عن الأفراد، وهي لا تعتذر للجميع عما تقول بلسان الجميع، فإذا قلنا إن الفريقين قد تعادلا في الإهانة فتساقطا فليس

لأحد حق في ذلك على آخر بقي معنا أنه ليس في البلاد وطنية حقيقية، وأنه لا يزال يغلب على الفريقين نزعة الرابطة الدينية، وإن تنصل من ذلك كل منها، وأن هذه الحركة أضعفت ما قام بعض الأحزاب والأفراد، من الدعوة إلى المساواة والاتحاد، وأن القبط أعرق في النزعة الملية، وأبعد عن حقيقة الوطنية، إذ من مقتضى الوطنية أن لا يطلبوا لأنفسهم شيئاً من حيث هم قبط، وأن لا يسمّوا أنفسهم أمة وأن لا يتعصب بعضهم لبعض في المصالح والأعمال، كما يعرف كل أحد منهم الآن، وأن يرضوا بما تختاره الحكومة من التدريج في نقل البلاد من حال إلى حال، أو يكتفوا ببث رغائبهم إلى وزيرهم الناصح لهم، الغيور عليهم، المتفاني في ترقيةهم، وهو لا يدع فرصة يتمكن فيها من إعطائهم حقاً جديداً إلا ويستهزها انتهازاً، ويجعلها سيفاً في يده لا عكازاً.

وإذا كان الأمر كذلك في الوطنية، وفي هذه الحركة القبطية، فما هو تأثيره في رغبة المسلمين وهي المجلس النيابي وفي رغبة القبط وهي نيل ما بقي من أعمال الحكومة بين الوزارة والقضاء كالمديرية ومأمورية المركز؟

أما الأول، فمن الجلي الواضح أن ضعف الوطنية لا يقتضي أن تبقى حكومة البلاد استبدادية، لأن حكومة الشورى أبعد من الحكومة الشخصية المطلقة عن الظلم غالباً، ولذلك فرح مسلمو روسيا بإنشاء مجلس النواب، الدوما، في حكومتهم على قلتهم في جانب الروس المشهورين بالتعصب. على أنه إذا فرض أن الحكومة الشخصية المطلقة خير للقط من جهة التمتع بالوظائف فإن ذلك الحظ الذي يصيب أفراداً من فئة قليلة في الأمة الكبيرة لا يصلح مرجحاً لعدم ترقية حكومتها لأن ذلك ترجيح للأفراد القلائل على الجمهور الكبير فهو من قبيل ترجيح المصلحة الخاصة على المصلحة العامة.

وأما الثاني، فإذا فرضنا أن حكومة مصر خرجت عن كونها إسلامية والبلاد عن كونها دار إسلام، فمن السياسة والحكمة في الإدارة أن لا

يكون القبطي الآن مديراً في مديرية فيها مئات الألوف من المسلمين وليس فيها إلا آحاد الألوف أو المئين من القبط، وأن ينتظر في ذلك تكوّن الوطنية الحقيقية، التي تبرز فيها جميع العناصر المصرية، فلا ينزع أحد منها إلى الامتياز بجنسه ونسبه، ولا بدينه ومذهبه، فإن استعجلنا فجعلنا القبط مديرين لأمر المسلمين، والحال على ما نعلم منهما، أو ما يدعي كل منهما، فإننا نكون قد أثّرنا العدوان، وأرّثنا الأضغان، ووضعنا في طريق الوطنية سداً لا يدك ولا يُظْهَر، وعقبة لا تزول ولا تقتحم، أو قدمنا النتيجة على المقدمات، وطلبنا الثمرة، قبل خروج الشجرة.

فالمعقول إذًا، أن تكون حركة القبط الجديدة مبعدة لهم عن مطلبهم الظاهر، ولكن ربما لا تكون مبعدة عن غرضهم الباطن، والله أعلم بالسرائر، وإنما نحن نحكم بالظواهر، وهذا ما رآه الكاتب فيه من الصواب، فإن تبين له أنه مخطيء فيه بادر إلى المتاب، واستغفر ربه وخرّ راکعاً وأناب.



٦٧

عيد الأمة العثمانية،

بنعمة الدستور والحرية

الجمعة

٢٥ جمادى الآخرة ١١ تموز «٢٤ يوليو»

[المنارج ١١ (١٩٠٨) ص ٤١٧ - ٤٢٣]

في هذا اليوم السعيد استعاد العثمانيون قانونهم الأساسي ومجلس الأمة الذي يكفله، استعادوهما بسعي الأحرار، وتعزيز الجيش الجرار، فهو عيد الأمة العثمانية على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها.

في هذا اليوم استنشق العثمانيون نسيم الحياة السياسية الاجتماعية، وذاقوا حلاوة طعم الحرية، فكان مثلهم كالمصاب بداء عضال عادت عليه صحته على حين فجأة فكان قدر الحياة عنده عظيماً.

في هذا اليوم شعر العثمانيون كلهم بأنهم أحرار في بلادهم، يتمتعون بما وهبهم الله من القوى العقلية والمشاعر والأعضاء، ويستعملون استعدادهم الفطري فيما خلق له من العلم والعمل، لا يستبد في عملهم مستبد جائر، ولا يستعبدهم حاكم قاهر، فكان رجاؤهم في الارتقاء كبيراً.

في هذا اليوم أمن العثمانيون على حياتهم وشرفهم وأموالهم من حرث ونسل وتجارة وصناعة، فتوجهت نفوسهم إلى الكسب الذي يرفه معيشتهم، وبه تنمو ثروتهم وتنظم مالية دولتهم.

في هذا اليوم أحسَّ العثمانيون بأنهم أمة لهم حقوق على دولتهم، ومصالح يقوم عليها بناء وحدتهم، وعليهم فروض وواجبات يؤدونها لحكومتهم، ولهم قانون يساوي بينهم في معاملاتهم، وأن لهم بذلك كله جنسية جامعة لهم على اختلاف أنسابهم ولغاتهم، وتباين مذاهبهم ودياناتهم.

في هذا اليوم وجد العثمانيون عاطفة الإخاء والوداد، وجاذبة الولاء والاتحاد، فصافح المسلم النصراني، وصالح الكردي الأرمني، وعانق التركي العربي، بل امتزجت العناصر كلها في بوتقة القانون الأساسي فكانت كسبيكة واحدة من الذهب لا زغل فيها ولا صدأ عليها.

في هذا اليوم استراح العثمانيون من ثقل وطأة الجواسيس، وأمنوا شرور عمال السعاية والتلبيس، وعلموا أنه لا يخشى عليهم إلا من سوء أعمالهم، ولا يظلمون إلا من قبل أنفسهم.

في هذا اليوم نفّض العثمانيون غبار الذل عن رؤوسهم، وألقوا أوزار

المسكنة عن كواهلهم، وطرّدوا غول الفقر الذي نزل في ربوعهم، وهزموا جند اليأس الذي حل بين ضلوعهم، وهبت عليهم نفحات الرجاء ببقاء شوكة دولتهم نافذة قوية، وارتقاء بلادهم في معارج العلم والمدنية.

في هذا اليوم أنشأ العثمانيون المشتتون في أطراف البلاد، والهائمون من الخوف والاضطهاد في كل واد، يحنون إلى بلادهم التي هي خير بقاء الأرض تربة وأطيبها هواء، وأعذبها ماء، ويشتاقون إلى أهلها الذين هم أطيب الناس عنصراً، وأكرمهم جوهرأ، وأشدّهم مودة وعطفأ، وأسخاهم نفسأ وكفأ، وسيعودون إليها زرافات ووحدانأ، رجالأ أو ركبانأ، وكانوا قد زهدوا فيها كارهين، وهجروا أهلها مكرهين.

في هذا اليوم تستعد السجون المظلمة، والصحاري المقفرة، والجزائر المنفردة، لرد ما أودع فيها من الأحرار الأخيار، الذين حاربوا الظلم، وواثبوا الاستبداد، ونشدوا القانون والحرية، ودعوا إلى العدل والمدنية، فمزقت الحكومة الشخصية المطلقة شملهم ونكلت بهم تنكيلاً.

في هذا اليوم يخفق قلب المملكة العثمانية شوقأ إلى لقاء أبنائها الأحرار الأبرار الذين طوّحت بهم السياسة فأبعدتهم عن أمتهم، في أشد أوقاتها حاجة إلى خدمتهم، وترجو أن يشتد بعودتهم إليها أزرها، ويستقيم أمرها، حتى تفاخر أعظم البلاد مدنية وعمرانأ.

في هذا اليوم تبتسم ثغور البلاد العثمانية وتهلل وجه بُردها بقاء كتب العلم النافعة، وصحف الأفكار المنيرة، والأخبار الصحيحة، التي كان الاستبداد قد قضى عليها بأن تستقبلها عابسة باسرة، ثم تجعلها وقودأ للنار، وبئس القرار.

في هذا اليوم أنشأت أفكار العثمانيين تجول في ميادين الأعمال الأدبية، والمصالح السياسية والمالية، والآمال ملء قلوبهم، والرجاء ينير السبل أمامهم.

في هذا اليوم تنحلَّ عُقْلُ الأقلام، فتجري على صفحات المهارق، وتنجلي سحب العقول والأفهام، فتشرق شمسها على عالم الحقائق، وينكسر قفص الفكر والخيال، فتغرد طيورهما في فضاء الرقائق، فيتبارى العقلاء المستقلون، والكتاب المنشئون، والشعراء المبدعون، وكلُّ في فلك الحرية يسبحون.

في هذا اليوم تقرر في البلاد العثمانية عين الإسلام، بما يسرُّ به جميع أهل الأديان، من الحرية التي تظهر فيها الحجة وتدحض الشبهة، ويتميز بها صاحب السنّة من صاحب البدعة، ويكون كله الدين لله، لا للسلطة ولا للجاه، فبالحرية تنكشف الحقائق، ويُزِيلُ بين الصادق والمنافق، ويقذف بالحق على الباطل فإذا هو زاهق.

الفضل في هذه المزايا الكثيرة التي نلناها في هذا اليوم لجمعيةاتنا السياسية العاملة، ولضباطنا ذوي النباهة والغيرة والحمية والبسالة، الذين اتحدوا مع إخوانهم السياسيين، وأنذروا الاستبداد بالوثبان عليه، والقضاء على سلطته بقوة السلاح، إذا لم تنل الأمة مطلبها مع حفظ الأرواح.

فالواجب على هذه الجمعيات المدبرة، والقوة المنفذة، أن تكفل الدستور الذي نالته الأمة، حتى تأمن عليه من دسائس أعوان الاستبداد، الذين قاموا بتنظيم حكومة الجواسيس أعظم قيام، وأول عمل يجب عليها هو السعي لإبعاد أعوان الاستبداد عن دار السلطنة، لا عن دار السلطان فقط، ومحكمة من يمكن أن يسترد منهم العدل، ما وهبهم الجور والظلم، وتشكيل وزارة حرة تقوم بأعباء السلطنة، وتتقي الولاة والمتصرفين والقضاة ورؤساء العدلية من أخيار الأحرار، الذين يرجى أن تصلح بهم الإدارة ويستقيم القضاء، ويحفظ الأمن ويستقر العدل، لتندفع الأمة إلى الأعمال النافعة في ظل الحرية الظليل. ثم العناية بأمر انتخاب نواب الأمة بانتداب عقلاء الأحرار في كل ولاية إلى تنبيه أهلها لخيار رجالهم المعروفين بالاستقامة والاستقلال والحرية.

إذا نحن كفيينا شر المستبدين الأولين، ونلنا وزارة من الأحرار المستقلين، فالواجب علينا أن نقف عند هذا الحد من المطالب في العاصمة، وتعود السيوف إلى أغمادها، وتنصرف الضباط إلى سابق شأنها، مع إحكام الروابط الخفية، بينها وبين الجمعيات السياسية، ويتوجه الأحرار إلى إصلاح حال المملكة، بجميع الوسائل الممكنة.

والحذر الحذر، من عواقب نشوة الظفر، الحذر الحذر من إهانة شخص السلطان، والتسلى إلى عرشه بالبغي والعدوان، فما دام السلطان مستوياً على عرشه فهو رئيس الأمة ومرجع سلطتها، ومنفذ قوانينها وشريعتها، والوزارة هي الوساطة بينها وبينه، فاعتداء الرؤوس على الرئيس بإدلال القوة، دون القانون والشريعة، مجلبة للفوضى ومدعاة للخلل، ويخشى في مثل الحال التي نحن فيها أن يفضي إلى الخطر.

أيّ الأمرين خير؟ أن يعتقد السلطان أن ما صار إليه، خير مما كان عليه، أم العكس؟ أن يرى أن أولئك الذين كانوا يذلونه بغرور، ويمدونه في تلك الوساس والأمر، قد أخلصوا النصح له، وحفظوا شخصه وسلطته، أم أن يراهم قد خدعوه وغشوه، واستغلوا ما رأوه من الضعف البشريّ فيه، فبغضوا إليه أمته الكريمة، وزينوا له محاربة حريتها بما أوتيها من الذكاء والعزيمة، وحببوا إليه التجسس والاستبداد، وقبحوا في نظره الهدى والرشاد؟

إذاً كان من المعقول أن السلطان يحب السلطة المطلقة ويؤثرها، فليس من المعقول أن يريد السلطان بالدولة أو الأمة سوء ويكره لها الخير. وكل ما جرى من سوء في تلك السنين النحسات فإن أسبابه وعلله ترجع إلى أمر واحد وهو خوف السلطان على نفسه وعلى منصبه من أحرار أمته، وتبع ذلك اعتقاده أن أولئك الأشرار الذين اصطفاهم هم حماة والمخلصون له، وهم غير مخلصين إلاً لبطونهم ملأها الله ناراً، فإذا رأى اليوم نجباء الأحرار محيطين به من كل جانب، وقابضين على زمام السلطة والقوة، ولم

ير منهم إلا الأدب والكمال، والعمل بالإخلاص، ألا يقول في نفسه: إذا كانت هذه سيرة هؤلاء معي بعد أن نكلت بهم تنكيلاً، ومزقتهم في الأرض كل ممزق، فليت شعري كيف كانوا يكونون معي لو سرت معهم من أول الأمر على الدستور؟ وكيف كان تقدم المملكة الآن؟

إن الحكومة الجديدة لا تستغني عن تجارب هذا السلطان، وعن ذكائه الذي تضرب به الأمثال، وعن براعته في حل المشاكل السياسية، لا سيما في السياسة الخارجية، وليس بينها وبين الاستفادة منه، إلا أن يأمن هو لها وتخلص هي له.

إن أفضل ما نفاخر به الآن هو أننا نلنا الدستور من غير إراقة للدماء، ولا إيقاع البلاد في فوضى الثورة، ولا غير ذلك ما يذم ويكره، فيجب أن نحافظ على هذه الفضيلة، وأن لا نرتكب في طلب الفرع، ما عصمنا الله منه في طلب الأصل، فعسى أن يكون تاريخنا في هذا الطور من الحياة أنظف من تواريخ جيراننا فيه.

إذا نحن اقتحمنا عقبة هذا الانقلاب بهدوء وسكينة، فإن رجاءنا في اقتحام ما وراءها من العقبات يكون أقوى، وأملنا في مجلس الأمة يكون أعظم.

نعم، إن أماننا عقبات كثيرة منها، ما يُتوقع من مقاومة بعض الحكام الظالمين للحرية الجميلة التي يرقص لها طلاب الدستور طرباً، ويهيمنون بها شغفاً، ومنها ما هو أقرب إلى الوقوع كالنزاع بين الأحرار المستقلين، وبين المتعصبين والمقلدين، ومنها مسألة تكوّن الجنسية العثمانية، وما يقف في طريقها من جنسيات الشعوب التي يتألف منها جسم الدولة العلية، فمن المطالب بالنظر في ذلك؟

وإن أماننا من مشكلات المسائل الأدبية ما يلي المسائل السياسية في استرعاء هممتنا، واستدعاء عنايتنا، فإن الحرية التي فاجأت بلادنا، ستعقب

بأخلاقنا وآدابنا، وتحدث شيئاً من التفرق بين جميعاتنا وأفرادنا، فمن يجني ورد الحرية لا بد له من توطين النفس لوخر شوكرها، ومن يشتار عسلها، لا مندوحة له عن التعرض لإبر نحلها، فمن المطالب بتلافي ذلك ليعظم النفع ويقل الضرر؟

هذا ولا تنس المسائل الاقتصادية، فإن الحرية ما حلت في بلاد كبلادنا خصبة التربة جيدة الانبات، غنية بالمعادن والغابات، قابلة لرواج التجارة وللصناعات، إلّا وتدفتت عليها أموال أوروبا لأجل استثمارها فيها، وهناك من أبواب الرجاء للبلاد والخوف عليها ما لا يفطن له الآن في الأمة إلا أفراد من الناس. فمن المطالب بتنبيه الأمة إلى طرق الثروة الطبيعية مع حفظ رقبة بلادها، والحذر من قضاء الديون الأجنبية عليها.

أليس المطالبون بكل ما سألنا عنه هم أهل العلم والرأي من الأحرار الذين يعرفون كيف يسعد البشر بالحرية ويتمتعون بشاهاها، ويستضيئون بأنوارها مع الأمن من نارها،؟ أليس هم المرجوون لتوحيد الجنسية، وحفظ الآداب القومية، والمقومات المالية، وتأليف الشركات الأهلية، وإنشاء الجرائد الوطنية، للسير بالأمة إلى ما فيه خيرها بالعلم والعمل؟ بلى، إنهم لهم المطالبون بكل شيء، فلا ينبغي أن تشغلهم المسائل السياسية عن كل شيء.

يتساءل بعض الناس بينهم هل الدستور العثماني في هذه الكرة مكفول مضمون؟ هل السلطان مقتنع بأن تنفيذه خير من تعطيله؟ هل طالب أولئك الضباط به لمحض المصلحة العامة، أم لهم أغراض شخصية يسعون إليها، فتبرد نيران حميتهم إذا هم نالوها، ألا يخشى أن يتفرق شملهم بعد أن يسكن الاضطراب، ثم يحال بينهم وبين إمكان التألب مرة أخرى، فتأمن السلطة العليا من المعارضة بالقوة إذا هي ألغت الدستور مرة أخرى؟

نسمع هذا الكلام وأمثاله من بعض العثمانيين الناطقين بالعربية بل نسمع من بعضهم ما هو أدل على سوء الظن باستعدادنا الحاضر ومستقبلنا الآتي، نسمع منهم أن السلطان يقدر متى شاء أن يلغي الدستور كما ألغاه أول مرة، ويمنع الحرية وإن كان لم يمنحها الآن مريداً مختاراً راضياً، ولكننا لا نسمع مثل هذه الأقوال من الناطقين بالتركية وإن لم يكونوا تركاً. ذلك بأن هؤلاء أعلم بحال مجموع الأمة والدولة وبما وصلت إليه من الاستعداد الذي هو في الترك أقوى منه في سائر الشعوب العثمانية.

يظن بعض أهل الدث والرجم أن جميعات الأحرار العثمانية قد عن لها في هذه الأيام أن تستخدم استياء بعض الضباط المتبرمين من سوء حالهم، وارتقاء من دونهم عليهم، ففعلت فنجحت، فما عند الضباط من نزعة الحرية والدستور، عرض ربما يزول، لست أيها الظان بالضباط ظنّ السوء بالغيدار (الذي يظن السوء فيصيب) فاعلم أن ضباطنا من أركان جمعياتنا السرية منذ وجدت والسلطان يعلم هذا عين اليقين ولهذا كان منهم الجُمُ الغفير من المنفيين والمسجونين واللاجئين إلى بلاد الحرية (أوروبا ومصر) وما كان السلطان كارهاً لمحاربة اليونان ومجتهداً في منعها إلا خوفاً من عاقبة اجتماع كثير من الضباط في كتائبهم وتوابيرهم المستعدة للحرب على مقربة من الأستانة.

أبشروا أيها المتطيرون، فإن الأمر على غير ما تظنون، إن الأمة مستعدة لما نالت وإن كان الاستعداد في الأناضول أضعف من الاستعداد في الروملي، وفي الولايات العربية، دون الولايات التركية، والسبب في هذا ظاهر جلي.

الفرق بين الماضي والحاضر كالفرق بين الليل والنهار، أو الظلمة والنور، أو الظل والحرور، أو الحق والباطل، أو العلم والجهل، أو القوة والضعف.

أرأيت مسلمي الأناضول الذين هم أشد من فلاحى روسيا تقديساً للسلطة والسلطان، الذين حدثني عنهم محمود باشا داماد، رحمه الله، أنهم يعتقدون أن خلق السلطان مخالف لخلق سائر البشر، لحيته خضراء ووجهه يتدفق بالنور. إن هؤلاء الأغرار السذج قد استعدوا للثورة وقد ظهرت في بعض بلادهم بوادرها فكانت حكومة الجواسيس الساقطة تحشد في بعض بلادهم الجند والناس يظنون أنها تحشده استعداداً لمحاربة الروسية، ولولا الاعتماد على الضباط لأشعل الأحرار نار الثورة الأهلية في الأمة، فكان عملهم عمل اليأس يرجى خيره، ولا يؤمن شره، فللضباط الشكر والثناء الحسن، بما كفوها عاقبة تلك الفتن.

الحق أقول إنه لا يخشى علينا من سلب الحرية، وإنما يخشى علينا من سوء استعمال الحرية، ومن الجهل بطرق المحافظة على الحرية، يخشى أن تدفع الحمية بعض الأحرار الظافرين، إلى مثل أعمال المستبدين، وأن تهبط العبودية الموروثة بكثير من الجاهلين، إلى أن يكونوا عوناً على أنفسهم للحكام الظالمين، يخشى أن تكون الحرية متاعاً للسفهاء، يتسلقون بها مراتب العقلاء الفضلاء، إذا جرى أولئك وجبن هؤلاء، كما جرى في بعض الأنحاء، يخشى علينا مما سبقت إليه الإشارة من المشاكل السياسية والاجتماعية، والفوضى العلمية والأدبية، والغوائل الاقتصادية، وإنما الاعتماد في مقاومة كل ما يخشى، ونيل كل ما يرجى، على توفيق الله لأهل الروية والاعتدال، الذين يقومون بنشر العلوم وجلائل الأعمال، كثر الله فينا من أمثالهم، ونفع الأمة بعلومهم وأعمالهم.

أركان النهضة الحديثة



الشيخ ناصيف اليازجي

١٨٧١ - ١٨٠٠



الشيخ أحمد فارس الشدياق
١٨٨٨ - ١٨٠٤



بطرس البستاني

١٨٨٣ - ١٨١٩



رفاعة الطهطاوي

١٨٧٣ - ١٨٠١



السيد جمال الدين الافغاني
١٨٩٧ - ١٨٣٨



الشيخ محمد عبده

١٨٤٩ - ١٩٠٥



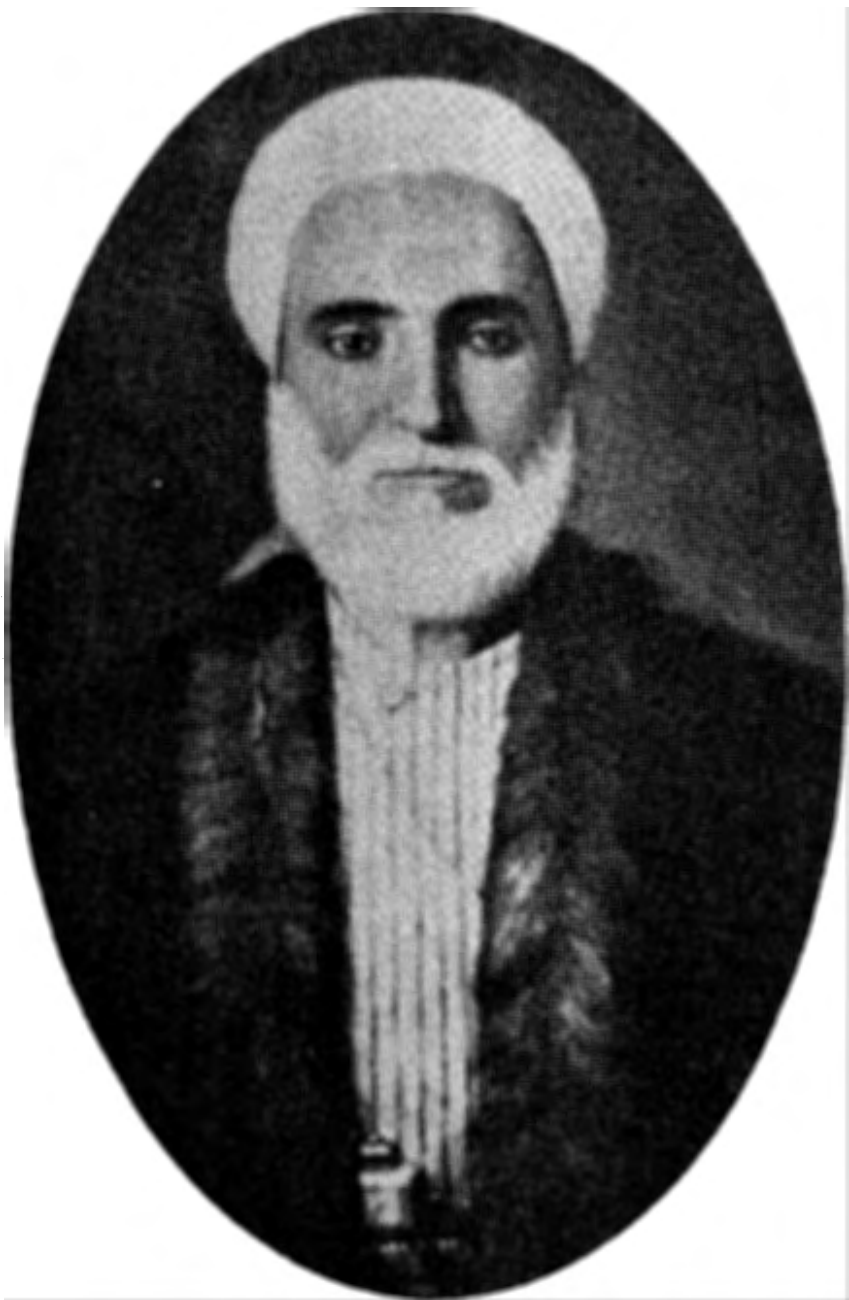
الدكتور يعقوب صروف

١٩٢٧ - ١٨٥٢



الدكتور فارس نمر

١٨٥٦ - ١٩٥١



الشيخ يوسف الأسير

١٨٨٩ - ١٨١٧



سليمان البستاني
١٨٥٦ - ١٩٢٥



السيد عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ - ١٩٠٢



بشارة تقلا

١٨٥٢ - ١٩٠١



السيد عبد القادر المغربي

١٨٦٧ - ١٩٥٦



الشيخ إبراهيم اليازجي
١٨٤٧ - ١٩٠٦



السيد عبد القادر القباني

١٨٤٨ - ١٩٣٥



جرجي زيدان

١٩١٤ - ١٨٦١



أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيد أحلامه، حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماءً أو موتاً زوأمًا.
تنبه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض، ودخل الإنسان في طور آخر خضع له به العالم الكبير.





انتقاد إسماعيل غصبرنسكي



رقصة صوفيه



ضباط الانكشارية



مقاتل انكشاري

